الحياة التي نريد



حديث عن الإنسان بكل ضعفه وقوته، عن الأيام التي تَثقُل علينا، وعن تلك التي نشعر فيها أننا قادرون على مواجهة العالم بأسره.

أسامة عبد العظيم

الحياة التي نريد

هـل تنسـجم الحيـاة التـي نعيشـها مـع تلـك التـي رسـمناها فـي أحلامنـا؟ وهـل نسـتطيع أن نحقـق الحيـاة التـي نرجوهـا أم أننـا ضائعـون فـي متاهـة الواقـع؟ هـذا الكتـاب هـو محاولـة لإيجـاد الإجابـة.

الطبعة: الأولى
المؤلف: أسامة عبد العظيم عبد الحليم إبراهيم
تصنيف الكتاب : تنمية بشرية
رقم الإيداع : ٥٢٣ / ١٤٤٧هـ
الترقيم الدولي : ٣ - ٧٧٥٨ - ٠٥ - ٦٠٣- ٩٧٨

هـذا الكتـاب لا تقيّـده حقـوق، ولا تُحـاصَر معانيـه بنصـوص قانونيـة، بـل هـو هبـةٌ لمـن شـاء أن ينتفـع، وعطـاءٌ مفتـوحٌ لـكل مـن التمـس فيـه نـورًا أو فكـرًة أو عـزاءً، فليُنسـخ، وليُنقـل، وليُعـاد نـشره، كيفـما شـاء قارئـه، وبـأي وسـيلة يـرى فيهـا منفعـة أو أثـرًا.

إن الكلمـة إذا خرجـت مـن القلـب، فـلا ينبغـي أن تُحبـس عـن القلـوب، وإن الرسـالة إذا وُلـدت صادقـة، فمكانهـا حيـث يُحسـن النـاس قراءتهـا، لا حيـث تُقيَّـد ببنـودٍ واحتـكار.

اللهـم اجعلهـا كلـمات لا تضـلّ طريقهـا، وبلّـغ بهـا قلوبًـا لم نرهـا، وامنـح مـن سـعى بهـا أجـرًا لا ينقطـع، ونيـةً لا تخيـب.

إهداء

إلى الذيـن وجـدوا في الكلـمات صوتًـا لمـا عجـزوا عـن قولـه، الذيـن اختبـأت أصواتهـم خلـف الصمـت؛ فالتمسـوا في النصـوص صـدىً لمشـاعرهم، ووجـدوا بـين السـطور أنفسـهم التـي لم يسـتطع أحـد قراءتهـا، لسـتم بمفردكـم، فكلنـا نبحـث بـين السـطور عـن أنفسـنا، عـن كلـمات لم نكتبهـا لكنهـا كُتبـت عنـا، عـن نصـوص تترجـم مـا تعجـز قلوبنـا عـن شرحـه، فنجـد فيهـا مـا لم نجـده في أحـد، فالكلمـة إذا سـكنت قلـوب مَـن يشـبهونك أدركـت غايتهـا.

المقدمة

هـل مـا نحيـاه اليـوم هـو امتـدادٌ لمـا تمنّيناه بالأمـس؟ أم أننـا نخطـو في دروب لم نختـر ملامحهـا، تسـوقنا الظـروف وتُملي علينـا الحيـاة أدوارًا لم نحلـم يومًـا أن نؤديهـا؟ أيـن تقـف أحلامنـا في واقـع مزدحـم بالتنـازلات؟ وهـل مـا زال بإمكاننـا أن نعيـد ترتيـب الطريـق نحـو الحيـاة التـي نرجوهـا، أم أننـا غرقـى في دوامـة التكيـف والتأقلـم، نكتـم نبـض أرواحنـا كـي لا تنفلـت ملامحنـا أمـام أعـينٍ لا تُـدرك مـا بداخلنـا؟

مـا أكثـر الأسـئلة التـي تعـبُر خواطرنـا كالريـاح، تقلـق سـكوننا، وتفتـح أبوابًـا لم نـرد دخولهـا، تسـاؤلات لا نبـوح بهـا، لأنهـا أكـبر مـن أن تُقـال، وأثقـل مـن أن تُحتمـل، فنُنـاجي بهـا أنفسـنا في الليـالي الموحشـة، ثـم نُسـدل عليهـا سـتار الصمـت إذا أعيتنـا الإجابـة، وحـين لا نجـد سـبيلًا للفهـم، أو تفسـيرًا لمـا يجـري، نُسـلم الـرأس إلى الوسـادة وكأننـا نوقّـع صلحًـا مؤقتًـا مـع الحـيرة، ونهمـس في داخلنـا: ليكـن مـا يكـون فالحيـاة تمـضي، ومـا نحـن فيهـا إلا مسـافرون في قطـار لـن يتوقـف لأجـل ارتباكنـا.

هـي أيـام، نعـم، ولكنهـا ليسـت سُـدى، هـي امتحانـات متلاحقـة في هيئـة مواقـف، وتكليفـات متواريـة خلـف العلاقـات، ورسـائل مكتوبـة بخـط القـدر، لا تُقـرأ إلا في صمـت التأمـل. ومـا بـين سـؤالٍ لا نملـك جوابـه، وجـوابٍ لا نملـك شـجاعته، نكـبر، نُحيـي وعينـا، ونلتمـس نـورًا لا يـأتي دفعـةً واحـدة، بـل كخيـط فجـرٍ يتسـلل بعـد ليـلٍ طويـل، فـلا تيـأس مـن كثـرة التسـاؤلات، ولا تظـن أن العجـز عـن الفهـم ضعـف، إنـما هـو جـزء مـن الرحلـة؛ لأن بعـض الإجابـات لا تُمنـح، بـل تُعلَّـم بالتجربـة.

هـذا الكتـاب ليـس محاولـة لـشرح الحيـاة كـما يجـب أن تكـون، ولا هـو وعـظٌ يُلقـي بالحكـم مـن علٍ، بـل هـو صـوتٌ خـرج مـن عمـق التجربـة، ومـن نـزف الأسـئلة التـي ظلّـت تنهـش الداخـل زمنًـا، حتـى جـاء الجـواب في صـورة وعـي لا يعلـو صوتـه، لكنـه يرسـخ في القلـب، لا يدّعـي كـمالًا، ولا يقـدم خارطـةً حاسـمةً لـكل مـا قـد يُربـكك، لكنـه يُشـبه مـرآة صافيـة، كلـما نظـرتَ فيهـا بانتبـاه، رأيـت في عينيـك مـا لم تكـن تـراه مـن قبـل، نحـاول فيـه أن نزيـل الغشـاوة عـن أعـين الحقيقـة، أن نكشـف زيـف الصـورة التـي فُـرض علينـا العيـش داخلهـا، ونعـود إلى بسـاطة الأسـئلة الأولى: مـن نحـن؟ ومـاذا نريـد؟ وأي حيـاة تسـتحق أن نمنحهـا أعمارنـا؟

إنـه محاولـة لأن نمسـك بكلمـة «الطمأنينـة» ونُعيدهـا إلى موضعهـا الصحيـح: إلى يقيننـا، لا إلى الظـروف، أن نعيـد تعريـف القـوّة بأنهـا القـدرة عـلى النهـوض لا عـلى الانتصـار فحسـب، وعـلى أن نسـتمر في السـير ـ ولـو بنصـف قلـب ـ لا أن نتفـوّق دائـما، وعـلى أن نحمـي أرواحنـا مـن التـلاشي وسـط جَلَبـة الأصـوات، وكثـرة الآراء، ومقاييـس النجـاح المسـتعارة مـن غيرنـا، نعـم قـد لا نملـك أن نرسـم كل تفاصيـل الطريـق، لكننـا نملـك أن نختـار كيـف نمـضي فيـه، وقـد لا نُعطَـى فرصـة البدايـة مـن جديـد، لكننـا نُمنـح دومًـا قـدرة إعـادة النظـر، والتقـاط مـا تبعثـر منـا في مفـارق الزمـن، وهـذا ليـس وعـدًا بالنجـاة، لكنـه نافـذة للتأمـل، ومحاولـة جـادة للبحـث عـن خيـط النـور داخـل ركام الواقـع، عـن ملامـح الـذات وسـط الضوضـاء، عـن إجابـة شـافية لسـؤالٍ طالمـا راودنـا: هـل نملـك أن نعيـش كـما نريـد، أم أن الحيـاة تفـرض علينـا أن نكـون كـما تريـد؟

هـذا الكتـاب لا يحمـل وصفـة سـحرية ولا يدّعـي امتـلاك الحقيقـة، لكنـه يحمـل صـوت الذيـن تاهـوا ثـم وجـدوا أنفسـهم مـن جديـد، الذيـن تصالحـوا مـع ندوبهـم وواصلـوا السـير، الذيـن أيقنـوا أن الكـمال ليـس شرطًـا للحيـاة الطيبـة، وأن الوعـي بـالألم قـد يكـون أول خطـوة نحـو النجـاة، فهـو حديـث عـن الإنسـان بـكل ضعفـه وقوتـه، عـن الأيـام التـي تَثقُـل علينـا، وعـن تلـك التـي نشـعر فيهـا أننـا قـادرون عـلى مواجهـة العـالم بـأسره.

إنــه رحلــة تأمــل في الإنســان، في اختياراتــه، في خوفــه وشــجاعته، في هزائمــه التــي قــد تكـون أبـواب انتصـاره، فليسـت الغايـة أن نعيـش حيـاةً تشـبه غيرنـا، بـل أن نعيـش حيـاة تُشـبهنا، فـما الحيـاة إلا رحلـةٌ طويلـة نمـضي في طرقهـا ـ ربـما مكرهـين ـ تكتبنـا بمـداد التجربـة، وتُوقّـع عـلى صفحـات أرواحنـا بأقـلام القـدر، نـأتي إليهـا حاملـين بـراءة البدايـات، وشـيئًا مـن الحلـم، ثـم لا نلبـث أن نغمـس أقدامنـا في طـين الواقـع، فإمّـا أن نغـرق فيـه، أو نرتفـع فوقـه بـما نكتسـبه مـن بصـيرةٍ، وشـجاعةٍ، ويقظـة قلـب.

إنـه محاولـة للاقـتراب مـن الصراعـات التـي نخوضهـا كل يـوم بـين مـا نحـن عليـه ومـا نطمـح أن نكـون، بـين السـقوط والنهـوض، وبـين الضعـف والقـوة التـي نظـن أننـا لا نملكهـا حتـى نُجـبر عـلى اسـتدعائها. سـتقرأ هنـا عـن أولئـك الذيـن أخطـأوا لكنهـم لم يُحاكمِـوا خطأهـم كأنهـم لم يصيبـوا يومًـا، عـن الذيـن يحملـون قلوبًـا كبـيرة لكنهـم أرهقوهـا بظنهـم أن عليهـا حمـل العـالم وحدهـا، عـن الذيـن حسـبوا أن الغيـاب يعنـي

النسـيان، ثـم أدركـوا أن بعـض الغيـاب يُرسِّـخ الحضـور أكثـر مـن أي وجـود، عـن الذيـن خـسروا في الظاهـر لكنهـم وجـدوا في خسـارتِهم حرِيتهـم، عـن الشـجاعة التـي ليسـت في انعـدام الخـوف بـل في المـضي رغـم وجـوده، عـن الذيـن لم يُعرَفـوا بالصـبر لأنهـم لم يتألمـوا بـل، لأنهـم تحملـوا الألم دون أن يفقـدوا بوصلتهـم، وعـن الطريـق الـذي لـن يكـون سـهلًا، لكنـه سـيكون دائـمًا جديـرًا بالسـير فيـه.

إننـا هنـا نمـرّ عـلى دروبٍ مـن الألم الـذي ربّـى، والفقـد الـذي شـكّل، والخـوف الـذي تعلّمنـا معـه كيـف نُمسـك بيـد الأمـل ولـو بأطـراف أصابعنـا، نكتـب عـن العلاقـات لا كـما تُقـدَّم في الكتـب، بـل كـما نعرفهـا في واقـع يمتحـن النوايـا، ويكـسر الصـورة، ويعيـد تشـكيلها عـلى ضـوء الخيبـة، والتجـاوز، والعفـو، نكتـب عـن التأخـر الـذي ظننّـاه تأخُّـرًا، فـإذا هـو تمهيـد، وعـن الدعـوات التي حسـبناها ضاعـت في الغيـم، فـإذا بهـا تهطـل وقـت الحاجـة، لا وقـت الطلـب.

كتبـتُ هـذا الكتـاب وأنـا أعلـم أن في صـدور النـاس كثـيرًا مـن الـكلام الـذي لم يُقـل، ومـن الوجـع الـذي لا يُشـارَك، ومـن الأمنيـات التـي تعفّنـت في زوايـا القلـب مـن فـرط التأجيـل، كتبتُـه؛ لأننـي أدركـت أن الصمـت لا يشـفي، وأن الحـبر أحيانًـا يُنقـذ، ولأننـا نحتـاج دائـمًا مـن يقـول لنـا: «لقـد مـررتُ بـما تمـرّ بـه، ونجـوت، وأنـت سـتنجو أيضًـا، لكـن بطريقتـك أنـت». فهـاك صفحـات هـذا الكتـاب افتحهـا بقلبـك، لا بعينيـك فحسـب، واقرأهـا وكأنـك تُحـدّث نفسـك بعـد عمـرٍ مـن الإنصـات للآخريـن، فـإن لامسـتك فكـرة، أو حرّكتـك جملـة، أو ربَتَـتْ عـلى جـرحٍ في داخلـك كلمـة، فتلـك هـي الغايـة ، وكل مـا عداهـا ظـلٌّ مـن التفاصيـل.

وربـما تجـد نفسـك بـين السـطور لا لأننـي أكتـب عنـك، بـل لأن التجربـة الإنسـانية ـ رغـم اختـلاف تفاصيلهـا ـ تتشـابه في جوهرهـا، وربـما يفتـح هـذا الكتـاب في ذهنـك نوافـذ عـلى أفـكار لم تطرقهـا مـن قبـل، فعندمـا تقـرأ شـيئًا يلامـس أعماقـك، تشـعر وكأنـه مـرآة تعكـس حـوارًا خفيًـا يـدور في داخلـك، أو صوتًـا خافتًـا يوقـظ ذكرياتـك، أو عتابًـا هادئًـا ينبعـث مـن قلبـك؛ ليذكّـرك بأمـور حاولـت تناسـيها، وكأن الكلـمات لم تكـن مكتوبـة بمـداد القلـم، بـل بنبـض مشـاعرك، تخاطبـك بلغـة لا يسـمعها سـواك، فتوقـظ مـا ظننتـه خامـدًا، أو تضـع يدهـا عـلى جـرح حسـبته قـد اندمـل.

في هـذا الكتـاب، لـن تقـرأ فصـولًا بـاردةً عـن الحيـاة، بـل سـتدخل إلى دهاليزهـا الصغيرة، إلى اللحظـات التـي لم يُصفِّـق لـك فيهـا أحـد، وإلى الأمنيـات التـي مـا زالـت تقـف خلـف البـاب، تنتظـر أن تُسـمّى.

هنـا، لا أحـد يتحـدّث مـن عـلٍ، بـل تُحكـى القصـص مـن قلـب السـفح، مـن التجـارب التـي لم تُكتـب في السّـير، لكنهـا كُتبـت في النفـوس، سـتجد نفسـك أمـام أسـئلة مألوفـة لم تجـرؤ عـلى صياغتهـا مـن قبـل:

لماذا تأخّر الخير؟

أين يمضي الذين لا يتكلمون؟

هل كل من وصل إلى القمة وُلد مختلفًا؟

هل فات الأوان على الاعتراف؟

هل ما لم يكتمل كان لحكمة، لا لنقص؟

هذا كتابٌ لا يَعِدُك بتغيير العالم، لكنه قد يغيّر الطريقة التي تنظر بها إليه.

إليك أكتب

إليك أكتب لا لأحدٍ بعينه، بل لتلك الروح التي تشبهني حين تصمت طويلاً ثم تتكلم فجأة بكلمة واحدة تختصر كل التعب.

إليك أكتب حين تضيق الطرق فلا يبقى إلا الورق، وحين تمتلئ النفس بالكلمات ولا تجد صدرًا يتسع لها؛ فتنسكب حروفها على السطور كأنها تواسي نفسها بنفسها.

إليك أكتب، وأعلم أن ما يُقال للنفس في هدوء الليل، لا يشبه ما يُقال في صخب النهار، فكم من حديث داخلي نجا صاحبه لمجرد أنه أفرغه على صفحة! وكم من نَفَسٍ عاد منتظمًا لأنه وجد في التأمل ملجأ! فما أكثر ما نحمله في قلوبنا من أمنيات مؤجلة، وأحزان لم نفهمها بعد، وفرحٍ صغير نحفظه كأننا نخشى عليه من التبدّد.

لا بأس أن تتعب، أن تنكسر، أن تشعر بالوحدة حتى وأنت بين الناس، فكل قلب له ظلّه الخاص، وكل روح لها أيامها التي لا يُدركها سواها، لكن تمسّك بما تبقّى داخلك من يقين، فإن أعماقك تعرف الطريق، ولو ضلّت خُطاك، وأحيانًا، حين تكتب، لا تكتب لتحكي ما جرى، بل لتطمئن أنك ما زلت قادرًا على الفهم، على الإحساس، على العبور.

إليك أكتب؛ لأن الكلام للناس يضيع، أما ما يُقال للداخل، فيبقى، يتردد كهمس ناعم في المدى، يؤنسنا كلما خفَتَ صوت الخارج، إنه لا يضيع، بل يعيش في وجداننا، ليصير يومًا جسرًا تعبر عليه إلى نفسك القديمة أو نفسك التي كنت تحاول الوصول إليها منذ زمن.

فأكتبُ لا لأُفهَم، بل لأتذكّر أنني ما زلت أملك قلبًا.

أسامة عبد العظيم

يوليو ٢٠٢٥

من الحافة.... نظرت خلفي

نحـن لا نكـبر بالسـن وحـده، بـل بنظـراتٍ نُلقيهـا خلفنـا ونسـكت، ففـي لحظـة مـن العمـر، بعـد أن يهـدأ الصخـب وتقـلّ المجامـلات، نبـدأ في الإصغـاء لصـوت داخـليٍّ عميـق، لم يكـن مسـموعًا مـن قبـل، صـوتٌ يـأتي لا ليعاتبنـا، بـل ليضـع يـده عـلى القلـب ويقـول: «أكان يسـتحق هـذا؟ أكان يجـب أن تؤجـل فرحـك؟ أن تصمـت حـين كان عليـك أن تتكلـم؟ أن ترحـل عـن ذاتـك كلـما طلبـك النـاس؟

في هـذه اللحظـات الناضجـة، لا نُفكّـر في إنجازاتنـا، بـل في الأمنيـات التـي لم تتحقـق، لا لأنهـا كانـت مسـتحيلة بـل لأننـا تأخرنـا، تأخرنـا في الحـب، في المسـامحة، في التعبـير، وربـما في فهـم الحيـاة.

ومـا يـلي، هـو حديـثٌ باسـم تلـك الأمنيـات المتأخـرة التـي لم تُقتـل، لكنهـا لم تُعـش كـما يجـب... هـي محـاولاتٌ صادقـة لـرأب الصـدع بـين مـا عشـناه، ومـا تمنّينـا أن نعيشـه، لعـلّ في الاعـتراف بهـا، عـزاءً، ولعـلّ في صياغتهـا عـلى الـورق، خلاصًـا مـن وطـأة الصمـت الـذي طـال.

كنـتُ أظـن أن الوقـت طويـل، وأن الفـرص تتكـرّر، وأنّ مـا أُهملـه اليـوم يمكننـي أن أسـترجعه غـدًا، أخّـرتُ الاعتـذار لأننـي كنـت أظـن أن الكرامـة أولى، وسـكتُّ عـن التعبـير عـمّا أُحـب لأني خفـت أن أبـدو ضعيفًـا، وتـردّدت في الإقبـال عـلى مـا تهفـو إليـه نفـسي خشـية أن أُلام أو أُخـذل، ثـم مضـت السـنوات كـما تمـضي قطـارات لا تلتفـت خلفهـا، وجدتنـي أقـف في محطـة متأخـرة، أسـتعرض حيـاتي وكأننـي أشـاهد فيلـمًا كنـت بطلـه... لكـن لم أتحكـم في مشـهده .

اليـوم، حـين يهـدأ الضجيـج، تأتنـي أمنيـات صغـيرة في أوقـات لا تصلـح فيهـا إلا للذكـرى، أُدرك الآن أننـي لم أكـن بحاجـة لـكل ذلـك الحـرص، وأن الذيـن خفـتُ مـن رأيهـم، لم يبقـوا جـزءًا أصيـلًا في حيـاتي، أعـرف أننـي لا أسـتطيع إعـادة مـا مـضى، لكننـي أكتـب هـذا وصيّـة لنفـسي: لا تؤجـل فرحـك، لا تختبـئ خلـف صمـتٍ ثقيـل، ولا تنـسَ أن تعيـش كـما لـو أن اللحظـة لـن تتكـرّر...... لأنهـا حقًّـا لـن تتكـرّر.

فالنـدم إن صـدق، يصـير بوصلـة، وأحيانًـا، تكفينـا أمانينـا المتأخـرة لتـضيء مـا تبقّـى، نعـم الحيـاة لـن تُعـاد مـن جديـد لكـن بعـض البدايـات تليـق بنهاياتنـا، ولـو جـاءت متأخـرة.

كنـتُ أظـن أن القـوة تعنـي الثبـات، وأن التجلّـد في كل المواقـف هـو مـا يجعلنـي محترمًـا، مقـدّرًا، لا يُسـتهان بي.

كنــتُ أقــاوم الدمــع في المواضــع التــي كان البــكاء فيهــا شــفاءً، وأُخفــي حاجتــي في اللحظــات التــي كان الاعــتراف فيهــا نُضجًــا لا ضعفًــا.

تأخّـرتُ كثـيرًا في إدراك أن الإنســان حـين يقســو عــلى نفســه بدعــوى الصلابــة، فهــو لا يصمــد بــل يتصــدّع مــن الداخــل.

اليـوم، أُراجـع شريـط تلـك المشـاهد التـي مـررت بهـا وأنـا أرتـدي درعًـا لا يشـبهني، أقـول في سري: ليتنـي كنـت أرقّ، ليتنـي صرَّحـت بخـوفي، ليتنـي طلبـت العـون ولم أكتـفِ بالصمــت.

أدركـت، بعـد أن مـرّت العاصفـة، أن الطمأنينـة لا يصنعهـا الصمـود الأجـوف، بـل القبول الصـادق لنقائك، لهشاشـتك، لإنسـانيتك.

إنهـا أمنيـات متأخـرة، نعـم، لكنـي لا أحتقرهـا بـل أحتضنهـا كرسـائل متأخـرة وصلـت بعـد أن كـبرتُ بـما يكفـي لأفهمهـا، فـما زال في الوقـت متسـعٌ لأن أعيـش بهـدوء، لا لأُثبت شـيئًا لأحـد، بـل لأصغـي لمـا أحتاجـه فعـلًا لا لمـا انتظـره الآخـرون منـي.

ومــن أكثــر مــا أثقــل قلبــي ســنينَ طويلــة أننــي كنــتُ أجــرُّ خلفــي مــاضيَّ كــما تُجـرّ السلاسـل، لا أنسـاه، ولا أُجيـده، ولا أضعـه في مكانـه الصحيـح، كنـت أظـن أن المـاضي إذا لم أُعاقـب نفـسي عليـه، سـيلاحقني بطريقـة أشـد، فـصرتُ أراجـع أخطائـي القديمـة بعـين قاسـية، لا تغفـر...... ولا تهـدأ.

لكننــي، حــين ســكنتُ قليــلًا أمــام مــرآة العمــر، أدركــت أن المــاضي ليــس عــدوًّا، بــل مُعلّــم، وأن النــدم إذا طــال أكثــر مــن الــلازم، تحــوّل إلى ســجن.

أخطـأت؟ نعـم، أسـأت التقديـر؟ كثـيرًا، أوجعـتُ نفسي وغـيري؟ مـرارًا، لكننـي لم أكـن الشـخص نفسـه حينهـا، ولم أكـن أملـك مـن النضـج مـا أملكـه الآن.

فـكان لا بـدّ أن أتـرك المـاضي حيـث ينتمـي، وأن أدرك أننـي لا أسـتحق العقوبـة الأبديـة، بـل أسـتحق فرصـة جديـدة تبـدأ مـن اللحظـة التـي قـررت فيهـا أن أصفـح عـن نفسـي، لا لأننـي بـريء مـن كل شيء، بـل لأني نضجـت بـما يكفـي لأصلـح مـا تبقّـى، وأُحـب مـا بقـي فيَّ.

هنـاك كلـمات لم تُقَـل، بقيـت عالقـة بـين القلـب والحلـق، ظلّـت تؤرّقنـي كلـما أغمضـت عينـي، كـم تمنّيـتُ أن أقـول: «سـامحني»، أو: «أحبـك»، أو حتـى: «شـكرًا»، قبـل أن يغلـق الفـراق البـاب، لكنهـم رحلـوا، وبعضهـم ذهـب وفي صـدري تجاهـه سـؤال، أو لـوم، أو عتـب صغـير لم أجـد لـه مخرجًـا بعدهـم.

كنـتُ أظـن أن الوقـت دائـمًا موجـود، وأن الغـد فرصـة إضافيـة، وأن بينـي وبـين الفقـد مسـافة أوسـع لكننـي اكتشـفت أن اللحظـة التـي نُؤجـل فيهـا الـكلام، قـد تكـون هـي نفسـها آخـر مـا نملكـه مـن الوقـت.

أمنيتـي الآن ليسـت أن يعـودوا، فأنـا أعلـم أن الفـراق قَـدَر، ولكـن أن أُخبرهـم ـ ولـو في قلبـي ـ بـكل شيء كان يجـب أن يُقـال، أن أُمسـك بخيـوط النـدم، وأحوّلهـا إلى دعـاء، وإلى ذكـرى لا تشـوبها الكلـمات التـي لم تُقَـلْ، وأن أتعلـم مـن غيابهـم درسًـا: لا تؤجـل الكلمـة الطيبـة، لا تتأخـر في العنـاق، ولا ترفـع الحواجـز بينـك وبـين مَـن تُحـب، فالحيـاة أقـصر مـن أن تتركنـا نُرتـب الـكلام كثـيرًا.

لسـنا وحدنـا مَـن تأخّـر في الفهـم، ولا أوّل مَـن عـرف قيمـة اللحظـة بعـد أن عـبرت، كل إنسـان يحمـل في أعماقـه أمنيـة قديمـة، حديثًـا مؤجـلاً، شـعورًا لم يُعـبّر عنـه في وقتـه، أو شـخصًا تمنّـى أن يعـود ليقـول لـه شـيئًا ولم يفعـل، لكننـا لا نكتـب هـذه الأمنيـات المتأخـرة لنبكيهـا، بـل لنمنحهـا اسـمًا، ولنجعـل منهـا شـاهدًا عـلى نضـجٍ وصـل متأخـرًا، لكنـه جـاء، نعـم مـا مـضى لـن يُسـتعاد، لكننـا نملـك الحـاضر، هـذا الوقـت الـذي نعيشـه الآن، بإمكانـه أن يكـون أكثـر صدقًـا، أكثـر دفئًـا، أكثـر اتسـاعًا لمـا لم يُقـل، فـكل أمنيـة لم نُدركهـا في حينهـا، قـد تكـون هـي البوصلـة التـي تُنقـذ مـا بقـي منّـا.

فلتخـرج كلماتنـا العالقـة في الحلـق قبـل أن يُداهمهـا الصمـت، ولنقـل مـا نشـعر بـه، بـلا خـوف، بـلا تأجيـل، فالحيـاة لا تُعـاد مـن جديـد لكنهـا قـد تُفهـم أخـيرًا.

خلف النقص حكمة، وخلف الحكمة لطف

في قصـة نبـي الله يونـس، حـين غـادر قومـه وركـب السـفينة، واجـه الـركاب عاصفـة هوجـاء واضطربـت بهـم الأمـواج حتـى كادت السـفينة تغـرق، ولا سـبيل للنجـاة إلا بتخفيـف حمولتهـا، فقـرروا إلقـاء أحـد ركابهـا في البحـر. فاحتكمـوا إلى القُرعـة؛ ليحـددوا مـن سـيكون الضحيـة، وحينـما أجروهـا، وقعـت عـلى نبـي الله كـما ورد في قولـه تعـالى ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [1] فقـد شـارك في الاقـتراع، وخـرج اسـمه دونًـا عـن البقيـة، وكان هـذا ابتـلاءً إلهيًّـا ليبـدأ بعدهـا رحلتـه في بطـن الحـوت.

ولعلنـا إن لم نعلـم تفاصيـل النهايـة لـكان أول الظـن أن الله ينجـي نبيـه فينـزل الاقـتراع عـلى غـيره، لكـن الـذي حـدث كان غـير ذلـك، وقعـت القرعـة عـلى نبـي الله؛ فقـرروا إلقـاءه مـن أعـلى السـفينة إلى المـاء، لم يكـن وقـوع القرعـة عليـه محـض صدفـة، بـل كان تدبـيرًا إلهيًّـا أدرك بـه نبـي الله أن الأمـر ليـس عشـوائيًا، بـل هـو جـزء مـن اختبـار، فاستسـلم لمشـيئة الله دون اعـتراض، أُلقـي في البحـر حيـث كان في انتظـاره قَـدر آخـر لم يكـن يتوقعـه، فالتقمـه الحـوت، ولم يكـن ذلـك عقابًـا بقـدر مـا كان فرصـة جديـدة للتأمـل والمراجعـة والتـضرع إلى الله، وهنـاك، في ظلـمات البحـر وظلمـة بطـن الحـوت، انبثقـت أعظـم دعـوة للتوبـة والتسـليم ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [2] فاسـتجاب الله لـه وأخرجـه إلى الحيـاة مـن جديـد، بعدمـا أدرك أن النجـاة الحقيقيـة ليسـت في الفـرار، بـل في العـودة.

بلُغـة القـدر، لا تُـترك الأشـياء للمصادفـة، ولا تُلقـى أوراق الحيـاة عبثًـا عـلى طاولـة الفـوضى، فـما بـدا للنـاس قرعـة عشـوائية، كان في علـم الله أمـرًا محسـومًا، محسـوبًا بميـزان الحكمـة الإلهيـة الـذي لا يختـل، فحـين ركـب نبـي الله السـفينة، لم يكـن واحـدًا مـن الجمـع فحسـب، بـل كان مقصـدًا لابتـلاء عظيـم، واصطفـاءً خفيًـا، وتمهيـدًا لوصـول إلى قـاع البحـر الـذي سـيتحول فيـه الظـلام إلى مهـد دعـاء خالـد، وشـاهد عـودة ونـور.

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ جملـةٌ قصـيرة تحمـل قصـة اقـتراع، لكنهـا ليسـت كأي

١ الصافات (١٤١) - المدحضين أي: المغلوبين
٢ الأنبياء (٨٧)

اقــتراع، بــل ســهم سُــدّد في غيــب الغيــب، وأصــاب قلــب الحكايــة بدقــة، فلــم يكن الســهم الــذي خــرج باســم نبــي الله ليقــع إلا عليــه، لا لأن الآخريــن أنجــى، بــل لأن الســماء قــد رتبــت خطــاه نحــو قــدرٍ مقصــود، ليلتقــي في أعــماق البحــر بحقيقــة لا تُــرى عــلى اليابســة.

والتعبــير ﴿فَسَاهَمَ﴾ لا يعنــي مجــرد المشــاركة، بــل يعنــي أن الله قــد شــاء أن يكــون هــو المُختــار، وأن تكــون القرعــة ـ وهــي مظهــر بــشري خالــص ـ في باطنهــا مشــيئة ربانيــة، تُســاق كــما يُســاق كل شيء في الكــون، حيــث لا ارتجــال، ولا فــوضى، ولا احتــمال منفلــت مــن قبضــة «كــن فيكــون».

يُعلمنــا هــذا المشــهد أن الاقــتراع الــذي نظنــه مــن صنــع الأيــدي، هــو أحيانًــا ســتر لحكمــة ربانيــة لا يريــد الله أن تُفهــم فــورًا، بــل تُــدرك في قــاع التجربــة، وعنــد اشــتداد العتمــة، فليــس كل مــن اختــير في قرعــة قــد خــسر، وليــس كل مــن نجــا منهــا بنــاجٍ مــن ابتــلاء. إن ســهم القــدر حــين يقــع لا يُخطــئ الهــدف، وقــد اختــار الله لنبيــه أن ينــزلَ لا ليســقط، بــل ليعلــو، أن يُبتــلى لا ليُقــصى، بــل ليعــود أنقــى، فتلــك اللحظــة التــي رآهــا الجميــع محنــة، كانــت في علــم الله منحــة، كتــب بهــا لرســوله آيــة مــن آيــات التوحيــد، يــتردد صداهــا إلى قيــام الســاعة: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهــل بقــي للصدفــة مــكانٌ بعــد هــذا الترتيــب المحكــم؟ وهــل تملــك القرعــة أن تختــار مــن تلقــاء نفســها، إن لم يــأذن الله؟

إن الأشــياء التــي تظــن أنهــا جــاءت إلى حياتــك صدفــة لم تكــن صدفــة، إنــما هــي اختيــار خاضــع للتدبــير الإلهــي ، لا شيء يحــدث عبثًــا، تلــك اللحظــات التــي تبــدو لنــا محــض صدفــة هــي في حقيقتهــا خيــوط دقيقــة تُحــاك وفــق تدبــير إلهــي محكــم، فذلــك الشــخص الــذي صادفتــه بــين حشــود النــاس، وذلــك العمــل الــذي اخــترت القبــول بــه دون غــيره، والقــرار الــذي بــدا لــك عشــوائيًّا فغــيّرَ مســار حياتــك، كلهــا ليســت محــض احتــمالات عشــوائية، بــل هــي اختيــارات مرســومة بعنايــة لخدمــة غايــة لا ندركهــا إلا لاحقًــا، وحــين تتأمّــل مســاراتك، ســتجد أن كل لقــاء، وكل فرصــة، وكل منعطــف كان جــزءًا مــن ترتيــب محكــم، صفحــةٌ متقنــةٌ في كتــاب القــدر، لم تكــن يومًــا حيــاة فوضويــة كــما كنــت تظــن بــل نســقًا خفيًــا، نســجه القــدر بخيــوط دقيقــة مــن لقــاءاتٍ بــدت عابــرة، وأبــوابٍ فُتحــت ثــم أُغلقــت، ومفــارق طــرقٍ حســبتَها ضياعًــا، فــإذا هــي المعابــر الحقيقيــة نحــو مــا كُتــب لــك،

لم تكـن الأحـداث عبثًـا، بـل كانـت كلًّا متكامـلًا، كتكويـنٍ لا يُـدرَك جمالـه مـن قـرب، وإنـما حـين تبتعـد عنـه بمسـافة التأمـل، وتُنصـت بقلبـك لا بعينيـك، هنـاك فقـط، تـرى يـد الله تعمـل في الخفـاء، تَقلِـبُ المِحـن إلى منـح، والغيـاب إلى تمهيـد للحضـور، والتأخـر إلى توقيـتٍ أصـدق مـن اسـتعجالك.

وكـما أن سـهم القـدر في قصـة يونـس عليه السلام لم يخطـئ، كذلـك تمـضي أقدارنـا في ظاهرهـا بـما نسـميه «مصادفـة» أو «حظًـا عاثـرًا»، بينـما هـي في حقيقتهـا ترتيـب دقيـق مـن لـدن حكيـم عليـم، فكـم مـرة وقعـت قرعـة الحيـاة علينـا بـما لا نهـوى؟ أن يترقـى غيرنـا في العمـل ونحـن أهـل الكفـاءة؟ أن يُختـار سـوانا في أمـرٍ تمنّينـاه مـن أعـماق قلوبنـا؟ أن نُدفـع دفعًـا خـارج دائـرة نحسـبها الأمـان، أو نُبعـد عـن أشـخاص كنـا نظـن أن في وجودهـم تسـكن الحيـاة، أو يُغلـق في وجوهنـا بـابٌ طرقنـاه كثـيرًا؟ نظنهـا خيبـات لكنهـا سـهم «فَسَاهَمَ» مـا خـرج إلا ليأخذنـا حيـث نجهـل، إلى قـرار التجربـة، إلى حيـث نكسـر غرورنـا ونرجـع إلى الله وقـد خـفّ منـا كل مـا ليـس لله، فكـم مـن وظيفـة لم تُكتـب لـك، فأتتـك أفضـل منهـا بعـد شـهور؟ وكـم مـن علاقـة كنـت تبكـي عـلى نهايتهـا، فـإذا بهـا كانـت درعًـا مـن خـذلان أعظـم؟ وكـم مـن ابتـلاء حسـبته إقصـاء، فـإذا بـه اسـتدعاء إلى مقـام أقـرب، وأفـق أوسـع، وقلـب أنقـى؟

فكـما لم تكـن قرعـة نبـي الله صدفـة، لم تكـن أقدارنـا كذلـك، ومـا كنـا نحسـبه «ضيـاع فرصـة» هـو في علـم الله نجـاة، وأن السـهم الـذي أصابنـا، مـا كان إلا ليُخـرج منّـا أفضـل مـا بداخلنـا، ويعيدنـا إلى حيـث يجـب أن نكـون، فـكل سـهم وقـع، إنـما وقـع بأمـر مـن لا تُخطـئ حكمتـه، ولا تُراجـع مشـيئته.

فـإذا أبـصرت الصـورة عـلى تمامهـا سـتدرك أن كل خيبـة كانـت بابًـا نحـو وصـول لم يكـن ليُـدرك لـولا انكسـارك، حينهـا لـن تعـود لتطلـب مـن الحيـاة أن تُرضيـك، بـل تسـأل نفسـك: كيـف أكـون جديـرًا بـما تُخبئـه لي؟ بعدمـا تعلمـت أن لا شيء في الحيـاة يحـدث عبثًـا، عندهـا فقـط، تغـدو خطواتـك أكثـر وعيًـا، لا لأن الطريـق سَـهُلَ، بـل لأنـك أيقنـت أن كل عثـرة كانـت درسًـا، وأن شـيئًا مـن أوجاعـك لم يُهـدَر، ولا ألمًـا كان بـلا غايـة، ليبتهج القلـب بـما ظنّـه يومًـا ألمـاً، ويوقـن أن كل مـا كان، كان لينهـض بـه لا ليكسـره، وليقـوده لا ليُضلّـه، وأن الحكمـة كانـت دائـمًا هنـاك، تنتظـر أن يرتقـي البصـير.

إذا تكفّل الله، فلا خوفٌ ولا ضياع

يـدرك أغلبنـا تفاصيـل غـزوة أُحـد، ومـا آل إليـه المسـلمون فيهـا مـن انكسـار وخسـائر موجعـة، جـراح لم يسـلم منهـا جسـد، وألم لم يخـلُ منـه قلـب، حتـى رسـول الله ﷺ نفسـه كان لـه منهـا نصيـب، وفي اليـوم التـالي، وبينـما كانـت النفـوس مثقلـة بمـرارة الهزيمـة، لم يتركهـا النبـي ﷺ رهينـة لهـذا الشـعور القاتـل، بـل سـارع إلى كسر دائـرة الانكسـار قبـل أن تسـتحكم عليهـم، فأعلـن عزمـه عـلى تعقـب جيـش قريـش، لكـن مـا أدهـش الجميـع أنـه اشـترط ألا يخـرج معـه إلا مـن شـهد القتـال يـوم أحـد!

كانـوا مثقلـين بالجـراح في الجسـد وفي القلـب، منهكـين بـألم الفقـد، يحملـون في ذاكرتهـم مشـاهد الدمـاء التـي خضبـت الأرض وأجسـاد الصحـب الذيـن رحلـوا، لكـن رغـم ذلـك، كان عليهـم أن ينهضـوا، لم يكـن هـذا الأمـر مجـرد تحـرك عسـكري، بـل كان تدريبًـا عـلى تجـاوز المحنـة، عـلى النهـوض مـن وسـط الـركام، عـلى ألا تكـون الهزيمـة محطـة نهائيـة بـل مجـرد درس في الطريـق.

أراد النبـي ﷺ أن تكـون المعركـة امتـدادًا لـلإرادة لا للقـوة، أن تكـون المواجهـة بوجـوه أنهكهـا التعـب، وقلـوب أثقلهـا الحـزن، وعزائـم كادت أن تنكسـر، لكنـه لم يسـمح أن يدخـل بينهـم مـن يتوهـم أن لـه فضـلًا عليهـم، أو مـن يظـن أن وجـوده هـو الذي سـيقلب موازيـن المواجهـة، أو أن الحيـاة سـتتوقف دونـه، بـل أرادهـا أن تكـون معركـة الـروح قبـل أن تكـون معركـة السـيوف، معركـة يتعلـم فيهـا أصحابـه كيـف يخرجـون مـن أسر ذواتهـم، مـن حسـابات النفـس الضيقـة، إلى سـعة التـوكل عـلى الله، إلى يقـين أن القـوة ليسـت في الأجسـاد، بـل في القلـوب التـي تسـلم أمرهـا لصاحـب الأمـر كلـه.

خـرج الجيـش وهـو مثقـل بالجـراح، لكنـه خـرج وقـد ألقـى بحولـه وقوتـه خلفـه، وركـن إلى الركـن الـذي لا يُهـدم، خـرج محتميًـا بربـه، مسـتندًا إلى يقينـه، فلـم يـتردد أحـد، لم يقـل أحدهـم: «لقـد جُرحـت»، أو «فقـدت حبيبًـا»، أو «قدمـت مـا يكفـي»، بـل حـين بلغهـم أن قريـش تعيـد حشـد قواهـا، لم تهتـز لهـم عزيمـة، ولم تضعـف لهـم شـوكة، بـل صدحـت قلوبهـم قبـل ألسـنتهم ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ لم تكـن كلـمات تُقـال لحشـد الهمـم، بـل كانـت يقينًـا يمـلأ الأرواح، نـورًا يبـدد عتمـة الخـوف، قـوة تـسري في العـروق

فتجعـل الضعيـف ثابتًـا، والوحيـد مسـتغنيًا بـالله، فلـم يعـد في صدورهـم خـوف ولا اضطـراب، لم يعـد في حسـاباتهم ضعـف ولا تـردد، لأنهـم علمـوا أن مـن اتـكل عـلى ربـه فقـد اسـتغنى عـن كل سـند.

لقـد أراد النبـي ﷺ أن يعلمهـم، ويعلمنـا مـن بعدهـم، أن العثـرات لا تعنـي السـقوط الأبـدي، أن الإرادة قـادرة عـلى انتشـال صاحبهـا مـن قـاع الانكسـار، مهـما اشـتدت الجراح وتكاثفـت الأحـزان، أن الإيـمان ليـس مشـاعر تُحـسّ، ولا كلـمات تُقـال، بـل هـو موقـف يُختـبر، هـو أن تـرى الموازيـن تميـل لغـير صالحـك ولا يهتـز يقينـك بـأن الله هـو المدبـر، هـو أن تخـوض المواجهـة وأنـت تعلـم أن قوتـك وحدهـا لا تكفـي، لكنـك تمـضي لأنـك تعلـم أن معـك قـوة لا تُقهـر، فلـم يكـن انتصارهـم في السـيوف، بـل في القلـوب التـي أيقنـت، في الأرواح التـي سـلَّمت، في النفـوس التـي لم تخضـع للضعـف.

إن القلـب الممتلـئ بحسـن الظـن بربـه يبقـى راسـخًا أمـام المحـن، لا تهزمـه الشـدائد، ولا يتسـلل إليـه القلـق، ولا تتخبطـه الحـيرة، لأنـه يعلـم أن تدبـير الله أعظـم مـن ظنـه، وأن لطفـه يسـبق ابتـلاءه، ولعـل هـذا الأمـر لا نلتفـت لـه جيـدًا في مقتبـل العمـر وزهـوة الشـباب، نتمنـى أشـياء لا تـأتي فنضجـر ونتسـخط، ويطـول بنـا العمـر لنـرى شـيئًا مـن تدبـير الله في المنـع، فنشـعر في حينهـا بالخجـل مـن أنفسـنا عـلى تسـخطنا القديـم، فكـم مـن شـخص تمنينـا أن يكـون جـزءًا مـن حياتنـا ولم يحـدث، ويطـول بنـا العمـر لنـرى أن ذاك الاختيـار القديـم مـا كان يليـق بنـا، ويسـوق الله إلينـا مـن يشـبهنا، وكـم مـن فرصـة بكينـا عـلى ضياعهـا ويطـول بنـا العمـر لنـرى أن الخـير كلـه كان في ضياعهـا ليكتـب الله لنـا فرصًـا تناسـبنا واختيـارات تشـبه رغباتنـا الحقيقيـة، وكـم مـن أبـواب ظننـا أنهـا كانـت طريقنـا الوحيـد للسـعادة، فأُغلقـت أمامنـا فشـعرنا بالحـزن والأسـى، لنكتشـف بعـد حـين أنهـا لم تكـن لتقودنـا إلا إلى طريـق لا يناسـبنا، وكـم مـن حلـم تمسـكنا بـه بـكل مـا أوتينـا مـن قـوة، لكنـه أُفلـت مـن أيدينـا رغـم كل المحـاولات، لنُـدرك لاحقًـا أن الله قـد ادّخـر لنـا مـا هـو أعمـق انسـجامًا مـع حقيقتنـا، وكـم مـن طريـق ظنناه السـبيل الوحيـد لتحقيق أحلامنـا، فأُغلـق أمامنـا، فشـعرنا بالإحبـاط واليـأس، لنكتشـف لاحقًـا أن ذلـك الإغلاق لم يكـن إلا حمايـة لنـا مـن درب لم يكـن مناسـبًا لنـا، أو أنـه كان اختبـارًا لصبرنـا قبـل أن تأتينـا الفرصـة التـي كنـا نحتاجهـا .

الأثمان غير المرئية

مـا مـن شيءٍ نبلـغ فيـه مأربًـا في هـذه الدنيـا إلا وقـد دفعنـا لـه مـن أنفسـنا ضريبـة خفيـة، كأن الحيـاة لا تُعطـي إلا إذا أخـذت، ولا تُهـدي إلا لتسـترد شـيئًا في المقابـل وإن بـدا خفيًّـا للعيـون، نظـن أننـا نظفـر بالفـرص، نُحـرز النجاحـات، ونقطـف ثـمار الأحـلام، لكننـا لا ننتبـه أننـا، في خضـم ذلـك، نفـرّط في شيءٍ آخـر، نـترك عـلى الطرقـات أجـزاءً مـن أرواحنـا، وشـظايا مـن صحتنـا، وبـراءة كانـت تمـلأ قلوبنـا.

الثمـن لا يُسـجَّل في دفـتر، ولا يُدفـع نقـدًا، بـل يُقتطـع عـلى مهـل، كالقطـرات تُسـتنزف مـن نهـر العمـر، فـلا نلحـظ نقصانهـا إلا بعـد أن يجـفّ معـين كان يومًـا دافقًـا، وربـما نُضيّع السـكينة ونحـن نلهـث خلـف الإنجـاز، أو نخسـر العلاقـات النقيّـة ونحـن نراهـن عـلى المجـد، وربـما نُصيـب الغايـات ولكـن بعـد أن نخسـر أنفسـنا شـيئًا فشـيئًا دون أن نشـعر، ثـم، حـين نمـضي بعيـدًا في درب السـنين، ونلتفـت خلفنـا، نـرى أن مـا حسـبناه ربحًـا كان مشـوبًا بفقـدٍ لم ننتبـه لـه، وأن بعـض النجاحـات، مهـما عظمـت، لم تكـن تسـتحق أن نرهـن لهـا صحتنـا أو نُطفـئ مـن أجلهـا شـعلة القلـب.

وقـد يخيـل إلينـا، في لحظـات الانكسـار، أننـا قـد خرجنـا مـن التجربـة خاسريـن، مثقلـين بـما لا يُحتمـل، لكننـا حـين نلتفـت إلى مـا مـضى، لا نـرى أيدينـا فارغـة، بـل نكتشـف أننـا حملنـا مـا هـو أثمـن مـن كل مـا فقدنـاه: حملنـا وعيـاً لا يُشـترى، ونضجًـا لا يُوهـب، وقلوبًـا شـكلتها التجـارب فاشـتدت دون أن تتحجّـر، سـنين مـرت لم تكـن عبـورًا عابـرًا، بـل كانـت نحتًـا في أعماقنـا، نقشًـا لا يُمحـى، أعـادت صياغتنـا، علّمتنـا أن النقـاء لا يعنـي السـذاجة، وأن الرحيـل ليـس دومًـا خسـارة، وفي لحظـة صفـاء، سـتحدث نفسـك حديـث الطمأنينـة: « اطمئـن فقـد مـررت بـكل ذلـك، ولم تنكـسر فيـك الـروح، ولم تفقـد وجهـك الحقيقـي» حينهـا تـدرك أن الحيـاة ليسـت معادلـة بـين ربـح وخسـارة، بـل ميـزان دقيـق تُـوزن فيـه المشـاعر، والقـرارات، والخيبـات، والنجاحـات الصغـيرة التـي لا تراهـا العيـون، تـدرك أن المجـد ليـس في بلـوغ القمـم بـأي ثمـن، بـل في أن تصـل إليهـا دون أن تُسـلم قلبـك للفقـد، أو تفـرّط في ذاتـك في سـبيل التصفيـق، فالبقـاء روحٌ سـليمة وسـط العواصـف، هـو النـصر الحقيقـي الـذي لا يصفـق لـه أحـد، لكنـه وحـده يسـتحق الفخـر.

وفي كل تجربـة نخوضهـا تأخـذ منـا شـيئًا، لكنهـا أيضًـا تعطينـا شـيئًا آخـر، ومـا يبـدو لنـا خسـارة اليـوم قـد نكتشـف غـدًا أنـه كان طريقًـا نحـو مكسـب لم نكـن لندركـه حينهـا، فمـن سـعى لاكتسـاب العلـم قـضى سـنوات طويلـة في الدراسـة، ضحَّـى بأوقـات الراحـة، وربـما فقـد بعـض العلاقـات الاجتماعيـة بسـبب انشـغاله، لكنـه في النهايـة اكتسـب فهـمًا أعمـق للحيـاة ومكانـةً تفتـح لـه أبوابًـا لم يكـن ليدركهـا دون هـذه التضحيـات، والـذي كـرَّس وقتـه وجهـده لعملـه قـد ضحَّـى براحتـه الماديـة في البدايـة، وقـد مـرَّ بليـالٍ طويلـة بـلا نـوم، لكنـه مـع مـرور الوقـت بنـي عمـلًا ناجحًـا يُؤَمِّـنُ مسـتقبله. والـذي مـرَّ بعلاقـة كانـت تُمَثِّـل لـه كل شيء، لكنـه فقدهـا، وشـعر بأنـه خـسر جـزءًا مـن روحـه، لكنـه قـد أدرك مـع الزمـن أن هـذه التجربـة منحتـه نضجًـا عاطفيًّـا ورؤيـة أكثـر واقعيـة للعلاقـات فصـار أكثـر وعيًـا في اختياراتـه ، والـذي هاجـر بحثًـا عـن مسـتقبل أفضـل تـرك وطنـه، وأحبتـه، وشـعر بالغربـة وقاسـى مـرارة البُعـد والحرمـان، لكنـه بمـرور السـنين حقـق مـا لم يكـن ليحصـل عليـه لـو بقـي في مكانـه، والـذي أصيـب بمـرض أنهكـه، فقـد شـيئًا مـن عافيتـه، لكنـه في المقابـل تعلـم الصـبر، وأعـاد ترتيـب أولوياتـه، وصـار أكثـر تقديـرًا للحياة وللأشـخاص الذيـن بقـوا بجانبـه .

ليسـت كل الأثـمان تُدفـع بالمـال، بعضُهـا يُقتطـع مـن الـروح، مـن سـلام النفـس، ومـن سـكينة القلـب، ومـن ليـالٍ لا يراهـا أحـد، نحـن لا نبلـغ مـا نريـد مجانًـا؛ فلـكل وصـول ضريبـة، ولـكل نجـاح جراحـه المسـتورة، وكـم مـن إنسـان تُصفّـق لـه المنصـات، ولا يدري أحـد أنـه قـد دفـع ثمـن هـذا المجـد مـن صحّتـه، أو مـن وقتـه مـع أحبّتـه، وكـم مـن خطـوة واثقـةٍ لا نعلـم كـم سـقطة سـبقتها لتتشـكل، في الحيـاة، تُكتـب علينـا مقايضـات صامتـة نأخـذ شـيئًا، ونخـسر آخـر، نبتهـج مـن الخـارج، وننـزف في دواخلنـا، فنبـدو كاملـين، بينـما داخلنـا نَقـصٌ مـوزّع عـلى هيئـة رضـا متكلـف أو سـكوتٍ لا يُفضـح.

نعـم الأثـمان غـير المرئيـة لا تُـدوَّن، لكنهـا تـترك أثرهـا في اتّسـاع التجاعيـد، في عمـق النظـرة، في تغـيّر طبـاعٍ كانـت بالأمـس غـير مـا غـدت عليـه ، ومـن يظـن أن الوصـول بـلا فقـد فهـو لم يُجـرّب الحيـاة بعـد، فأعظـم النِعـم لا تـأتي إلا بعـد اختبـار، وأثقـل المكاسـب لا تُهـدى، بـل تُنتـزع، بعـد أن تُسـتنزف في سـبيلها خفايـا مـن أنفسـنا لا نُفصـح بهـا لأحـد.

أليس مـن الظلـم أن نقارن أنفسـنا بغيرنـا ونحن لا نعلـم الثمن غـير المرئي الذي قدَّمـه ؟ إنه مـن أكـبر مظالم النفـس أن نعقد المقارنـات دون أن نـدرك ما مروا بـه، فكل نجاح يـراه الناس قـد يكـون وراءه ليـالٍ من التعـب، وخيبـات لم يبح بهـا صاحبه، وخسـائر لا يعلمهـا إلا هو، قـد تنظـر إلى شـخص وصـل إلى القمـة، لكنك لا تـرى كم مـرة تعثر قبـل أن يصل، كـم فَقد مـن راحتـه، كـم دفـع من أحـلام أخـرى ليحقق هـذا الحلـم الوحيـد الـذي تـراه الآن، فكل شـخص يعيـش رحلتـه الخاصـة، وكل طريق له تحدياتـه وثمنه، وليـس من الحكمـة أن تقارن خطوتـك الأولى بخطـوة شـخص قطع نصف الطريـق، ولا أن تحكم على إنجاز شـخص دون أن تعـرف كـم مرة سـقط قبـل أن ينجح.

فالنجـاح ليـس في بلـوغ القمـة بأي ثمـن، إنـما أن نصل ونحن مـا زلنـا نحمل أنفسـنا كاملة، كـما خُلقـت: طاهـرة، مطمئنّـة، غـير منهكـة بثمـنٍ خفيٍّ لم نكن نحسـب له حسـابًا، فـما يبقى ليـس مـا فقدتـه أو ما كسـبته، بـل مـا أصبحت عليـه بسـبب كل ذلك، لـذا؛ حين تشـعر بأن غـيرك سـبقك، لا تسـأل: لمـاذا هـو هنـاك وأنـا هنـا؟ فهـو سـؤالٌ يُغريـك بالضيـق، لكنـه في الحقيقـة يُضيّـع منـك البوصلـة، فالمهـمّ ليـس موقع الآخـر، بل وجهتك أنت، سـل نفسـك: هـل أسـير في طريقـي كـما يجـب؟ هـل أبـذل جهـدي بقـدر اسـتطاعتي؟ فـإن كنـت كذلك، فاطمئـن، فالثـمار لا تُقطـف قبل أوانهـا، والدرجـات لا تُنال إلا بثمنهـا، وربما يأتي يـومٌ تدرك فيـه أن مـا بـين يديـك الآن، كان أمنيـةً لشـخصٍ لم يعـرف كيف يصـبر، أو ضـلّ الطريق قبل أن يبلغه.

اثبـت، وارض، ودع المقارنـة، فلـك توقيتـك الـذي لا يتقدم ولا يتأخر، فالحياة ليسـت سـباقًا نحـو خطّ وصـولٍ واحد، بل هـي دروبٌ متفرعـة، لكلٍّ فيها رزقـه وقدره ونصيبـه المكتوب، قـد يُفتـح لغـيرك البـاب سريعًـا، ويُغلـق في وجهـك، لا لأنـك أقـل، بـل لأن لك بابًـا أعظم لم يُـؤذن بفتحـه بعـد، فـلا تسـتبطئ الخـير، ولا تَحسـد السـائرين أمامك، فربـما كانـوا يعدّون لامتحـانٍ أشـق، أو يحملـون همًّـا لا يظهـر في العيون، فكـم من متقـدمٍ أُنهك، وكم مـن متأخرٍ جـاءه الفتـح حـين أعـدّ نفسـه في الخفـاء، ولا تتعجـل مـا خبـأه الله لـك، فـما كتـب لـك لـن يذهـب لغـيرك، لكنـه سـيأتي حـين تكتمل فيـك ملامحه.

النفس البشرية .... كنزٌ لم يكتشف بعد

في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» يقول كاريل: « لقد بذل الجنس البشري مجهودًا جبارًا لكي يعرف نفسه، وبالرغم من أننا نملك كنزًا من الملاحظة التي كدَّسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، إلا أننا لم نفهم الإنسان ككل، فقط استطعنا أن نفهم جوانب معينة من أنفسنا، فكل واحد منا مكوّن من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة، من الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غيرُ كافٍ وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب».

لا يزال الإنسان لغزًا معقدًا لم تُفك شفراته بالكامل، إننا ـ رغم ما وصلنا إليه من تقدم في مختلف العلوم ـ لا نمتلك صورةً شاملةً قادرة على تفسير كل ما نحن عليه، فقد نفهم سلوك الإنسان في مواقف معينة، وندرك كيف تتأثر نفسيته بالعوامل الخارجية، لكنه من داخله يظل عصيًا على الفهم التام، فكل فرد منَّا يحمل في داخله تناقضات تجعله أحيانًا لا يفهم حتى نفسه.

فكيف يمكن لإنسان أن يحب ويكره في آن واحد؟ أن يكون قويًا في موقف وضعيفًا في آخر؟ أن يسعى للخير وهو يدرك الشر الكامن داخله؟

كيف يمكن لإنسان أن يضحك وفي عينيه دمعة؟ أن يُبدي الرضا بينما في داخله عاصفة؟ أن يمدّ يده بالعطاء وفي قلبه شحٌّ خفي؟ أن ينادي بالمبادئ السامية وهو يصارع رغباته الدفينة؟

كيف له أن يشتاق لمن آذاه؟ ويحنّ إلى لحظاتٍ يعلم أنها كانت مكسوّةً بالألم؟ ويستمر في طريق يعلم أنه ينهكه، لكنه لا يستطيع العدول عنه؟

ثم مثل الفلاسفة نتساءل: هل الإنسان كائن بسيط في ظاهره، معقّد في باطنه؟ أم أن تعقيده ليس في ذاته، بل في الطريقة التي نحاول فهمه بها؟ هل هو كائن من طين وروح، يتأرجح بين الأرض والسماء، تتجاذبه الغرائز والمُثل، الشهوات والمبادئ؟ أم هو مرآة للعالم حوله، يتلون بلون التجربة، ويتبدل بطول الطريق؟

وهــل تُعــزى هــذه التناقضــات إلى طينتــه، أم إلى روحــه التــي تســكن الجســد لكنهــا لا تخضــع لحــدوده؟

هــذا التعقيــد هــو مــا يجعــل فهــم الإنســان لنفســه رحلــة لا تنتهــي، حيــث كل إجابــة تفتــح بابًــا جديــدًا للأســئلة، كلــما حــاول الإنســان أن يفهــم نفســه، اكتشــف أنــه لم يبلــغ إلا عتبــة الإدراك الأولى، وأن مــا يظنــه يقينًــا ليــس ســوى وهــم مؤقّــت، وأنــه حــين يظــن أنــه قــد فهــم دوافعــه، تفلــت منــه لحظــة تكشــف زيــف هــذا الظــن، وكأن النفــس مــرآة يغشــاها الضبــاب، لا تنجــلي إلا قليــلًا، ثــم تعــود لتُغيــم.

وهــذه التناقضــات ليســت دليــل ضعــفٍ أو خلــلٍ، بــل هــي طبيعــة بشريــة أصيلــة، لأننــا نعيــش بــين العقــل والعاطفــة، بــين المبــادئ والرغبــات، بــين المثاليــة والواقــع، بــين القــوة والضعــف، بــين الحــب والغضــب، بــين التســامح والرغبــة في الانتقــام، وبــين مــا نريــده ومــا يُفــرض علينــا، كل هــذه التناقضــات دليــل بشريتنــا، فالإنســان ليــس كيانًــا جامــدًا يســير وفــق معــادلات ثابتــة، بــل هــو مزيــج مــن العواطــف والتجــارب والصراعــات الداخليــة، والحيــاة ليســت خطًّــا مســتقيمًا، فليــس عيبًــا أن نشــعر بالضعــف أحيانًــا، كــما أن القــوة المطلقــة ليســت دائــمًا فضيلــة، وربــما سر غمــوض الإنســان في هــذه التناقضــات، فهــي التــي تجعلــه ينضــج ويتطــور، يتعثــر ثــم ينهــض، يخطــئ ثــم يتعلــم .

وربـــما كان الإنســـان، لا تعريفًـــا يُحتـــوى، ولا ســـؤالًا يُجـــاب، بـــل تجربـــة تُخـــاض، ومحنـــة تُكابـــد، ومشـــوارًا طويـــلًا مـــن الســـقوط والنهـــوض، والضيـــاع والاهتـــداء، فــكل لحظــة في حياتــه تكشــف وجهًــا جديــدًا منــه، وكل موقــف يُــضيء زاويــة كانــت معتمــة في قلبــه، حتــى ليبــدو في بعــض الأحيــان غريبًــا عــن نفســه، كأنــما ينظــر مــن بعيــد إلى ذاتــه دون أن يعرفهــا تمامًــا، ويبقــى في جوهــره لغــزًا لا يُفــكك، بــل يُحــترم.

لماذا أنا ؟ سؤال لم يصمت بعد

يقـول لوريـن ايزيـلي : «الإنسـان هـو ذلـك اليتيـم الكـوني، إنـه الكائـن الوحيـد في هـذا الكـون الـذي يتسـاءل دومًـا: «لمـاذا؟» وإن كان الحيـوان يسترشـد بغريزتـه، فالإنسـان يطـرح الأسـئلة، «مـن أنـا؟»، «لمـاذا أنـا هنـا؟» «وإلى أيـن المصـير؟».

بينـما تسـير بقيـة المخلوقـات عـلى سـجيتها، مقيـدة بغرائزهـا، يجـد الإنسـان نفسـه كائنًـا حـرًا، لكنـه مُثقـل بحريتـه، متورطًـا في أسـئلته التـي لا تنتهـي، لكـن أليـس هـذا هـو جوهـر الإنسـان؟ أن يسـأل، أن يتأمـل، أن يُنقِّـب في المعنـى حتـى وإن لم يجـده كامـلًا؟ إن ألمـه هـذا ليـس لعنـة، بـل ربـما يكـون بركتـه الكـبرى، لأنـه لـو اكتفـى بالحيـاة كـما هـي، بـلا تسـاؤل، بـلا تأمـل، لمـا ارتقـى، ولمـا سـعى نحـو الحكمـة، ولمـا حـاول أن يلامـس الحقيقـة حتـى لـو كانـت بعيـدة المنـال.

لعلنـا نقـف هنـا عـلى جانـب مـن المسـألة المرتبطـة بذلـك السـؤال العميـق: «لمـاذا؟»، ذلـك التسـاؤل الـذي يطفـو عـلى السـطح كلـما تعثـرت خطواتنـا أو أصابنـا الفشـل، لمـاذا يحـدث لي كل هـذا؟ لمـاذا تبـدو العقبـات وكأنهـا قـد اختـارت طريقـي وحـدي؟ لمـاذا يحيـط بي النجـاح مـن كل جانـب لكنـه لا يطـرق بـابي؟ لمـاذا أشـعر أننـي وحـدي مـن يخـوض هـذا النـزال المسـتمر مـع الخيبـات؟

«لمـاذا أنـا؟» سـؤال يـسري في صمـت الليـالي، يتسـلل إلى القلـب حـين يهـدأ الضجيـج، وتغيـب المجامـلات، وتغلـق الدنيـا أبوابهـا، ليبقـى وحـده معـك، عاريًـا مـن كل زيـف، هـو السـؤال الـذي لا يجد إجابة قاطعـة، لكنه يطرق عـلى أبواب الوعي في لحظات الانكسـار، حـين تنهـال المصائـب كأنهـا اختارتـك مـن بـين الخلـق جميعًـا، حـين ترى مـن هو أقـل منك حمـدًا وأقـل منـك صلاحًـا يمـضي في دنيـاه مطمئنًـا، وأنـت تتخبـط في طـرق لا نافـذة فيهـا، فليـس «لمـاذا أنـا؟» تسـاؤلًا عـن الـذات فحسـب، بـل هـو محاولـة لفهـم الوجـود مـن جهـة الشـعور، مـن زاويـة الكائـن الـذي يعـرف أنـه فـانٍ، لكنـه يُحـب، ويخـاف، ويؤمـن، ويشـك، سـؤالٌ هـو مـرآة الكائـن الوحيـد الـذي لا يكفيـه أن يكـون حيًّـا، بـل يريـد أن يعـرف: لِمَ الحيـاة؟ ولمـاذا هـو دون سـواه في قلـب هـذا الصخـب الكـوني؟

«لمـاذا أنـا؟» سـؤالٌ لا يُقـال دائـمًا بصـوتٍ مسـموع، لكنـه يئـنّ في القلـب كلّـما ضاقـت السُـبل، أو اشـتدّ البـلاء، أو جـاء الظلـم مـن حيـث لا يُحتمـل، يـتردّد داخلنـا كلّـما مررنـا

بلحظـة لا تشـبه اسـتحقاقنا، وكلّـما شـعرنا أن الحيـاة تختـار أسـماءنا لصفـوف الألم أكثـر ممـا تختارهـا للبهجـة.

«لمـاذا أنـا؟» ليـس تمـرّدًا عـلى القَـدَر، بـل هـو صـوت الإنسـان في هشاشـته حـين لا يفهـم مـا يحـدث، حـين يخونـه المنطـق، ويغيـب العـدل في حسـابات اللحظة، لكـنّ هذا السـؤال لا يسـكت، لأن بداخلنـا روحًـا تتـوق للفهـم، لا للانكسـار، ولذلـك، يبـدأ الجـواب الحقيقـي لا حـين يُـردّ علينـا مـن الخـارج، بـل حـين نبـدأ في تغيـير صيغتـه مـن احتجـاج إلى وعـي: لأجل ماذا ؟ وما الذي يُراد لي أن أتعلمه وأن أتجاوزه وأن أتخلّق به؟

«لمـاذا أنـا؟» لأنـك لسـت عبثًـا، ولأنـك حـين تنجـو، سـتعرف أن السـؤال مـا كان يحتـاج إجابـة، بقـدر مـا كان يحتـاج وقتًـا لتفهـم أن الله مـا اختـارك إلا لغايـة، وأن هـذا الألم الـذي خِفـتَ أن يُفقـدك نفسـك هـو مـا سـيُعيدك إليهـا أنضـج، وأهـدأ، وأقـرب، فـما مـن بـلاء إلا وفي جوفـه رسـالة، ومـا مـن انكسـار إلا ويحمـل معنـىً لا يظهـر إلا للذيـن ينظـرون بعـين البصـيرة، لا بعـين الوجـع، لا تخجـل مـن السـؤال، لكـن لا تقـف عنـده، تجـاوزه نحـو: «مـا الـذي يُـراد لي مـن هـذا؟»، فهنـاك أبـواب لا تُفتـح إلا بمفتـاح الألم، وهنـاك أنفـس لا تُنضجهـا إلا نـار التجربـة، وهنـاك عطايـا لا تُهـدى إلا في ثيـاب البـلاء.

«لماذا أنا؟» لأنك الأقرب لنضجٍ لم تكن لتبلغه لو كنت غيرك.

قلبٌ يقضي قبل أن يفهم

لـكلّ امـرئ ميـزان في داخلـه، يـزن بـه أفعالـه ومواقفـه، لكنّـه كثـيرًا مـا يختـل حـين تميـل النفـس إلى تبرئـة ذاتهـا، فـما أكثـر مـا نـرى في حياتنـا مـن تفـاوتٍ في نظـرة الإنسـان للعطـاء والبـلاء، فـإن أصـاب مـراده نسـب الفضـل لذكائـه وحسـن تدبـيره، وعـدَّ العقبـات التـي تجاوزهـا شـواهد عـلى عظمتـه وإبداعـه، لكنـه إن أخفـق، ألقـى باللـوم عـلى القـدر ، واختبـأ خلـف سـتار النصيـب، وكأن القـدر لا يُسـتدعى إلا عنـد العجـز والتعثـر. إن بلـوغ الغايـات أمـر عظيـم، لكنـه لا يكـون تامًّـا إلا إن أُدرك بتواضـع؛ فالعطـاء بـكل أشـكاله قبل أن يكـون جهـدًا بشريًّـا، هـو توفيـق إلهـي، ولـو كان السـعي وحـده كافيًـا، لمـا رأينـا مـن اجتهـد ولم يصـل، ومـن ثابـر ولم يـدرك، فكـم مـن سـاعٍ لم يـدرك غايتـه! وكـم مـن مجتهـد طـرق كل الأبـواب فلـم يُفتـح لـه منهـا شيء! وكـم مـن مثابـر بـذل كل مـا يملـك، ثـم وجـد نفسـه حيـث بـدأ! وكـم مـن طامـح حمـل أحلامـه وسـار بهـا طويـلًا، ثـم تاهـت بـه الـدروب!

إن تعليـق العطـاء عـلى عبقريتـك المطلقـة، وتعليـق البـلاء عـلى القـدر وحـده، هـو اختـزال قـاصر لحكمـة الله في تدبـير الكـون، بـل هـو جهـل بسـننه التـي أقـام عليهـا الحيـاة، فلـو أيقنـت أن كل شيء خاضـع لمشـيئته، لمـا اضطـرب عقلـك في دوامـة التسـاؤل المربـك: «لمـاذا لم أَصِـلْ؟ لمـاذا أخفقـت؟» ؛ لأنـك حينهـا سـتدرك أن كل زيـادة ونقصـان، كل نجـاح وإخفـاق، كل مـا تُدركـه ومـا يفلـت منـك، هـو بتقديـر حكيـم لا يخطـئ ميزانـه، والحيـاة ليسـت معـبرًا لتحقيـق الأمنيـات فحسـب، بـل دار امتحـان لا يسـتقيم إلا بالتفـاوت، فلـو نـال كل إنسـان مبتغـاه، لتعطّلـت أسـباب الحيـاة وانعـدم معنـى السـعي، ولأصبـح الجميـع عـلى خـط واحـد، فـلا اختبـار ولا ابتـلاء، ولا معنـى للصـبر أو الرضـا، فكيـف نطالـب بعدالـة دنيويـة مطلقـة تتسـاوى فيهـا الحظـوظ، بينـما العـدل الحـق في الآخـرة، حيـث الميـزان الأوفى، والجـزاء الأكمـل؟! فالإيـمان بـأن الدنيـا ليسـت جنـة، وأن تمـام العـدل مؤجـل ليـوم الحسـاب، هـو مـا يمنـح القلـب طمأنينتـه، ويجعـل السـعي في الدنيـا عبـادة، لا مجـرد سـباق نحـو المكاسـب الزائلـة.

كن سيد الحكاية

هـل الإنسـان ابـن بيئتـه؟ أم ابـن تربيتـه؟ أم ابـن جيناتـه الوراثيـة؟ سـؤال قديـم يتجـدد، كلـما أراد أحدهـم أن يفـسر سـلوكًا، أو يُـبرّر عثـرة، أو يُعظّـم إنجـازًا.

والإجابـات عليـه لا تُعـد، لأن كل متحـدث إنـما يُسـقط عليـه تجربتـه الخاصـة، وظنـه فيـما اختـبره في حياتـه، فمـن نشـأ في بيئـة داعمـة قـال: الإنسـان ابـن بيئتـه، ومـن نشـأ في ظـل تربيـة صارمـة قـال: ابـن التربيـة، ومـن رأى أثـر الوراثـة في أخـلاق أهلـه وملامحهـم قـال: هـو ابـن الجينـات.

لكـن الحقيقـة أوسـع مـن أن تُحـصر في أحـد هـذه الأطـر الثلاثـة. فالإنسـان كائـن يتشـكل عـبر طبقـات مـن التأثـيرات المتداخلـة، متأثـرًا بـما حَولـه، ومُنقـادًا أحيانًـا لمـا زُرع فيـه، لكنـه أيضًـا كائـن حـرّ الإرادة، قـادرٌ عـلى أن ينقـضَّ عـلى كل مـا وُرِّث لـه ليختـار مـا يكونـه، لا مـا فُـرض عليـه أن يكونـه.

انظـر في صفحـات التاريـخ، وسـتلمح وجوهًـا خرجـت مـن أرحـام الفقـر، وتفتحـت في أرض قاحلـة لا تنبـت إلا اليـأس، فـإذا بهـم يشـقّون طريقهـم إلى ذرى المجـد، لا بـما منحهـم الواقـع، بـل بـما صنعـوه لأنفسـهم مـن عزيمـة ووعـي، وكـم رأيـتَ مـن أبنـاء العلـم والحكمـة، وورثـة الأمجـاد، ضيّعـوا مـا كان في أيديهـم، لأن النهـوض لم يكـن يومًـا ميراثًـا يـورَّث، بـل يقظـة تولـد في القلـب، وإصرار يشـق الظلـمات، وتحـررٌ مـن قيـود خفيـة لا يراهـا إلا مـن أراد أن ينهـض، فالإنسـان، في جوهـره، ابـن الحيـاة، ابـن التجربـة والاختبـار، ابـن السـقوط والنهـوض، ابـن اللحظـات التـي قـرر فيهـا أن يصنـع نفسـه بنفسـه، لا بـما أُعطـي، بـل بـما أخـذ مـن الحيـاة وهـو يقاومهـا، فـلا تعنينـا كثـيرًا نقطـة البدايـة بقـدر مـا يعنـي العـالم مـا صنعتـه مـن نفسـك عـلى طـول الطريـق.

قبيلـة باهلـة، إحـدى قبائـل العـرب في الجزيـرة، اشـتهرت في الـتراث العربي بسـوء السـمعة ووضاعـة الذكـر، حتـى غـدت مثـلًا يُـضرب في انحطـاط النسـب حتـى قيـل في ذمّها:

وما ينفع الأصل من هاشمٍ إذا كانت النفس من باهلة

بـل قيـل لأعـرابي ذات مـرة: «أيـسرك أن تكـون باهليًّـا وتدخـل الجنـة؟» فأجـاب: «إي والله، بـشرط أن لا يعلـم أهـل الجنـة أني باهـلي!»

ورغـم هـذا الإرث الثقيـل مـن التحقـير الاجتماعـي، خـرج مـن هـذه القبيلة شـاب تجـرأ أن يحلـم خـارج حـدود مـا رسـمه لـه الآخـرون، لم يرتهـن للعـار الجمعـي ولا خضـع لأقـدار البيئـة، بـل اختـار أن يكتـب قصـة حياتـه لا يحمـل فيهـا وصمـة القبيلـة بـل بصمتـه هـو، إنـه قتيبـة بـن مسـلم الباهـلي، القائـد الفـذ، الفاتـح المقـدام، والسـياسي المحنّـك، قـاد الجيـوش الإسـلامية شرقًـا حتـى بلـغ حـدود الصـين، وافتتـح مـن البـلاد مـا لم يكـن يُظـن أن تفتـح، وأثبـت أن العظمـة لا تنحـصر في النسـب، بـل تصنعهـا الإرادة والبصـيرة والعزيمـة، قـال عنـه الذهبـي في سـير أعـلام النبـلاء: «لم ينـل قتيبـة أعـلى الرتـب بالنسـب، بـل بكـمال الحـزم والعـزم والإقـدام، والسـعد، وكثـرة الفتوحـات، ووفـور الهيبـة»

قتيبـة مثـال حـيّ، لا مـن نصـوص المجـاز، بـل مـن واقـع الحيـاة، تؤكـد تجربتـه أن الإنسـان ليـس ابـن سُـمعته الموروثـة، ولا سـجين بيئتـه الأولى، البيئـة قـد تقيّـد الجسـد، لكـن النفـس الحـرة تهـدم جدرانهـا وتعيـد تعريـف ذاتهـا، فليـس المهـم مـن أيـن خرجـت، بـل إلى أيـن اتجهـت، وكيـف رَسـمْت خطـاك في الأرض.

نعـم، الجينـات تحمـل بعـض ملامحنـا، والتربيـة تـزرع داخلنـا بعـض الاتجاهـات، والبيئـة تشـكّل حولنـا بعـض السـياج... لكـن كل ذلـك لا يصنـع وحـده الإنسـان، فالإنسـان في النهايـة هـو نتـاج اختيـاره، نتـاج مقاومتـه، نتـاج قـراره بـأن لا يكـون ضحيـة، بـل أن يكون بدايـة جديـدة، ومصـدر إلهـام، فكـم مـن نسـب رفيـع أُهـدِر، وكـم مـن أصـلٍ متواضـع سُـمِّيَ بالعظمـة حـين امتلـك صاحبـه جـرأة الانطـلاق مـن الصفـر، إذ ليسـت الأنسـاب ولا الجـذور هـي التـي تصـوغ المجـد، بـل الأفعـال التـي تترتـب عليهـا، والهمـم التـي تشـق طريقهـا في صخـر الحيـاة، فالعظمـة لا تسـتأذن الأبـواب العاليـة لتدخـل، بـل تصنع لنفسـها دروبًـا ولـو مـن شـقوق الجـدران، تمـضي بمـن آمـن بنفسـه، ولـو لم يؤمـن بـه أحـد.

ولربـما كان مـن فضـل الله عـلى بعـض النـاس أن وُلـدوا في ظـروف قاسـية، فتخلّقـوا مـن شـدة الألم عزيمـة لا تلـين، ومـن وعـورة الطريـق بصـيرة لا تخـدع، ومـن قسـوة التجربـة مرونـة تحـوّل المحنـة إلى منحـة، والسـقوط إلى سـلّم صعـود، هـؤلاء لا يرتهنـون لتصنيـفٍ

اجتماعـيّ، ولا لطبقـةٍ نسـبية، ولا لشـهادة ميـلاد، بـل يقيمـون برهانهـم عـلى مـا يُنجـز لا عـلى مـا يُـورث، وعـلى مـا يُبنـى لا عـلى مـا يُسـمَع، وإن التاريـخ مـا كتـب سـطور عظمائـه لأنهـم وُلـدوا في القصـور، بـل لأنهّـم حوّلـوا تواضـع البـدء إلى رفعـة الختـام.

اجتهـد في أن تكـون نتاجـاً لاختياراتـك لا ضحيـة لظروفـك، واكتـب مصـيرك بيـدك، لا بقلـم الزمـن، صحيـح أنـك لم تُخـيَّر في منشـئك، ولا في المحيـط الـذي وُلـدت فيـه، ولكنـك تملـك أن تختـار رد فعلـك، وجهـة طريقـك، وحـدود أحلامـك، نعـم قـد تكـون البدايـة قاسـية، وقـد تُرمـى في ميـدان الحيـاة دون عُـدّة، لكـن مـا يرفـع الإنسـان ليـس عظمـة النقطة التـي انطلـق منهـا، بـل القـوة التـي اسـتجمعها في الطريـق، لسـت مطالبًـا بـأن تكـون بطـلًا خارقًـا، ولا بـأن تتجاهـل مـا فيـك مـن تعـب ووهـن، بـل مُطالـب أن تتمسّـك بـما تملـك، أن تُحسـن توجيـه بصيرتـك، أن تُنصـت لصـوت داخلـك حـين يقـول لـك: «جـرّب مـرة أخـرى».

الأيادي السخية لا تُمسك بالأيادي الشحاح

تقـول العـرب في أمثالهـا: «لا تَهـدر سُـقياك في أرضٍ لا تُنبـت، فـإن الجُـود حـين يُسرف في غـير موضعـه، يصـير خِفّـة».

ليسـت المأسـاة أن تبـذل، بـل أن تبـذل في غـير موضـع، وأن تعطـي حتـى التـلاشي لمـن لا يعـرف مـن العطـاء إلا الأخـذ، الأيـادي السـخية خُلقـت لتمـدّ، لا لتُسـتنزف، لتـزرع، لا لتُنهـب، لكنهـا حـين تُمسـك بأيـدٍ شـحيحة، تنطفـئ أناملهـا شـيئًا فشـيئًا، ويتحـوّل الكـرم فيهـا إلى وهـن، لأن السـخاء إذا لم يُقابَـل بالعرفـان، صـار اسـتنزافًا لا شرفًـا.

قِيـل في الحكايـات أن رجـلًا كريـمًا في قريـة يملـك بئـرًا يسـقي منـه النـاس والـدواب، وكان في طرفهـا رجـل شـحيحٌ لا يجيـب سـائلًا ولا يطعـم جائعًـا، يُغلـق يـده كـما تُغلـق الحجـارة عـلى المـاء، فلـما جـدب الزمـان وجفّـت الآبـار، جـاءه متـوددًا، يطلـب مـاءً لـه ولأهلـه، رقّ قلـب الكريـم، لا طمعًـا في جـزاء، بـل طاعـةً لطبعـه الأصيـل، فسـقاه، ثـم أشركـه في البئـر، ويـا ليتَـه لم يفعـل! فـما لبـث الشـحيح أن جعـل نفسـه سـيّد المـاء، يعـدّ القطـرات، ويمنـع العطـاش، ويتهـم الكريـم بالتبذيـر، ولـمّا ذكَّـره الكريـم بفضـل الأيـام الأولى، قـال لـه في جحـودٍ بـارد: «لـولاي لمـا صمـد البئـر، كنـت تسرفـه بجهلـك!» فـأدرك الكريـم، ولكـن بعـد أن نضـب القلـب كـما نضـب البئـر، أن اليـد الشـحيحة إذا أمسـكت باليـد الكريمـة، خنقتهـا، وأن مـن لا يُقـدّر الفضـل لا يُؤتَمَـن عليـه.

الشـح ليـس فقـرًا في الجيـب، بـل في الـروح، في تلـك النفـوس التـي تـرى العطـاء ضعفًـا، والكـرم تبذيـرًا، فاحفـظ يـدك الكريمـة مـن التلـوث بأيـدٍ لا تجيـد إلا القبـض، ولا تمنـح إلا حـين تُجـبر، دع كرمـك لمـن يـراه نعمـةً لا غنيمَـة، وازرع في أرضٍ تعـرف كيـف تُنبـت، فإنـك إن أطلـت الإمسـاك بمـن لا يُثمـر، خـسرت المـاء والبـذر معًـا. وفي سـاحات الحـب والعلاقـات، نـرى هـذه الحقيقـة بأشـد صورهـا وضوحًـا، فالقلـب السـخيّ لم يُخلـق ليُسـتنزف، بـل ليُغـدق بفيـض مـن الحنـان والوفـاء، لكـن إن التقـى بقلـب بخيـل، لا يمنـح إلا بالمقايضـة، ولا يُعطـي إلا بـشروط، تصبـح العلاقـة زحامًـا مـن الجـراح، وموطنًـا للخـذلان؛ فالحـب لا ينمـو إلا في تربـة التبـادل، حيـث تتلاقـى الأيـادي لا لتأخـذ فقـط، بـل لتُعطـي وتُجـدد العهـد، فـلا تسـتقيم العلاقـة بيـدٍ تمنـح وأخـرى ترفـض.

الأيـادي السـخيّة لا تُمسـك بالأيـادي الشـحاح، لا كـبراً ولا ترفّعـاً، بـل لأن الفطـرة الكريمة تأبـى القيـد في يـدٍ لا تعـرف كيـف تعطـي، ولا تليق بهـا المسـاومة عـلى مشـاعرها، أو البخل في أبسـط واجباتهـا، نـرى هـذا القانـون غـير المكتـوب يتجـلّى في تفاصيـل الحيـاة اليوميـة: السـخاء لا يصمـد طويـلًا حـين يُقابَـل بالشـح، والكـرم لا يزدهـر في تربـة البخـل العاطفـي أو المـادي، فالكـرم ليـس في العطـاء المـادي وحـده، بـل في المبـادرة، في الشـعور، في الحضور، في أن تمتـدّ اليـد قبـل أن يُطلَـب منهـا، وأن تُغـدق المحبـة بـلا حسـاب، أمـا اليـد الشـحيحة، فهـي لا تبسـط كفّهـا إلا مرغمـة، ولا تمنـح إلا وفي قلبهـا حسـابٌ وانتظـارٌ للمقابـل، وكـم مـن نفـوسٍ معطـاءة خذلتهـا أيـادٍ تعـرف الأخـذ ولا تُحسـن الـردّ، فانسـحبت بصمـت، لا لأنهـا تنـدم عـلى مـا منحـت، بـل لأنهـا أدركـت أن البـذل لا يُجـدي في موضـع لا يُثمّـن النيـة، ولا يصـون العطـاء، فالعلاقـة التـي تقـوم عـلى طـرفٍ يعطـي بـلا حسـاب، وآخـر يشـحّ حتـى بالاعـتراف، سرعـان مـا تنهـار تحـت وطـأة الجفـاء، والعلاقـات الإنسـانية أسـمى مـن حسـاب الربـح والخسـارة، وأسـمى مـن ميـزان العطـاء والجمـع، إنهـا تفاعـل الأرواح في مواسـم الائتـلاف، لا في بـراري الهجـر والخصـام، ولهـذا، تنسـحب النفـوس السـخية مـن العلاقـات التـي تتكـئ عـلى البخـل، وتُدير ظهرهـا لصمـتٍ بـاردٍ يكلّفهـا دفئهـا، فهـي لا تتقـن التقتـير، ولا تليـق بهـا المعادلـة الجافـة: «أعطنـي لأعطـك»، إنهـا تـترك وتمـضي؛ لأن الكريـم حـين يُهـان، يرحـل بصمـت دون أن يعاتـب أحـدًا.

الأيـادي السـخيّة تسـتحق أن تمسـك بأيـادٍ تُبادلهـا دفئًـا، لا بأيـادٍ لا تحفـظ الجميـل، ولا تتـورّع عـن السـحب دون رد، فالسـخاء في العلاقـات ليـس عبوديـة للعطـاء، بـل شراكـة بـين كـرمٍ واعـتراف، بـين مـن يبـذل ومـن يُقـدّر، بـين مـن يصـبر ومـن يـردّ الوفـاء في حينـه، فالحـبّ لا يقـوم عـلى طـرفٍ ينـزف، وآخـر يرحـل، بـل عـلى تـوازنٍ بـين القلبـين، حيـث البـذل يقابلـه حنـو، والاحتـمال تقابلـه لمسـة امتنـان، أمـا حـين تُختـزل العلاقـة في طـرفٍ يعطـي حـدّ الإنهـاك، وآخـر لا يـرى إلا نفسـه، فـلا بـد أن ينكـسر شيءٌ مـن المعنـى، وتنكمـش يـدٌ كانـت مفتوحـة عـلى آخرهـا، لأنهـا مـا وُجـدت لتُسـتنزف، بـل لتُحتضـن.

الفضل الأول لا يذوب في نهر النسيان

جاءت امرأة عجوز إلى النبي ﷺ، فقال: «مَن أنتِ»؟ قالت: جَثّامة المزنية، فقال ﷺ: «بل أنت حَسَّانة المزنية، كيف حالكم؟ كيف كنتم بعد ذا»؟ قالت: بخير، فلما خرجت قالت عائشة: تُقْبِلُ هذا الإقبال على هذه؟! فقال ﷺ: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان»[1]

كانت تأتينا أيام خديجة، سنوات مضت وأحداثٌ عظام قد تنسي المرء تلك اللحظات العابرة، لكنها لم تحل دون أن يتذكر عجوزًا كانت تزور خديجة، فكان لها في قلبه مكان، ومضت السنون، وتعاقبت الأحداث، وتبدلت الوجوه، لكنها لم تغب عن ذاكرته، لم يطوِ الزمان أثر تلك الزيارة العابرة، ولم يُبدّل تغير الأحوال وفاءه لمن كانت تربطه بهم لحظة مودة، لم يعرفها في البداية، لكن حين نطقت باسمها استدعى قلبه صورتها، ليس صورتها وحدها، بل دفء الأيام التي جمعتها بأقرب الناس إليه، فكان استقباله لها امتدادًا لعهوده القديمة، عهد المروءة والوفاء، عهد أن تبقى الذكريات الصادقة ماثلة مهما تباعدت الأيام.

إن الوفاء ليس مجرد كلمة تقال، بل هو شعور يسكن القلب، يظهر في أدق التفاصيل، في لحظات التقدير الصامتة، في إكرام من جمعتنا بهم أيام خلت، في تذكر مَن كانت له يد أو صلة ولو عابرة في حياتنا، فالحرُّ، هو من يصون لحظة ودّ كما يصون العمر كله، ومن يعترف بفضل كلمة كما يعترف بصنيع العمر، الوفاء ليس في رد الجميل فحسب، بل في إبقاء صاحبه حيًّا في الذاكرة، حاضرًا في القلب، محفوظًا في الدعاء والموقف والكلمة الطيبة، قال الشافعي: « الحر مَن راعى وداد لحظة » وداد لحظة، قد تكون لحظة ودٍّ عابرة، لقاء في سفر أو حديث في طريق، نظرة تفهم أو كلمة لطيفة قيلت دون تكلف، وربما صنيع جميل من شخص تعرفه أو غريب التقته دروب الحياة بلا ترتيب، هذه اللحظات، مهما بدت قصيرة أو عابرة، تترك أثرًا في القلب لا يُمحى بسهولة، والناس مفطورون على حب التقدير، على الاحتفاء بلحظات الصدق التي تشعرهم بأن لهم مكانًا في قلوب الآخرين، فكما تُحب أن يذكر لك إحسان، اذكر

---

١ السلسلة الصحيحة للألباني ١/ ٤٢٤ | وصححه

مـن أسـدى إليـك معروفًـا، ولـو كان كلمـة طيبـة قيلـت في وقتهـا المناسـب، فليـس الكِرام مـن يحفظـون الأعـوام، بـل مـن لا ينسـون لحظـة صـدق، أو نظـرة ودّ، أو كلمـة خرجـت مـن القلـب فاسـتقرت في القلـب، الحـرّ حقًـا، هـو مـن تُناديـه المـروءة عنـد أوّل جميـل، فـيردّ الدَّيـن مضاعفًـا، لا يضيّـع المعـروف وإن كان يسـيرًا، ولا يتنكـر ليـدٍ امتـدت يومًـا في ضيـق، ولا لصـوتٍ خفـف عنـه كربـة في غفلـة مـن النـاس، فاللحظـة التـي أسـندك فيهـا أحدهـم، قـد تكـون عابـرة في وقتـه، لكنهـا خالـدة في ضمـيرك، ولـذا يبقـى الـشرف كلّـه، أن تـردّ الجميـل لا حـين يُطلـب، بـل حـين يوشـك أن يُنسـى.

الحـرّ لا ينسـى مـن أكرمـه في حاجتـه، ولـو كان العطـاء كلمـةً طيّبـة، أو انتظـارًا صامتًـا، أو دفءَ عاطفـةٍ عابـرة، هـو مَـن يـرى في الـودّ دينًـا، وفي اللحظـة الكريمـة عهـدًا، لا تـذروه ريـاح الجحـود، ولا تَمحـوه مشـاغل الحيـاة، فالأوفيـاء لا يقيسـون المعـروف بكثرتـه، بـل بوقتـه؛ وكـم مـن موقـف واحـدٍ فـاق أعـمارًا مـن العِـشرة! وكـم مـن لحظـة وفـاءٍ حفظهـا الحـرّ كأنهـا وصيّـة لا تمـوت! فـلا تـدع الأيـام تمحـو أثـر الـود، ولا تجعـل الزمـان يفصلـك عمـن مـدّ لـك يومًـا يـدًا بيضـاء، فربـما تعـود دروب الحيـاة فتجمعكـما مجـددًا، فليكـن اللقـاء الثـاني محمّـلًا بالوفـاء، لا بالنسـيان.

كـم مـن قلـبٍ نقـيّ تاقـت روحـه لأن يُـردّ لـه الجميـل، فلـم تُمهلـه الحيـاة! وكـم مـن فرصـةٍ للعرفـان أُهـدرت لأنّ أحدهـم ظـنّ أن الزمـن يُسـقط الحقـوق! لا، الزمـن لا يُعفـي، بـل يُختـبر فيـه الوفـاء، فاحمـل ودّ مـن أحسـن إليـك كأمانـة وإن فرّقتكـم الطـرق، فـإن صادفتهـم يومًـا فليكـن سـلامك دافئًـا كعنـاق العُمـر، ولتكـن كلمتـك امتـدادًا لـذاك المعـروف، كأنـك تقـول: مـا نسـيت، ولـن أنسـى.

في حيـاة الكـرام، لا يمـرّ المعـروف مـرور الريـح، ولا تُنسـى اللمسـات الأولى التـي امتـدّت إليهـم يـوم ضاقـت الأرض، ولـو كانـت خفيفـة ككـفٍّ عـلى كتـف، أو كلمـة في لحظـة انكسـار، فذاكـرة الكـرام لا تعمـل بمواسـم النفـع، ولا تمحـو أثـر الخـير حـين تغيـب الحاجـة، بـل تحتفـظ بـه كـما يُحتفـظ بالكنـز، لا يُبـدَّد ولا يُنكـر، فكـم مـن موقـف عابـر خلّـف في الـروح أثـرًا لا يُنسـى! وكـم مـن عـونٍ بسـيط أنقـذ القلـب مـن غـرقٍ وشـيك، فغـدا أثـره محفـورًا في موضـعٍ لا تطالـه يـد النسـيان، واحتـل مـن النفـس زاويـة لا تطفئهـا المسـافات ولا تغيّرهـا الظـروف.

القلوب تعرف دربها، وإن أضاعتها الأماكن

قال ابن عباس: «ولم نرَ مثل تقارب القلوب»، وكيف يرى العاقل سرًّا كتقارب الأرواح؟ إنّه الأمر الذي يُدار في الغيب، لا تسعفه المقاييس، ولا تُحسن شرحه اللغة، فلا تبحث في الحب عن علّةٍ تُرضي العقل، إنه فيضٌ من السماء، لا يخضع لحساب، ولا يُدار بميزان، إنّها إرادة الله، وإذا زرع الله في قلبٍ وِدًّا، فأنّى لبني آدم أن يقتلعوه؟ ما زرعته يد الرحمة، لا تقتلعه يد الفقد، ولا تذويه مسافات، ولا تنسفه السنون.

قد تذهب بك الحياة في ألف طريق، وتضعك الظروف في أماكن لا تشبهك، وتدفعك القرارات إلى محطات غريبة، لكن القلب الذي يعرف مَن يحب، ومَن يأنس به، ومَن يطمئنّ إليه لا يُخطئ الإشارة، ولا تُغويه الزينة، بل ينعطف وحده، بثقة المُلهَم، إلى حيث وجد الحقيقة أول مرة، فليس للقلوب خرائط على الورق، ولا بوصلة تشير بها الجهات، لكنها حين تصدق، تهتدي، ولو ضلّ المكان وتاهت العيون، فثمة إشارات لا تُرى، لكن تُحس، تقود القلب إلى ما يشبهه، لا إلى ما يُرضي العُرف أو يوافق الظاهر، وكم من دربٍ سلكناه بعقلٍ يقيس المسافة، ثم عاد بنا القلب إلى حيث يأنس ويطمئن، فمِن القلوب ما يضلّ حين يتكلم كثيرًا، ومنها ما يهتدي حين يصمت، لكنها دائمًا، إذا أخلصت، وجدت الطريق، حتى لو كانت خطواتها على غير هدى المكان.

كم من حبيبٍ بينك وبينه أعمارٌ وأقطار، ولكنه يسكن قلبك كأنّه لم يخرج منه قط، وكم من وجهٍ يُجاورك كل يوم، فلا يشعر بك، ولا تشعر به، كأن بينكما غشاءً لا يُرى، حائلٌ بين أرواحكم يمنع التلاقي الحقيقي رغم القرب المكاني! فما أقسى أن تلتقي العيون فلا تتلاقى الأرواح، وأن تتقاسم المكان فلا تتقاسم المشاعر، فتظلّ القلوب في عزلة وسط الزحام، تبحث عن دفءٍ مفقود، عن حضورٍ غائب.

إنّ أجمل اللقاءات ليست تلك التي تُقاس بالقرب، بل بتآلف النفوس، حين يلتقي فيها الحاضر بالماضي، وتُحفر اللحظة في الذاكرة كأنها أزلية، فلا تُفترق القلوب رغم البُعد، ولا يطفئ الغياب وهج المحبة، فكم من علاقة تزهر رغم المسافات! وكم من صمتٍ يعلو صوت اللقاء! لأنّ ما يجمع ليس المكان، بل عمق الشعور وصدق

الوفـاء، وكـم مـن علاقـةٍ تعمقهـا المسـافات، وتزهوهـا ظـلال الغيـاب، فالمحبّـة الحقيقيـة هـي أن تسـكن الأرواح بعضهـا بعضًـا، فتظـلّ قلـوبٌ في حـضرة الغيـب قريبـة، وتنسـاب خيـوط الأمـل مهـما تعاظمـت المسـافات، نلتقـي الغريـب، فـلا يلبـث أن يصـير مـن أهـل القلـب، كأن بـين الأرواح موعـدًا سـابقًا لم تعِـه الذاكـرة، لكنّـه محفـوظ في كتـاب الأزل، ونُجالـس غـيره دهـرًا، فـلا نجـد لـه منفـذًا إلى الداخـل، كأنّـه عابـر سـبيل عـلى رصيـف الـروح.

لا تسـأل كيـف ولا لمـاذا، فبعـض الأمـور منقوشـةٌ في اللـوح قبـل أن نُولـد، وبعـض القلـوب خُلقـت لتُجاورنـا، وإن طـال المـدى، وغـاب اللقـاء، فالحـبّ لا يُقـاس بطـول العِـشرة، ولا يُـوزن بثقـل الأيـام، بـل هـو نفحـة مـن الغيـب تمـسّ القلـب فيُفتـح، أو تمـرّ بـه فـلا يُحـرك سـاكنًا، الأرواح جنـودٌ مجنّـدة، مـا تعـارف منهـا ائتلـف، ومـا تناكـر منهـا اختلـف، وليـس لنـا إلا التسـليم لحكمـةٍ تُدبَّـر في الغيـب، وتُنفَّـذ في القلـب بـلا اسـتئذان.

إنهـا أسرار الله في الخلـق، ومتـى حاولـت أن تُفسّرهـا، انكـسرت معانيهـا وتبـدّد سـحرها، لأنّ مـا خُلـق ليُعـاش لا يُـشرح، ومـا خُـطّ بالقَـدَر لا يُمحـى بالتحليـل، فـدع للمحبـة غموضهـا الجميـل، ولـلأرواح خفقاتهـا الخفيـة، فـما كلّ نـورٍ يُفـسَّر، ومـا كلّ قـربٍ يُعلَّـل، إنـه سرٌّ مـن أسرار الحيـاة التـي لا تُفهـم إلا حـين تتـذوق مـرارت الفقـد، وتتـذوق لـذة اللقـاء، فتـدرك أن الحـب الحقيقـي ليـس في التقـاء الأجسـاد، بـل في وحـدة الـروح واسـتمرار الانتـماء، رغـم كل مـا قـد يُبعـد أو يُفـرِّق.

إنّ في الصمـت بـين القلـوب لغـةً لا تحتـاج إلى كلـمات، وفي الغمـوض بـين الأرواح جمـالًا لا يحتمـل التوضيـح، لأنّ بعـض الأشـياء تُنـير القلـب دون أن يُفهـم سرهـا، وتُدفـئ الفـؤاد دون أن يُحكـى سـببها، فلنحتضـن هـذا الغمـوض كهبـة إليهـة، ولنـترك قلوبنـا تسـير عـلى إيقاعهـا الخـاص، ففـي أسرار الله أعظـم معـاني الحيـاة التـي لا تُـدرك إلا بالتجربـة، ولا تُقـال إلا بلغـة الصـدق، فبعـض القلـوب تُفتـح لنـا بـلا مفتـاح، وبعـض الأرواح تُنـادي أرواحنـا قبـل أن تنطـق الألسـن، كأن بينهـا عهـدًا سـابقًا، وإنـك لتشـعر أحيانًـا أن اللقـاء لم يكـن بدايـة، بـل تذكـرة بـشيءٍ قديـم، طـواه النسـيان وظلّـت تهمـس بـه الفطـرة، فـدع الأمـر لله، واسـعَ للحـب كـما تسـعى للصـلاة، بخشـوعٍ لا فضـول فيـه، ويقـينٍ لا حاجـة لـه بتفسـير.

لا تسأل قلبًا مُغرَمًا كيف اختار نبضه؟

لم نلتفت كثيرًا إلى المواقف الصغيرة التي زخرت بها حياة النبي ﷺ، تلك التي تكشف لنا أن البشر بطبائعهم، بقلوبهم التي تحب وتكره، بشوقهم وبُعدهم، هُمْ هُمْ في كل زمان ومكان، حتى في ذلك المجتمع الذي كان يتنفس عبير الوحي صباحَ مساءَ؛ فالإنسان لا ينفصل عن مشاعره، ولا يستطيع أن يتجرد من عواطفه، وأي محاولة للهروب من هذه الفطرة ما هي إلا إمعان في قتل جزء أصيل من إنسانيته، فالعاطفة غريزة شفافة ومشاعر فياضة لم يأت الدين لنزعها بل لتهذيبها، إنها ليست ضعفًا، بل قوة تضبطها الحكمة وتهذبها الشريعة، لا لتلغيها، ولكن لتضعها في موضعها الصحيح.

ومن أروع الأمثلة على ذلك قصة بريرة، الأَمة التي كرهت زوجها وأرادت أن تتحرر منه، فلما صارت حرة رفضت البقاء مع زوجها مغيث رغم شدة تعلقه؛ فقد أحبها بكل ما أوتي من قلب، لكن قلبها لم يكن يبادله المشاعر نفسها، فكان يطوف خلفها، يبكي بحرقة، ودموعه تسيل على خديه، لا لشيء إلا لأنه يحبها حبًّا لا يُقاوَم، لكنه حب لم يجد له صدى في قلبها، فتعجب النبي ﷺ من هذا المشهد الإنساني العميق وقال لعمه العباس: يا عبَّاسُ ألا تعجَبُ من حبِّ مغيثٍ بريرةَ ومن بُغضِ بريرةَ مُغيثًا ؟ !

وكأنها مفارقة من مفارقات الحياة التي تضع أمامنا الحب في أنقى صوره، لكنه في الوقت ذاته حب غير متبادل، فلا هو قادر على التوقف عن حبها، ولا هي قادرة على أن تجود له بغير الجفاء.

حاول النبي ﷺ أن يشفع عندها، لا أمرًا بل رأفةً بحال الرجل، فقال لها: « لو راجعتيهِ فإنَّهُ أبو ولَدِكِ » لكن بريرة، التي عرفت تمامًا ما تريد، سألت بثبات: يا رسولَ اللَّهِ تأمُرُني؟ فقالَ: « إنَّما أشفَعُ » فأجابت بكل وضوح: لا حاجةَ لي فيهِ.[1]

لم يكن قرارها خاليًا من القسوة، ولكنه كان نابعًا من قناعة صلبة بأن الزواج لا يستقيم بالمشاعر الأحادية، وبأنها لن تبقى في علاقة تخنق روحها، اختارت أن تمضي بلا تردد، لم تساوم قلبها، ولم ترضخ لعاطفة لم تجد لها في داخلها صدى.

١ أخرجه البخاري (٥٢٨٣) وابن ماجه (٢٠٧٥) واللفظ له

أمـا مغيـث ـ زوجهـا ـ فظـل يبكـي، يـدور خلفهـا في الطرقـات، يجمـع مـا تبقـى مـن الذكريـات، يحـاول اسـتجداء لحظـة ضعـف تعيدهـا إليـه، لكنـه كان يعلـم، كـما كان الجميـع يعلـم، أن القلـوب لا تُشـترى، وأن العاطفـة لا تُفـرض فرضًـا، لم يكـن بيـده أن يوقـف فيـض مشـاعره، كـما لم يكـن بيدهـا أن تجـبر قلبهـا عـلى الميـل إليـه، وقـف عـلى حافـة العجـز، لم يكـن يملـك سـوى البـكاء، يطـوف خلفهـا والدمـوع تحفـر أخاديـد الحسرة عـلى وجهـه، يبكـي لا لـشيء إلا لأنـه يحبهـا حبًـا لم يسـتطع أن يطفئـه صدُّهـا، ولا أن يمحـوه جفاؤهـا.

لم يكـن الفـراق خيـاره، لكنـه وجـد نفسـه مرغـمًا عليـه، يحملـه كجـرح لا يندمـل، وذكـرى لا تمـوت، وكأن القصـة لم تكـن سـوى حكايـة صامتـة، فصولهـا مـن الدمـوع، ونهايتهـا أثـر لا يـزول.

فـأي قلـب هـذا الـذي تحملـه يـا مغيـث، حتـى تسـير وراءهـا في طرقـات المدينـة، دامـع العـين، كسـير الفـؤاد، لا تبـالي بنظـرات العابريـن ولا همسـات المتعجبـين؟

وأي قلـب تحملـه بريـرة حتـى مضـت غـير آبهـة، لم يـرقّ قلبهـا لدموعـك، ولم تلتفـت لحزنـك؟

وهل يبكي الرجال على فقدان الحب؟

نعـم، يبكـون، وإن ظـن البعـض أن الدمـع لا يليـق إلا بضعـف، فـإن الفـراق يخلـع القلـوب، ويمـزق الأرواح، ويجعـل أشـد الرجـال بأسًـا يئـن تحـت وطأتـه، فالحـب حـين يسـكن القلـب لا يطرقـه اسـتئذانًا، والفـراق حـين يجـيء لا يـترك مجـالًا للمقاومـة، ومـا بعـد الفقـد إلا نـدوب لا تـبرأ، وأطيـاف مـن الذكـرى تعـود كلـما أرخـى الليـل سـدوله، فتهتـز الـروح لحنـين لا رجعـة فيـه، ولحـب عـاش في القلـب وإن مـات في الواقـع.

وهكـذا مـضى كل واحـد منهـما في طريقـه، هـو يحمـل في قلبـه حبًـا لـن يُنسـى، وهـي تمـضي بثبـات نحـو حريتهـا، وكأنهـا قصـة صامتـة، لم يكـن فيهـا سـوى البـكاء عـلى حـبٍ لم يُكتـب لـه البقـاء، وذكـرى تحفـر في القلـوب أثـرًا لا يـزول، فتعجـب النبـي ﷺ مـن هـذا المشـهد الإنسـاني العجيـب؛ حـب جـارف مـن مغيـث يقابلـه صـدٌ ونفـور مـن بريـرة،

وكأن القلـوب قـد خُطّـت عـلى صفحاتهـا مسـارات لا تتقاطـع، فالنـاس في الغالـب يبادلون الحـب ولـو مـن بـاب الوفـاء، يحنّـون إلى مـن أحبهـم وإن لم يحبـوه، يـردون العاطفـة ولـو بظـلٍّ خافـت مـن الـود.

إنّـه الحـب الـذي لا يكتفـي بـأن يكـون شـعورًا عابـرًا، بـل هـو قـرار بـأن تبقـى وفيًّـا مهـما غابـت الأجسـاد، وأن تحمـل في قلبـك ذلـك الحضـور الـذي لا يُـرى بالعـين، لكنـه يُحـسّ في كل نبضـة، في كل نفـس، في كل لحظـة صمـت وسـكون، وكأنـه عهـدٌ لا تنكـسر أوتـاره، بـل تـزداد مـع كل اختبـار؛ إذ تنسـج التجـارب مـن خيوطـه حبـلًا متينًـا يربـط القلـوب، فيصبـح مـن الصعـب عـلى الزمـن أو المسـافات أن تفتتـه.

لكـن الحـب لا يُقايـض بجميـل ولا يُقـاس بالمعاملـة، بـل هـو نبـض فطـري يتدفـق مـن الأعـماق دون شروط، يـشرق حتـى في أقسـى الظـروف، ويبقـى نورًا يُـضيء الظلام ويُسـكن العواصـف، لا يكـون العطـاء فيـه مقيّـدًا بالمقابـل، بـل هـو عهـدٌ بـين قلبـين يتبـادلان الأمـان والصـدق والسـكينة، يتقاسـمان السـعادة والألم، ويعـرف كل منهـما أن للحـب ألوانًـا لا تنتهـي، وأشـكالًا تتغـير، لكنـه في جوهـره بـاقٍ، لا يبـدده الزمـن ولا تزعزعـه المسـافات.

حين لا يتعارض الهوى مع الهدى

كثيرًا ما يُساء فهم العلاقة بين الدين والحب، فيُخيَّل للبعض أن الدين قيدٌ يُطفئ وهج المشاعر، وأنه خصمٌ للعاطفة، يُخنَق به القلب كلما همّ أن ينبض، وأنّ كل شعورٍ جارفٍ يجب أن يُكبت، وكل ميلٍ صادقٍ لا بد أن يُقيَّد، لكن الحقيقة أن الدين لا يقف ضد الحب، بل يقف إلى جواره، يصحّحه، ويهذّبه، ويرتقي به، فالدين في جوهره ليس نداءً للكبت، بل دعوة إلى حبّ لا يلوّثه التملك، ولا يجرحه التهاون، حبٍّ لا ينبت في الظل، بل يمشي في النور، ليقيه من أن ينقلب إلى لهوٍ أو استهلاكٍ أو ذوبانٍ مذلّ، فالدين حين يحكم الحب، لا يطفئه، بل يرفعه من مقام الرغبة إلى مقام المسؤولية، ومن عبث اللحظة إلى عمق الامتداد، إنه لا ينكر أن الإنسان قلب قبل أن يكون عقلًا، لكنه يُعلّمه أن القلب وحده لا يكفي، وأن أجمل ما في الحب أن يكون نقيًّا من التملّك، طاهرًا من الخداع، صادقًا في المقصد، شريفًا في الوسيلة.

الحب الذي يولد في ظلال القيم، لا يخذل صاحبه؛ لأنه لا ينهش في السرّ، بل يظهر في النور، ولا يُستعمل للهروب، بل يُبنى عليه القرار، والدين لا يُصادر حقّ القلب في أن يحب، بل يُعلّمه أن لا يُراهن على من لا يخشى الله فيه، ولا يُكرمه في حضرة الغيب، ولا يحترم فيه الكلمة والمبدأ، فليس كل من أحبّك أكرمك، لكن من أحبك لله، حفظك، وإن بَعُد، ورفق بك، وإن اشتدّت به الأشواق، ذلك هو الحب الذي لا يستنزف الكرامة، ولا يستعجل المصير، حبّ يسير على قدمٍ من تقوى، وخطى من وعي، يُدرك أن ما بُني على صدق النية وصلاح السبيل، يباركه الله وإن تأخر، ويُقرّه القلب وإن طال انتظاره.

في حديث عائشة، نجد صورة لهذا الحب المتوازن الذي يصور تناغمًا بين المشاعر والعقل، فقد قال لها النبي ﷺ يومًا: إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غضبى، فقالت عائشة: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت عليَّ غضبى قلتِ: لا ورب إبراهيم، قالت عائشة: أجل، والله -يا رسول الله- ما أهجر إلا اسمك.[١]

---

١ البخاري ٥٢٢٨ ومسلم ٢٤٣٩

حديـث أشـبه بـدرس عميـق في العلاقـة المتّزنـة: فالنبـي ﷺ يقـرأ لغـة مشـاعر عائشـة دون أن تُفصـح، ويلاحـظ تبـدّل صيغـة القسـم كعلامـة رقيقـة عـلى حالهـا، مـا يـدلّ عـلى ذكاء عاطفـي نـادر، ونفـاذ في فهـم النفـس البشريـة، وعائشـة، رغـم غضبهـا، لا تهجـر سـوى «الاسـم»، أمـا المحبـة فثابتـة، والمكانـة محفوظـة، والوفـاء لا يتزحـزح، فهـا هنـا الحـب في أنقـى مظاهـره: غضـب لا يفسـد الـودّ، وعتـب لا يكـسر الرابـط، وكلمـة صادقـة تُقـال دون تصنّـع، لأن الحـب الصـادق لا يخجـل مـن لحظـة توتـر، لكنـه لا يسـمح لهـا أن تهـدم مـا بُنِـي بالصـدق والسـكينة، وهـذا المشـهد يلخـص جوهـر العلاقـة الناضجـة: أن تُحفـظ المحبـة حتـى في أوقـات الغضـب، وأن يُصـان اللسـان حتـى عنـد الامتعـاض، وأن يكـون الخـلاف مسـاحة لفهـمٍ أعمـق، لا لـحـربٍ خفيّـة، ففـي بيـت النبـوّة، لم تُطفـأ المشـاعر، بـل رُشـدت، ولم يُكبـتٍ الغضـب، بـل وُجِّـهَ، ولم يُطلـب مـن القلـب أن يصمـت، بـل أن يصـدق... ليكشـف هـذا المشـهد النبـوي أن الحـب الصـادق لا يُقـاس بغيـاب الخـلاف، بـل بقـدرة القلـب عـلى أن يظـلّ وفيًّـا وسـط تقلبـات الشـعور، وفي بيـتٍ كان فيـه الوحـي ينـزل، نتعلّـم أن الرقـيّ في العلاقـة ليـس في دفـن الانفعـال، بـل في تهذيبـه، ولا في إنـكار الضعـف، بـل في تجـاوزه بنُبـل، وأن الحـب في أكمـل صـوره هـو الـذي لا تهـزّه الكلـمات، ولا تُطفئـه العتبـات العابـرة، لأنـه نبـت مـن الصـدق، وسُـقي بـماء الوفـاء، فالمحبـة التـي تحفـظ الـودّ حتـى في لحظـات الجفـاء، وتترفّـع عـن الأذى وإن غلبهـا الغضـب، هـي المحبـة التـي تسـتحق أن تُخلّـد.

إن الديـن لا يُخاصـم الحـب، بـل يضـع لـه منـاراتٍ تحفظـه مـن التيـه، فـلا يسـمح أن يُتّخـذ الحـب ذريعـة لانهيـار الأخـلاق، أو سـتارًا لـوأد العفـة، أو جـسراً نحـو التلاعـب بالمشـاعر تحـت رايـة كاذبـة، فالقلـب الـذي يخـرق سـياج القيـم لا يبحـث عـن حـب، بـل عـن لـذّة مموّهـة بشـعار الحـب، إن الديـن ضـد كل انهيـار للخُلـق باسـم الحـب، كل وأد للعفة باسـم الحـب ، فـالله الـذي أوجـد في قلوبنـا المشـاعر أوجـد بجوارهـا الإرادة التـي تضبـط سـيرها؛ لتذكرنـا أن حياتنـا مـع العفـة أنقـى مـن حياتنـا مـع الرذيلـة، وأن حياتنـا مـع الكرامـة أنقـى مـن حياتنـا مـع المذلـة ، وأن حياتنـا مـع الفضيلـة أنقـى مـن حياتنـا مـع الانحطـاط .

قلوبٌ لا تنكسر

ثمّة لحظات في عمر الإنسان لا تنكسر فيها الجدران من حوله، بل تتزلزل الأرض من تحت روحه، تتهاوى فيها المسلّمات، وتضطرب فيها الحقائق التي طالما بدت راسخة، ويصبح المألوف غريبًا، والمأمون موضع شك، تتبدل الوجوه، وتخون الظنون، وتتبعثر خرائط الأمان، وما أقسى أن يُخذل الإنسان لا من الخارج، بل من داخله! أن ينظر إلى نفسه فلا يعرفها، كأنما تشققت مرآته من دون كسرٍ ظاهر، ومع ذلك، لا تفيض كل الزلازل هدمًا، فبعض الانهيارات تُخرج من باطن القلب ما لم يكن ليظهر في الرخاء، مِن الناس مَن يسقط حين تميد به الأرض، ومنهم من يغرس قدمه أعمق، وكأن قلبه جذع نخلة، لا تزعزعه الرياح بل تُثبّته، لا لأن الألم لم يمسّه، بل لأنه آمن أن الاتزان ليس في ثبات الطريق، بل في ثبات الخطى حين تتلوّى الطريق ذاتها .

وقِوام الثابتين ليس في أنهم لم يسقطوا، بل في أنهم لم يبيعوا أنفسهم عند أول امتحان، ولم يبدّلوا وجوههم عند أول ارتباك، تمرّ بهم الليالي الحالكة، والفتن المهلكة، لكنهم يُمسكون بجمر القيم، ولو أحرقتهم، لأنهم آمنوا أن من زلّ فلم يرجع، هو الساقط حقًا، أما من زلّ ونهض، فهو السائر رغم كل شيء، فإذا رأيت من ثبت يوم زلّت الأقدام، فاعلم أنه قد حفر قيمة في قلبه لا على وجهه، وأنه لم يجعل من ضعفه حجة على مبادئه، بل جعل من مبادئه سلّمًا يخرج به من ضعفه.

بعد وفاة النبي ﷺ وليَ أبو بكر أمر المسلمين فارتدت بعض قبائل العرب عن الإسلام ومنعوا الزكاة، فرأى أن يقاتلهم فلم يوافقه الرأي عمر بن الخطاب وغيره من كبار الصحابة ، فثبت أبو بكر على موقفه؛ لئلا ينقص الدين وتتهاوى أركانه واحدة تلو الأخرى، وتمسك بمبدأه حتى قال عمر: «فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق» فموقفه لم يكن فقط ثباتًا سياسيًا أو عسكريًا، بل ثبات قلبٍ موصول باليقين، في لحظة كان فيها كل شيء مهددًا بالانهيار: الدولة، الدين، وحدة المسلمين، فموقفه أشبه بصمود القلب في زلزلة التاريخ، وهو

قلـب لم ينكسر لا مـن وقـع الارتـداد، ولا مـن تـردد الصحابـة، بـل نهـض ليحمـل وحـده أمانـة النبـوة بعـد غيـاب النبـي ﷺ.

فما سرّ القلوب التي لا تنكسر؟

سرُّهـا أنهـا لم تُعلّـق وجودهـا بـما يـزول، ولا سـلّمت مصيرهـا لريـح تمـرّ فتُطفـئ، بـل اتّـكأت عـلى يقـينٍ بمـن لا تنفـد خزائنـه، قلـوبٌ خـبرت الخيبـة دون أن تسـكنها، ومـرّت بالخـذلان دون أن تُصـاب بالشـك، لأن مـا بُنـي فيهـا أعمـق مـن جـرح، وأثبـت مـن عابـر ألم، قلـوب أيقنـت أن الألم زائـر لا مقيـم، وأن الغـرق لا يكـون مـا دام الأمـل يصعـد كالدعـاء في آخـر الليـل، سرّهـا أنهـا لم ترهـن طمأنينتهـا بيـد بـشر، بـل علقتهـا بخيـطٍ متـين مـن الإيـمان، كلـما انكـسروا جبرهـم القـرب.

هـو قَلـبُ أُمّ عـادت لتعـد الطعـام لأبنائهـا بعـد أن غـادر النعـش عتبـة البيـت، ورجـلٍ فقـد رزقـه فقـام يبيـع عـلى الرصيـف وهـو يبتسـم، وفتـاةٍ خذلتهـا الحيـاة مـرارًا، لكنهـا عـادت تكتـب وتـزرع وتحـب، هـي قلـوب مـن يبتسـمون في قاعـة الانتظـار بعـد نبـأٍ مـؤلم، ويجمعـون شـتات نفوسـهم كـما يجمـع العصفـور قشـه بعـد العاصفـة، قلـوب مـن طردتهـم الحيـاة مـن حلمهـم فاسـتأجروا حلـمًا جديـدًا وبنـوه لبنـة لبنـة، هـؤلاء هـم أصحـاب القلـوب التـي لا تنكـسر، لأنهـم آمنـوا أن الانكسـار ليـس النهايـة، وأن بالحيـاة شـيئًا يسـتحق أن نعيـش مـن أجلـه، هـي قلـوب تمـضي، مهـما تعثـرت، لأن في داخلهـا بوصلـة لا تشـير إلى الـوراء ربـما لأنهـا اتخـذت مـن الله سـندًا لا مـن المواقـف، ومـن المعنـى مـأوى، لا مـن الظـروف، كل إنسـان معـرض لأن تـزل قدمـه في مسـار الحيـاة، سـواء بفشـل، أو خيبـة، أو خطـأ غـير مقصـود، فالوقـوف بعـد التعثـر ليـس مجـرد فعـل جسـدي، بـل هـو قـرار داخـلي، فالثبـات ليـس ألا تُصـاب، بـل أن تُصـاب وتظـل تبنـي، أن تُخـذل وتظـل تُحـب، أن تتـألم وتظـل تـرى المعنـى في كل هـذا الألم، والوقـوف في وجـه الانهيـار ليـس بطولـة معلنـة، بـل رسـالة خفيـة تكتبهـا الـروح، ومَـن يكتبهـا لا يطلـب تصفيقًـا، يكفيـه أن يقرأهـا حـين يخلـو إلى نفسـه، ويعلـم أنـه نجـا.

فما السر؟

إنـه الإيـمان دون صراخ، والرضـا دون استسـلام، والرجـاء دون شروط.

في مرحلة التجاوز قد يدق الحنين أبواب قلبك

في مرحلـة التجـاوز، حـين تظـن أنـك أغلقـتَ الأبـواب بإحـكام، وربّـتّ عـلى كتـف روحـك قائـلًا: «لقـد انتهـى كل شيء»، قـد يمـرّ طيـفٌ قديـم، أو عطـرٌ مألـوف، أو مشـهدٌ يشـبه مشـهدًا قديـمًا، فيـدق الحنـين أبـواب قلبـك، لا ليهـدم مـا بنيـت، بـل ليذكّـرك أن المشـاعر الصادقـة لا تُمحـى بجـرة قـرار، ولا تُنسـى برغبـة نسـيان، فالحنـين ليـس خيانـة للتجـاوز، بـل جـزء منـه، هـو اختبـار القلـب بعـد العاصفـة، هـل مـا زال يرتجـف أمـام النسـيم، أم أنـه تعلَّـم كيـف يُبقـي نوافـذه مغلقـة دون قسـوة، مفتوحـة دون وهـم؟

قـد تشـعر فجـأة برغبـة في العـودة لمـا كنـت عليـه، لا حبًـا في المـاضي، بـل لهفـةً إلى نسـختك القديمـة، تلـك التـي أحبـت بصـدق، وصدّقـت بـلا حـذر، وأعطـت بـلا حسـاب، وتلقّـت الوجـع دون أن تحسـب لـه مـآلات، في هـذه اللحظـة، قـد تظـن أنـك عـدتَ إلى نقطـة الصفـر، لكنـك في الحقيقـة تقـف عنـد مفـترق النضـج، لأن التجـاوز الحقيقـي لا يُقـاس بغيـاب الذكـرى، بـل بقدرتـك عـلى النظـر إليهـا دون أن تـذوب فيهـا، عـلى اسـتحضارها دون أن تسـتدعيك.

نعـم الإسـاءة قـد تكـون مـن فعـل غـيرك، لكـن النزيـف قـرارك، وامتـداد الوجـع مرهـون بـك، فـإن شـئت أن تُـداوي فابـدأ بالمسـافة، فبعـض المسـافات دواء، وبعـض القلـوب لا تصلـح إلا للذكـرى، فالعلاقـة التـي تُفقـدك اتزانـك ليسـت حبًـا، بـل عـبءٌ يتخفـى بثـوب الألفـة، ولا أظـن أن هنـاك عـذرًا يُبيـح لأنفسـنا البقـاء قـرب مَـن أوغـر داخلنـا السـؤال الأكثـر إيلامًـا: هـل أنـا حقًـا بهـذا السـوء؟ فـإن زلزلتـك تلـك الجملـة يومًـا، ولـو همسًـا في أعماقـك، فـدع المـكان وارحـل، لا التفـات ولا تأخـير، قبـل أن يسـتنزف الشـك مـا تبقّـى مـن يقينـك، وقبـل أن تُبـتَرَ ضفـاف روحـك قطـرةً قطـرة، وتغـدو هشـيمًا لا يقـوى عـلى وصـال، ولا يصلـح حتـى أن يكـون ظـلًّا لصديـق.

وقـد تظـن أنـك قطعـت شـوطًا طويـلًا نحـو النسـيان، وأن قلبـك أصبـح محصنًـا ضـد الذكريـات، لكـن فجـأة، يـدق الحنـين أبـواب قلبـك، يـأتي كزائـر قديـم يحمـل معـه رصيدًا مـن الذكريـات، مشـاهدَ عابـرَة، روائـح أماكـن مألوفـة، وأصواتًـا مـن زمـن مضـى، وليس بالـضرورة أن تكـون دعـوة للعـودة لكنهـا أشـبه باختبـار خفـي : هـل تجـاوزت حقًّـا؟

أم أنك فقط دفنت الماضي دون أن تتصالح معه؟

إن الحنـين لمـا مـضى، ليـس دليـلًا عـلى أنـك لم تتجـاوز، بـل عـلى أن قلبـك لا يـزال حيًّـا يشـعر ، وأنـه اسـتوعب الذكـرى، إنـه أشـبه بومضـة عابـرة تُـضيء عتمـة الذكـرى، لا لتعيـدك إلى الـوراء، بـل لتُثبـت أنـك مـا زلـت حـيّ الشـعور، أنـك لا زلـت عـلى قيـد الحيـاة لا قيـد الذكريـات، أن في أعماقـك إنسـانًا لم تُبلّـده التجـارب، ولم تُطفئـه الخيبـات، لكنـه أيضًـا يذكّـرك بأنـك اخـترت المـضي قدمًـا لسـبب يسـتحق أن تتحمـل مـن أجلـه اللوعـة، إنـه أشـبه بنـداء داخـلي يذكّـرك أنـك ذات يـوم قـررت أن تمـضي، لا عـن قسـوة، بـل لأنـك عرفـت أن البقـاء يطفـئ مـا تبقَّـى منـك، وأن الرحيـل كان أثمـن هديـة تقدمهـا لنفسـك، فليـس كل طـارق يسـتحق الإصغـاء، ولا كل مـاضٍ جديـرًا بالعـودة.

الحنـين ليـس ضعفًـا أمـام المـاضي، ولا استسـلاما للعاطفـة التـي دبَّـتْ فيهـا الحيـاة مـن جديـد، بـل هـو مجـرد صـدى لمـا كان، يـأتي ليُظهـر لـك مـدى التغـير الـذي حـدث في داخلـك، ربـما تشـعر بغصـة خفيفـة، ربـما تنهيـدة بصـوت خافـت، ربـما تبتسـم وأنـت تسـترجع ذكـرى قديمـة، وربـما تـشرد في الخيـال تتذكـر القصـة التـي لم تكتمـل، لكنـك في النهايـة تعلـم أنـك لم تعـد الشـخص ذاتـه، أنـت اليـوم أنضـج، وأكثـر وعيًـا بـأن التجـاوز لا يعنـي محـو المـاضي، بـل يعنـي أن تـراه مـن مسـافة آمنـة، دون أن يعيـدك إلى الـوراء مـن جديـد، فإننـا لا ننضـج بمـرور الأيـام إنـما بمـرور النـاس، بالمواقـف، بالأزمـات، بالأوقات الصعبـة التـي تجاوزناهـا، إن الحنـين لا يعنـي الضعـف، بـل أن لديـك وفـاءً لمـا مـضى، وأن قلبـك تعلّـم كيـف يحضـن الذكـرى دون أن يتقيـد بهـا، وكيـف ينظـر خلفـه دون أن يعثـر، وكيـف يُكمـل الطريـق، لا لأن النسـيان تـمّ، بـل لأن السـلام حـلّ.

نعـم قـد تشـتاق لصـوتٍ تعـرف أنـه لـن يُرفـع باسـمك مجـددًا، لصديـقٍ غـاب دون وداع، لحلـمٍ دفنتـه وأنـت تبتسـم مجـبرًا، لكنـك في كل مـرةٍ تدير فيهـا ظهرك لذلـك البـاب، تفعل ذلـك بقلـبٍ أقـل تعلقًـا، وعقـلٍ أكثـر فهـمًا، وروح بـدأت تصـدّق أن بعـض الأشـياء، وإن كانـت جميلـة، ليسـت لـك. كـم هـي موجعـة الأيـام، حـين تمـضي بثقـلٍ لا تشرحـه الكلـمات، فتسرق مـن أرواحنـا شـيئًا فشـيئًا قـدرة الفـرح، وتتركنـا نقلـب الوجـوه بحثًـا عـن ظـلٍّ أمـانٍ. موجعـة حـين تمتحـن صبرنـا بأقـدار لا حيلـة لنـا فيهـا، وتُعيـد ترتيـب أولوياتنـا قـسرًا، وتُجبرنـا عـلى المـضيّ في دروب لم نخترهـا، فقـط لأن التراجـع لم يعـد ممكنًـا.

حُزن يُسكِت صاحبه

مـن الأحـزان مـا لا يُقـال، ومـا لا يُترجـم، ومـا لا يُحكـى حتـى بأبسـط الكلـمات، فبعـض الأوجـاع تنـزل عـلى القلـب نـزول الصاعقـة، فـلا تبقـي فيـه صوتـًا ولا صـدى، وتُدخـل صاحبهـا في صمـتٍ مهيـب، كأن الـكلام نفسـه صـار خيانـة لمـا يشـعر، وكأن الحـروف مهما اكتملـت لـن تفـي بحجـم الانكسـار، ليـس كل سـاكتٍ بخـير، فربـما خلـف الصمـت ضجيـجٌ لا يُحتمـل، وربـما كان الهـدوء صرخـة لم تجـد لسـانًا ينطـق بهـا، فمـن الأحـزان مـا يُخيفـك أن تلمسـه بالـكلام، لأنـه إن نُطـق انهـار تماسـكك الـذي لم تبنـه إلا بشـقّ الـروح، فتُفضّـل الصمـت، لا رضًـا، بـل توقيًـا مـن الانهيـار، فكـم مـن نفـسٍ تجلـس بـين النـاس، تبتسـم وتشـارك الحديـث، لكنهـا تغـرق مـن الداخـل بصمـت، وقـد وصلـت إلى مرحلـة لا تطلـب فيهـا حتـى التعاطـف، بـل السـلام، السـلام فقـط.

ولعـلّ مـن أبلـغ مـا قيـل: «إذا رأيـتَ أحدهـم يُكثـر الضحـك ويقـلّ الـكلام، فاسـأله عـن حزنـه لا عـن يومـه»، الأحـزان التـي تُسـكِت أصحابهـا ليسـت هيّنـة، بـل هـي مـن ذلـك النـوع الـذي يُربـك الحـواس، ويكـسر القـدرة عـلى البـوح، حتـى لـكأن اللسـان قـد تعلّـم الصمـت إكرامًـا للجـرح، فالذيـن يبتلعـون الحـزن صامتـين لا يبحثـون عـن الشـفقة، إنـما عـن يـدٍ لا تُكثـر السـؤال، بـل تُمسـك بصمـتٍ وتمنـح الشـعور بـأن الحيـاة رغـم كل شيء مـا زالـت تسـتحق الاحتـمال.

أغلبنـا يعـرف قصـة نبـي الله يعقـوب عليه السلام ومـا آلـت إليـه حالـه بعـد فقـده يوسـف ابنـه، كيـف صـار الحـزن ظـلًّا يرافقـه في كل لحظـة، كيـف لم تـبرح ملامـح يوسـف ذاكرتـه، فظل يـراه في كل وجـه، ويسـمع صوتـه في كل موقـف، حتـى في اللحظـات التـي لا تسـتدعي ذكـره، كأن القلـب يأبـى إلا أن ينطـق اسـمه، وكأن الفقـد لا يـرضى أن يظـل صامتـًا، بـل يفـرض حضـوره في كل تفاصيـل الحيـاة، لم يكـن يعقـوب عليه السلام جزعـًا ولا معترضًـا، لكنـه كان أبـًا جريحًـا، يحتبـس حزنـه في صـدره ولا يبـوح، يتجـرع الألم في صمـت، حتـى صـار الحـزن سـاكنًا في قسـماته، مقيـمًا في نظرتـه. صـبرٌ يـكاد يختنـق بـين ضلوعـه لكنـه لا يُطلقـه شـكوى، بـل يَكظـم، مكظـوم مـن الحـزن ممتلـئ منـه لكنـه مُمْسِـك عليـه لا يُبينـه ، يـتردد حزنـه في جوفـه لكنـه لا ينطـق بـه .

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (١)

إنها صورة الفقد في أصدق تجلياته، الحزن الذي لا يُقال لكنه يُرى، الذي لا يُصرَّح به لكنه يترك أثره في الروح والجسد، ومع ذلك لم يفقد يعقوب عليه السلام يقينه، لم يهن عزمه، بل ظل قلبه معلقًا بأمل اللقاء، يبثّ شكواه إلى الله وحده، فكان صبره نموذجًا خالدًا لمن أُرهِق قلبه بفقدٍ أو خيبة، لكنه لم يسمح لألمه أن يهدم إيمانه أو أن يطفئ نور رجائه، ليُعلِّمُنَا أن الحزن قد يرهق القلب، لكنه لا يجب أن يكسره، وأن الألم وإن طال، فإن العوض قد يكون أقرب مما نظن، فالحياة لا تقف عند لحظة فقد، ولا تنتهي عند محطة حزن، طالما أن القلب لا يزال نابضًا بالرجاء.

في أحاديثنا اليومية نجد الأحزان الصغيرة ثرثارة، تجد لنفسها سبيلًا إلى الخروج، بينما الأحزان الثقيلة تسكن في أعماق القلب، تظل صامتة كمَن يخجل مِن حكاية سرٍ ، تكتفي بصمتها، تُعبّر عن نفسها في نظرة قاتمة أو تنهيدة خفية لا يصلها سمع البشر، لتُعلمنا أن بعض الآلام لا تحتاج إلى ضجيج الكلمات لتُقاس، بل يكفي صمتها العميق ليتحدث عن لوعة التجربة ومرارة الفقد، ومع تعاقب الأيام والليالي يدرك القلب أن الغربة ليست مجرد مسافة جغرافية، بل حالة شعورية تترك أثرًا لا يُمحى.

ومع كل خطوة نخطوها في زحمة الوجوه الحاضرة، يظل القلب معلقًا بظل ذلك الغائب، كما لو أن وجوده كان النقطة التي تدور حولها الحياة، تمر أيام العمر وأنت تبحث في كل نظرة عن بصيص من حضوره، تتمنى أن تسترجع ذاك الإحساس الذي كان يملأ أيامك بالأمل ويحوط قلبك بالسكينة، في حين يبقى الوقت يمضي دون أن يعيد تلك اللحظات التي عشتها في حضوره، وتستمر الحياة في إيقاعها المعتاد، ولكن كلما التفتَّ إلى الوجوه، شعرت بفراغ لا يملؤه إلا لقاء طال انتظاره، لقاء يعيد لك روح الانتماء التي لطالما حملتها في قلبك رغم بُعد الملامح، فالغربة هي أن تسافر بعينيك بين الوجوه الحاضرة فلا يبصر قلبك سوى ذاك الوجه الغائب.

١ يوسف ٨٤

لا تبقَ عالقًا في ظلال ما كان

يقـول كارل يونـج: «أنـا لسـت مـا حـدث لي، أنـا مـا اخـترت أن أكـون»، وكأنـه ينـزع عـن الإنسـان عبـاءة الضحيـة، ويمنحـه مفاتيـح التحـرر مـن سـجنه الداخـلي، ليقـول لـه: أنـت لسـت نتيجـة الظـروف، بـل ثمـرة اختياراتـك، فالمـاضي مـكان عبـور لا مقـام، ومرارتـه إن طالـت سـكناك فيـه تحوّلـت إلى سلاسـل تُقيـد حـاضرك وتخنـق مسـتقبلك، والإنسـان ليـس مجـرد حصيلـة للظـروف التـي مـرَّ بهـا أو الصدمـات التـي تعـرض لهـا، بـل هـو انعـكاس لاختياراتـه وردود أفعالـه تجـاه تلـك التجـارب، والأحـداث المؤلمـة التـي لم نتصالـح معهـا تظـل كامنـة في زوايـا عقولنـا، تؤثـر عـلى حياتنـا دون أن نملـك خيـارًا في ذلـك، نحـاول أن نُلبسـها ثـوب «النصيـب» لنخفـف وطأتهـا، لكـن الحقيقـة أنهـا تظـل ثقيلـة عـلى النفـس، تسـتنزف طاقتنـا في محـاولات مسـتمرة للتخلـص منهـا.

ولعـلَّ تجـاوز هـذا الإرث العاطفـي ليـس بالأمـر السـهل، فهـو أشـبه بطبيـب يعالج نفسـه، يحـدد مواضـع الألم، فـلا يلبـث أن يكتشـف جروحًـا جديـدة كلـما ظـن أنـه شُـفي، فـكل واحـد منـا يحمـل في داخلـه رصيـدًا مـن الذكريـات السـيئة، يكفـي إن اسـتعرضه أن يُحـوِّل يومـه إلى جحيـم. والعقـل بـارع في اسـتدعاء الأوجـاع القديمـة، يربـط بينهـا، حتـى تصبـح لحظـة حـزن واحـدة بوابـة تُفتـح عـلى آلام لا تنتهـي، وقـد يكـون أثـر هـذا الإرث النفـسي واضحًـا في تصرفاتنـا، فيتحـول اللـين إلى قسـوة، والبـوح إلى كتـمان، والانفتـاح إلى عزلـة، هـذه التحـولات ليسـت وليـدة لحظـة، بـل هـي حصيلـة سـنوات مـن التجـارب التـي لم نتمكـن مـن تجاوزهـا أو نسـيانها، لتنعكـس عـلى شـخصياتنا وسـلوكنا دون أن نشـعر.

الأحـداث تـترك أثرهـا، لكنهـا لا تملـك الحـق في تحديـد مَـن نكـون، إلا إذا سـمحنا لهـا بذلـك، نحـن نصنـع هويتنـا ليـس بـما مررنـا بـه، بـل بـما اخترنـا أن نتعلمـه منـه، ومـا قررنـا أن نصبـح عليـه بعـده، نعـم النـاس تتغـير، والطـرق تتبـدل، والوجـوه التـي كانـت مألوفـة قـد تغـدو غريبـة، والقلـوب التـي أحبتـك يومًـا قـد تغلـق أبوابهـا دون وداع، لكنـك لسـت مُجـبرًا أن تبقـى أسـيرًا لمـا تغـير، أنـت مسـؤول عـن نسـختك الجديـدة، عـن قيامـك بعـد السـقوط، عـن صياغـة ذاتـك بعـد كل كـسر، أن تقـول: «نعـم، جُرحـت، لكننـي اخـترت الشـفاء، لا الثـأر، سـقطت، لكننـي قـررت أن أنهـض، لا أن أبحـث عمـن دفعنـي».

لا أحـد ينجـو مـن الوجـع، فالفـرق بيننـا ليـس في الألم؛ فكلنـا مصابـون بشـكل مـا، بـل في الطريـق الـذي نسـلكه بعـده، فمنّـا مَـن يظـلّ يحـدّق في البـاب الـذي أغلـق، حتـى ينسـى الأبـواب التـي لم تُفتـح بعـد، ومَـن يلتفـت إلى مـا تبقَّـى، ويصنـع منـه حيـاة جديـدة، منّـا مَـن يحملـه الألم إلى التمـرّد، يحمـل داخلـه غضبًـا سـاكنًا لا يهـدأ، ومنّـا مَـن يصـير بـه أكثـر رقـةً، أكثـر فهـمًا، كأن الوجـع كشـف لـه خريطـة الـروح وعلَّمـه أن يرفـق بالنـاس؛ لأنـه ذاق مـا لا يُقـال، الوجـع لا يصنعنـا، بـل يكشـفنا، يكشـف مَـن مِنـا يتكـئ عـلى صلابتـه حتـى يتشـقق، ومَـن يتكـئ عـلى الله فيقـوى وإن وهـن، هنـاك مَـن تكـسّره أول عثـرة، ومَـن تبنيـه كل عثـرة، مَـن يستسـلم للفقـد، ومَـن يجعـل مِـن الفقـد نضجًـا وسـلامًا ورؤيـة، فـالألم مشـترك، لكـن الاسـتجابة لـه هـي التـي تفـرز الأعـماق وتكشـف المعـادن.

اخـتر أن تكـون ممـن يُرمِّـم لا ممـن يرثـي، ممـن يشـقّ الطريـق بصمـتٍ لا ممـن يُقيـم في ظـلّ العثـرة، ممـن يـرى في الألم بـذرةً لا لعنـة، وفي الانكسـار معـبرًا لا نهايـة، لا تقـف طويـلًا عنـد العتبـات تبكـي مـا فـات، فالطـرق لا تنتظـر، والحيـاة لا تعـود القهقـرى لمـن تعطّلـت خطـاه، سرْ، وإن كانـت قدمـاك مثقلتـين بالخـذلان، وإن خانهـما اليقـين مـرارًا، سرْ، لأن الجمـود مـوتٌ بطـيء، ولأن الذيـن صنعـوا الفـرق لم يكونـوا الأكثـر راحـة، بـل الأكثـر صـبرًا عـلى المعانـاة، فمـن امتلـك شـجاعة العبـور لا يبقـى أسـير لحظـة، ولا تابعًـا لصـوت النـدم، هـو مَـن يختـار أن يُعيـد تشـكيل نفسـه مِـن رمـاد الخيبـة، لأنـه يعلـم أن الحيـاة تُنصـف الذيـن يصنعـون خطواتهـم، لا الذيـن ينتظرونهـا.

إنـك لم تُخلـق لتكـون ظـلًا لمـا قـد كان، بـل نـور مـا سـيكون، فـلا تبـقَ عالقًـا في ظـلال مـا كان، فالظـل وإن كان ناعـمًا، إلا أنـه صـورة لمـا مـضى، لا دفءَ فيـه ولا حيـاة، لا تجعـل قلبـك مرهونًـا بـما انطفـأ، ولا تسـجن روحـك في أروقـة النـدم والتذكّـر، المـاضي صفحـة طُويـت، والذكـرى ومضـة لا يليـق بهـا أن تتحـوّل إلى قيـد، كل مـا جـرى قـد أفـضى إلى مـا أنـت عليـه، لكنّـه لا يملـك حـق تشـكيل مـا سـتكون، أغلـق الأبـواب التـي لم تعُـد تُفتـح مـن الجهـة الأخـرى، وواصـل المـضيّ دون أن تحمـل عـلى ظهـرك حمـولًا مـن الحنـين والاحتـمالات الضائعـة.

النـدب لا يُقيـم بنـاء، والحنـين لا يُبـدل مصـيرًا وحدهـا الإرادة تمـضي، ووحدهـا النفـوس التـي تؤمـن أن النـور يُطلـب لا يُهـدى، هـي التـي تصـل.

أوجاع من حيث لم نتوقع

القلـوب لا تُـؤذَى مـن الطعنـات، بـل مـن الذيـن وعـدوا بـأن يكونـوا درعًـا لهـا، فكـم مـن علاقـةٍ بقيـت عـلى قيـد الشـكل فقـط، تأخـذ ملامـح القـرب وتفتقـد جوهـره، لكـن وجـودًا خـاوٍ كهـذا، لا يشـبه السـند، ولا يُشـبه الأمـان، والغريـب أننـا نُمسـك بهـا لأننـا لا نملـك الجـرأة عـلى الاعـتراف بـأن مـا بيننـا مـات منـذ زمـن، وربـما أقسـى مـا في الأمـر، أن الخـذلان لم يـأتِ مـن بعيـد، بـل مـن يـدٍ طالمـا حسـبناها مأمنًـا، أو قلـبٍ ظنّنـاه مـأوى، وهنـا يكـون الألم أكثـر فتـكًا، لأن الجـرح مـن القريـب لا يسـقط في لحظـة، بـل يتسـلل بصمـت، يُثقـب القلـب شـيئًا فشـيئًا حتـى يُنهكـه، ثـم لا يجـد الإنسـان سـوى صـدى الأسـئلة التـي لا تُجـاب: مـاذا فعلـت؟ أيـن تلاشـت المـودّة؟ ولمـاذا؟

خيبـة الأمـل ليسـت مجـرّد شـعور عابـر، بـل زلـزال صامـت يـضرب أعـماق القلـب، حيـث كانـت تنـام الثقـة مطمئنـة، فـإذا بهـا تنهـار فجـأة تحـت وطـأة خـذلان غـير متوقّـع، قـد تتجسـد الخيبـة في صديـق ظننتـه وطنًـا فصـار منفـى، أو في حـبٍّ بنيـت عليـه أحلامـك، فـإذا بـه يعصـف بـك مـن حيـث أمنـت، أو حتـى في أقـرب النـاس إليـك، حـين تنتظـر منهـم الكلمـة التـي ترفعـك، فـلا تسـمع إلا مـا يُطفـئ داخلـك الشـغف، فبعـض الخيبـات تـأتي متنكـرة في شـخص أو نصيحـة، مـن يـدٍ تمسـك بـك لتُبعـدك لا لتقربـك أو مـن فـمٍ يزعـم الحـرص وهـو يـزرع داخلـك الشـك، فتغـدو الأيـام ثقيلـة، وتضيـق بـك التفاصيـل، حتـى قهوتـك التـي كانـت تعزّيـك تصبـح شريكـة في الغصّـة، ويغـدو كل شيء شـاهدًا عـلى خيبـةٍ لم تكـن تسـتحقها، وأيًّـا كان الشـكل الـذي تـأتي بـه فإنـه يؤلمنـا، نغلـق أبـواب غرفنـا وقبلهـا قلوبنـا، تتبـدل ملامـح الحيـاة في أعيننـا، ونشـعر وكأن كل مـا اعتدنـاه بـات غريبًـا عنـا، حتـى الأشـياء التـي كانـت تـواسي وحدتنـا تبـدو وكأنهـا تخذلنـا هـي الأخـرى، خـذلان واحـد يسـتدعي معـه ألفـا سـابقة قـد تصـل إلى طعـم قهـوة مُـرة لم نتحمـل مرارتهـا ذات صبـاح، وكأن حزنـاً واحـدًا لا يكفـي!

ورغـم أنهـا تسـتهلكنا لكننـا مـع الوقـت نعتـاد الوضـع ونتصالـح مـع أنفسـنا، نتصالـح حينـما نـرى أن آلامنـا لم تغـير في الحيـاة شـيئًا، وأن الحيـاة اسـتمرت ولم تتوقـف ونحـن الذيـن توقفنـا، وأن الذيـن خذلونـا لم يلتفتـوا، حينهـا نتقبـل فكـرة أننـا لم نكـن أول اختياراتهـم

وأنهـم تجاوزونـا وأن علينـا أن نتجـاوز حتـى الذكـرى ، لكـن يبقـى بداخلنـا همـس يـردد « ليتنـا لم نتلـق!» فالخيبـات تـترك ندوبًـا في أرواحنـا لا يراهـا أحـد غيرنـا، قـد نتصالـح مـع الألم، لكنـه لا يرحـل تمامًـا، بـل يظـل كظـلٍ خفيـف يرافقنـا في لحظـات العزلـة، يُذكّرنـا أننـا في يـوم مـا كنـا نثـق، كنـا ننتظـر، كنـا نحلـم، ثـم جـاءت الخيبـة وأطفـأت بعضًـا مـن هـذا النـور، ومهـما حاولنـا النهـوض، سنكتشـف أن هنـاك جـزءًا منـا لم يعـد كـما كان، أصبحنـا أكثـر حـذرًا في مشـاعرنا، أقـل اندفاعـًا في تعلقنـا، أكثـر تروّيًـا قبـل أن نمنـح قلوبنـا لمـن لا يسـتحقها، لم نعـد نفتـح الأبـواب بسـهولة، ولم نعـد نصـدق الكلـمات كـما كنا نفعـل، لأن التجربـة علمتنـا أن الوعـود قـد تكـون مجـرد كلـمات عابـرة، وأن الأمـان الـذي شـعرنا بـه يومًـا قـد يكـون وهمـاً سرعـان مـا يتلاشـى.

ورغـم قسـوة الخيبـات، لكـن بعضهـا ضروريٌّ، فربـما جـاءت لتكشـف زيـف أشـياء كنـا نعتقـد بأصالتهـا، بعضهـا يُعرِّفُنـا قـدر أنفسـنا في قلـوب المحيطـين بنـا ، إنهـا أشـبه بدعـوة خفيـة لإعـادة النظـر في توقعاتنـا، فيمـن نثـق بهـم، وفيـما ننتظـره مـن الحيـاة، وإدراكنـا بـأن الخيبـة جـزءٌ مـن النضـج، لا يجعلنـا أقسـى، بـل أعمـق فهـمًا لمـا يـدور في صـدور البـشر، وأكثـر حـذرًا في العطـاء، ليـس بخـلاً، إنـما اتزانًـا، وهـذا الوعـي الـذي اكتسـبناه يجعلنـا أكثـر تقبـلاً للرفـض، فنحـن بـشر، لا ملائكـة معصومـون مـن الخطـأ، ولا شـياطين تحكمنـا المكائـد، والخيبـات جـزء لا مفـر منـه في حياتنـا، ضريبـة لعلاقاتنـا المتشـابكة والمتعـددة، فهـي تتسـلل بـين مواقفنـا دون اسـتئذان، نجـد أنفسـنا مخذولـين ممـن منحناهـم ثقتنـا، ثـم في مشـهد آخـر نكـون نحـن مَـن خـذل مَـن رأونـا جـزءًا ثمينًـا مـن حياتهـم، خَذَلَنـا مَـن كنـا نأنـس بوجودهـم، وخَذلْنـا مَـن وجـدوا في حضورنـا طمأنينـة، هكـذا تـدور عجلـة الحيـاة، لا أحـد بمنـأى عـن الخـذلان، ولا أحـد بـريء منـه تمامًـا.

لكـن رغـم عمـق الوجـع، فـإن النفـس التـي عرفـت مـرارة الخـذلان، تعـرف كيـف تختـار بعـين أكثـر وعيًـا، وكيـف تـزرع الأمـل في تربـة ذاتهـا دون أن تتوسـل السـقيا مـن أحـد، نُـدرك أننـا لـن نعـود كـما كنـا، لكننـا لـن نكـرر الأخطـاء ذاتهـا، ووسـط هـذا كلـه، يظـل في أعماقنـا صـوتٌ خافـت يهمـس: «ليتنـا لم نتلـقِ!»، لكننـا ألتقينـا، وتعلمنـا الـدرس، وعلينـا الآن أن نكمـل المسـير، ولـو بقلـوب تعلمـت أن تُحـب بحـذر، وأن تثـق بحسـابٍ، لكنهـا مـا زالـت تبتسـم رغـم كل شيء.

التحرر من سطوة الأفكار

كـم مـن أفـكار حملناهـا لا لأننـا اخترناهـا، بـل لأنهـا زُرعـت داخلنـا بـلا اسـتئذان، ونَمَت حتـى حسـبناها مـن مسـلمات الحيـاة، كالنجـاح المرسـوم سـلفا: شـهادة، ثـم وظيفـة، ثـم تقاعـد، وكأن الحيـاة لا تقبـل غـير هـذا المسـار، ولم نُمنـح حريـة التجربـة أو الحـق في الحلـم خـارج الإطـار، وكالدمـوع التـي يعيـب الرجـل أن تُـرى في عينيـه، والمـرأة التـي لا تصلـح إلا للمنــزل، وكالطاعــة العميـاء لأشـخاص قيـل لنـا عنهـم أنهـم أدرى منـا بالحيـاة، وكالحـظ الـذي هـو السـبب الوحيـد للنجـاح، وكالحيـاة المثاليـة التـي يجـب أن تبـدو كـما نراهـا في الأفـلام، وكالبقـاء في علاقـة مؤذيـة عـلى أنهـا خـير مـن مواجهـة المجتمـع منفـردًا.

تربينـا عـلى أن السـؤال وقاحـة، فصمتنـا حتـى ونحن نغـرق، وعـلى أن الناجحـين محظوظون لا مجتهـدون، فاستسـلمنا قبـل أن نبـدأ وأَلِفنـا الركـود، وعُلّمنـا أن بعـض الأشـخاص لا يخطئـون، فأطعنـا الوجـوه بـدل المبـادئ ونسـينا أن كل أحـد يُؤخـذ منـه ويُـرد، بـل حتـى معايـير السـعادة، لم نكـن نحـن مَـن وضعهـا، بـل لقّنونـا أن الصـورة المثاليـة تعنـي وفـرة المـال وجمـال الهيئـة والحيـاة التـي تشـبه الإعلانـات، فانشـغلنا بالمقارنـات عـن الامتنـان، وركضنـا خلـف أوهـام مصقولـة بلمعـانٍ مزيـف.

تُـرى كـم مـن أرواح قُمعـت، ومشـاعر كُبتـت، وطاقـات حُـوصرت خلـف أسـوار هـذه الأفـكار؟ بـل كـم مـن قلـب تـألم ونفـس قبعـت في سـجون مـن الألم خشـية نظـرة النـاس، لا عجـزًا عـن الخـلاص؟!

كل تلـك الأفـكار لم تكـن أفكارنـا، بـل قيـودًا صيغـت بعنايـة لتبـدو يقينًـا، ومـا هـي إلا أحـكام منقولـة لم تمـر بعقـل، ولا حظيـت بتمحيـص، فبعـض الأفـكار قـد لا تناسـبنا، لكننـا نتمسـك بهـا كأنـما فيهـا نجاتنـا، وكلـما ازداد تمسـكنا بهـا سـيطرت عـلى عقولنـا، فأحاطتنـا بداخلهـا وضيقـت علينـا الخنـاق، حتـى كادت تُعجزنـا، فـلا نجـد نجاة لأنفسـنا إلا الهـرب لنحافـظ عـلى مـا تبقّـى منّـا، لنرمـم مـا أحدثتـه بداخلنـا مـن شـقوق.

وأشرس الأفـكار تلـك التـي نجسـدها في أشـخاص، نسـلب إرادتنـا لإرادتهـم ، نسـلب رغبتنـا لنـرضي رغبتهـم، وتأسرنـا فكـرة أننـا نحافـظ عليهـم فنتـمادى في جـرح أنفسـنا

بأنفسنا حتى لم يعد مكان لم يمسه الألم، أهكذا تمزقنا الأفكار؟ كم هي مريعة تلك القيود التي نسجن بها أنفسنا، تحت ذريعة الحفاظ على علاقة أو شعور بالانتماء، بينما في الحقيقة نذوب ونذبل، نُغيّب إرادتنا وحريتنا تحت طائلة الخوف من الوحدة أو الرفض، فتسيل دماء الألم في أعماقنا بلا صوت، ونصبح غرباء في بيوتنا، وسجناء في أحضان من ظنناهم ملاذُنا.

ليست الحرية أن تتحرر من قيود الخارج، بل أن تنزع الأغلال التي كبّلت بها نفسك دون وعي، أن تعي أن بعض الأفكار ليست لك، بل ترسّبت داخلك بفعل تكرار أو خوف أو تربية أو نظرة مجتمع، تسلّلت إليك حتى حسبتها يقينًا، وهي لا تعدو أن تكون ظلالًا عابرة، فالتحرر الحقيقي يبدأ حين تتساءل: من أين جاءت هذه القناعة؟ وهل ما أظنه صوابًا هو حقًا كذلك؟ عندها فقط تنفك قبضة التصورات الجامدة، فالفكرة حين تُقدَّس دون وعي تصبح سجنًا، وحين تُمحَّص تصير جناحًا، إنها ليست سعيًا لهدم الثوابت داخلك إنما فقط لتنقيتها من شوائب الوهم؛ لتحتفظ بما يشبهك ويرتقي بك، وتترك ما أُقحم عليك دون أن تختاره.

التحرر من سطوة الأفكار يعني أن ترفض الانصياع للشكوك التي تغرسها نفسك أحيانًا، فتقول مثلاً: «أنا غير قادر» أو «هذا خارج إمكاناتي» فمثل هذه الكلمات ليست إلا حواجز وهمية، وضعها العقل في لحظة ضعف أو خضوع، لكنها لا تعكس الحقيقة الكامنة في ذاتك، وعندما تجرؤ على إعادة صياغة هذه الأفكار، تبدأ في حينها السير في طريق الحياة، إلى تلك اللحظة التي تقول فيها لنفسك: «مَن أنا حقًا؟ وما الذي أؤمن به لأنني صدقته بعقلي وقلبي، لا لأنني وُلدت في محيطٍ صدّقه الجميع؟» ليبدأ القلب في التخلص من الأثقال التي لا تخصه، ويمشي الإنسان أخفّ، أصدق، وأقرب ما يكون إلى نفسه، فتُشرق أرواحنا من جديد، ناضجةً، حرةً، قادرة على القول «هذا أنا، وهكذا أختار أن أكون».

لكنك عند الله لست بكاسد

كان «زاهـر» رجـلاً مـن أهـل الباديـة، يحمـل في روحـه رحابـة الصحـراء وصدقهـا، وبسـاطة العيـش في هيئتـه، لم يكـن جميـلاً في أعـين النـاس، لكنّـه كان يحمـل في قلبـه صفـاءً يُغنـي عـن زينـة الملامـح، وتفيـض مـن روحـه طيبـةٌ لا تملـك إلا أن تلمسـها متـى جالسـته، فلـم تكـن ملامحـه تلفـت النظـر، ولا لباسـه يـدل عـلى مكانـة، لكنـه إذا حـضر، حـضرت الطمأنينـة، وإذا تحـدث، اسـتقر في القلـب صـدق لهجتـه، اعتـاد أن يـأتي إلى المدينـة بتجارتـه، يبيـع ويشـتري، ثـم يعـود إلى الباديـة حيـث ينتمـي، لكنـه، رغـم فضلـه وصحبتـه للنبـي ﷺ، كان يشـعر بأنـه غـير محبـوب، كأن صورتـه في أعـين الآخريـن تقلـل مـن قيمتـه .

وفي يـوم مـن الأيـام، بينـما كان منشـغلًا في السـوق، وجـد مَـن يحتضنـه مِـن خلفـه بلطـف، وصوتـا مألوفـا يمـزح قائـلاً : « مَـنْ يَشْـتَرِي مِنـي هـذا العَبْـدَ؟» فالتفـت زاهـر، وقلبـه يسـبق عينيـه، ليجـد رسـول الله ﷺ، فابتسـم بمـرارة وقـال: إذًا تَجِـدُني كاسِـدًا ، لكـن النبـي ﷺ، وهـو الـذي يـرى بنـور الله مـا تخبئـه الأرواح، أجابـه بكلـمات لم تكـن مجـرد رد، بـل كانـت شـهادة وطمأنينـة ووسـام شرف: «ولكنَّـكَ عِنـدَ الله لسـتَ بكاسِـدٍ »[1]

أجـاب زاهـر بـما رآه في أعـين النـاس ، أمـا النبـي ﷺ فيجيـب بـما يعـرف مـن مواقفـه وصـدق إيمانـه، أجـاب زاهـر بـما اعتـاد أن يسـمعه والنبـي ﷺ يجيـب بـما يجـب أن يعرفـه عـن نفسـه، أجـاب زاهـر بـما رأى مـن هـوان أمـره بـين النـاس ، والنبـي ﷺ يجيـب بـما يعلـم مـا انطـوت عليـه سريرتـه مـن صـدق وحـب لهـذا الديـن، وربـما كان زاهـر، وهـو يسـمع تلـك الكلـمات، يستشـعر لأول مـرة أن وجـوده في هـذه الحيـاة ليـس هامشـيًا، وأن القبـول الـذي يبحـث عنـه لم يكـن في أعـين الخلـق، بـل كان في عـين الخالـق.

كانـت كلـمات النبـي ﷺ تلـك كالمـاء البـارد يـروي ظمـأ الـروح، وكالنـور يشـق ظلمـة الشـعور بالنقـص، لم يكـن زاهـر بحاجـة إلى تملّـق النـاس، أو السـعي خلـف قبولهـم، فقـد

١ مجمع الزوائد (٩/٣٧١) وقال الذهبي : رجاله رجال الصحيح

جـاءت شـهادته مِـن أعظـم مَـن شـهد، ومِـن أصـدق مَـن نطـق، فبـأي شيء بعـد ذلـك يقيـس الإنسـان نفسـه إن لم يكـن بميـزان الله؟

لقـد أعطـى النبـي ﷺ زاهـرًا مـا هـو أعظـم مـن أي تجـارة في الأسـواق، أعطـاه يقينًـا بأنـه ذو شـأن، أعطـاه كرامـةً تُخلّـد، وأعطـاه حبًـا لا يرتبـط بملامـح ولا بحالـةٍ زائلـة، بـل بحقيقتـه كـما خلقـه الله، « ولكنَّـكَ عِنـدَ الله لسـتَ بكاسِـدٍ» بهـذه الكلـمات، لم يكـن النبـي ﷺ يـواسي زاهـرًا فحسـب، بـل كانَ يكـسر كل ميـزان ظاهـري، يرسّـخ مبـدأً أن القلـوب تُـوزن بميـزان الله، لا بميـزان البـشر ، وأن القيمـة الحقيقيـة ليسـت فيـما تـراه أعـين النـاس، بـل فيـما يـراه الله في القلـوب.

قـد يهـون أمـرك عنـد النـاس، عنـد الأهـل، عنـد الأقـارب، قـد يَنتقـص مِـن قـدرك القريـب والغريـب، قـد لا يـراك النـاس ولا يعيرونـك اهتمامًـا، كل هـذا عنـد النـاس لكـن يبقـى قـدرك الحقيقـي عنـد الله، فكـم مـن إنسـان ظـن نفسـه صغـيرًا في الدنيـا، بينـما هـو عظيـم عنـد الله؟ وكـم مـن قلـب شـعر أنـه غـير مرئـي بـين النـاس، لكنـه في صحائـف الملائكـة حـاضر يُذكـر؟ أعـين النـاس ليـس دائـما منصفـة أو صادقـة، ورغـم علمنـا بذلـك لكنهـا تنـال منـا، انظـر كيـف جعلـت رجـلًا مـن أتقـى النـاس يتهـم نفسـه أنـه كاسـد بـلا قيمـة!

ومـن الحديـث كأنـما يريـد منـا النبـي ﷺ أن نعيـد النظـر في أنفسـنا، ألا تهـون علينـا أنفسـنا فنشـعر أننـا بـلا قيمـة ولا فائـدة ولا أثـر ، إنـك لسـت بكاسـد وإن زهـد فيـك النـاس، لأن القيمـة لا تُقـاس بأضـواء الشـهرة ولا بصـدى الأسـماء، بـل بثقـل السريـرة عنـد مَـن لا تخفـى عليـه خافيـة، إنـك تعـرف الطريـق إلى سـجادة خلوتـك، وتطـرق أبـواب السـماء حـين تغلـق دونـك الأبـواب، وإنـك تملـك مـن الصـبر مـا يكفـي لتصمـد حـين ينهـار غـيرك، ومـن النقـاء مـا لا تـراه العيـون، لكنـه لا يغيـب عـن عـين الله، إنّ مـا بينـك وبـين ربـك ليـس عرضًـا في سـوق البـشر، بـل عهـدٌ محفـوظ في غيـب السـموات، يُرفـع دعـاؤك ولـو سـكت لسـانك، وتُحسـب دمعتـك ولـو جـفّ وجهـك، وتُكتـب نيتـك ولـو لم تمـضِ بهـا الجـوارح، فـلا تيـأس إن نُـسي اسـمك في المجالـس، ولا تحـزن إن لم تُصفـق لـك الدنيـا... إنـك في ميـزان الحـق لسـت بكاسـد، بـل كريـم في موضـعٍ لا يبلغـه نظـر الخلـق، موضـع القـرب مـن الله.

بين الأمنية وتحقيقها مسافة تسمى «السعي»

بينما كنا نؤدي السعي في العمرة، التفت إليّ صديقي متسائلًا بدهشةٍ صادقة: «لماذا لم تتوقف السيدة هاجر بعد الشوط الأول؟ كانت تجلس بجوار رضيعها عند الصفا، فلما نفد الماء، قامت تبحث، سعت نحو جبل المروة ولم تجد شيئًا، ثم عادت، وسعت من جديد... أكانت تتوقع أن يتغيّر شيء بين شوطٍ وآخر؟ ألم تدرك أن الجبل هو الجبل، والصحراء كما هي، والعطش كما هو؟ فما الذي دفعها لتكرار السعي سبع مرات؟»

تأملتُ سؤاله، فلم يكن مجرد استفسارٍ عابر، بل نافذة على معنى عظيم: هاجر لم تسعَ لأنها كانت ترى علامات النجاح، بل لأنها كانت تؤمن أن اليقين لا يحتاج إلى براهين، وأن الطاعة لا تُقاس بحدود العقل بل بحدود التسليم، وفهم الموقف نفسه يكشف حكمة تصرفها، فهي أمّ تحركها غريزة الخوف على رضيعها، وهي امرأة انقطعت بها سبل الحياة في صحراء قاحلة، فلم تجد أمامها سوى أن تفرغ جهدها في البحث عن الماء، لا لشيء سوى ألا تشعر أنها استسلمت قبل أن تستوفي كل الأسباب، فلم يكن سعيها بين الجبلين مجرد حركة بلا معنى، بل كان ترجمة ليقينها العميق بأن النجاة لا تأتي إلا لمن يسعى، حتى وإن بدت الطرق مسدودة.

لو توقفت هاجر بعد المرة الأولى، لربما قالت الألسن: لقد فعلت ما بوسعها، لكنها بفطرتها المؤمنة، لم ترَ السعي عبثًا، بل أملًا، ولم ترَ العودة تكرارًا، بل رجاءً، ولم تكن تعلم أن الماء سيخرج من تحت قدمَي طفلها لا من أعلى الجبل، لكنها أدت ما عليها، فكان الجزاء فوق التوقّع، زمزم، ماءٌ لا ينضب، ورحمةٌ تسقي الملايين من بعدها، وربما تسلل إلى قلبها شيء من اليأس مع التكرار، لكنها لم تتوقف، وكأنها كانت تدرك بفطرتها أن استنفاد الطاقة في الأخذ بالأسباب هو في حد ذاته باب من أبواب الفرج، فالسعي ذاته عبادة، والفرج قد يُختبأ في عَتبات الإصرار لا في نهاية الطريق.

لقد قالت لزوجها حين تركها في هذا المكان الموحش: «آلله أمرك بهذا؟» فلما أجابها: «نعم»، ردّت بيقين ثابت: «فلن يضيعنا.» لم يكن يشغلها كيف سيأتي الفرج، ولا من أين سيخرج الماء، لم تشغلها طريقة النجاة إنما شغلها استنفاد طاقتها في السعي،

أن تبـذل جهدهـا كامـلًا، أن تتحـرك رغـم الخـوف، أن تكمـل بحثهـا حتـى آخـر رمـق، أخفقـت مـرة، ثـم ثانيـة، ثـم ثالثـة، لكنهـا لم تتوقـف، فجاءتها النجـاة مـن حيـث لم تكـن تسـعى، مـن جـوار رضيعهـا، لا مـن الجبـل الـذي كانـت تصعـده، وكأن رحلتهـا لم تكـن بحثًـا عـن المـاء فحسـب، بـل كانـت نقشًـا خالـدًا لمعنـى السـعي في قلـب الزمـن، درسًـا للبشريـة بـأن الأقـدار تُكتـب في لحظـة المثابـرة الأخـيرة، حيـث يظـن الإنسـان أن كل جهـوده ضاعـت سـدى، لكنـه يُفاجـأ بـأن يـد العنايـة الإلهيـة كانـت تَكتُـب لـه الفـرج في مـكان لم يتوقعـه، وبطريقـة لم تـدر بخلـده يومًـا .

لقـد سـعت أشـواطًا بـين الجبلـين ولم تستسـلم لشـعور العجـز في كل مـرة لم تجـد فيهـا المـاء، بـل فعلـت كل مـا بوسـعها، تاركـةً للسـماء أن تُكمـل مـا تعجـز عنـه الأرض، وهـذا هـو اليقـين الحقيقـي: أن تسـعى بـكل مـا أوتيـت، ثـم تسـلّم الأمـر لقضـاء الله، وأنـت عـلى ثقـة بأنـه لـن يخذلـك، ولهـذا بقـي السـعي بـين الصفـا والمـروة شـعيرةً خالـدة، لا لنكـرر أفعالهـا وحسـب، بـل لنسـتحضر روحهـا، لنفهـم أن النجـاح ليـس في الوصـول السريـع، بـل في الإصرار رغـم العثـرات، في طـرق الأبـواب حتـى وإن لم تُفتـح مـن أول محاولـة، في اليقـين بـأن للجهـد ثمرتـه، ولـو جـاء الفـرج مـن حيـث لا نحتسـب.﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[1]فـكل جهـد تبذلـه، مهما كان صغـيرا، أو مهـما بـدا لـك أنـه صغـير ، هـو عنـد الله ذو شـأن، تلـك الصدقـات التـي تظنهـا هينـة، العنـاء الـذي تتحملـه في سـبيل رزقـك، صـبرك عـلى قسـوة الأيـام، تحملـك لظلـم الآخريـن، اجتهـادك في مواجهـة العثـرات، كلهـا ليسـت هبـاءً منثـورًا، بـل هـي سـعي محسـوب يُـرى ويُـوزن عنـد الله.

لقـد علمتنـا هاجـر أن النتائـج ليسـت دومًـا حيـث نبحـث، لكنهـا حتـمًا حيـث يُريـد الله، وأن التكـرار لا يعنـي العجـز، ففـي الحيـاة، كـم مـرة سـعينا بـين «صفـا» الأمـل و«مـروة» الانتظـار، وعدنـا خائبـي الظـن، نـكاد ننهـار؟ كـم مـرة عُدنـا مـن طـرقٍ قصدناهـا ولم تُفتـح، فظننـا أنهـا النهايـة؟ لكنهـا ليسـت كذلـك، إن هاجـر لم تُكـرم لأنهـا كانـت تـرى المـاء، بـل لأنهـا كانـت تسـعى وهـي لا تـرى إلا الله.

---

١ النجم [٣٩-٤١]

لطف الخفاء

كان «أبـو سـلمة» مـن خـيرة الصحابـة، أخًـا للنبـي ﷺ في الرضاعـة، وابـن عمتـه بـرّة، وهـو رجـلٌ عُـرف بصدقـه وكرمـه وطيـب معـشره، وكانـت زوجـه أم سـلمة تعـرف لـه فضلـه ومكانتـه، فلـم يكـن مجـرد زوج، بـل كان رفيقًـا ودودًا، وسـندًا حانيًـا، ومـن فـرط حبـه لهـا، كانـت محـور دعائـه حتـى في لحظـة فراقـه، فدعـا لهـا قائـلًا :« اللهـم أرزق أم سـلمة بعـدي رجـلًا خـيرًا منـي لا يحزنهـا ولا يؤذيهـا» .

كان طيبًـا ودودًا في كلـمات دعائـه، وكأن قلبـه ظـل يـوصي بهـا حتـى وهـو يرحـل عـن الدنيـا، يُسـلّمها إلى القـدر بحنـان مَـن يـودِّع قلبًـا لا يحتمـل عليـه وجعًـا بعـده، وهـو عـلى أبـواب الرحيـل، لم ينـسَ أن يـترك لقلـبٍ أحبـه دعـوة تحفظـه، وتفتـح لـه بابًـا جديـدًا في الحيـاة لا يمـر مـن ألم، بـل مـن لطـف إلهـي لا يخيـب، ومـا أعجـب مـا جـرى بعـد ذلـك، إذ كان مجيـب الدعـوة هـو الله، وكان المجـاب هـو أم سـلمة، وكان الخـير الـذي أراده الله لهـا هـو أن تكـون زوجًـا لرسـول الله ﷺ فصـارت الدعـوة اسـتجابة، والوفـاء قـدرًا، واسـتبان لنـا أن الطيبـين لا يودّعـون إلا بكلـمات تُثمـر خـيرًا حتـى بعـد الغيـاب.

بعـد غـزوة بـدر، حينـما حانـت لحظـة الفـراق ورحـل أبـو سـلمة إلى ربـه، لم تجـد أم سـلمة عـزاءً إلا في الدعـاء الـذي علمهـا إيـاه النبـي ﷺ :«اللهـم أْجُـرْنِي في مُصِيبَتِـي، وأَخْلِـفْ لِي خَـيْرًا مِنْهـا» لكـن قلبهـا أبـت عليـه نفسـه أن يتخيـل وجـود رجـل خـير مـن أبي سـلمة، فتسـاءَلت : أي المسـلمينَ خـيْرٌ مِـن أَبي سـلَمَةَ؟

وكيـف لا يراودهـا هـذا الشـعور، وهـي التـي عاشـت معـه تجربـة حـب نقـي، لم يكـن فيهـا مجـرد زوج، بـل كان رجـلًا يخشـى عـلى قلبهـا حتـى في غيابـه، ويدعـو أن يرزقهـا الله سـعادة لا ينغصهـا حـزنٌ ولا أذى؟ لكـن مـا لم تتخيلـه أم سـلمة، أن هـذا الدعـاء لم يكـن مجـرد كلـمات، بـل كان وعـدًا مـن الله، وعـدًا أن بعـد الفقـد هنـاك عـوض، وأن في طيّـات الألم يسـكن الخـير المخبّـأ، فلـم تلبـث كثـيرًا حتـى كان العـوض أكـرم ممـا تخيلـت، إذ اختارهـا الله زوجـةً لخـير خلقـه، للنبـي ﷺ، فـكان الخلـف الـذي لم تكـن تتوقعـه، وكان تحققًـا لدعـوة ظنـت أنهـا مسـتحيلة .

دار الزمـان دورتـه وخطبهـا النبـي ﷺ لنفسـه، أرملـة ولهـا ابنـة لكـن ربـما كان لهـا مـع الله شـأن خـاص، فقالـت «لحاطـب بـن أبي بلتعـه» الصحـابي الـذي جـاء يحمـل طلـب النبـيﷺ لخطبتهـا جوابًـا واضحًـا لا مواربـة فيـه « إنَّ لي بنْتًـا، وأنـا غَيُـورٌ» لم تكـن ترفض، لكنهـا كانـت تخشـى، فطمأنهـا النبـي ﷺ بكلماتـه الرحيمـة، فقـالَ: «أَمَّـا ابْنَتُهـا فَنَدْعُـو اللهَّ أَنْ يُغْنِيَهـا عَنْهـا، وأَدْعُـو اللهَّ أَنْ يَذْهَـبَ بالغَـيْرَة »[١]

أحيانـا تحـدث لنـا مواقـف بعينهـا نظـن أن معهـا نهايـة الحيـاة، قـد لا نجـرؤ بعدهـا عـلى التفكـير في الحيـاة مـن جديـد، ننطفـئ ويبهـت شـغف الحيـاة في أعيننـا، ولعـل الفقـد أقسـاها، إذ يسـكن القلـب وجـعٌ لا صـوت لـه، حتـى إذا اشـتد صـار الدمـع لسـانه الناطـق، ولا نـدري، هـل نبكـي مَـن رحلـوا، أم نبكـي عـلى أنفسـنا بعـد رحيلهـم؟ لكـن سـنة الحيـاة أنهـا تمـضي، مهـما اشـتدت الحـوادث، تمـضي، ومـع الوقـت تعالـج الأيـام جراحًـا مـا كنـا نظـن لهـا دواءً.

أم المؤمنـين سـلمة مـات زوجهـا فـرددت كـما تعلمـت أن يخلـف الله عليهـا خـيرًا ثـم تذكـرت مَـن كان زوجهـا فتسـاءلت ومَـن يـأتي مثـل زوجهـا؟! ظنـت أن العـوض مسـتحيل، لكنهـا لم تكـن تعلـم أن الله حـين يعـد، يبـدّل، وحـين يأخـذ، يعـوّض بـما هـو أعظـم، فغـدت أمًّـا للمؤمنـين، لا زوجـةً لرجـلٍ فحسـب، بـل زوجـةً لأفضـل خلـق الله، وهكـذا كان لسـان حالهـا يفسر لنـا بلطـفٍ خفـيّ قـول الله تعـالى :

﴿ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ .

فماذا سيكون عِوض الله إن لم يكن جبرًا يفوق التوقعات؟

وماذا ستكون عطاياه إن لم تأتِ حين نظن أن لا عطاء بعد؟

وماذا ستكون رحمته إن لم تحتوِ قلوبًا أنهكها الفقد والخذلان؟

أفـلا يكـون الحـزن بابًـا لنعمـة لم تُفتـح بعـد، والحرمـان تمهيـدًا لعطـاءٍ قـد اقـترب أوانـه؟

١ صحيح مسلم ٩١٨ ومعنى فَنَدْعُو اللَّهَ أنْ يُغْنِيَها عَنْها أي أنْ يُغنِيَ البنتَ بكَفالتِه لها

حين تبدأ صادقًا، تُختصر المسافات

ومع نفس القصة نتابع الحديث، ففيها لمحة إنسانية بديعة؛ فأم سلمة لم تُجمِّل الحقيقة لتنال القَبول، بل قالتها كما هي، بكل ما قد يُظن أنه عقبة في طريق الزواج، لم تُخفِ تخوفها على طفلتها التي ترعاها، «إن لي بنتًا»، كأنها تُشير إلى عبءٍ تحمله لا يُمكن إغفاله، ثم مضت إلى ما هو أدق، فقالت: «وأنا غَيُور»، فلم تُزَيِّن من نفسها شيئًا، بل عرضت قلبها كما هو، صادقًا، شفافًا، يعترف بضعفه كما يعتز بمعدنه.

لم ترد أن تُفاجئ النبي ﷺ بها يومًا، بل آثرت أن تصارحه منذ البداية، وكأنها تضع بين يديه حقيقتها كما هي، دون تصنّع أو تجميل، إنه زواج، إنه بيت، إنها حياة كاملة بكل تفاصيلها، ولم يكن بيت النبي ﷺ استثناءً من سنن البيوت وما يجري فيها، فربما صدر منها يومًا ما يُغضبه بدافع الغيرة، فأرادت أن تسبقه بعذرها قبل أن تخطئ، حتى يكون على علم بما في نفسها، فالعيب الظاهر لا يُنقِص من مقام النفس ما دامت صادقة، ولا يُقلِّل من جمال المرأة أن تُقر بغيرتها، ما دامت تحسن توجيهها، بل إن وضوحها قد يكون بابًا للتفاهم لا سببًا للنفور.

وهذه الصراحة في البدايات، التي تُظهر الإنسان كما هو دون تجميل، ليست ضعفًا، بل هي أقوى ما يكون في بناء العلاقات، إذ تُقيمها على الصدق، فلا يكون فيها ما يُخفيه القلب فيضطر اللسان إلى تبريره لاحقًا، ولنا في رد النبي ﷺ أعظم مثال، إذ لم يرَ فيما ذكرَت ما يثنيه، بل ردّ عليها بما يملأ القلب طمأنينة: أن الله سيكفيها غيرتها، وسيرزق ابنتها من بعد أبيها، وكأن في طمأنينته ردًّا على كل تردد، وفي قوله وعدًا أن مَن يصدق في قوله، يُكافئه الله بصدق القَبول.

لم يكن زواج النبي ﷺ بأم سلمة مجرد قصة زواج، بل درسًا في الوضوح، في الصراحة، في تقبّل الإنسان لنفسه كما هو، وفي الثقة بأن من يُقدّرك حقًّا لن يصرفه عنك عيبٌ صادق، فليست الصراحة مجرد كشف لما في النفس، بل هي أساس تُبنى عليه العلاقات، وليست ضعفًا أو خوفًا من الفشل، بل هي التي تمنح الطرف الآخر رؤية واضحة لما هو قادم، تحمي العلاقة من الانهيارات المفاجئة لتبقى في مأمن من الظنون والاختلافات غير المتوقعة.

حـين يُصـارح الإنسـان مـن البدايـة، يكـون قـد أرسـى قواعـد التفاهـم، وأزال العقبـات قبـل أن تظهـر، فتُبنـى العلاقـة عـلى أسـاس مـن الوضـوح والتقبـل، بـدلًا مـن أن تنهـار أمـام أول اختبـار لم تُوضـع لـه الحسـابات، فـإذا أقدمـت عـلى علاقـة جديـدة سـواء كانـت صداقـة أو شراكـة أو زواجًـا، فـإن أول مـا يُعـزز اسـتقرارها هـو الصـدق في الحديـث عـن الـذات، عـن المخـاوف والطبـاع، عـن نقـاط القـوة ونقـاط الضعـف، فليـس مـن الحكمـة أن نؤجـل مواجهـة الحقائـق إلى وقـت تكـون فيـه المفاجـأة أشـد وقعًـا وأصعـب تـداركًا، فحـين تكـون الصراحـة هـي اللغـة الأولى، تُولـد الثقـة قبـل أن تشـتدّ علائـق القـرب، يحمـل الإنسـان قلبـه في يـده دون تزييـف، ويعـرض نفسـه كـما هـي دون رتـوش مزيفـة أو أدوار مسـتعارة، فالكلـمات التـي تُقـال في أول الطريـق تُشـبه الحجـارة الأولى في بنـاء بيـتٍ طويـل العمـر، إن كانـت صلبـة صمـد، وإن كانـت رخـوة انهـار عنـد أول هـزة، وكـم مـن علاقـة تهشّـمت لا لأنهـا وُلـدت عـلى خطـأ، بـل لأنهـا بنيـت عـلى صمـتٍ مريـب أو مجاملـةٍ خادعـة، فالقلـوب تعـرف مـن يصدقهـا، وتأنـس بالوضـوح، وتنفِـر مـن الغمـوض المُتعمّـد، وكـما قيـل: «الصراحـة لا تُقـصي، بـل تُقـرّب؛ لأنهـا تمنـح الأمـان لمـن يسـمعك بأنـه لا يعيـش في وهـمٍ مزخـرف» .

ومـن قصتهـا نقـول : قـد يكـون كل مـا مـرَّ بـك مجـرد صفحـة في حياتـك، وأن قصتـك الحقيقيـة لم تـأت بعـد! لا تخـف مـن البدايـة مـن جديـد أيـا كانـت التفاصيـل، فقـد تكـون هـي القصـة الأساسـية التـي سـتحكي تفاصيلهـا لأبنائـك عـلى أنهـا أعظـم إنجازاتـك.

ميزان الله لا يخطئ

«عبـد الله بـن أم مكتـوم» الصحـابي الجليـل الـذي فقـد بـصره، كان مـن أوائـل الذيـن أسـلموا، وكان قلبـه عامـرًا بالإيـمان، متعطشًـا للقـرآن، وفي أحـد الأيـام، أقبـل عـلى النبـيﷺ وكان منشـغلًا بدعـوة كبـار قريـش، يسـعى لإقناعهـم بالإسـلام، فـكان عبـد الله يسـأل النبـي ﷺ بإلحـاح أن يعلِّمـه ممـا علَّمـه الله، لم يكـن يـرى مَـن يجلـس مـع النبـي ﷺ، ولم يـدرك مـدى انشـغاله بهـم، فكـرر طلبـه مـرارًا، فكـره النبـي ﷺ إلحاحـه وأعـرض عنه، منصرفًـا إلى مَـن هـم في حضرتـه، فنـزل العتـاب الإلهـي في سـورة عبـس:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾ [1]

آيـات تعاتـب النبـي ﷺ عـلى إعراضـه عمـن جـاءه يسـتقرؤه آيـة مـن القـرآن وانشـغاله عنه بمـن عانـدوه وكذبـوه، لكـن هـذا العتـاب جـاء بلفـظ (عَبَسَ) أي قبـض وجهـه تكرّهـا، فـكان كان هـذا العتـاب شـديدًا في لطفـه، مبـاشرًا في توجيهـه، لكنـه جـاء بأسـلوب غايـة في الرقـي، فلـم يُخاطـب النبـي ﷺ بصيغـة المواجهـة، بـل جـاء بضمـير الغائـب (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ[1])، كأن العتـاب لم يوجـه إليـه مبـاشرة، وإنـما هـو درس لـكل مَـن يـأتي بعـده، فهـو لم يكـن مجـرد تصحيـح لموقـف، بـل كان ترسـيخًا لمبـدأ: أن الاهتـمام لا ينبغـي أن يُمنـح لمـن يُعـرض عـن الحـق اسـتكبارًا، بـل لمـن يسـعى إليـه بصـدق وخشـية، وبعدهـا، أكرمـه النبـي ﷺ، وأقبـل عليـه بكليتـه، يخاطبـه بلطـف واهتـمام، قائـلًا: « مـا حاجَتُـك، هَـلْ تُرِيـدُ مِـنْ شَيءٍ؟»[2] ولم يكـن هـذا مجـرد موقـف عابـر، بـل اسـتخلفه عـلى المدينـة في غيابـه أكثـر مـن مـرة، ليـؤم النـاس في الصـلاة.

وإذا كان العتـاب قـد نـزل في شـأن رجـل أعمـى لم يـرَ ملامـح الوجـه العابسـة، فكيـف بمـن يُـرى العبـوس في وجهـه؟ وكيـف بمـن تجمعـك بـه قرابـة، أو مـودة، أو علاقـة عمـل، فتواجهـه بتجهـم أو إعـراض؟ عبـس في وجـه رجـل لا يبصـر، لا يـرى تقطيـب

١ عبس [١-١٠]
٢ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي - تفسير سورة عبس - الآية 4

الحاجبين، ولا يدرك ملامح الغضب، ولا يميّز نظرة الاستنكار، لكنه كان إنسانًا له قلب يشعر، ونفس تتأثر، وكرامةٌ يجب ألا تُمس.

عبس في وجه أعمى، فعاتبه الله على ذلك، لم يكن لعبوس الوجه أن يجرحه، لكنه عند الله كان أمرًا عظيمًا يستوجب العتاب، فما ظنك بعبوس يُرى، وبنظرات تُقرأ، وبكلمات تُقال فتؤذي النفوس؟ إذا كان الله قد عاتب نبيه في موقف لم يره الأعمى، فكيف بمن يُظهر فظاظته لمن حوله دون اكتراث؟ إنما الأخلاق امتحان، والمعاملة ميزان، والمواقف تفضح حقيقة القلوب، فالموازين الحقيقية ليست تلك التي تراها أعين الناس، بل تلك التي يزنها الله بعدله ويجزئ عليها.

وقد جاء في العتاب الإلهي تعبير يخاطب كل نفس ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ وكأنما يُقال لنا: ما يدريك؟ لعل ما تظنه قليل الشأن هو عند الله عظيم المقدار؟ لعل كلمة طيبة قالها أحدهم عابرًا كانت عند الله أثقل من أعمال ظننتها عظيمة؟ لعل قلباً انكسر بصبر ولم يلتفت إليه أحد، رفعه الله عنده مقاماً لم يخطر ببالك؟ لعل دعوة صادقة في ظهر الغيب رفعت قدره عند الله وأنت لا تشعر؟ فكم من إنسان يمر أمامك فلا ترى له وزنًا، بينما هو عند الله ثقيل الميزان بصبره أو صدقه أو خبيئة خير لا يعلمها أحد، وكم من شخص يُحاط بالمكانة في الدنيا، لكنه عند الله خفيف الميزان، بما في قلبه من رياء أو ظلم خفي، البشر قد يخطئون في تقدير الناس، لكن عدالة الله لا تخطئ، ولا تغيب عنها حقيقة القلوب، إنها رسالة خالدة ألا تحتقر سعي مَن أقبل إليك راغبًا في الخير، ولا تنشغل بمن لا يقدِّر ما تحمله مِن حق، فرب طالب علم واحد خير من ألف معرض عنه، ورب قلب متلهف للهداية أرجى عند الله ممن أعطته الدنيا ظهرها، فأعطى الحق ظهره معها.

القلوب أبواب، والعطايا رسائل

القلـوبُ ليسـت أوعيـةً جوفـاء تُمـلأ وتُفـرَّغ، بـل أبـوابٌ موصـدة لا تنفتـح إلا بمفتـاحٍ مـن صـدق، فيهـا أسرار الغيـب، وخلجـات الرجـاء، ونـداء الفطـرة إذ تناجـي السـماء، وكلُّ عطيـةٍ تُلقـى في طريقـك، ليسـت محـضَ صدفـةٍ، بـل رسـالة مكتوبـة بخـطّ الغيب، أرسـلها الرحمـن عـلى قـدر مـا انعقـد في داخلـك مـن نيـة، ومـا ارتجفتـه روحـك مـن دعـاء، فـما مـن خـيرٍ يصلـك إلا وقـد سـار إليـك عـلى خُطـى نيـةٍ لا يضـلُّ مسراهـا، ومـا مـن رزقٍ يُنثـر بـين يديـك إلا وقـد اسـتجاب لنـداء خفـي خـرج مـن عمـق نيتـك دون أن تسـمعه أذنـك، النوايـا تُرافـع في محكمـة الغيـب، والنيـات تُـزرع في أرض لا تراهـا الأبصـار، لكنّهـا تثمـر عطايـا فـوق مـا يشـتهي الطامحـون، فـإن ضاقـت بـك السُـبُل، تفقَّـد محـراب قلبـك، وجَـلِّ مـرآة نيتـك، واهـدأ في حـضرة يقينـك، فـإنّ العطـاء لا يُؤتـى بطلـبٍ مسـتعجل، بـل يُهـدى لمـن آنـس الله في قلبـه صـدقَ التوجُّـه.

حينـما انتـدب النبـي ﷺ المسـلمين في الخـروج لغـزوة تبـوك جـاء نفـر مـن فقـراء المسـلمين يسـألونه أن يوفـر لهـم مـا يحملهـم عليـه مـن الـدواب ليشـاركوا معـه، وكانـت الغـزوة في وقـت ضيـق وشـدة عـلى النـاس حتـى سُـميت بغـزوة «العُسـرة» للمشـقة التـي لاقاهـا النـاس فيهـا، فأخبرهـم النبـي ﷺ أنـه لا يجـد مـا يحملهـم عليـه معـه فتولـوا وأعينهـم تفيـض دمعًـا حزنًـا عـلى مـا فاتهـم مـن الخـير، فلـم يخرجـوا للغـزوة، لم يجـدوا للخـروج سـبيلًا ، بقـوا في المدينـة مـع الذيـن تخلفـوا وليـس بينهـم وبـين الذيـن تخلفـوا إلا صـدق النيـة فكانـت فيهـا نجاتهـم، فلـم ينـسَ النبـي ﷺ شـأنهم، أولئـك الذيـن حبسـهم العـذر الصـادق عـن المـضيّ في ركاب الجهـاد، فلـم يُقصهـم مـن الفضـل، بـل ألحقهـم بركـب السـائرين، وضمّهـم إلى صفـوف المجاهديـن وإن لم يطـأوا أرض المعركـة، فقـال ﷺ وهـو راجـع مـن الغـزوة: «إن بالمدينـة أقوامًـا مـا سرتـم مسـيرًا ولا قطعتـم واديًـا إلا كانـوا معكـم» قالـوا يـا رسـول الله وهـم بالمدينـة؟! قـال ﷺ : «وهـم بالمدينة حبسـهم العـذر»[1] فكانـوا في حكـم الله ورسـوله مـن الرِفقـة، وإن فرّقـت بينهـم المسـافات، لأن النيـة كانـت حـاضرة، والقلـوب كانـت معلقـة، والصـدق في العـزم كان بليغًـا، وفيهـم نـزل :

١ البخاري (٤١٦١)

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [1] تلـك دمـوع لم تُهـدر، بـل كُتبـت في سـجلّ الأعـمال، وشـهدت عـلى حـرارة الشـوق في قلوبهـم، أرادوا أن يكونـوا مـع النبـي ﷺ في كل خطـوة، ولكـن حِيـل بينهـم وبـين رغبتهـم، فكتبهـم الله مـع مـن مـضى، وأعطاهـم أجـر مـن عمـل، لأن الصـدق في النيـة بلـغ بهـم منـازل الفاعلـين، وإن قعـدت أجسـادهم.

وهكـذا يُقـرِّر القـرآن والسـنة مبـدأً خالـدًا، ينسـحب عـلى كل مـن أراد الخـير وسـعى لـه بقلبـه، وإن لم يبلغـه ببدنـه: أن العـبرة ليسـت فقـط في بلـوغ الفعـل، بـل في صفـاء المقصـد، فمـن كانـت خطواتـه محمولـة بهـمّ الإخـلاص، وإن أوقفـه العـذر، فـإن الله لا يضيع سـعيه، ويجزيـه جـزاء مَـن بلـغ الغايـة، بـل قـد يبلّغـه أجـرًا أعظـم، لأنـه حمـل شـوقًا ولم يبلغـه، فـكان البـلاء في حقـه رفعـة.

فـلا تَحتقِـر نيـةً صادقـةً لم يُكتـب لهـا تمـام، ولا تظنـن أن فضـل الله يُقـاس بالأثـر الظاهـر فقـط، فـإن القلـوب هـي موضـع النظـر، وموازيـن السـماء لا تُعنـى بالكثـرة، بـل بالصدق، وطريـق الخـير لا يُسـلك فقـط بالأقـدام، بـل تُعبّـده النوايـا، وتخـطّ معالمـه العزائـم الخفيـة التـي لا يراهـا النـاس، لكـن الله يراهـا ويجـزي عليهـا جـزاءً كريـمًا، فكـم مـن شـخص أراد أن ينفـق ولم يجـد، فكتـب الله لـه أجـر الصدقـة، وكـم مـن سـاعٍ إلى بـرّ لم يتمـه، فاحتسـبه الله لـه كامـلًا.

كتـب سـالمُ بـنُ عبـد الله بـن عمـر إلى عمـرَ بـنِ عبـدِ العزيـزِ في بدايـة خلافتـه ناصحًـا: «فـإن نويـت الحـقَّ وأردتـه أعانـك الله عليـه، وأتـاحَ لـك عُـمّالًا، وأتـاك بهـم مـن حيـث لا تحتسـب، فـإنَّ عـونَ الله عـلى قـدر النيـة؛ فمـن تمَّـت نيتُـه في الخـير تـمَّ عـونُ الله لـه، ومـن قَـصُرَت نيتُـه قـصر مـن العـون بقـدر مـا قـصر منـه» .

١ [سورة التوبة: ٩٢]

دع الأمور تختمر بعيدًا عن عينيك

كــم مــن حلــم ســهرنا عليــه الليــالي، نراقــب كل تفصيلــة فيــه، ونحســب أنفــاس الوقــت انتظــارًا لتمامــه، فــإذا بــه يتأخــر أو يــأتي عــلى هيئــة لم نرســمها، لا لأن الحلــم مســتحيل، بــل لأننــا أرهقنــا أنفســنا قبــل أن يــأتي بنظراتنــا المعلقــة بــه، انتظرنــا اتصــالًا، فراقبنــا الهاتــف كل دقيقــة، فتأخــر، ترقبنــا ردًّا بشــغفٍ محمــوم، فبــدا صامتًــا أطــول ممــا يحتمــل القلــب، راقبنــا حســاباتنا في كل لحظــة، عــلّ عملنــا يُثمــر سريعًــا، فطــال الحصــاد، وكأن الانتظــار حــين يتكــئ عــلى التوجّــس، يعرقــل عجلــة القــدر، لا يُعجِّلهــا.

إن كثــيرًا مــن الأمــور تزهــر حــين نكــفّ عــن اقتــلاع البــذور لنتفقــد نموّهــا كل حــين، فدعهــا تنضــج عــلى مهلهــا، في غفلــةٍ منــك، وفي صمــتٍ لا ترقبــه، فــإن مــا قــدّره الله لــن يُفــوّت موعــده، لكنــه لــن يُــسرع الخطــى لأجــل قلقــك، فالمراقبــة المفرطــة تُثقِــل الزمــن حتــى نــكاد ننســى أن للأقــدار مواعيــد لا تخضــع لســاعاتنا، وأن للطبيعــة إيقاعهــا الخــاص الــذي لا يُعجّلــه شــغف، ولا يؤخــره خــوف، وكــم مــن رجــاء لهثنــا خلفــه بلهفــةٍ موجعــة، فلــم يــأتِ حــين أردنــا، أو جــاء بثــوبٍ لم نُحســن توقعــه، فخيّــل إلينــا أنــه لم يــأتِ أصــلًا.

كثــيرًا مــا نظــن أن الترقــب اللحــوح يقــرب لنــا المنــال، وأنّ تثبيــت أبصارنــا عــلى بــاب الرجــاء يفتحــه سريعًــا، غــير أن الواقــع يُعلّمنــا أن مــا يُراقــب بشــغف مفــرط يتباطــأ في الوصــول، وأن بعــض الأمنيــات لا تنضــج إلا إذا صرفنــا عنهــا أعــين الترقــب، وتركناهــا تختمــر بهــدوء في الغيــب، فالمبالغــة في الترقــب تخلــق وهــم الانتظــار الطويــل، وكأن الزمــن يتباطــأ كلــا اشــتد قلقنــا عليــه، نحــن بطبيعتنــا نميــل إلى فــرض الســيطرة عــلى كل صغــيرة وكبــيرة، نريــد أن نتأكــد مــن أن الأمــور تســير كــا خططنــا لهــا تمامًــا، ولكــن هــذا القلــق الزائــد قــد يكــون هــو العائــق، إنــه يســلبنا الفرصــة لــترك الأشــياء تنضــج بطبيعتهــا وفــق ســنن الحيــاة وقوانينهــا، فلــكل أمــر توقيتــه المناســب ومســاره الــذي لا يمكــن اســتعجاله.

كل الأعـمال التـي تريـد إنجازهـا اجعـل تركيـزك عـلى خطـوات الوصـول إليهـا لا مراقبـة نتائجهـا ووضعهـا تحـت الاختبـار اليومـي، ركـز عـلى خطـوات الوصـول إلى أهدافـك بـدلاً مـن الانشـغال المفـرط بتقييمهـا يوميـاً، فالعمـل المسـتمر دون ترقـب مفـرط يجعـل الإنجـاز أكثـر سلاسـة وأقـل إرهاقًـا، الكتـاب الـذي تحـصي صفحاتـه المتبقيـة مـع كل صفحـة تقرؤهـا سـيبدو وكأنـه قـد استنزف منـك أضعـاف الوقـت والجهـد، بينـما إذا استرسـلت في قراءتـه دون هاجـس النهايـة، سـتجده ينتهـي بسلاسـة دون شـعور بالثقـل، وكذلـك مـن يسـعى لخسـارة الـوزن، إن اعتـلى الميـزان كل سـاعة فلـن يـرى تغيـيرًا يُذكـر، ممـا قـد يدفعـه إلى الإحبـاط والملـل، بينـما لـو التـزم بنظامـه دون قيـاس متكـرر، ثـم راقـب النتيجـة بعـد أسـبوع أو شـهر، فسيشـعر بالفـارق ويـزداد حماسـه للاسـتمرار .

«المـاء المراقـب لا يغـلي أبـدًا»، وهـو مثـل إنجليـزي فيـه مـن الدلالـة بالتجربـة أن النتائـج التـي نـسرف في ترقبهـا نشـعر أنهـا لا تـأتي كـما أردنـا، فالمراقبـة المفرطـة والقلـق الزائـد تجعلنـا ننسـى أن الطبيعـة تسـير بوقتهـا الخـاص دون أن نتمكـن مـن التحكـم في كل صغـيرة وكبـيرة، ففـي الحيـاة، مثلـما يغـلي المـاء في وقتـه المحـدد دون الحاجـة إلى مراقبـة مسـتمرة، كذلـك تنضـج الأحـلام، وتتحقـق الطموحـات، وتُحـل المشـكلات عندمـا نمنحهـا المسـاحة الكافيـة للنمـو بعيـدًا عـن ضغـط أعيننـا القلقـة، أحيانًـا يكـون الصـبر هـو الاختبـار الحقيقـي، فليسـت كل الثـمار تُجنـى فـور زراعتهـا، وليـس كل بـاب يُفتـح بمجـرد طرقـه، بـل إن بعـض الأشـياء تحتـاج إلى وقتهـا الخـاص، تمامًـا كـما يحتـاج المـاء إلى درجتـه المناسـبة ليغـلي، دون اسـتعجال أو قلـق يبطـئ مـن حدوثـه، وسرّ النضـج في الإيـمان، لا في اللهفـة، في التسـليم، لا في الاسـتعجال، في أن تفعـل مـا عليـك، ثـم تنـصرف بقلـب هـادئ، مطمئـن إلى أن مـا كُتـب لـك سـيأتيك، لا لأنـه مُراقـب منـك، بـل لأنـه مقـدّر لـك مـن الـذي لا تُخطـئ مواقيتـه، فـدع المـاء يغـلي دون أن تحـدق فيـه، ودع الحلـم ينبـت دون أن تقتلـع التربـة كل حـين لـترى جـذوره، فالثقـة أعظـم مـن الترقـب، والرضـا أبلـغ مـن القلـق، والهـدوء هـو التربـة التـي تُثمـر فيهـا الأقـدار.

اكْسُ ألفاظك أحسنها

الطفلُ الـذي قيـل لـه يومًـا إنّ أسـنانه قبيحـة، لم ينـسَ، كـبر وفي أعماقـه شـظايا مـن تلـك الكلمـة، لم تـبرأ، صـار رجـلًا يفيـض قلبـه بالحـب، لكنـه يتحسّـس فمه كلـما ابتسـم، وكأن الضحكـة تهمـةٌ يجـب إخفاؤهـا، لم تعـد المسـألة في أسـنانٍ أو ملامـح، بـل في جـرحٍ صغـيرٍ تسـلّل إلى وعيـه باكـرًا، فشـوّه لـه صورتـه عـن نفسـه.

كـم مـن إنسـانٍ اليـوم يُخفـي ضحكتـه، موهبتـه، صوتـه، لأنـه تعثّـر يومًـا بتعليـقٍ سـاخر أو نقـدٍ لاذع، فتراجـع إلى الظـل، واختـار الصمـت حمايـةً مـن الوجـع، إننـا لا نُـدرك أحيانًـا أثـر كلماتنـا ، حـين نُلقـي الأحـكام كأنهـا حقائـق، وننسـى أو نتناسـى أن مَـن أمامنـا ربـما ليـس لديـه مـن الحصانـة ليصدّهـا، فيبنـي بهـا جـدارًا بينـه وبـين العـالم.

مـا أسـهل أن نكـسر قلبًـا صغـيرًا، ومـا أصعـب أن نُصلحـه، الرفـق بالكلمـة ليـس ترفًـا، بـل مسـؤولية، فالكلمـة التـي نرميهـا بـلا مبـالاة قـد تُقيـم في النفـس عمـرًا، تتحـوّل إلى عقـدة، إلى خـوفٍ مقيـم، إلى تـردّدٍ في الانطـلاق، إلى ارتبـاك في البـوح.

قـال المـزني إمـام الحديـث والفقـه[١] : سـمعني الشـافعي يومـاً وأنـا أقـول: « فـلان كـذاب» فقـال: «يـا أبـا إبراهيـم! اكْـسُ ألفاظَـك أَحْسَـنَها، لا تقـل: فـلان كـذاب، ولكـن قـل: حديثـه ليـس بـشيء».[٢]

التصويـب لا يحتـاج إلى هـدم، والإنصـاف أسـمى مـن الإدانـة، فكـم مـن كلمـة سـقطت في غـير موضعهـا، فأغلقـت القلـوب وأشـعلت الصـدور، وكـم مـن عبـارة هادئـة أدّت المعنـى وأبقـت الهيبـة، فكانـت في قالـب مـن رحمـة، قـد تدخـل في نقـاش وأنـت صاحـب الحــق، لكنــك تخــرج منــه مخطئًــا لا لــشيء إلا لأن لســانك خانتــه اللباقــة، فأهــدرت ألفاظـك وجاهـة موقفـك، وضـاع صـدق حجتـك في زحمـة الأسـلوب الجـاف، فكثـيرا مـا نتسـاءل: لمـاذا يغضـب النـاس مـن الحـق والصراحـة ويعجبهـم النفـاق المنمـق ؟ والحقيقـة أن النـاس لا تحـب النفـاق أبـدًا ولا أهلـه، إنـما تحـب حُسـن المعاملـة وذوق العبـارة، النـاس لا تحـب الزيـف لكنهـا تنفـر مـن القسـوة، ولا ترفـض الحـق لكنهـا تكـره أن يُلقـى عليهـا كالحجـارة.

---

١ المزني هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى صاحب الشافعي وأحد أئمة مذهبه

٢ فتح المغيث للسخاوي (١/ ٣٧١)

فليـس النفـاق أو التكلـف في المجاملـة شرطًـا في اللباقـة، كـما أن الصراحـة ليسـت مـبررًا لسـوء اللفـظ وسـوء التعبـير، فالكلمـة ميـزان، تحمـل مـن الثقـل مـا قـد يهـوي بصاحبهـا أو يرفعـه، قـد تكـون دواءً يشـفي، أو سـهماً يفتـك، فالصراحـة ليسـت مـبررًا للفـظ الجارح، كـما أن اللباقـة ليسـت تزييفًـا للحقائـق، وإنـما هـي حُسـن عرضهـا، وليـس المقصـود أن تختفـي الحقيقـة، بـل أن تُصـاغ بحكمـة تليـق بهـا، لأن الحقيقـة الجافـة قـد تجـرح أكثـر ممـا تصلـح، والخطـأ لا يُصحَّـح بعنـف اللفـظ، بـل بحسـن البيـان.

اخـتر لأحاديثـك ألفاظًـا تليـق بهـا، فليـس كل نقـاش معركـة يجـب أن تخـرج منهـا منتـصرًا، ففـي بعـض الأحيـان ربـما علينـا أن نخـسر موفقـا عابـرًا لا تضرنـا خسـارته في شيء لنكسـب قلبًـا يعـز علينـا أن يملـؤه الحـزن لسـوء لفـظ كان بإمكاننـا التغـاضي عنـه، فكـم مـن كلمـةٍ طيبـة رمّمـت قلبًـا أوشـكت شـقوقه عـلى الاتسـاع، وكـم مـن لفـظٍ قـاسٍ هـدم بـين الأرواح مـا لم تهدمـه الأفعـال، الواقـع يزدحـم بمـن يتحـدث، لكنـه يفتقـر إلى مـن يتأنّـى قبـل أن ينطـق، مـن يُـدرك أن «عـذرًا» قـد تُطفـئ نـارًا، و «شـكرًا» قـد تفتـح بابًـا كان مغلقًـا، و «لا بـأس» قـد تعيـد الحيـاة لقلـبٍ أوشـك أن ينهـار، فـربّ كلمـة واحـدة تقـال في لحظـة عابـرة تبقـى في الذاكـرة عُمـرًا

الانتصـار في الجـدال لا يعنـي دائـمًا كسـب العقـول، فقـد تفـرض حجتـك بقـوة المنطـق، لكنـك تخـسر القلـوب بجفـاء اللفـظ، فالكلـمات ليسـت سـلاحًا نشـهره في وجـه مـن نجادلهـم، ولا سـيفًا نمـزق بـه روابـط الـود بيننـا، بـل هـي جسـور نعـبر بهـا إلى قلـوب الآخريـن أو نهـدم بهـا كل طريـق مؤديـة إليهـم، وأحيانًـا يكـون أعظـم انتصـار هـو أن تصمـت عـن كلمـة كان بمقـدورك أن تقولهـا، فقـط لأنـك تعـي أن الأثـر الـذي تتركـه الكلـمات يـدوم أكثـر ممـا نتصـور، فليسـت كل معركـة تسـتوجب أن تكـون فارسـها، وليسـت كل كلمـة تسـتحق أن تلقـي بهـا دون تمحيـص، فكـم مـن جملـة قيلـت في لحظـة انفعـال، كانـت أثقـل عـلى القلـب مـن كل خطـأ وقـع فيـه المخطـئ، فمـن الـبر مـا يكـون عقوقًـا.

بين الامتثال والزلّة: لحظة الإنسان الأولى

في قصـة آدم عليه السلام تتجـلّى أعظـم دروس الوجـود: أن الكـمال لا يُولـد مـن العصمـة، بـل مـن القـدرة عـلى الاعـتراف، والعـودة، والتجـاوز، فحـين نهـاه الله عـن شـجرة بعينهـا، لم يكـن النهـي عـن شـجرة فحسـب، بـل عـن الانجـراف خلـف الهـوى دون نظـرٍ في العاقبـة.

عـاش آدم زمنًـا في الجنـة، آمنـاً مطمئنًـا، لا يعـرف الصراع، ولا تشـغله وسوسـة، حتـى ابتُلِي بخيـارٍ يكشـف عمـق النفـس الإنسـانية، واختبـار يُخـرِج الخفـيّ مـن ظاهـر الطاعـة، وحـين أكل مـن الشـجرة، لم يكـن ذلـك عـن جهـلٍ بمـراد الله، ولا تمـردًا عـلى سـلطانه، بـل كان لحظـة إنسـانية خالصـة، تداخلـت فيهـا نزعـة الاختيـار مـع وهَـن النفـس، وامتـزج الشـوق العميـق بنسـمة مـن الغفلـة العارضـة، فـزلّ آدم، وبهـذه الزلّـة بـدأت حكايـة الإنسـان الحقيقيـة عـلى الأرض، فلـم يكـن الهبـوط مـن الجنـة عقوبـة، بـل انتقـالًا إلى مقـام آخـر حيـث يكـون الخطـأ طريقًـا للمعرفـة، والتوبـة بابًـا للارتقـاء، والضعـف مفتاحًـا للقـوة.

عـاش أيامـه الأولى في سـكون وطمأنينـة، لم تعكـر صفوهـا التقلبـات، ولم يواجـه فيهـا صراعًـا بـين الرغبـة والطاعـة، حتـى جـاء يـوم مفصـلي كـسر رتابـة الأيـام الهادئـة، يـوم وُضـع أمـام خيـارٍ حقيقـي بـين الامتثـال أو المخالفـة، فاختـار آدم الأكل مـن الشـجرة وكان اختيـاره تفعيـلًا لقـدرة العقـل عـلى اتخـاذ القـرار، ولإرادةٍ حـرة قُـدِّر لهـا أن تُختـبر، فـكان الخطـأ، وكانـت التوبـة، وكان القبـول الإلهـي، لكـن الرحلـة لم تتوقـف هنـا، بـل جـاء الأمر الإلهـي ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾[1] وكأن اختيـار آدم الأكل مـن الشـجرة كان بداية القصة، قصـة الإنسـان عـلى الأرض، كان الاختيـار تطبيقًـا عمليًـا لقـدرة العقـل عـلى التمييـز بـين الصـواب والخطـأ، بـين المتـاح والممنـوع، والـذي بدونـه مـا كان للحسـاب أن يكـون إلا بـإرادة اختيـار حـر بـين الفعـل والامتنـاع، ليكـون الحسـاب عـادلًا عـلى قـدر الفعـل، وكأن رحلـة الاسـتخلاف في الأرض لم يكـن لهـا أن تبـدأ إلا بإثبـات جوهـر الاختيـار، فالإنسـان لم يُخلـق ليعيـش في طمأنينـة خاليـة مـن التحديـات، بـل ليكـون مسـؤولًا عـن قراراته، محاسـبًا عـلى أفعالـه، مختـبرًا في طاعتـه كـما اختُـبر آدم مـن قبـل.

---

١ البقرة [٨٣]

لم يكــن النهــي عــن الشــجرة لحرمانــه، بــل لتأســيس قاعــدة جوهريــة: أن الامتحــان لا يكــون إلا بالتكليـف، وأن الجنـة لا تُنـال إلا بعـد اجتيـاز الاختبـار، فبهـذا الحـدث الأول، وُضـع الإنسـان عـلى مسـار الرحلـة الكـبرى، رحلـة السـعي والتعلـم، الخطـأ والتوبـة، السـقوط والنهـوض، لأن العـدل الإلهـي اقتـضى أن يكـون الحسـاب مبنيًـا عـلى إرادة حـرة، وقـرارٍ لـه تبعاتـه، ليكـون الجـزاء عـلى قـدر الفعـل، لا عـلى قـدر العيـش في سـكينة بـلا امتحـان، وتلـك سـنّة الله في خلقـه: أن يسـيروا بـين مـدّ وجـزر، وأن يعرفـوا الله حـين يعرفـون أنفسـهم في لحظـة العثـرة، فيعـودون إليـه لا مهزومـين، بـل ناضجـين، إنّهـا قصـة كل واحـدٍ منـا: نُخطـئ، فننحنـي، ثـم نقـوم.

لقـد سـقط آدم، نعـم، لكنّـه قـام، تـاب، وتقبّـل تبعـات اختيـاره، فصـار بذلـك النمـوذج الأول للإنسـان الـذي يُخطـئ لا عـن جحـود، بـل عـن اندفـاع بـشري، ثـم ينهـض لا عـن كبريـاء، بـل عـن تواضـع وتـوق إلى القـرب مـن الله، ومـن قصـة آدم نتعلـم أن السـقوط ليـس هزيمـة، بـل خطـوة أولى في درب النهـوض، وأن الإنسـان ليـس معصومًـا، بـل مسـؤول عـن قراراتـه، وعـن صـدق عودتـه بعـد الزلـل، فكـما خُلـق آدم لـلأرض، خُلـق معـه الأمـل، والتوبـة، والرحمـة التـي تتسـع لضعفنـا البـشري، مـا دمنـا نعـود بقلـب صادق ونيـة تبتغـي وجـه الله.

كانـت زلّـة آدم درسًـا أبديًّـا في طبيعـة الإنسـان، وفي معنـى أن نُمنَـح العقـل والإرادة ثـم نُبتـلى بهـما، لا لنُـدان دائـمًا، بـل لنُربّـى ونُهـذّب ونُطهَّـر، لم تكـن الخطيئـة نهايـة، بـل كانـت بدايـة رحلـة الإنسـان في الأرض، بـكلّ مـا تحمـل مـن نـدمٍ ونهـوض، ومـن ضعـفٍ يتبعـه صـدق التوبـة، ومـن امتحـان يُخـرج مـن القلـب مـا فيـه، ويعلّـم الـروح كيـف تُبـصر بعـين الوعـي لا بسـطوة الرغبـة.

في قصـة آدم لا نقـرأ حكايـة عثـرة، بـل نقـرأ ميـلاد الإنسـان بـكلّ أبعـاده: حـرًّا، ضعيفًـا، محبًّـا، ومهيّـأً لتعلّـم الطريـق مـن أول السـقوط.

وهكـذا خُلِقنـا: لسـنا ملائكـة نمـضي بنقـاءٍ لا يتعثـر، ولا بهائـم لا تعـي، بـل بـشرٌ يخطئـون ليتوبـوا، ويضعفـون ليتقـوّوا، ويضيعـون ليتشـبّثوا أكثـر بالنـور.

حين يمتحنك الطريق، تسقط الأقنعة

الـكلام في ساعة الرخـاء سـهل، والمواقـف في غيـاب الفتنـة تلمـع، لكـن معـدن المبـادئ لا يُعـرف إلا إذا أوقـدت تحتـه نـيران الحيـاة، لا ترفـع شـعار الصـبر وأنـت لم تُبتـلَ، ولا تتغـنَّ بالوفـاء وأنـت لم تُخـيَّر بـين منفعـة وخيانـة، ولا تَـزه بالعفـة وأنـت لم تُـدعَ إليهـا في خلـوة، ولا تقـل أنـا عـادلٌ وأنـت لم تملـك سـلطة، فكـم مـن مبـدأ ادّعـاه النـاس، ثـم انهـار أمـام أول اختبـار، وتبخّـر عنـد أول مفـترق طريـق بـين المصلحـة والحـق، لقـد رأينـا مَـن هتـف بالكرامـة، فلـما خوّلـوه منصبًـا اسـتبدّ، ورأينـا مـن خطـب في النـاس عـن النزاهـة، فـإذا بـه يتهـاوى أمـام فتـات مـال، المبـادئ لا يُعـرَف صدقهـا في النصـوص والخطـب، بـل في أروقـة القـرار، ومواقـف الضيـق، وسـاعات الغربـة حـين لا يـراك إلا الله.

في وصـف دقيـق عـن الخـير والـشر يقـول أفونسـو كـروش: «لا أسـتطيع أن أقـول عـن إنسـان أنّـه طيـب إلا إذا كان لديـه القـدرة عـلى فعـل الـشر ولم يفعـل، يجـب أن يكـون لديك الخيـارات لتعـرف حقًّـا مـن أنـت» كلّنـا نحمـل بـذرة الضـوء والظـلام، ونُختـبر عنـد مفـترق الخيـارات، هنـاك يُصنـع جوهـر الإنسـان، لا حـين يُحـرم، بـل حـين يُعـرض عليـه كل شيء، ويختـار مـا يُـرضي ضمـيره لا رغباتـه، إنـما تُقـاس القلـوب بمقاومتهـا، لا بـما مـرّ بهـا عابـرًا دون امتحـان، فـلا يُختـبر معـدن المـرء حـين يكـون عاجـزًا عـن الإسـاءة، بـل حـين تكـون أمامـه الفرصـة ليـؤذي، ليظلـم، ليأخـذ مـا ليـس لـه، ثـم يختـار بإرادتـه الحـرة ألا يفعـل، عندهـا فقـط يكـون الخـير فضيلـة، ويكـون صاحبـه إنسـانًا نبيـلاً.

قـد نظـن أننـا راسـخون في مبادئنـا، ثابتـون أمـام المغريـات، حتـى يـأتي يـوم تُختـبر فيـه صلابتنـا، فننـدهـش حـين نشـعر بضعفنـا في لحظـة كنـا نعتقـد أننـا فيهـا سـنكون أكثـر ثباتًا، حـين نجـد أنفسـنا نـبرر، نلـين، أو حتـى نتراجـع أمـام ضغـوط لم نكـن نتصورهـا بهـذه القـوة، عندهـا نـدرك أن الأيـام الهادئـة لم تكـن مقياسًـا حقيقيًـا لمـدى تمسـكنا بمبادئنـا، بـل كانـت فقـط فـترة راحـة قبـل الامتحـان الحقيقـي، فالمبـادئ لا تثبـت في القلـوب بالـكلام، بـل بالتجـارب التـي تكشـف لنـا حقيقتهـا، ومـدى قدرتنـا عـلى الصمـود حـين تتزلـزل الأرض تحـت أقدامنـا، ومـا دامـت مبادئـك لم تُختـبر فاحمـد ربـك عـلى نعمـة السـتر، وتذكـر أنـه لا داعـي للفخـر بهـا فلعلهـا إن اختـُبِرت سـقطت.

في حضرة بلاء غيرك تأدب

كثيرة هي الدروس التي يوزّعها الآمنون بلا كُلفةٍ ولا وجع، كأنّ البلاء لا يمسّهم، وكأنّ الخطر لا يعرف طريقهم، وما أيسر إطلاق الأحكام من قمّة الراحة، حين لا تقرع أبوابهم نوازل الحياة، ولا تخدش جلودهم محن الأيام، في الحديث أن النبيﷺ قال: «من رأى مبتلًى فقال: الحمدُ لله الذي عافاني مما ابتلاكَ به، وفضَّلني على كثيرٍ ممن خلق تفضيلًا، لم يُصِبْهُ ذلك البَلاءُ» [1] لا شُعورًا بالتفوق، بل شكرًا وحياءً وخوفًا من تقلبات الأيام، فالنظر إلى المبتلى ليس موضع شماتة ولا علوّ، بل موقفٌ يستنفر القلب للاتعاظ، واللسان للحمد، والنفس للتواضع، فهذه الكلمة لا تُقال لتأكيد تميّز، بل لتثبيت قلبٍ يعلم هشاشة الحال، ويخشى أن يُدركه البلاء على حين غفلة، فالعافية نعمة صامتة، لا تُشعَر إلا حين تُنتزع، وهذه الدعوة ليست استكبارًا، بل تربية على التذكّر، أن من نجا اليوم قد يُبتلى غدًا، وأن الشكر الصادق هو أن ترحم المبتلى لا أن تزهو أمامه، وأن تعين لا أن تُشير، وأن تهمس بقلبك قبل لسانك: اللهم اجعل عافيتنا سترًا لا غرورًا.

لا تُكثر التأويل ولا تستسهل الأحكام حين ترى غيرك يتخبط في بلاء، أو ينهكه حزن، أو يعاني مما لم تمتحن به، فثمة أقدار تمضي على الأرواح كالسكاكين، لا تراها بالعين، لكنها تمزّق الداخل في صمت، وربما نجاك الله من بلاءٍ لم تتحمله روحك، فكيف تقسو على من لم ينجُ؟ قِف قليلًا، وتأدّب، فليست كل القصص قابلة للفهم من الخارج، بعضها لا يُروى إلا بين العبد وربه، في سجدة منكسرة أو دمعٍ يهمس بالدعاء، جاء في الأثر: «لا تُظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك» كم من لسانٍ نال من غيره، فابتُلي بما استصغر! وكم من عينٍ نظرت باحتقار، ثم رأت نفسها بعد حين في المكان ذاته! لا تُطلق لسانك من شرفة السلامة، فإنّ الطمأنينة تولّد الجرأة الكاذبة، الحياة دوّارة، والبلاء رسولُ حكمةٍ لا يطرق بابًا إلا ليُعلّم ساكنيه درسًا لا يُنسى، فلا تغترّ بسلامتك وأنت تشهد العاصفة من بعيد تقتلع غيرك، بل تأدّب في حضرة ابتلاء غيرك.

---

١ راوه ابن ماجة (٣٨٩٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٣٧)

تـأدّب؛ لأنـك لا تـدري مـا يخفـي الله عنـك مـن لطـف، ولا مـا ادّخـره لـك مـن امتحـان لم يـأتِ بعـد.

تأدّب؛ فربّ من تُشير إليه بإصبع الشفقة اليوم، يراك غدًا بعين الدعاء والرحمة.

تأدّب؛ فإنّ البلاء حين يطرق الأبواب لا يستأذن، ولا يميّز بين عالٍ وسافل.

تأدّب؛ فربما نجا غيرك بصبره، وهلكت أنت بغرورك.

تأدّب؛ لأنّ الله يُحب عبده المتواضع، الذي يرى نِعَمه ستراً لا استحقاقًا.

تأدّب؛ فلا تزكّ نفسك بعافية لم تطلبها، ولا تسخر من ألمٍ لم يُقسَم لك.

تـأدّب؛ فقـد يكـون ابتـلاء غـيرك رِفعـة لـه، وعطـاء الله لـك اسـتدراجًا، فـالله إذا أحـب عبـدًا ابتـلاه، وإن كـره عبـداً أغـراه.

تــأدّب؛ فالقلــوب الموجوعــة لا تحتــاج إلى أحكامــك، بــل إلى سِــترك ودعائــك وصــدق شــعورك.

امـضِ في الحيـاة متأدبًـا، لا تأنـف مـن التواضـع، ولا تغفـل عـن الامتنـان، فـإنّ النجـاة ليسـت براعـة، بـل سـترٌ مـن الله، ولطـفٌ خفـيّ مـرّ بـك دون أن تـراه، احمـد الله في صمـت، وادعُ في خفـاء، وكـن في حـضرة بـلاء غـيرك قلبًـا رحيـمًا ولسـانًا متزنًـا، لا مُعلّقًـا بأحـكام، ولا متبـاهٍ بنجـاةٍ مؤقتـة، فكـم مـن مثـاليٍّ لم يُختـبر، وكـم مـن نزيـهٍ في بحبوحـة، لـو ضـاق بـه العيـش لتبدّلـت نبرتـه! وكـم مـن واعـظٍ مـا ذاق ألمًـا، فـكان في عِظاتـه غليظًـا جافًـا، يـسرف في التأنيـب لأنّ البـلاء لم يَخِـطْ جراحـه بعـد! وكـم مـن متشـدّدٍ في عنفـوان عافيتـه، فـإذا مـا عصفـت بـه السـنون، رقّ صوتـه، وخفّـت وطأتـه، واسـتحيا مـن قسـوة لم يكـن يـدرك قبحهـا إلا حـين ذاق مرارتهـا!

يـا صديقـي مـا دامـت النـيران لا تـأكل أطرافـك، فـلا ترفـع صوتـك في قاعـةٍ لم يُـدعَ قلبـك إلى امتحانهـا بعـد، ولا تُلـقِ مواعظـك مـن عـلٍ، تتلـو العظـة وتنسـى أنّـك في طابـور التجربـة تنتظـر دورك، البـلاء مدرسـة لا يفهمهـا إلا مـن دخلهـا تلميـذًا مطأطـئ الـرأس يتعلـم مـن نَفسـه أولاً، قبـل أن يُعلّـم غـيره، وبـلاءُ غـيرك ليـس فرصـةً لتُقـارن، ولا سُـلّماً لتسـمو عليـه، بـل مـرآة تُريـك نعمـةً تغفـل عنهـا.

بداخل كل قلب قصة بكاء مكتومة

لم تـزل «الخنسـاء» الشـاعرة تبكـي أباهـا وأخويهـا في الجاهليـة حتـى أضرَّ بهـا الحـزن وأظلمـت عيناهـا، فلـما أكرمهـا الله بالإسـلام، ظـنّ مَـن حولهـا أن نـور الإيـمان سـيمحو وجـع الفقـد، فأقبـل بها بنـو عمهـا إلى عمـر بـن الخطـاب وهـو الحاكـم العـادل والقلـب الحـازم، فقالـوا: «يـا أمـير المؤمنـين، هـذه الخنسـاء لم تـزل تبكـي حتـى ذهبـت عيناهـا، وقـد أدركـت الإسـلام وهـي عـلى حالهـا، فلـو نهيتهـا رجونـا أن تنتهـي» فنظـر إليهـا عمـر بعـين الناصـح المشـفق، وقـال: «حتـى متـى يـا خنسـاء؟ اتقـي الله وأيقنـي بالمـوت» .

لكـن الخنسـاء، التـي عاشـت في قلـب المأسـاة، لم تكـن تبكـي جهـلًا بحتميـة المـوت، بـل رثـاءً لحيـاة كانـت، وذكـرى رجـال لم يعـودوا، فقالـت بصـوت تملـؤه المـرارة: «إني أبكـي أبي وخَـيرَي مـضر: معاويـة وصخـراً، وإني لموقنـة بالمـوت يـا ابـن الخطـاب»

رقَّـت نفـس عمـر لصـدق حزنهـا، فلـم يُعنِّفْهـا ولم يُوبِّخْهـا، بـل أطلـق كلماتـه التـي تحمـل مـن الحكمـة بقـدر مـا تحمـل مـن الرحمـة: « خَلّـوا سـبيل عَجوزَكُـم لا أبـا لكـم، فـإن كُلَّ امـرئٍ يبكـي شَـجْوَهُ؛ نَـامَ الخَـليّ عـن بُـكاء الشَّـجِيّ»

الخـليّ الـذي لا هـمَّ لـه لـن يلتفـت لـما يعانيـه صاحـب الهـمِّ مشـغول البـال، فمـن كان قلبـه فارغًـا مـن الألم، لـن يشـعر بثقـل الوجـع في صـدور الآخريـن، ومـن لم يـذق الفقـد، لـن يـدرك كيـف يكـون الاشـتياق لمـن رحلـوا، كل امـرئ يبكـي همًّـا قـد أصابـه، حزنًـا أقـد أوجعـه، قـد لا يشـعر بـه غـيره ؛ فيعاتبـه، ولـو تركـه لحالـه لـكان أطيـب لقلبـه مـن التـلاوم مـن تقليـل شـأن أمـر في عينـك هـين في عينيـه عزيـز وفقـده مـؤلم.

كل إنسـان يحمـل في داخلـه قصـة لا يعرفهـا سـواه، وجعًـا قديـمًا يسـكن زوايـا قلبـه، وحنينًـا لمـاضٍ لم يكتمـل كـما أراد، قـد يبـدو للآخريـن شـخصًا قويًـا، باسـماً، ثابتًـا أمـام الحيـاة، لكنـه في لحظـة صمـت، حـين يخلـو بنفسـه، يعـود إلى تلـك الذكـرى التـي تؤرقـه، إلى خسـارة لم ينـسَ أثرهـا، أو إلى حلـم لم يكتمـل رغـم كل محاولاتـه.

لم تكـن الخنسـاء مجـرد امـرأة تبكـي، بـل كانـت رمـزًا للحـزن الـذي لا يعالجـه الزمـن، ولكنـه يتخـذ لـه مكانًـا في زوايـا الـروح، لا يـزول وإن خـفّ، ولم يكـن بكاؤهـا عبثًـا، بـل

كان تجسـيدًا لوفـاء القلـب، وإن كان الإسـلام قـد أضـاء حياتهـا بالإيـمان، إلا أن القلـب يظـل لـه نصيبـه مـن الأحـزان، لأن الإيـمان يمنـح الصـبر، لكنـه لا يلغـي إنسـانية المشـاعر.

تقـول العـرب في أمثالهـا :«وَيْـلٌ للشَّـجِيِّ مِـنَ الخَـلِيِّ!» أي: ويـل للمهمـوم ممـن لا هَـمَّ لـه، ويـلٌ لمـن يحمـل الهـم ويكابـده، ممـن يعيـش في راحـة البـال ولا يعـرف للهـم طريقًـا، فالمهمـوم يعيـش في دوامـة مـن المشـاعر، يحمـل في قلبـه جراحًـا لا يراهـا أحـد، ويثقـل صـدره بحمـل لا يشـعر بـه غـيره، بينـما الخـالي مـن الهمـوم يمـضي في دنيـاه غـير مكـترث، لا يـدرك حجـم المعانـاة التـي تعتـصر غـيره، ولا يسـتوعب لمـاذا تعجـز الكلـمات عـن إطفـاء نـار الحـزن في قلـب الشـجيّ.

النـاس وإن اختلفـت وجوههـم وطـرق عيشـهم، يجمعهـم هـذا الشـعور المشـترك، أن لـكلٍ منهـم وجعًـا خفيًـا لا يعلمـه أحـد، البعـض يبكيـه سرًا، والآخـر يترجمـه صمتًـا أو انشـغالًا دائـمًا، وكأن الهـروب مـن التفكـير فيـه قـد يخفـف وطأتـه، قـد يضحـك أحدهـم وفي داخلـه صراع لا يـراه أحـد، وقـد يبـدو الآخـر قاسـيًا، وهـو في الحقيقـة يحمـل قلبًـا مثقـلًا بـما لا يحتملـه، التقديـر الحقيقـي للنـاس هـو أن نعاملهـم بلطـف، لأننـا لا نعـرف مـا يواجهونـه، وأن نـدرك أن كل امـرئ يبكـي شـجوه بطريقتـه، حتـى وإن لم تظهـر دموعـه، فليـس كل مـن يسـتمع إليـك قـادرًا عـلى فهمـك، وليـس كل مـن يـراك مـدركًا لمـا تشـعر بـه، الشـجيّ قـد يئـن تحـت وطـأة الحـزن، بينـما الخـليّ يطالبـه بالكـفّ عـن الشـكوى، معتقـدًا أن الحـزن قـرار يمكـن اتخـاذه بسـهولة.

في زحـام الحيـاة لا تـرى العيـون سـوى الوجـوه، ولا تسـمع الآذان سـوى الكلـمات، لكـن مـا يعتمـل في الصـدور لا تُدركـه إلا الأرواح المُرهفـة، كل امـرئٍ يحمـل وجعًـا يخفيـه خلف ابتسـامته، وكل نفـسٍ تئـنّ بصمـت تحـت وطـأة مـا لا يُقـال، أحدهـم يبتسـم وهـو يجـر ألمـه كظـل لا يفارقـه، وآخـر يربّـت عـلى كتـف غـيره وقلبـه مثقـل بنـدوب لا تلتئـم، ليـس بيننـا مـن لم تبللـه دمعـة في الخفـاء، أو يوقظـه ليـلًا خاطـر موجـع، أو يحـدّق في الفـراغ بحثًـا عـن عـزاء لا يـأتي، ولأن الشـكوى لا تُقـال دائـمًا، بـات الصمـت لغـة الجميـع، والبـكاء الـذي لا يُـرى صـار شـجًى مشـتركًا، لنُرفـق بمـن حولنـا، فالقلـوب المثقلـة لا تطلـب منـا إجابـات بقـدر مـا تحتـاج إلى لمسـة حنـان، أو صمتًـا متفهّـمًا، كل امـرئٍ يبكـي شـجوه، لكـن القلـوب الرحيمـة تصغـي حتـى حـين لا يُنطـق بالوجـع.

كل امـرئٍ يبكـي شـجوه، لكـن ليـس كل بـكاء يُسـمَع، ولا كل وجـع يُفصـح عنـه، فالنـاس تمـرُّ ببعضهـا مـرورًا خفيفًـا، ولا يـدرك أكثرهـم أن مـن يبـدو صامـدًا قـد يكـون منهـكًا مـن الداخـل، يتهـاوى كل مسـاء عـلى سريـره ليعيـد ترتيـب شـظاياه المبعثـرة، ويقنـع نفسـه أن الغـد سـيكون أهـون.

ربـما نلتقـي بأحدهـم في لحظـة انكسـار لم يظهـر عـلى ملامحـه، فنتجـاوز دون أن نشـعر أننـا خسرنـا فرصـة مواسـاة كان يمكـن أن تصنـع فرقًـا، وأن كلمـة دافئـة أو حتـى نظـرة تعاطـف كانـت كافيـة لتخفـف مـن ثقـل حملـه.

البـكاء ليـس دائـمًا دمعـة تنـزل، بـل قـد يكـون تراجعًـا عـن حلـم، أو تسـاهلًا في حـق النفـس، أو انسـحابًا مـن علاقـة أرهقـت القلـب، أو حتـى سـكوتًا طويـلًا بـدل العتـب، وكل امـرئٍ يحمـل وجعـه عـلى هيئـةٍ تخصـه، منهـم مـن يكتبـه، ومنهـم مـن يصمـت، ومنهـم مـن يضحـك ليخفـي، لكـن الجميـع بـلا اسـتثناء يتمنـى لحظـة يُفهـم فيهـا دون شرح، ويُحتضـن دون سـؤال.

كل امـرئٍ يبكـي شـجوه، ومـا الحيـاة إلا مسـيرة مواسـاة نرجـو أن نُحسـن فيهـا العبـور ببعضنـا، شيء مـن الحنـان وكثـير مـن الأثـر.

فلنكـن لطفـاء مـا اسـتطعنا، ففـي زحـام الحيـاة، لا يحتـاج النـاس مزيـدًا مـن المحاكـمات، بـل مزيـدًا مـن الرحمـة.

حين يمرّ العمر.. تتضح الرؤية

بعـد أن يطويـك الزمـن، وتنعكـس ملامحـك عـلى مـرآة التجـارب، سـترى بوضوح مـا كان مشوشًـا، وتسـمع مـا لم تكـن تسـمعه حـين علـت الضوضـاءُ في أعماقـك، سـتدركُ ـ بيقـينٍ الناجـين لا الحالمـين ـ أن كثـيرًا ممـا أثقـل روحـك لم يكـن جديـرًا بـكل هـذا الحضـور، وأن قلقـك عـلى تفاصيـل عابـرة كان أشـبه بمـن يسـقي ظـلاً ويظنّـه شـجرة.

سـتدرك أن الصداقـة لا تـوزن بالرسـائل اليوميـة ولا بكثـرة اللقـاءات، بـل بثبـات القلـوب حـين تتكشـف النيّـات، وأن الوحـدة، ليسـت بعـدد مـن يسـألون عنـك، بـل ببُعـدك عـن نفسـك، حـين لا تجـد فيـك مـا كنـت تعرفـه، وأن بعـض الذيـن غـادروا كانـوا مجـرد اختبـارات، لا يسـتحقون البقـاء ولا الأسـى، وأن الاحتفـاظ بفطرتـك كان انتصـارًا، وإن بـدا هزيمـةً في أعـين مـن ظنّـوا أن الذوبـان في رضاهـم نُضـج.

مـع تقـادم الأعـوام، سـتحمي قلبـك لا خوفًـا، بـل تقديـرًا، سـتحفظ طاقتـك، لأنـك عرفـت أن السـخاء في غـير موضعـه إفـلاس، سـتصمت حـين يدفعـك الغضـب للـكلام، وسـتغادر حـين يـصرّ الآخـر عـلى إقامتـك في مسـاحة لا تليـق بـك، لـن تغضـب بسـهولة، لكنـك لـن تقبـل الإهانـة مرّتـين، لـن تبالـغ في الاحتفـاء بمـن لا يـراك، لكنـك سـتغدق العطـاء عـلى مـن صـان حضـورك.

وحـين تعـود إلى نفسـك بعـد طـول اغـتراب، سـترى أن أفـكارك التـي بـدّدت وهجهـا عـلى قارعـة العلـن، كان أولى بهـا أن تنضـج في حضـن الصمـت، أن تنمـو بهـدوء قبـل أن تتكفّنهـا ألسـنةُ النقـد.

ثـم، سـيأتيك النضـج هادئًـا كفجـرٍ بعـد عاصفـة، لا يـصرخ، لا يطالـب، فقـط يريـك الأمـور بحجمهـا، ويعيـدك إليـك، سـتراجع عـن سـباقات اللهـاث خلـف القبـول، وتكـفّ عـن الـشرح المُرهـق لنفسـك، لتـدرك أن الحيـاة ليسـت سـاحةَ تبريـر، بـل سـاحةُ وعـي، وأن مـن لا يُـدرك قيمتـك بصمتـك، لـن يُنصفـك ولـو شرحـت لـه العمـر كلّـه.

سـتضيق دائرتـك، لا لأنـك أقـلّ وفـاءً، بـل لأنـك صرت تنتقـي العمـق عـلى حسـاب الاتسـاع، والصـدق عـلى حسـاب الكثـرة، والسـكينة عـلى حسـاب الحضـور المزيـف.

سـترى أن كثـرة الوجـوه لا تمنحـك الطمأنينـة، بـل وجـهٌ واحـدٌ يبقـى وقـت الانطفـاء، يغنيـك عـن ألـف ضـوءٍ عابـر.

عندهـا، سـتكون قـد اشـتريت نفسـك مـن ضيـاع كـدت تهلـك فيـه، وسـتعلم أن الوقـوف عـلى قدميـك بثقـل التجربـة، خـيرٌ مـن التحليـق بأجنحـةٍ مسـتعارة.

ستكون أنت، كما أردت دومًا، لا كما أرادك الآخرون أن تكون.

كل فكـرة تعتنقهـا اليـوم، قابلـة للانبعـاث مـن رمادهـا، لأن اللحظـة الحـاضرة ليسـت مجـرد زمـنٍ عابـر، بـل سـاحةُ التحـول، ومحـرّك المصـير، المـاضي بـكل مـا فيـه قـد طُـوي، ولا سـلطان لـه عليـك إلا إن سـمحت لـه أن يربطـك بسلاسـل الذكـرى والنـدم، أمـا المسـتقبل، فليـس غيبًـا تامًّـا كـما يُخيّـل إليـك، بـل هـو ظـلّ خطـاك اليـوم، امتـداد قراراتك، وانعـكاس نوايـاك التـي تُـزرع الآن، تحـرّر مـن سـطوة مـا فـات، وانهـض مـن تحـت ركام مـا لم يـأتِ بعـد، فليـس لـك مـن الزمـن إلا هـذا الآن، وهـذه اللحظـة ـ بحقيقتهـا النقيـة ـ وحدهـا القـادرة عـلى أن تعيـدك إلى ذاتـك، أن تصوغـك مـن جديـد، بـما يليـق بـك، وبـما ينسـجم مـع جوهـرك لا مـع أصـوات الآخريـن.

امـضِ، حيـث تجـد روحـك لا حيـث تُشـير إليـك الحشـود، واسـعَ لمـا تؤمـن بـه لا لمـا يُصفَّـق لـه، فـلا أعظـم مـن أن تنضـج إلى الحـدّ الـذي تـرى فيـه النـاس بأقدارهـم، لا بـما يظهـرون، فـلا تُهـدر عمـرك في مجـاراة مـن لـن يـرضى عنـك وإن بسـطت روحـك تحـت قدميـه.

ومـن هنـاك، مـن نقطـةٍ في الغـد لم تَبلغهـا بعـد، أُرسـل إليـك رسـائل لا تروِّعـك، بـل تُطمئنـك: سـتمرّ، وسـتنجو، وسـتتخفف ممـا أرهقـك، وسـتضحك لا شـماتةً بـما أبـكاك، بـل امتنانًـا لأنـك تجاوزتـه، سـتخسر مـا كنـت تظـنّ أن الحيـاة لا تقـف دونـه، وسـتُفاجأ أنهـا تمـضي، وربـما أخـفّ وأجمـل، مـن غـيره.

لـن تنضـج لأنـك أردت ذلـك فقـط، بـل لأن الحيـاة ـ بصرامتهـا ورحمتهـا معًـا ـ سـتقودك نحـو الاتـزان، خطـوةً تلـو خطـوة، حتـى تنبـت فيـك حكمـة لم تطلبهـا، لكنـك أصبحـت أهـلًا لهـا.

ما زلنا نسير في أحداث قصتنا

مـا زلنـا نسـير في أحـداث قصتنـا، نمـضي بـين فصولهـا المتقلبـة، بـين صفحـات امتـلأت بانتصـارات صغـيرة وخيبـات مـرّت دون أن تكسرنـا، وليسـت القصـة مجـرد حكايـة تُروى، بـل هـي رحلـة حيـاة نعيشـها بـكل تفاصيلهـا، نكتبهـا بأفعالنـا، ونلونهـا بمشـاعرنا، حتـى عندمـا نظـن أن الأحـداث توقفـت، نفاجـأ بـأن الحيـاة تفتـح لنـا فصـلاً جديـدًا لم يكـن في الحسـبان كأنـما تأبـى علينـا أن نتوقـف، نشـعر في بعـض الاحيـان كأننـا مجـرد شـخصيات ثانويـة في قصـة أكـبر، لكـن الحقيقـة أننـا أبطالهـا، نملـك القلـم ونحـدد مسـار الـسرد، حتـى وإن كان الطريـق غـير واضـح المعـالم.

وقـد تـأتي لحظـات نقـف فيهـا أمـام مـرآة الحيـاة، فنجـد أنفسـنا غربـاء عـن أنفسـنا، ذات الملامـح، ذات الجسـد، لكـن الداخـل لم يعـد كـما كان، عبثـت بـه الأيـام، وتركتـه التجـارب منهـكًا، فنهمـس في دهشـة: « لا ليـس هـذا أنـا » .

أحيانًـا، مـا ينقصنـا هـو الاعـتراف بضعفنـا، ولـو بيننـا وبـين أنفسـنا، أن نقـرّ بأننـا بحاجـة إلى كلمـة تسـاندنا، إلى يـد تمتـد إلينـا بثبـات، إلى رسـالة تخبرنـا أننـا بخـير، وأننـا لسـنا بذلـك السـوء الـذي توهمنـاه، وأننـا لسـنا مطالبـين بـأن نكـون أبطـالًا طـوال الوقـت، ولا أن نحمـل أعباءنـا بصمـت إلى مـا لا نهايـة، ولا أن نحبـس دموعنـا خشـية أن يُـرى ضعفنـا.

وبـين التخبـط والشـتات، بـين الشـك والخـوف، يمتـد إلينـا خيـط مـن النـور، يقـينٌ في معيـة الله، ثـم يـدٌ حانيـة، تمسـك بنـا بقـوة، لا لتسـحبنا للخلـف، بـل لتعيـد إلينـا توازننـا، لتمنحنـا الأمـان الـذي كدنـا نفقـده، أمـا أنفسـنا في تلـك اللحظـات، فهـي أضعـف مـن أن تنهـض وحدهـا، لكنهـا أيضًـا لم تُخلـق لتنهـار، بـل لتُبعـث مـن جديـد، أقـوى، أنقـى، وأوعـى لمـا يسـتحق أن يُحفـظ ومـا يجـب أن يُـترك خلفهـا دون التفـات، ربـما لا تسـير القصـة كـما خططنـا، وربـما نُجـبر عـلى تغيـير المسـار أو إعـادة كتابـة بعـض الفصـول، لكـن هـذا لا يعنـي أن الحكايـة فقـدت معناهـا، فـما زلنـا نسـير، وقـد نحتـاج إلى اسـتراحة بـين الصفحـات، وقـد نعيـد قـراءة بعـض الفصـول بحنـين أو نـدم، لكـن الأهـم أننـا لم نتوقـف، وأن القصـة لم تنتـهِ بعـد، ومـا زال هنـاك الكثـير لنكتبـه بأيدينـا ونحكـي تفاصيلـه يومًـا مـا لعزيـز أو ابـن أو حفيـد .

الحيرة بين التردد والحسم

لحظـة معلّقـة في الهـواء، لا تنتمـي للـماضي الـذي انقـضى، ولا للمسـتقبل الـذي ينتظـر، بـل تعيـش بـين طـرقٍ تتزاحـم في الـرأس، وخـوفٍ يسـكن القلـب، وصـوتٍ داخـلي لا يصمـت، يقـول: ومـاذا لـو أخطـأت؟ الحـيرة ليسـت دائـمًا عجـزًا، بـل أحيانًـا عمـقُ شـعورٍ بالمسـؤولية أمـام قـرارٍ لا رجعـة فيـه، قديـمًا قالـوا: «الوقـوف عـلى التـلّ لا يكشـف لـك الطريـق، بـل يؤخـرك عـن السـير»، فمـن طـال تـردده طـال ألمـه، لأن القـرار لا يزنـه العقـل وحـده، بـل القلـب، والظـروف، وسـؤال المصـير، ذاك التسـاؤل العميـق الـذي يرافـق القـرارات الكـبرى، تلـك التـي لا تغـيّر يومًـا عابـرًا فقـط، بـل قـد تغـيّر مجـرى الحيـاة كلهـا، فالحائـر لا يـتردّد فقـط بـين خياريـن، بـل بـين طريقـين يحمـل كلٌّ منهـما تبعاتـه، ومسـتقبلًا مختلفًـا، حـين يختـار المـرء أن يغـيّر مهنتـه، أو يُنهـي علاقـة طويلـة، أو يهاجـر مـن وطنـه، أو يواجـه ظلـمًا، أو يسـلك طريقًـا غـير مألـوف فهـو لا يسـأل فقـط: هـل أنجـح؟ هـل أتـألم؟ بـل يسـأل ضمنًـا: أيّ نـوع مـن الحيـاة سـيكون بانتظـاري بعـد هـذا القـرار؟ هـل أنـا أغـيّر قـدري؟ أم أكتبـه الآن؟ أيـن سـيأخذني هـذا الطريـق؟

الحـيرة شـعور متأرجـح بـين الـتردد والحسـم، تأخـذ فيـه النفـس خطـوة للأمـام ثـم تتراجـع أخـرى للخلـف، كأنهـا تخشـى القـرار أكثـر ممـا تخشـى العواقـب، زواج لم يكـن موفقًـا، وظيفـة لا تشـعر فيهـا بالانتـماء، علاقـة اسـتنزفت طاقتـك بـدلًا مـن أن تمنحـك القـوة، ثـم تبـدأ دوامـة اللـوم، نلـوم أنفسـنا ونعاتبهـا عـلى قـرار لم يكـن نابعًـا مـن سـوء نيـة أو قلـة وعـي، بـل كان اجتهـادًا في لحظـة لم نكـن نملـك فيهـا رؤيـة المسـتقبل.

في الواقـع، نعـرف مَـن ظـلّ حائـرًا في عمـلٍ كرهـه، لكنـه لم يغـادره خوفًـا مـن الغـد، ومَـن تـردّد في حـبٍّ صـادق حتـى أضاعـه، ومَـن انتظـر إشـارة مـن القـدر ولم يصنعهـا، حتـى صـارت الحيـاة تمـرُّ مـن أمامـه لا بـه، الـتردد المتطـاول يُطفـئ البصـيرة، والحسـم دون بصيرة يـورث النـدم، نحـن لا نملـك معرفـة الغيـب لنحكـم عـلى نتائـج قراراتنـا قبـل وقوعهـا، لكننـا نجـد أنفسـنا في حـيرة جديـدة عنـد كل مفـترق طـرق: هـل نسـتمر أم نتوقـف؟ وكلا الخياريـن مرهـق بمجـرد التفكـير فيـه، البعـض يمتلـك شـجاعة مواجهـة العواقـب ويختـار الحسـم، بينـما يظـل آخـرون أسرى مخاوفهـم، يـترددون خشـية قلـة البدائـل أو هربًـا مـن

مواجهــة تبعــات القــرار، فيعيشــون في منطقــة رماديــة لا اســتمرارها مُجــدٍ ولا الانســحاب منهــا ســهل.

وبــين الــتردد والحســم يقــف الإنســان متأرجحًــا، يخشــى أن ينــدم عــلى قــراره، لكنــه لا يــدرك أن الــتردد نفســه قــرار، وأن بقــاءه في المنتصــف لا يعفيــه مــن المســؤولية، فالحيــاة لم تكــن يومًــا خطًــا مســتقيمًا ، لابــد مــن التعــرج بــين اختيــارات صحيحــة نجنــي ثمارهــا وأخــرى خاطئــة ندفــع ثمنهــا، لكــن ليــس مــن العــدل أن تتوقــف ســاعة الزمــن بنــا عــلى نتيجــة اختيــار خاطــئ ، هنــاك دائــما فرصــة ثانيــة للتصحيــح وإن كانــت شــاقة، وإن كان الثمــن غاليًــا.

كثــيرون يجــدون صعوبــة في إنهــاء زواج غــير موفــق عندمــا يفكــرون في أبنائهــم، أو في تــرك وظيفــة مرهقــة لأنهــم لا يملكــون بديــلاً واضحًــا، لكــن الفــارق ليــس في القــرار بحــد ذاته، بــل في القــدرة عــلى التكيــف معــه، مَــن يملــك شــجاعة الحســم ويتحمــل تبعاتــه قــد يواجــه مشــقة، لكنــه سيشــعر بالتصالــح مــع ذاتــه، أمــا مَــن يختــار البقــاء بدافــع الــضرورة، فهــو ليــس مخطئًــا، لكــن عليــه ألا يســمح لهــذا الاختيــار بــأن يلتهــم هويتــه، بإمكانــه أن يخلــق لنفســه مســاحة خاصــة، يبنــي فيهــا نجاحًــا ولــو في أمــور بســيطة، يجــد فيهــا ذاتــه بعيــدًا عــن ضغــوط الواقــع، فالاستســلام الكامــل للوضــع القائــم لا يــورث إلا الانكســار، بينــما النجــاح في جانــب مــن الحيــاة ـ ولــو كان صغــيرًا ـ يمنحــك قــوة تعــوّض مــا قــد تــراه خســارة في جوانــب أخــرى، ويجعلــك أكثــر قــدرة عــلى مواجهــة الحيــاة .

الحيــاة تمــضي، والخســارة الحقيقيــة ليســت في الاختيــار الخاطــئ، بــل في العجــز عــن الاختيار مــن الأســاس، والحســم ليــس تهــورًا، بــل ثقــة بمنطقــك، وفهــمٍ لعواقبــك، ورضــا بأنــك اخــترت بَعــد نظــرٍ لا بَعــد ضجيــج، وكــم مــن قــراراتٍ لم تكــن صائبــة تمامًــا، لكنهــا صنعــت حيــاة، بينــما الــتردد المتكــرر لا يصنــع إلا تأخُّــرًا، إذا لم يتحقــق مــا تريــد، فــلا تجعلــه ســبب همومــك بــل تقبــل الأمــر وابحــث عــن الراحــة في جوانــب أخــرى مــن حياتــك.

فاخــتر، وإن خفــت، واجتهــد، وإن تهــت، فــالله لا يؤاخــذ عــلى ضعــف التقديــر، لكنــه يحــبّ مَــن يمــضي في دربــه متــوكّلًا، لا واقفًــا عــلى عتبــة لعــلَّ وعســى.

أوكلما اشتهيت اشتريت

رأى عمـر بـن الخطـاب لحـمًا في يـد جابـر بـن عبـدالله فقـال: مـا هـذا يـا جابـر؟ قـال جابـر: اشـتهيت لحـمًا فاشـتريته، فقـال عمـر: أوكلـما اشـتهيت اشـتريت يـا جابـر! [١]

مـن الأمثلـة الدارجـة بـين النـاس «لا تتسـوق وأنـت جائـع» لأن الإنسـان قـد يشـتري أشـياء كثـيرة لا حاجـة لـه بهـا ظنًـا منـه أنهـا قـد تسـد جوعـه، وحينـما يفـرغ مـن طعامـه يجـد أكثـر مـا اشـترى أصبـح بـلا قيمـة ولا حاجـة لـه فيـه، ليـس في الطعـام وحـده، إنـما في أكثـر أمـور الحيـاة، القـرارات التـي تؤخـذ تحـت تأثـير رغبـة ملحـة قـد لا تكـون عواقبهـا جيـدة، فالرغبـة ليسـت مرادفًـا للحاجـة، والقـدرة عـلى الامتـلاك لا تعنـي بالـضرورة الحكمـة في الاختيـار، بعـض الأشـياء تفقـد قيمتهـا فـور حصولنـا عليهـا، وبعـض الرغبـات تنطفـئ حالمـا نُلبيهـا، فنـدور في دائـرةٍ لا تنتهـي مـن الاشـتهاء والـشراء والفـراغ.

إنّ النفـس بطبعهـا توّاقـة، تتـوق إلى المزيـد حتـى وإن لم تكـن بحاجـة لـه، تتلهّـف لامتـلاك الجديـد لا حبًّـا فيـه بـل هربًـا مـن الشـعور بالنقـص، وكأن الامتـلاك يملـؤ فجـواتٍ خفيـة لا نُـدرك عمقهـا، كلـما امتـلأت فجـوة ظهـرت غيرهـا فجـوات، أيكفـي أن تمتلـك كل مـا تشـتهي ليهـدأ هـذا الطلـب؟ أم أنـك كلـما حصلـت عـلى شيء، اسـتجدت فيـك رغبـة أخـرى تسـلبك راحـة القناعـة؟ السـعادة ليسـت في أن تأخـذ كل مـا تريـد، بـل في أن تعـرف متـى تقـول لنفسـك: «هـذا يكفينـي»، لـذا قبـل أن تمـدّ يـدك لتأخـذ، سـل نفسـك: هـل هـذا حقًّـا مـا أحتاجـه، أم أنهـا لحظـة ضعـف تُغرينـي بـما لا يـدوم؟

القناعـة الواعيـة خـير مـن الجـري المسـتمر خلـف المزيـد، فالنفـس البشريـة بطبيعتهـا متطلعـة، لا يشـبعها شيء إن لم يكـن لهـا ميـزان داخـلي يحـدد حاجاتهـا الحقيقيـة مـن رغباتهـا العابـرة، لذلـك، فـإن معرفـة متـى تتوقـف، متـى تكتفـي، ومتـى تـترك مـا لا يُضيـف لحياتـك قيمـة، هـو أعظـم مـا يمكـن أن تصـل إليـه.

أحيانًـا، الامتنـاع عـن الأخـذ أكثـر إشـباعًا مـن الامتـلاك، فقولـك: «يكفينـي هـذا» ليـس ضعـف رغبـة، بـل قـوّة إرادة، واتّسـاع قلـبٍ لا تملـؤه الأشـياء بـل ترويـه القناعـة.

١ الموطأ- ٩٣٦

في المواساة يفوق الحنون لا النصوح

في قصـة موسـى عليه السلام، حـين خـرج هاربًـا مـن مـصر متجهًـا إلى مديـن، كانـت الغربـة تلازمـه بـكل معانيهـا، فـلا أهـل يأنـس بهـم، ولا عمـل يضمـن بـه قـوت يومـه، وفـوق ذلـك كلـه، مطـاردٌ مـن جنـد فرعـون، كان وحـده، مثقـلاً بالخـوف والتعـب، حتـى بلـغ مديـن والتقـى والـد الفتاتـين، فـروى لـه قصتـه كاملـة، فـما كان مـن الشـيخ إلا أن يطمئنـه، فـكان أول مـا سـمعه منـه ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1]

كلـمات قليلـة، لكنهـا حملـت كل مـا يحتاجـه قلبـه المرهـق، لم يكـن هنـاك مـا هـو أكثـر وقعًـا وأعمـق أثـرًا في تلـك اللحظـة مـن هـذه الكلـمات، فقـد جـاءت كلمسـة طمأنينـة تربـت عـلى كتفيـه، تحمـل الأمـان وسـط عاصفـة القلـق التـي تحيـط بـه، فحـين تنكسـر النفـس، لا تبحـث عـن الحقيقـة ولا عـن الـرأي الصائـب، بـل عـن يـد تربـت عـلى الكتـف دون سـؤال، عـن صـوت لا يلـوم، وعـين لا تديـن، ويـد تمتـد لا لتهديـك طريقًـا، بـل لتبقـى معـك في عتمـة الطريـق، ففـي لحظـات الانهيـار لا يُجـدي الحديـث عـما كان ينبغـي فعلـه، ولا كيـف تفاديـت السـقوط، كل نصيحـة وإن صدقـت، تصبـح سـكينًا آخـر في خـاصرة الموجـوع، أمـا الحنـون، فيغلـب الـكل بصمتـه، بصـبره، بلغـة عاطفتـه التـي تفهـم الألم دون شرح، تداويـه دون تنظـير.

إننـا عندمـا نمـر بمواقـف صعبـة، يكـون أول تفكيرنـا فيمـن يدعمنـا بكلـمات دافئة ليسـت نصائـح متكـررة قـد يشـعر المـرء معهـا أنـه تحـت عدسـة مكـبرة تذكـره بأخطائـه ، لا أحـد يريـد أن يسـمع في لحظـة ضعفـه أنـه أخطـأ أو كان بإمكانـه التـصرف بشـكل أفضـل، بـل يريـد أن يسـمع ببسـاطة: «أنـا هنـا مـن أجلـك» ، هـذا الدعـم هـو مـا يجعـل الألم محتمـلاً، وهـو مـا يجعلنـا نسـتطيع النهـوض مـرة أخـرى رغـم مـرارة الحـدث، فالمواسـاة الحقيقيـة ليسـت في تقديـم الحلـول، بـل في تقديـم الحضـور، أن تكـون حـاضرًا، بـلا حكـم ولا مواعـظ، هـذا أعظـم مـا يحتاجـه شـخص منكسر.

وأكثـر أحـداث الحيـاة المؤلـمة يمكـن تجاوزهـا أو التكيـف الإيجـابي معهـا في حالـة توفـر دعـم معنـوي يخبرنـا بـه مَـن حولنـا أننـا لسـنا بمفردنـا في مواجهـة الحيـاة، أن هنـاك مَـن

١ القصص [٢٥]

يُشـاركنا مـرارة الواقـع ولـو بكلمـة، مَـن يـزرع في قلوبنـا اليقـين بـأن العتمـة مؤقتـة، وأن الضـوء مهـما تأخـر فهـو قـادم، وأن صوتًـا واحـدًا يربـط عـلى قلوبنـا قـادر عـلى إخمـاد ضجيـج الخـوف في دواخلنـا.

إننـا لا نحتـاج دائـمًا لمـن يرفـع عنـا الألم، بـل لمـن يُشـعرنا أننـا مرئيـون وسـط الزحـام، لمـن يؤكـد لنـا أن ضعفنـا مفهـوم، وأن ارتجـاف أرواحنـا في وجـه العواصـف ليـس عيبًـا، فهنـاك لحظـات في حياتنـا نكـون أضعـف مـن أن نجـادل أو نـرد مجـرد رد عابـر، لحظـات تعانـق فيهـا الـروح الأرض حتـى وإن كان الجسـد مشـدودًا صلبًـا.

المواسـاة الحقيقيـة لا تعنـي إصـلاح مـا انكـسر، بـل احتضـان الكـسر حتـى يلتئـم، لا تعنـي أن تُرشِـد بقـدر مـا تعنـي أن تُـؤوي، أن تكـون وطنًـا مؤقتًـا لشـخص يشـعر أنـه تائـه عـن كل الأماكـن، لذلـك، لا تغـرك بلاغـة النصيحـة حـين تنكـسر روح مَـن تحـب، كـن حنونًـا، فالحنـان وحـده يملـك شـفاءً لا تبلغـه الحكمـة، فبعـض الكلـمات ليسـت مجرد أصـوات بـل جسـور نعـبر عليهـا حـين تضيـق بنـا الأرض، ونوافـذ تفتـح لنـا حـين يُطبـق علينـا جـدار العزلـة، وفي ظـل هـذا الدعـم، تتحـول الجـراح إلى قـوة، ننهـض مـن جديـد، لا لأن الحيـاة أقـل قسـوة، بـل لأن في حياتنـا مَـن يمنحنـا القـوة للاسـتمرار.

أمـا النصـوح، فقـد يكـون صـادق النيـة، مخلصًـا في النصيحـة، لكنـه يـسيء اختيـار الوقـت واللفـظ، فيثقـل اللحظـة بالكلـمات بـدلًا مِـن أن يخففهـا، وكأن المصـاب بحاجـة إلى تحليـل الموقـف بـدلًا مـن عنـاق يواسـيه، أو تفسـيرٍ للقـدر بـدلًا مـن يـدٍ تمسـح دموعـه بصمـت، لا يـدرك أن العقـل في لحظـات الألم ينـزوي، ويقـف القلـب وحـده في الواجهـة، يحتـاج دفئًـا لا توجيهًـا، ويأنـس بالسـكوت أكثـر مما يطيـق الجـدل.

النصيحـة في وقـت الانكسـار، وإن حملـت نيـة الخـير، قـد تُغلـق الأذن وتُغلـق القلـب معها، فتُفهـم عـلى أنهـا لـوم أو تأنيـب، لأن الـروح حـين تنـزف لا تبحـث عـن إجابـة، بـل عـن حضـن آمـن تلتقـط فيـه أنفاسـها، فلتكـن النصيحـة بعـد البـلاء لا فيـه، وبعـد العاصفـة لا في وسـطها، فـإن كانـت الكلـمات طـوق نجـاة، فالحنـان هـو المركـب الـذي يوصلنـا إليـه.

كن إنسانًا ثم بعدها كن أي شيء

يقـول أحـد الأطبـاء: «بُـترت اليـوم قـدم شـخص مصـاب بالسـكر، وكانـت البدايـة مـن سرقـة حذائـه مـا اضطـره للعـودة إلى بيتـه حافيًـا، لم يكـن يـدري أن هـذا سـيقوده إلى مصـير لم يخطـر ببالـه، إذ أُصيـب بجـرح في قدمـه، ظـن أنـه سـيلتئم سريعًـا، لكنـه لم يلتئـم، وتحـول مـع الأيـام إلى عـدوى خطـيرة انتهـت ببـتر قدمـه، أمـا السـارق، فـما زال يظـن أن ذنبـه صغـير، غـير مـدرك أن خطيئتـه لم تكـن مجـرد سرقـة حـذاء، بـل كانـت شرارة مأسـاة امتـدت لتغـير حيـاة إنسـان بالكامـل».

قبـل أن تكـون ناجحًـا، مؤثـرًا، بارعًـا، أو حـاضرًا في أذهـان الجميـع كـن إنسـانًا، فالمناصب تُبـدّل، والألقـاب تـزول، والهيئـات تتقـادم، أمـا الإنسـانية فهـي السـطر الأول في هويتـك، وأعمـق مـا يُكتـب في ذاكرتـك وذاكـرة مَـن مـروا بـك، كـن إنسـانًا في لطفـك، في عدلـك، في سـموّ ردك حـين تُسـتفَز، وفي رفقـك حـين يقسُـو الزمـن عـلى غـيرك، كـن إنسـانًا حـين يغيـب الرقيـب، حـين تملـك القـوة، وحـين تُتـاح لـك فرصـة الـرد بالمثـل فتعفـو، لا ضعفًـا بـل ترفعًـا.

أن تكـون إنسـانًا يعنـي أن تـرى الآخريـن لا كأرقـامٍ أو أدواتٍ في طريقـك، بـل كأرواحٍ لهـا مـا لـك، وعليهـا مـا عليـك، يعنـي أن تفهـم الحـزن دون أن يُقـال، وأن تمتـد يـدك لمـن سـقط دون أن يسـألك، أن تكـون إنسـانًا هـو أن تختـار الرحمـة لا لأنـك مضطـر، بـل لأنـك تُـدرك أن الدنيـا تـدور، وأن الألم حـين لا يُرحـم، يعـود.

كـن إنسـانًا، ثـم بعدهـا انجـح، وتألّـق، وارتـقِ، واصنـع مجـدك كـما تشـاء، لكـن لا تجعـل مـا تصنعـه بيديـك، يُفسـد مـا فُطـر عليـه قلبـك، فـإن ضـاع منـك شيء، فـلا تجعـل مـا يضيـع هـو معدنـك، العـالم مـليء بأصحـاب الشـهادات، والمواهـب، والمراكـز لكنـه يفتقـر كثـيرًا إلى إنسـانٍ يُشـبه الإنسـان.

احـرس إنسـانيتك كأنـما تحـرس كنـزًا نـادرًا، ولا تسـمح للخـذلان أو قسـوة التجـارب أن تجعلـك تفقـد إحساسـك بالآخريـن، لا تجعـل إنسـانيتك تظهـر في آخـر المطـاف كالـذي يتذكـر التوبـة وهـو عـلى فـراش المـوت، ولا تسـتهِن بوقـع أفعالـك مهـما بـدت في نظـرك

عابـرة فقـد تعـبر عـلى قلـوب غـيرك ترممهـا أو تهدمهـا، فـربّ كلمـة قاسـية أطفـأت نـور الأمـل في قلـب أحدهـم، وربّ تـصرف ظننتـه تافهًـا تـرك أثـرًا لا يُمحـى في حيـاة شـخص آخـر، وربّ تجاهـل متعمـد جعـل إنسـانًا يشـك في قيمتـه ويفقـد ثقتـه بنفسـه، وربّ ابتسـامة عابـرة منحـت إنسـانًا يائسًـا جرعـة أمـل في يـوم كان يظنـه الأسـوأ، وربّ اعتـذار بسـيط رفـع عـن قلـب شـخصٍ حمـلًا ثقيـلًا كان يخنقـه بصمـت، وربّ معـروف صغـير لم يُكلّـف صاحبـه شـيئًا، لكنـه كان طـوق نجـاة لمـن كاد أن يغـرق في يأسـه.

إن أفعالنـا مهـما بـدت لنـا عابـرة، قـد تكـون سـببًا في بنـاء أحدهـم أو هدمـه، في إحيائـه أو إطفائـه، فقـد تظـن أن كلمـة ألقيتهـا بـلا اهتـمام قـد نُسـيت، لكنهـا ربـما ظلـت تـتردد في عقـل أحدهـم طـوال الليـل تهـدم ثقتـه أو تبنيهـا، فالأثـر الـذي تتركـه في نفـوس الآخريـن لا يُقـاس بنيتـك وحدهـا، بـل بـما يصـل إلى قلوبهـم فعـلًا، فكـن عـلى وعـي بأنـك إمـا أن تكـون سـببًا في ترميـم الأرواح، أو أن تكـون ممـن يهدمهـا دون أن يـدري.

وتذكـر أن النجـاح والقـوة الحقيقيـة لا تُقاسـان بـما تملـك، بـل بـما تمنحـه، وبالقـدرة عـلى البقـاء إنسـانًا رغـم كل شيء، فـلا قيمـة لـذكاءٍ يخلـو مـن التعاطـف، ولا مجـد في علـمٍ لا يسـنده خُلـق، ولا في سـلطةٍ لا تُنصِـف، ولا في لسـانٍ فصيـح يفتقـر إلى صـدق الشـعور.

تعامـل مـع الدنيـا بوعـي أن كل مـا تفعلـه، مهـما كان صغـيرا أو مهـما بـدا لـك صغـيرًا، قـد يحمـل في طياتـه عواقـب لا تخطـر لـك عـلى بـال، فـلا تكـن سـببًا في ألم أحـد، ولا تجعـل الأذى أمـرًا عاديًـا في مسـيرتك، قـد تغيـب عنـك آثـار أفعالـك، لكنّهـا لا تغيـب عـن ميـزان العدالـة الإلهيـة، فحتـى لـو ظننـت أن خطايـاك خفيـة، فـإن الحيـاة تحفـظ كل شيء، وتعيـده إليـك بطريقـة مـا، فاخـتر أن تكـون أثـرًا طيبًـا في دروب الآخريـن، لا ندبـةً عالقـة في ذاكرتهـم.

الضمير... نبضة لا تموت

في غـزوة تبـوك، تخلّـف بعـض الصحابـة عـن رسـول الله ﷺ، فمنهـم مَـن كان لـه عـذر مقبـول، ومنهـم مَـن تهـاون دون سـبب وجيـه، وكان مِـن هـؤلاء «كعـب بـن مالـك» شـاعر النبـي ﷺ وصاحبـه.

لم يكـن افتقـاره إلى المـال أو العُـدة هـو مـا منعـه مـن اللحـاق بالركـب، فقـد كان في أيـسر حـال وأفضـل أيامـه رخـاءً وسـعة، وحـين عـاد النبـي ﷺ إلى المدينـة، أخـذ المنافقـون يـبرّرون تقاعسـهم بحجـج واهيـة، ووجـد كعـب نفسـه أمـام اختيـار صعـب: إمـا أن يختلـق عـذرًا يحفـظ بـه موقفـه أمـام النـاس، أو أن يصـدع بالحقيقـة التـي قـد تدينـه لكنهـا تطهّـر ضمـيره .

اختـار كعـب طريـق الصـدق، رغـم أنـه لم يكـن الطريـق السـهل، فقـدّم اعترافًـا شـفافًا بـلا مواربـة، لم يـوارِ خطـأه خلـف سـتار الأعـذار المصطنعـة، ولم يجامـل نفسـه بكذبـة تبعـد عنـه اللـوم، بـل كان يعلـم أن قـول الحقيقـة قـد يجـرّ عليـه العتـاب وربـما العقوبـة، لكنـه كان يـدرك أيضًـا أن الكـذب أثقـل عـلى النفـس مـن أي عتـاب.

نظـر كعـب إلى رسـول الله ﷺ بعـين يملؤهـا الصـدق، وصـدح بكلماتـه دون مواربـة أو تزييـف، قائـلاً: «يـا رسـول الله! لـو كنـت أجلـس أمـام أحـد مـن أهـل الدنيـا، لربـما اسـتطعت تبريـر موقفـي والنجـاة مـن لومـه بحجـة واهيـة، فقـد رُزقـت بيانًـا في الـكلام، وأوتيـت قـدرة عـلى الجـدل، لكننـي، والله، أعلـم أن الكـذب اليـوم قـد يرضيـك عنـي مؤقتًـا، لكنـه لا محالـة سـيجلب عـليَّ سـخط الله، وإن قلـت لـك الحـق، رغـم أنـك قـد تغضـب منـي، فأنـا أرجـو عاقبـة ذلـك عنـد الله، والله، مـا كان لي عـذر، ولم أكـن يومًـا أقـوى جسـدًا ولا أيـسر حـالًا ممـا كنـت عليـه حـين تخلفـت عنـك.

أصغـى النبـي ﷺ إليـه، وتأمـل صدقـه، ثـم قـال كلمتـه التـي حملـت شـهادة عـلى نقـاء كعـب: «أمـا هـذا، فقـد صـدق. فقـم حتـى يقـضي الله فيـك». [1]

---

١ البخاري ٤٤١٨

بهـذه الكلـمات بـدأ كعـب رحلتـه في الامتحـان الأصعـب، حيـث قوبـل بصمـت المدينـة ونبـذ أهلهـا، عـاش في عزلـة، حتـى ضاقـت عليـه الأرض بـما رحبـت، وانكمـش صـدره حتـى كاد يختنـق، لكنـه لم ينكسـر ولم ينـدم عـلى صدقـه، فقـد علـم أن الصـبر عـلى الحقيقـة، مهـما كان مؤلمًـا، أهـون مـن لعنـة الكـذب، خمسـون ليلـة قضاهـا في اختبـار الصـدق، حتـى أشرقـت شـمس الفـرج بنـزول قـرآن يُتـلى إلى يـوم القيامـة، يُسـجل موقفـه بأبهـى معـاني العـبرة والنجـاة ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [١]

لقـد صـدق مـع الله ومـع نفسـه، فـكان جـزاؤه توبـة قُبلـت مـن فـوق سـبع سـماوات، وتاريخًـا بقـي نقيًّـا لا تشـوبه شـائبة زيـف أو ريـاء، فالاعـتراف بالخطـأ ليـس ضعفًـا، بـل هـو قمـة القـوة، فكـم مـن شـخص ضـاع في دوامـة التبريـرات حتـى غـرق! وكـم مـن آخـر أنقـذه الصـدق ـ رغـم مرارتـه ـ مـن وحـل الكـذب والمراوغـة!

وخـز الضمـير هـو الـذي يسـمو بمـرء عـن آخـر، هـو الـذي يـرد الشـارد لوجهتـه، هـو الـذي يخبرنـا أننـا لا زلنـا عـلى قيـد الحيـاة، وأننـا لازلنـا ندافـع عـن إنسـانيتنا، هـو الدليـل عـلى أن هنـاك شـيئًا حيًـا بداخلنـا لا يـزال يميـز بـين الصـواب والخطـأ، بـين الحـق والباطـل، فالقـوة الحقيقيـة ليسـت في تبريـر الأخطـاء، بـل في امتـلاك الشـجاعة لمواجهتهـا، في الاعـتراف بهـا، في تقبـل العواقـب ومحاولـة إصلاحهـا.

والضمـير ليـس شـيئًا يمكـن إسـكاته للأبـد، فحتـى لـو هـدأ مؤقتًـا تحـت وطـأة التبريـر، فإنـه يعـود في اللحظـات التـي يختـلي فيهـا المـرء بذاتـه، يطـرق أبوابـه في هـدوء الليـل، يذكّـره بـما حـاول نسـيانه، ويضعـه وجهًـا لوجـه مـع حقيقتـه، وحـين يكـون الإنسـان صادقًـا مـع نفسـه، لا يحتـاج إلى التبريـر، بـل يواجـه أخطـاءه ، يعـترف بهـا، ويبحـث عـن تصحيحهـا لا عـن تبريرهـا، فالفـارق بـين إنسـان يخطـئ فيتعلـم، وإنسـان يخطـئ فيـبرر، هـو أن الأول ينضـج ويتجـاوز زلاتـه، أمـا الثـاني يـدور في دوامـة مـن الأكاذيـب التـي تبعـده أكثـر عـن الحقيقـة.

١ التوبة (١١٨)

إن أنبل ما في الإنسان هو ضميره، فإن حاول خنقه بالتبرير، فقد تخلّى عن بوصلته التي تهديه نحو الصواب ، يقول عالم النفس كارل يونج: « سيفعل الناس أي شيء، مهما كان سخيفًا، لتجنب مواجهة ضمائرهم» فالتبرير تقديم أعذار تبدو مقبولة للبعض لكنها ليست الأسباب الحقيقية لما يفعل في محاولة لخداع الضمير، فمن يختلق مبررًا لخطأ اقترفه لا يخدع من يسمعه إنما يخدع ذاته أولًا ليريح ضميره، فجوهر التبرير خداع الذات، إنه كالمخدّر الذي يمنح الإنسان راحة زائفة لكنه لا يعالج علّته، هو القناع الذي يغطي به المرء عيوبه كي لا يواجه نفسه بحقيقتها.

فحين يخطئ الإنسان ولا يعترف بل يبحث عن سبب خارجي يعلّق عليه خطأه، فهو في الحقيقة لا يهرب من الآخرين بل يهرب من نفسه، من وخز الضمير الذي يلح عليه ليستيقظ من غفلته، إنه ليس فقط تهربًا من الاعتراف بالخطأ، بل هو بوابة نحو تكراره، فكل مرة يقنع فيها الإنسان نفسه بأنه «لم يكن يقصد»، أو أن «الظروف أجبرته»، يكون قد وضع حجرًا جديدًا في جدار يعزله عن ذاته الحقيقية، فالتبرير راحة مؤقتة، لكنه إرهاق دائم للروح، أما الاعتراف بالخطأ لحظة صعبة، لكنها تفتح بابًا للنضج، فاختر أي الطريقين تسلك.

الهفوة لا تسقط الفضل

ومـع «كعـب بـن مالـك» نكمـل الحديـث ، بعدمـا خـرج النبـي ﷺ إلى تبـوك، افتقـد النبـيﷺ كعبًـا وسـأل عنـه، فقـال رجـلٌ مـن بنـي سـلمة :يـا رسـول الله ! حبسـه بـرداه، ونظـره في عطفـه![1] أي: أنـه شُـغل بملابسـه وحياتـه الدنيويـة، وكأنـه فضّـل الراحـة عـلى الجهـاد، لكـن معـاذ بـن جبـل، وهـو العـارف بقلـب صاحبـه، ردّ بحـزم: «بئـس مـا قلت ! والله يـا رسـول الله مـا علمنـا فيـه إلا خـيرًا».

لم يسـمح معـاذ بـأن تُختـزل شـخصية كعـب في لحظـة ضعـف، ولم يقبـل أن يُسـلب مـن أخيـه مـا تراكـم لـه مـن فضـلٍ بمجـرد زلـة واحـدة، وصـدق ظنّـه، فقـد كان كعـب ممـن اعترفـوا بتقصيرهـم، وصدقـوا مـع الله، فأنـزل الله في توبتهـم قرآنًـا يُتـلى إلى يـوم القيامـة، تخليـدًا لصدقهـم، وتأكيـدًا عـلى أن العثـرة لا تُلغـي المسـيرة، والخطـأ لا يمحـو الخـير.

التسـامح ليـس مجـرد تجـاوز عـن موقـف، بـل هـو اعـتراف بـأن الإنسـان أكثـر تعقيـدًا مـن أن يُحكـم عليـه بلحظـة واحـدة، فالذيـن قدمـوا لنـا الخـير، ووقفـوا بجانبنـا، وأظهـروا معدنهـم الأصيـل، لا يجـوز أن نسـقط فضلهـم بسـبب لحظـة ضعـف أو هفـوة غـير مقصـودة، فالعـدل ليـس في أن نحكـم عـلى النـاس بلحظـة واحـدة مـن حياتهـم، بـل أن نراهـم في صورتهـم الكاملـة، بخيرهـم وشرهـم، بضعفهـم وقوتهـم، ونعطيهـم الفرصـة ليصححـوا، كـما نرجـو لأنفسـنا ذلـك يـوم نقـف موقفهـم، أن نـرى مـا لهـم قبـل أن نـرى مـا عليهـم، وألا يكـون الخطـأ ممحـاة تمسـح كل جميـل، فالهفـوة تُصحَّـح، والزلـة تُمحـى، لكـن الفضـل يبقـى شـاهدًا عـلى معـدن الإنسـان، فـلا تجعـل لحظـة واحـدة تُنسـيك العمـر الطويـل مـن المعـروف، وليـس مـن العـدل أن يُختـزل إنسـانٌ في لحظـة ضعـف، أو أن يُنسـى فضلـه بسـبب سـقطة عابـرة، كلنـا معرضـون للخطـأ، وكـما نرجـو أن يُغفـر لنـا حـين نخطـئ، علينـا أن نكـون كرمـاء في العفـو، وألا نجعـل الهفـوة حاجـزًا بيننـا وبـين مـن يسـتحقون مكانهـم في قلوبنـا، فالبـشر بطبيعتهـم خطـاؤون، ولا أحـد بمنـأى عـن الـزلات، لكـن الفـارق فيمـن يعـترف ويُصلـح، ومـن يُنكـر ويتـمادى.

---

١ حبسه برداه أي: حبسته ثيابه، ونظره في عطفيه يعني: في حسن وبهاء الثوب الذي عليه، والمراد من ذلك: أن الدنيا قد شغلته عن القدوم إلى الغزوة.

حين تُشاركك نفس وجعك وفرحك، فذاك وطن

لمـا نزلـت توبـة الله عـلى «كعـب بـن مالـك» بعـد تخلفـه عـن غـزوة تبـوك، كان وقعهـا كالغيـث بعـد الجـدب، والبـشرى التـي زلزلـت كيانـه فرحًـا، جـاءت إليـه البشـارة مـن كل صـوب، فـصرخ أحدهـم بأعـلى صوتـه يبـشره، وآخـر انطلـق عـلى فرسـه مسرعًـا ليـزف إليـه الخـبر، ومـا إن سـمع كعـب صـوت المبـشر حتـى خـر سـاجدًا لله شـكرًا، وكأن الأرض لم تعـد قـادرة عـلى حمـل فرحتـه، ولمـا وصـل إليـه حامـل البـشرى، لم يجـد كعـب مـا يكافئـه بـه إلا أن ينـزع ثوبـه ويهديـه لـه، تعبـيرًا عـن امتنانـه وفرحتـه العارمـة.

ثـم اتجـه كعـب نحـو المسـجد، فاسـتقبله النـاس مهنئـين، يقابلونـه أفواجًـا، كلٌّ يبـارك لـه ويشـاركه الفرحـة، وكأن هـذه التوبـة لم تكـن لـه وحـده، بـل كانـت انتصـارًا للصـدق والإيـمان، وبـين هـذا الحشـد المتدفـق بالفـرح، انطلـق طلحـة بـن عبيـد الله مسرعًـا نحـوه، لم ينتظـر حتـى يصـل إليـه كعـب، بـل قـام إليـه مهـرولًا، صافحـه بحـرارة وهنـأه بفرحـة صادقـة، فقـال كعـب عـن ذلـك المشـهد الـذي بقـي محفـورًا في ذاكرتـه «ولا أنسـاها لطلحـة» لـن ينسـى لـه أن قـام فاحتضنـه وهنـأه، فقـط هـذه رغـم بسـاطتها لكنهـا تركـت في نفـس كعـب أثـرًا بالـغ اللطـف.

ومـا إن اقـترب مـن مجلـس النبـي ﷺ حتـى رآه مـشرق الوجـه، يـبرق محيـاه بنـور السـرور، فاسـتقبله بكلـمات كانـت أثمـن مـن كل تهنئـة: « أبـشر بخـير يـوم مـرَّ عليـك منـذ ولدتـك أمـك» [(١)] لم تكـن مجـرد كلـمات، بـل كانـت شـهادة بـأن الصـدق الـذي التزمـه، رغـم مرارتـه، أثمـر خـيرًا لم يكـن ليحلـم بـه، كان ذلـك اليـوم شـاهدًا عـلى أن التوبـة الصادقـة ترفـع صاحبهـا، وأن الصـبر عـلى الصـدق، ولـو كان ثمنـه العزلـة والألم، لا يضيـع عنـد الله أبـدًا.

لم يكـن كعـب وحـده مَـن تـألم حـين قوطـع، ولم يكـن وحـده مَـن شـعر بثقـل الغربـة في وطنـه وبـين قومـه، بـل كان اختبـارًا للجميـع، مَـن شـاركوا في العقوبـة بالصمـت، ومَـن احتملـوا ألم الانتظـار، ومَـن كانـوا ينتظـرون لحظـة العفـو كـما ينتظرهـا هـو، وكـما تقاسـموا معـه الألم يـوم المحنـة، اقتسـموا معـه الفـرح يـوم الفـرج، فـكان وجدانهـم مـرآة

---

١ البخاري (٤٤١٨)

لوجــده، يبكــون لحزنــه، ويهللــون لســعادته، وكأن قلوبهــم نبضــت بنبضــه في الشــدة والرخــاء، وكأنهــم جميعًــا عاشــوا معــه لحظــات العزلــة، واستشــعروا ثقــل الأيــام الخمســين التــي قضاهــا في انتظــاره للفــرج، فحــين جــاءت البــشرى، لم يكــن الفــرح مجــرد إحســاس شــخصي مقتــصرٌ عــلى كعــب، هــرع النــاس إليــه ليــس فقــط لتهنئتــه، بــل وكأنهــم أرادوا أن يشــاركوه شــعور الــولادة الجديــدة، أن يلمســوا معــه كيــف يمكــن للحظــة واحــدة أن تمســح وجــع الأيــام الثقيلــة.

كانــت فرحتهــم صادقــة، لأنهــم أدركــوا أن العفــو الــذي نــزل لم يكــن مجــرد رحمــة فرديــة، بــل كان بابًــا مفتوحًــا لــكل مَــن يحمــل في قلبــه صدقًــا ولــو تعثــر، لــكل مَــن يــدرك أن الرجــوع إلى الله هــو الفــوز الحقيقــي، فكــما كانــوا شــهودًا عــلى محنتــه، كانــوا شــهودًا عــلى رفعهــا، وكــما تألمــوا لصــبره، ســعدوا بفرجــه، لتبقــى قصتــه شــاهدًا خالــدًا عــلى أن الحــق، وإن طــال انتظــاره، لا بــد أن ينتــصر.

حــين يكــون الإنســان قــادرًا عــلى احتــواء مشــاعر الآخريــن، فهــذا يعنــي أن قلبــه يتســع لهــم كــما يتســع لنفســه، أن يــرى الألم في أعينهــم قبــل أن ينطقــوا بــه، أن يشــعر بثقــل الكلــمات التــي لم تُقــلْ، وأن يمــدّ لهــم يــدًا، ولــو بكلمــة طيبــة، ولــو بصمــت يشــعرهم بأنهــم ليســوا وحدهــم، فالتعاطــف ليــس مجــرد تعبــير عــن الحــزن لمــآسي الآخريــن، بــل هــو أن تشــعر بهــم حقًــا، أن تعيــش لحظتهــم معهــم، أن تكــون مــلاذًا آمنًــا حــين تضيــق بهــم الدنيــا، وأن تمنحهــم الطمأنينــة بأنهــم مســموعون ومفهومــون.

حــين اشــتد الكــرب عــلى الســيدة عائشــة، بعــد حادثــة الإفــك، وحاصرتهــا الهمــوم مــن كل جانــب، دخلــت عليهــا امــرأة مــن الأنصــار، لم تحمل معها كلــمات مواســاة منمقــة، ولم تحاول أن تقــدم تفســيرات، بــل شــاركتها الحــزن بطريقــة أبلــغ مــن كل حديــث، دخلــت فجلســت تبكــي معهــا، لم تكن بحاجــة إلى كلام يعجــز أحيانًا عن التعبــير، بل كان بكاؤهــا صدى لآلام عائشــة، شــهادة صامتــة عــلى وقوفهــا بجانبهــا دون قيــد أو شرط، وروت عائشــة لاحقًــا عن هــذه اللحظة بقولهــا: «لا أنســاها لها»

لم تكــن تلــك الدمــوع مجــرد رد فعل عابــر، بل كانــت مشــاركة وجدانيــة خالصة، تعبــيرًا عن تضامــن صــادق لا يطمــح في شيء ســوى أن يُشــعرها بأنهــا ليســت وحدهــا، ربــما لم تكن هذه

المـرأة ذات شـأن بـين الناس، وربما لم يكن صوتها ليسـمع لـو حاولت الحديـث، لكنها أدركت أن بعـض المواقـف لا تحتـاج إلى خطـاب، وإنما إلى حضـور، إلى قلب يشـعر وقلـب يفهم، إلى دمـوع تنطق بـما تعجز عنـه الحروف.

أن تمتلـك قلبًـا يشـعر بالآخريـن يعنـي أنـك لسـت مجـرد عابـر في حياتهـم، بـل رفيـق يحمل عنهـم بعـض أعبائهـم، ولـو بكلمـة، ولـو بنظـرة، ولـو بصمـت مـليء بالفهـم، أن تـرى وجوههـم لا كـما تبـدو للعـالم، بـل كـما تخفيهـا تفاصيلهـم الصغـيرة، أن تفهـم ارتجـاف أصواتهـم حـين يحاولـون التماسـك، أن تـدرك الحـزن خلـف ضحكاتهـم، وأن تمسـح الألم مـن أعينهـم ولـو دون أن تنطـق بكلمـة، فليـس المطلـوب أن نملـك حلـولًا لـكل المشـكلات، ولكـن المطلـوب أن نملـك قلبًـا لا يمـر بجـراح الآخريـن مـرور العابريـن، أن نحمـل همًّـا لا يخصنـا وكأنـه يخصنـا، أن نتعلـم أن وجودنـا بجانـب شـخص يمـر بوقـت صعـب قـد يكـون أعظـم هديـة نقدمهـا، وأن الأثـر الـذي نتركـه بكلمـة حانيـة أو بلمسـة مواسـاة قـد يكـون طـوق نجـاة لا نعلـم قـدره.

المشـاركة الوجدانيـة ليسـت مجـرد شـعور، بـل فعـل، أن تميـل بقلبـك نحـو غـيرك، أن تضع نفسـك مكانـه، أن تفكـر بـما يشـعر بـه قبـل أن تحكـم عليـه، أن تكـون صوتًـا للضعيـف حـين لا يجـد مَـن يسـمعه، وكتفًـا للمتعـب حـين يثقـل عليـه حمـل الأيـام، وملجـأً لمـن لم يجـد في الحيـاة مـلاذًا، فبقـدر مـا تكـون قريبًـا مـن آلام الآخريـن، تكـون إنسـانًا بـكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معنـى .

شـارك النـاس أفراحهـم وأتراحهـم، فـإن لم يكـن لـك في مشـاركتهم رغبـة فاحفظهـم أن ينالهـم السـوء مـن قِبلـك، في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال « تـدع النـاس مِـن الـشر؛ فإنهـا صدقـة تَصَـدَّقُ بهـا عـلى نفسـك »[1] لا تُقلـل مـن أثـر الكـفّ عـن الأذى، فليـس كل معـروفٍ في قـولٍ يُقـال أو يـدٍ تُبسـط، فقـد يكـون أعظـم المعـروف أن تمـرّ بقلـبٍ مجـروح دون أن تفتـح عليـه جرحًـا جديـدًا، أو أن تصـادف روحًـا مثقلـة فـلا تزيدهـا ثقـلًا، فحـين تعجـز عـن أن تكـون بلسـمًا، لا تكـن خنجـرًا، وحـين لا تقـدر أن تـواسي، فـلا تكـن سـببًا في مزيـد مـن الأذى، فبعـض النـاس يرفعهـم الله لا لأنهـم فعلـوا، بـل لأنهـم كفّـوا.

١ البخاري ٢٥١٨

حين تنقذك السجدة من وهم الاستحقاق

مـا أكثـر مـا يـزلّ القلـب عنـد النّجـاح، ومـا أخطـر مـا تسـكُره لحظـةُ التوفيـق، إذا لم يُعصـم بلجـام السـجود، فكـم مـن إنسـان إذا بلـغ مـراده أو حـاز مطلبـه، طـاف بـه الوهـم حـول ذاتـه، وأحاطـه الشـعور بالكفايـة، حتـى غفـل عـن يـد الله التـي مهـدّت لـه السـبيل وهيـأت لـه الأسـباب، وحدهـا سـجدة الشـكر تُنقـذ النفـس مـن تيـه العُجـب، وتُذكّرهـا بـأن مـا نالتـه لم يكـن بقوتهـا، بـل بتوفيـق مـن الله، وأن كلّ نجـاح ليـس إلا منحـةً لا منجـزة، وعطيـة لا حيلـة.

سـجدة الشـكر ، تلـك اللحظـة النورانيـة الخالصـة، ليسـت محـض سـجود لجبهـةٍ عـلى تـراب، بـل هـي سـجود للـروح أمـام عظمـة الفضـل، وانحنـاء القلـب تواضعًـا عنـد مشـارف العطـاء، هـي وعـي يتقـد في لحظـة نشـوة، يُذكّـر النفـس بـأن مـا بـين يديهـا ليـس إلا نفحـة مـن كريـم، وعطيـة مـن قديـر، لا اسـتحقاقًا ذاتيًـا، ولا حنكـة فرديـة، فهـي وقايـة مبكـرة مـن سـمِّ العُجـب، وصفعـة رقيقـة تـردّ القلـب عـن هاويـة الكِبْر قبـل أن ينحـدر إليهـا، فمـن يسـجد لله وقـت الفـرح يحفـظ قلبـه مـن الكِـبر، ولسـانه مـن الحديـث الممزوج بالفخـر المفـرط، ونفسـه مـن الشـعور بالاسـتغناء، فكـما أن البـلاء امتحـان للصـبر، فـإن العطـاء امتحـان للشـكر، والناجـح فيهـما هـو مـن لم يغفـل عـن السـجود في كليهـما.

وفي سُـنة النبـي ﷺ القـدوة، مـا يؤصّـل لهـذا المعنـى ويُجـذّره، فقـد كان إذا جـاءه أمـرٌ يُـسرّ بـه خـرّ سـاجدًا، يشـكر الله لا عـلى النعمـة فحسـب، بـل عـلى كونـه لا يـزال في موضـع العبوديـة، لم تـزلّ بـه النشـوة، ولم ترفعـه النعمـة إلى حيـث ينسـى المنعِـم، وسـجد كعـب بـن مالـك حـين بُـشّر بتوبـة الله عليـه، وسـجد الصدّيـق حـين بلغتـه بـشرى الخـلاص مـن مسـيلمة الكـذاب، فـكان السـجود صـدى قلـوبٍ عرفـت مـن أيـن يُبتـدأ الحمـد، ولمـن يُرفـع الشـكر.

سـجود الشـكر ليـس مرتبطًـا بطهـارة المـاء، ولا بوجهـة القبلـة، بـل هـو طهـارة المعنـى واتجـاه القلـب، سـجدةٌ تُعلـن أن النفـس مـا زالـت تعـرف قدرهـا، وأن النعمـة لم تُـزل عنهـا لبـاس العبوديـة، ومـن أَلِـف هـذا السـجود، فقـد أَلِـف النجـاة مـن مكـر النفـس، ومـن زينتهـا الخادعـة، فحـين تسـجد لله شـاكرًا، تخُـرس في داخلـك صـوت التعـالي،

وتكسر شـوكة الغـرور قبـل أن تنبـت، وتُطفـئ وهـج «أنـا فعلـتُ ونجحـتُ» بــ «اللهـم لـك الحمـد» تلـك السـجدة، وإن خفيـت عـن أعـين النـاس، إلا أنهـا تُسـجّل في صحائـف الملائكـة أنهـا كانـت حبـل نجـاة مـن الكِـبر، ودواءَ قلـبٍ كاد يُصـاب بالزهـو، إنهـا ليسـت سـجدة عابـرة، بـل عهـدٌ متجـدّد بـين العبـد وربـه: أن كل مـا نـال، إنـما هـو فيـض مـن عطائـه، لا وسـام لذاتـه.

إن مـن أكثـر اللحظـات التـي تنكشـف فيهـا حقيقـة القلـب، تلـك اللحظـات التـي يفيـض فيهـا الفـرح، وتُقطـف فيهـا ثـمار الرجـاء، ففـي الرخـاء، لا في الشـدة، يُبتـلى الإخـلاص، ويظهـر معـدن العبـد، فكـم مـن قلـب ثبـت أمـام السـقم، ثـم انكسـر أمـام العافيـة! وكـم مـن لسـان رطـبٍ بالدعـاء سـاعة الضيـق، لكنـه جـفّ عـن الشـكر حـين جـاءه الفـرج! في السـجود تتجسـد معـاني التواضـع، فالإنسـان وهـو في أوج سـعادته يضـع جبهتـه عـلى الأرض، في مشـــهد يناقــض العُجــب والغــرور، ويؤكــد عبوديتــه لله في الــسراء كــما في الــضراء، فالنعــم تــدوم بالشــكر، وأفضــل الشــكر هــو أن تضــع جبينــك عــلى الأرض تواضعًـا لمـن وهبـك، فتنـزل مـن قمـة الإنجـاز إلى سـاحة العبوديـة، وهنـاك فقـط، يكـون للنجـاح معنـى، ويكـون للفضـل وجـه واحـد: وجـه الله.

حكاية الإنسان مع الفرح المؤجل

يقـول المنفلوطـي في كتابـه «النظـرات» : « السـبب في شـقاء الانسـان أنـه دائـمًا يزهـد في سـعادة يومـه ويلهـو عنهـا بـما يتطلـع إليـه مـن سـعادة الغـد، فـإذا جـاء غـده اعتقـد أن أمسـه كان خـيرًا مِـن يومـه فهـو لا ينفـك شـقيًا في حـاضره وماضيـه ».

لـن أبالـغ إن قلـت إن كلماتـه تضـع يدهـا عـلى جـرح عميـق في طبيعـة النفـس البشريـة، فالكثـير منـا يعيـش في مطـاردة مسـتمرة لسـعادة مؤجلـة، يظنهـا كامنـة في المسـتقبل، فيرهن راحتـه لمـا لم يـأت بعـد، غافـلاً عـن اللحظـة التـي بـين يديـه، وحـين يصـل إلى ذلـك الغـد الـذي طالمـا انتظـره، يجـد أنـه ليـس كـما تخيلـه، فيعـود ببـصره إلى الأمـس، متحـسرًا عـلى مـا مـضى، وكأن السـعادة ظـلٌ يبتعـد كلـما اقتربنـا منـه.

قـد يكـون تغيـير الأماكـن والأشـخاص سـببًا وقتيًـا للسـعادة، لـذا يعتقـد البعـض أن الذهـاب للعيـش بمـكان آخـر قـد يجلـب لهـم السـعادة ثـم يكتشـفون بمـضي الوقـت أنهـم لا زالـوا عالقـين ، فالمشـكلة لم تكـن في المـكان ولا في الأشـخاص، بـل فيـما يحملونـه داخلهـم مـن أفـكار ومشـاعر غـير محسـومة، ومـن همـوم لم يواجهوهـا ولم يحاولـوا حلهـا.

الهـروب مـن الواقـع لا يغـير الحقيقـة، بـل يؤجـل المواجهـة، وقـد يجـد المـرء نفسـه أمـام نفـس المشـاعر في مـكان جديـد، فيـدرك أن التغيـير الحقيقـي لا يبـدأ بالانتقـال مـن مـكان إلى آخـر، بـل بالانتقـال مـن نظـرة سـطحية للأمـور إلى وعـي أعمـق، ومـن الهـروب إلى المواجهـة، ومـن البحـث عـن السـعادة في الخـارج إلى بنائهـا في الداخـل، فتغيـير المـكان لا يغـير مـن حقيقـة مـا بداخلنـا، إنـه فقـط يمنحنـا منظـرًا مختلفًـا يـسرُّ الأعـين أمـا الداخـل فلـن يغـيره المـكان إنـما يغـيره تغيـير مـا يـأت لـه بالحـزن، مـا يسـبب لـه الشـقاء .

وهـذا النمـط مـن التفكـير هـو مـا يجعـل الإنسـان أسـير قلقـه، لا يهنـأ بلحظـة، ولا يـرضى بواقـع، فتمـضي الحيـاة وهـو في دوامـة البحـث عـمّا لا يُـدرك بهـذه الطريقـة، والحـل ليـس في إهمـال الطمـوح أو التطلـع للأفضـل، بـل في تحقيـق التـوازن بـين السـعي للمسـتقبل وتقدير مـا نملـك الآن، في أن نـدرك أن سـعادتنا ليسـت في زمـن آخـر، بـل في نظرتنـا للحـاضر، في امتناننـا لمـا بـين أيدينـا قبـل أن يتحـول إلى ذكـرى نتحـسر عليهـا.

والإنسـان بطبعـه عَجـول، يعتقـد أن الفـرح شيء مؤجل لا يُسـتحق إلا بعد تحقيـق إنجازات كـبرى، في حـين الحقيقـة أن الحيـاة تُعـاش الآن، بـكل مـا فيهـا مـن بسـاطة ودفء، يضـع المـرء سـعادته في نقطـة غـير مرئيـة عـلى خـط الزمـن، ويظـل يسـير نحوهـا دون أن يـدرك أنهـا تتغـير كلـما اقـترب منهـا، فيعيـش عالقًـا بـين مـاضٍ ينـدم عليـه ومسـتقبل يركـض خلفـه، متجاهـلًا أن اللحظـة الحاليـة هـي الحقيقـة الوحيـدة التـي يملكهـا.

ينشـغل بالأمنيـات البعيـدة معتقـدًا أن الفـرح مرتبـط بـما لم يتحقـق بعـد، فـلا يـرى جمـالًا في التفاصيـل الصغـيرة التـي تحيـط بـه، ولـو تأمـل قليـلًا لوجـد أن السـعادة ليسـت في محطـات مسـتقبلية، بـل في اللحظـات التـي يمـر بهـا الآن: في جلسـة هادئـة مـع مـن يحـب، في إنجـاز صغـير يشـعره بالرضـا، أو حتـى في بسـمة عابـرة مـن غريـب.

وأكثـر مـا قـد ينعـم الله بـه عـلى عبـد بعـد الإيـمان بـه هـو الرضـا، فهـو النعمـة التي تسـكن القلـب، فتجعلـه مطمئنًـا مهـما تبدلـت الأحـوال وتقلبـت الأيـام، بالرضـا، لا يكـون الفـرح مشروطًـا بتحقيـق الرغبـات، ولا يكـون الحـزن مدمرًا عنـد الفقد، بـل يصبح القلـب في حالة مـن الطمأنينـة يـرى بهـا الخـير في كل أمـر، ويؤمـن أن كل مـا يقـدّره الله لـه هو عـين الحكمة والرحمـة، لـذا حينـما خاطـب ربنـا نبيـه قـال﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [1] ليـس «فَتَسـعد»، بـل «فَـتَرضى»؛ فالسـعادة طيـفٌ عابـر، والراحـة ظـلّ لا يثبـت، أمـا الرضـا فهو مقـام راسـخ تسـكنه النفـس حـين ترتـوي مـن يقـين أن مـا قُسـم لـك لم يكـن ليخطئـك، ومـا فاتـك لم يكـن لـك، نعـم الرضـا لا يغـيّر الظـروف، لكنـه يغـيّر نظرتـك إليهـا، يضـع عـلى الألم حكمـة، وعـلى المنـع لُطفًـا، وعـلى الانتظـار أمـلًا لا يذبـل، هـو وعـيٌ يتجـاوز لذّة اللحظـة وخيبـة اللحظـة، ليحيـا المـرء في مقـام التسـليم بـما أراده الله لـه؛ حيـث لا تنكسـر عنـد الفقـد، ولا تتعـالى عنـد العطـاء، لأنـك تـرى في كل تقلـب حكمـة، وفي كل قـدر معنـى، وكأن الرضـا يقـول لـك: لا تطلـب مـن الحيـاة أن تكـون كـما تريـد، بـل كـن أنـت كـما يريـد الله، فالعـوض الحـقّ لا يكـون فيـما نأخـذه فقـط، بـل في السـكينة التـي تسـكن قلوبنـا حـين نـدرك أن الله لا يبتـلي ليكسـر، ولا يمنـع ليبخـل، بـل يُـربّي داخلـك شـيئًا أعظـم مـن مـرادك، يُـربّي إنسـانًا أثقـل حكمـةً، وأعمـق بصـيرة.

---

١ الضحى [٥]

من لزِم موضع بركته، استدام رزقه

قـال عمـر بـن الخطـاب: «مـن كان لـه رزقٌ في شيء، فليلزمـه»، وليسـت هـذه الكلمـة حبيسـة سـوق التجـارة أو دَكاكِـين البيـع، بـل هـو مبـدأٌ تتسـع دلالاتـه لتغمـر كل نواحـي الحيـاة: في عمـلٍ يُـدرّ عليـك السـكينة قبـل المـال، في طريـق علـمٍ تفتّـح فيـه عقلـك ولـو تعثّـرت قدمـاك، في دارٍ وإن ضاقـت جدرانهـا اتّسـع فيهـا قلبـك، في زواجٍ وإن قـلّ فيـه البهـرج، كثـر فيـه المعنـى، في صديـقٍ لم تُبهـره إنجازاتـك بقـدر مـا رأى وجعـك الخفـيّ واحتـواك، فـإذا مـا أقبلـتَ عـلى أمـرٍ فوجـدت فيـه يـسراً في الخطـى، وثـمارًا تتسـاقط دون إلحـاح، وراحـةً تهمـس لقلبـك بأنـك في موضعـك، فـلا تفارقـه لهثًـا خلـف الـسراب، ولا تغـادره إلا إلى مـا هـو أوفى منـه نفعًـا وأقـرب إلى الخـير، فالتنقّـل بـين الأعـمال دون تبـصّر، والتقلّـب بـين الخيـارات بـلا هـدى، يبـدّد الأعـمار ويطفـئ البصائـر، تجـد المـرء بعـد سـنواتٍ مـن السـعي، لا هـو ثبـت، ولا هـو ارتقـى، يـدور في فلـك التجربـة دون أن يـذوق لـذة الإنجـاز أو طمأنينـة القـرار.

كثـيرون اليـوم عالقـون في دوامـةٍ اسـمها «الجديـد»، يظنـون أن كل مـا أقبـل هـو الأفضـل، فيتخلّـون عـما بأيديهـم قبـل أن يتحققـوا مـن جـدوى البدائـل، يتنقلـون بـين الوظائـف فـلا يرسـو لهـم قـارب، ويتقافـزون بـين العلاقـات فـلا تمكـث لهـم مـودة، يُبهرهـم البريـق، ويعميهـم عـن البركـة، فمـن بـورك لـه في عمـل، فليُحسـن فيـه ويجـدد روحـه، ومـن بورك لـه في صداقـةٍ أو علاقـةٍ أو موطـن، فليصـن ذلـك كلـه كمـن يصـون جوهـرةً نـادرة لا تتكـرر، فليسـت الحكمـة في الترحـال الدائـم، بـل في أن تعـرف متـى تمكـث، وأن تؤمـن أن البركـة إذا حلّـت، أغنتـك عـن مائـة بديـل.

والبركـة ليسـت مجـرد كثـرة في العـدد أو اتسـاع في الـرزق، بـل هـي سر خفـي نستشـعره ولا نسـتطيع وصفـه، إنـه أشـبه بفيـض غـير مرئـيّ يجعـل القليـل كافيًـا، والمحـدود ممتـدًا، والعـادي اسـتثنائيًا، أغلبنـا التمسـه في حياتـه، مـرض يُشـفى مـن وصفـة بسـيطة ، قليـل من المـال يكفـي لحيـاة أسرة ولـو خططـت لـه ألـف مـرة مـا أكفاهـم، وكـم مـن شـخص مُنـح فرصـة بسـيطة لكنهـا حملـت لـه الخـير كلـه! وكـم مـن موهبـة بـدت متواضعـة، لكنهـا صـارت بابًـا للنجـاح! كلهـا آثـار البركـة ، فمـن وجـد البركـة في أمـرٍ مـن أمـور حياتـه،

سـواء كان عمـلاً، أو علاقـة، أو حتـى عـادة يوميـة، فعليـه أن يتمسـك بـه، لأن البركـة لا تُمنـح عبثًـا، بـل هـي إشـارة إلى حيـث يكمـن الخـير، إنهـا سرٌّ لا يُـرى بالعـين، لكنـه يُلمَـس في راحـة القلـب، وفي الثبـات عـلى الطريـق، وفي الأبـواب التـي تُفتـح دون ضجيـج، وفي الأقـدار التـي تُـدار بلطـف، فـإن وجـدتَ نفسـك تُزهـر في موطـنٍ مـا، ويُثمـر جهـدك فيـه بـلا جهـدٍ يُسـتنزف روحـك، فاعلـم أنّـك عـلى موضـع البركـة، فالزمـه، ولا تُغريـك الطـرق المعبّـدة إن كانـت تخلـو مِـن روحـك، فـإنّ مَـن دلّتـه السـماء عـلى موضـع بركتـه ثـم أعـرض عنـه، قـد جهـل كنـزه، حـين ظـنّ أنّ الخـيرات تُسـتدرج بالقـوة لا بالتسـليم، وبالخطـط لا بالحكمـة.

فمتـى مـا شـعرت أن الله يبـارك لـك في أمـرٍ مـا، عمـلٍ أو علاقـة، طريـقٍ أو موهبـة ، فذلـك نـداء خفـيّ لأن تلزمـه، نـداء لا يـأتي صدفـة ولا يسـتمر عبثًـا، بـل جـاء ليكـون دليـلًا عـلى أن هـذا البـاب لـك، وأن هـذا الميـدان هـو حيـث تزهـر خطواتـك، فكـم مـن طريـق سـلكناه فلـم نجـد فيـه راحـة، وكـم مـن مجهـود بذلنـاه فلـم يـؤتِ أكلـه، حتـى إذا عدنـا لمـا بـورك لنـا فيـه، وجدنـا فيـه اليُسر والقبـول والسـكينة.

حـاول ألا تُفـرّط فيـما وجـدت فيـه أثـر البركـة، ولا تغـتر بـما يلمـع في أعـين النـاس دون أن يـضيء طريقـك، فالخـير كل الخـير في أن تـلازم مـا يفتـح لـك أبـواب الرضـا، فـما دام لـك فيـه حـظ مـن التوفيـق، فاعلـم أن فيـه قـدرك، وربـما نجاتـك.

والإنسـان عـادة يتكيـف مـع مـا يـمارس، فحـين تبـدأ عمـلًا جديـدًا وتجـد فيـه مشـقة لا تـصرف همتـك وتفكـيرك إلى البحـث عـن غـيره قبـل أن تختـبر صـبرك فيـه، فـإذا مـا أمضيـت فيـه بعـض الوقـت صـار عليـك هيِّنًـا بـل ربـما إذا فقدتـه تغـيّر تفكـيرك وفي حينهـا تتسـاءل كيـف كنـت أفكـر في تغيـيره؟ امنـح نفسـك الفرصـة لإثبـات مـا تسـتطيع القيـام بـه ولا تـترك فكـرة الرغبـة في الانتقـال تتغلـب عليـك.

قلة الخيارات لا تعني انعدام النجاة

عندما ضرب الجفاف المدينة المنورة في عام الرمادة، وأصبح القوت شحيحًا، لم يكن أمام عمر بن الخطاب إلا خيارات محدودة جدًا لإنقاذ الناس من الهلاك، فلم يكن الجفاف مجرد أزمة طارئة، بل اختبارًا حقيقيًا لقدرة القيادة على إدارة الندرة بحكمة، فقد أرسى عمر سياسة تقشف صارمة، فجاع كما جاع الناس، وأبى أن يلبس أو يأكل ما ليس في متناول رعيته، حتى غدت سياسته رسالة صامتة تبث فيهم الصبر والعزيمة، وضع خطة محكمة تقضي بترشيد الاستهلاك، واستعمال ما تبقى بحكمة، لم ينتظر الفرج مكتوف اليدين، بل صنع البدائل من رحم الأزمة، قاوم الشح بالصبر، وعوّض ندرة الموارد بحسن توزيعها، وجعل من القليل ما يكفي الجميع حتى تنفرج الأزمة، فأصبحت قلة البدائل اختبارًا لقدرة الإنسان على التأقلم، وإيجاد الحلول في أصعب الظروف، فليست وفرة الخيارات هي التي تصنع النجاح، بل حسن إدارة المتاح.

وقلة البدائل قد تكون أكثر ما يضع الإنسان في اختبار حقيقي أمام ذاته، حيث يجد نفسه محاصرًا بين خيارات محدودة، مما يجعله يشعر بالعجز، لكن في جوهر الأمر، هذه الحالة ليست دائمًا سلبية، بل قد تكون الدافع لاكتشاف إمكانات لم يكن ليبحث عنها لو توافرت له البدائل بسهولة، فحين تقل الخيارات، ينصرف العقل إلى التركيز، ويصبح أكثر قدرة على الإبداع والتكيف، ويتعلم الإنسان كيف يصنع من القليل ما يكفيه، فحين تضيق الخيارات، ويجد الإنسان نفسه محاصرًا بين القليل مما يمكنه فعله، تظهر قدرته الحقيقية على التكيف، وعلى اتخاذ القرار الأكثر حكمة وسط محدودية البدائل.

لكن في المقابل، قد تكون قلة البدائل سببًا للضغط النفسي والشعور بالعجز، حين تصبح الخيارات المتاحة جميعها مُرّة، أو حين يضطر الإنسان إلى اختيار الأقل سوءًا، لا لأنه يريده، بل لأنه لا يملك غيره، فمن يشتد به الجوع يقبل بأي طعام يسد رمقه، ومن ضاقت به سبل الرزق لا يتردد أمام أول فرصة تلوح في الأفق، حتى وإن لم تكن مثالية، ومن يفتقد الاهتمام يتعلق بأي كلمة تفيض بالدفء، وحين تنعدم

البدائـل يصبـح القبـول ضرورة لا رفاهيـة، لكـن المهـم ألا يكـون هـذا القبول نهايـة المطاف، ألا تحـرم نفسـك حـق الاختيـار لمجـرد أن البدايـة فرضـت عليـك طريقًـا واحـدًا، خـذ منـه مـا يحقـق الحـد الأدنـى مـن الاكتفـاء، ثـم امنـح نفسـك فرصـة البحـث عـمّا يليـق بـك، فالعيـب ليـس في اتخـاذ خيـار اضطـراري، بـل في الاستسـلام لـه وكأنـه قـدرك المحتـوم، ومـا يبـدو حـلًا وحيـدًا اليـوم، قـد يصبـح مجـرد احتـمال مـن بـين احتـمالات عديـدة غـدًا، فالزمـن لا يُبقـي شـيئًا عـلى حالـه، وكل ظـرف يحمـل في طياتـه تحـولات تفتـح أمامـك طرقًـا جديـدة، قـد تكـون أكثـر صعوبـة، لكنهـا بـلا شـك أكـرم عـلى النفـس مـن البقـاء في مـكان لا تنتمـي إليـه.

والحيـاة في مجملهـا لـن تمنحنـا دائـمًا خيـارات وفـيرة، لكـن العـبرة ليسـت بوفـرة البدائـل، بـل بقدرتنـا عـلى حسـن الاختيـار ممـا هـو متـاح، ، لأن الإنسـان لا يُختـبر حـين يكـون أمامـه ألـف طريـق، بـل حـين لا يكـون أمامـه إلا طريـق واحـد، وعليـه أن يسـلكه بأفضـل مـا يسـتطيع، فالعقـل البـشري حـين يُحـرم مـن وفـرة الخيـارات، لا يجـد أمامـه سـوى أن يُجيـد التعامـل مـع القليـل، أن يحولـه إلى شيء ذي قيمـة، أن يعـصر فكـره ليبتكـر حـلًا غـير مألـوف، وربـما يجـد فيـما ظنـه قيـدًا، مفتاحًـا لأبـواب لم يكـن يـدرك وجودهـا.

ولعـل أجمـل مـا في قلـة البدائـل أنهـا تعلمنـا قيمـة مـا نملـك، وتجعلنـا نـدرك أن الحلـول لا تـأتي دائـمًا بكثرتهـا، بـل بجـودة التفكـير في الاسـتفادة ممـا هـو متـاح بأفضـل طريقـة ممكنـة، فقلـة الخيـارات لا تعنـي انعـدام النجـاة، فكـم مـن طريـق ضيّـق ظنـه سـالكه مأزقًـا، فـإذا بـه معـبرُ نجـاة، وكـم مـن بـاب واحـد قـاد إلى اتسـاع لم يخطـر لـه ببـال، فليسـت كثـرة الاحتـمالات هـي مـا تصنـع الأمـل، بـل اليقـين بـأن الله يُمهّـد في الضيـق مخرجًـا، وفي الزحـام فسـحةً، وفي انسـداد الأبـواب نافـذة لا يراهـا إلا الموقنـون، وفي الواقـع، نـرى مـن لم تُتـح لـه فـرص كثـيرة، ولا تهيـأت لـه الظـروف، لكنـه صنـع مـن القليـل شـيئًا عظيـمًا، لأن البصـيرة لا تحتـاج إلى تعـدّد الطـرق، بـل إلى عزيمـة تسـلك المتـاح وكأنـه الأوحـد، وثقـة بـأن النجـاة لا تُقـاس بعـدد السـبل، بـل بمـن يملـك قلبًـا لا يستسـلم، فليـس عـلى الإنسـان أن يعـرف إلى أيـن الطريـق سـينتهي، لكـن عليـه أن يسـير بيقـين أن الله لا يخـذل مـن أحسـن التـوكل.

الحرية أن تختار قصتك، لا أن تُروى بك قصة غيرك

كان الصحـابي «عبـد الرحمـن بـن عـوف» مِـن أغنـى رجـال زمانـه، لكنـه لم يسـمح لثروتـه أن تتحكـم فيـه، بـل كان هـو مَـن يوجههـا إلى حيـث يريـد منهـا، وذات مـرة حـين اشـتد الجـوع عـلى أهـل المدينـة، جلـب قافلـة ضخمـة مـن الشـام، فلـما جـاءه التجـار يسـاومونه عـلى الربـح، قـال لهـم: «قـد بعتهـا بأكثـر»، فظنـوا أنـه يقصـد تاجـرا آخـر، لكنـه قـال: «بعتهـا لله»، ووزعهـا كلهـا عـلى المحتاجـين، ولم يكـن الأمـر مجـرد لحظـة عابـرة مـن الكرم، بـل كان أسـلوب حيـاة، فلـم يجعـل المـال هدفًـا يسـيطر عليـه، بـل جعلـه أداة يسـتخدمها لصنـع الخـير، كان بإمكانـه أن يراكـم الأمـوال ويعيـش في رفاهيـة، لكنـه اختـار أن يكـون سـيد ثروتـه لا عبدهـا، أن يتحكـم في المـال لا أن يتحكـم المـال فيـه، فالثـروة لم تملكـه، بـل كان سـيدها، يسـتخدمها فيـما ينفـع، لا فيـما يسـتعبده.

هكـذا يكـون الإنسـان حـين يملـك زمـام أمـره، حـين لا يسـمح للماديـات أن تصـوغ شـخصيته أو تحـدد قيمتـه، فحيـاةٌ تملكهـا بقـرارك، خـير مـن حيـاةٍ تمتلـكك بسـلطانها، عـام واحـد تشـعر فيـه بذاتـك أفضـل مـن مئـة عـام تائهـا بـين دروب لا تناسـبك، يحـق لـك بـين حـين وآخـر أن تتوقـف عـن السـير قليـلًا وأن ترتـب نفسـك مـن جديـد، أن تنتقـي مـا يشـبهك وتتجـاوز مـا يرهقـك، أن تعيـش حلمـك أنـت وحياتـك أنـت وميولك أنـت، لا أن تظـل عالقـا في حيـاة غـيرك، في رغبـات غـيرك، لا أن تكـون أسـيرًا لرضـا غيرك عنـك، يحـق لنفسـك أن تهـدأ وأن تقطـع صلتهـا بـكل مـا فُـرض عليهـا مـن التزامـات ومـن رغبـات لا تحبهـا دون أن تشـعر بالتقصـير أو النـدم .

أن تضبـط خطواتـك عـلى إيقـاع بصيرتـك، أعمـق مـن أن ترقـص عـلى لحـن الضوضـاء مـن حولـك، أن تملـك حياتـك يعنـي أن تكـون أنـت صانـع القـرار، لا تابعًـا للظـروف أو أسـيرًا لمـا يفرضـه الآخـرون، تصبـح قراراتـك انعكاسًـا لرغباتـك وطموحاتـك، لا مجـرد اسـتجابة عشـوائية للضغـوط، أن تمتلـك القـدرة عـلى قـول «نعـم» لمـا يضيـف إليـك و«لا» لمـا يسـتنزفك ، أمـا حـين تملـكك الحيـاة، فأنـت مجـرد راكـب في قطـار لا تعـرف وجهتـه، تتحـرك وفـق مـا يُفـرض عليـك، تُسـلب منـك أي قـدرة عـلى تغيـير الأحـداث ، تسـتهلكك الأيـام دون أن تشـعر أنـك تحياهـا حقًـا .

الفـرق بـين الحالتـين ليـس مجـرد حـظ أو ظـروف، بـل هـو وعـي وإرادة، قـد تكـون التحديـات كثـيرة، والمسـؤوليات تضغـط، لكـن مـن يـدرك أهميـة امتـلاك حياتـه يسـعى دائـمًا ليبقـى ممسـكًا بدفـة حياتـه يقودهـا لنفسـه لا تُقـاد لـه وإن كانـت تصاحبهـا المشـقة، ولا يعنـي ذلـك أن كل شيء سـيكون تحـت سـيطرتك، لكنـك عـلى الأقـل سـتكون حـاضرًا في حياتـك، لا غائبًـا عنهـا.

أن تملـك حياتـك يعنـي أن تتعلـم الرفـض بكرامـة، وأن تفـرح بـلا إذن، وأن تحـزن بـلا تبريـر، وأن تفهـم أن الحريـة ليسـت في كـسر القيـود الظاهـرة فقـط، بـل في تحطيـم القفـص الـذي يبنيـه الخـوف داخلـك، أن تعيـش بضمـير لا بتصفيـق، بقيـم لا بمقايضـة، بطمـوح لا بمنافسـة مَرَضيـة، فالحيـاة لا تُقـاس بطولهـا، بـل بعمقهـا، ولا بعَـدد مـن حولـك، بـل بصدقـك مـع نفسـك، أمـا الحيـاة التـي تملـكك، فهـي التـي تقـودك ولا تقودهـا، تتحكـم بـك المخـاوف، وتـأسر قراراتـك العيـون المترصـدة، وتُصبـح أيامـك انعكاسًـا لمـا يتوقعـه النـاس منـك، لا لمـا تريـده لنفسـك، تسـتيقظ متعبًـا لا مـن العمـل، بـل مـن التمثيـل، مـن التبريـر، مـن السـعي المسـتمر لتكـون كـما يريـد الآخـرون لا كـما تريـد أنـت .

الإنسـان الحـرّ لا يُقـاس بعـدد الأبـواب المفتوحـة أمامـه، بـل بقدرتـه عـلى أن يغلـق مـا لا يناسـبه دون وجـل، ويختـار مـا يليـق بروحـه دون أن تُمـلي عليـه الحيـاة ذوقهـا الصاخـب، فأخطـر مـا يهـدد كرامـة الإنسـان ليـس القيـد الظاهـر، بـل القيـد المتخفـي خلـف الشـعارات الرائجـة، حـين يُدفـع في سـباقٍ لم يختـره، ويُسـتدرج إلى حيـاة لا تُشـبهه، ثـم يُوهـم بأنـه يُنجـز، والحقيقـة أنـه يُسـتهلك، وفي هـذا العـصر، كثـيرون يظنـون أنفسـهم أحـرارًا لمجـرد أنهـم يملكـون القـرار، بينـما قرارهـم ليـس إلا اسـتجابة لمـا فُـرض عليهـم بلُطـف: رغبـات مصنوعـة، صُـوَرٌ مثاليـة، ضغـوط يوميـة تُلبسـك مـا لا تُريـد، وتجعلـك تجـري وأنـت لا تعـرف إلى أيـن، الحـرّ بحـق هـو مـن يقـف ليسـأل: أيـن أنـا مـن كل هـذا؟ وهـل مـا أسـعى إليـه نابـع مـن اختيـاري، أم مفـروض عـليَّ بصمـت؟ هـو الـذي لا ينسـاق خلـف الجماعـة لمجـرد أنهـم كُثُـر، ولا يسـتهلك عمـره ليحاكـي قالبًـا صمّمـه غـيره، بـل يشـقّ لنفسـه طريقًـا، حتـى وإن قـلّ سـالكوه.

لا تزرع قرارًا في أرضٍ هزّها الغضب

بعـد صلـح الحديبيـة، وقـف عمـر بـن الخطـاب غاضبًـا، يشـعر بالمـرارة لمـا رأى مـن إجحـاف في بنـود الصلـح بحـق المسـلمين، لم يسـتطع كتـمان غضبـه، فتوجـه إلى النبـي ﷺ مسـتفسرًا بلهفـة: «يـا رسـول الله، ألسـنا عـلى حـق وهـم عـلى باطـل؟»

فقال النبي ﷺ: «بلى».

قال عمر: «أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟»

فقال النبي ﷺ: «بلى»

فاستشـاط عمـر غضبًـا وقـال: «ففيـم نعطـي الدنيـة في ديننـا ونرجـع ولمّـا يحكـم الله بيننـا وبينهـم؟!»

فـرد عليـه النبـي ﷺ بحـزم وطمأنينـة: يـا ابـن الخطـاب إني رسـول الله ولـن يُضَيِّعَنِـي الله أبـدا .

لكـن عمـر لم يهـدأ، فذهـب متغيّظًـا إلى أبي بكـر الصديـق، يعيـد عليـه ذات الأسـئلة، باحثًـا عـن تفسـير يطفـئ نـيران حيرتـه، فـكان رد أبي بكـر كـرد النبـي ﷺ: «يـا ابـن الخطـاب، إنـه رسـول الله، ولـن يضيعـه الله أبـدًا.[1]

ومضـت الأيـام، وجـاءت توابـع هـذا الصلـح، لكنهـا لم تكـن هزيمـة كـما ظنّهـا بعـض الصحابـة، بـل كانـت «فتحًـا مبينًـا»، كـما وصفهـا الله تعـالى في كتابـه ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ حينهـا، أدرك عمـر حكمـة الله في تأخـير النـصر وظاهِـر الخسـارة التـي كانـت تخفـي في طياتهـا نـصرًا أعظـم.

تعلّـم عمـر، وتعلـم المسـلمون مـن بعـده، أن مـا يبـدو في لحظتـه انكسـارًا قـد يكـون تمهيـدًا لانتصـار أعظـم، وأن الصـبر عـلى أمـر الله وحكمتـه لا يعنـي القبـول بالضعـف، بـل يعنـي الإيـمان بـأن التدبـير الإلهـي قـد يسـبق فهمنـا البشـري، لكنـه لا يخـذل المؤمنـين أبـدًا.

١ البخاري ٣١٨٢ ومسلم ١٧٨٥

فلـم يكـن صلـح الحديبيـة إلا صـورة ظاهـرة مـن التنـازل، لكنـه كان المدخـل إلى فتـح مكـة، ولم تكـن ليلـة الهجـرة إلا فـرارًا، لكنهـا كانـت البـاب إلى تأسـيس دولـة الإسـلام، أحيانًـا، الربـح ليس أن تكسـب الآن، بـل أن تتريـث حتـى يحـين الوقـت المناسـب لتحقيـق غايتـك التـي تريـد، فليسـت كل خسـارة نهايـة، بـل أحيانًـا تكـون بدايـة تخـلٍ عـن مـا لا يليـق، بدايـة إدراك لمـا كنـا نتمسـك بـه ظنًّـا أنـه كل شيء، في حـين أنـه لم يكـن سـوى مرحلـة، وحـين تظـن أنـك تأخـرت، كـن عـلى يقـين أن الله يُمهّـد لمـا هـو خـير، وأنّ مـا ظننتـه تراجعًـا هـو في الحقيقـة ارتقـاءٌ مـن زاويـة لم ترهـا بعـد، ففـي كثـير مـن الأحيـان، لا تظهـر الحِكـم إلا بعـد اكتـمال المشـهد.

في لحظـات الغضـب يتوقـف العقـل عـن التدبـر، يندفـع المـرء بالعاطفـة التـي تـأسره فينطق بـما قـد ينـدم عـلى قولـه فيـما بعـد، فهـا هـو عمـر يُقـر أن الغضـب وإن كان للحـق قـد قـاده لقـول يخشـى عقبـاه، فـكان يقـول بعدهـا بمـرارة التوبـة: «مـا زلـتُ أصـوم وأتصـدق وأعتـق مـن الـذي صنعـتُ مخافـة كلامـي الـذي تكلمـت بـه يومئـذ، حتـى رجـوت أن يكـون خـيرًا»

الغضـب آتٍ لا محالـة، نغضـب لأسـباب قـد يراهـا غيرنـا عابـرة بسـيطة، لأنهـم لم يعيشـوا تفاصيـل أحداثهـا، فهـي شـعور طبيعـي لرفـض مـا، لكـن مـا يعيبهـا كمشـاعر هـي توابعهـا، ففـي الغضـب يقـل التركيـز فتخـرج الكلـمات جارحـه لا رقيـب عليهـا مـن عقل أو ضمـير، قـد يخسر المـرء بهـا هيبتـه، قـد يجـرح أحبـاءه، يهـين صديقًـا، يهـدم صرحًـا قـد بنـاه في علاقاتـه وفي عملـه، فـإن كان ولا بـد مـن الغضـب فكـن حكيـمًا في غضبـك، تحكـم في رغبـة الـكلام واكبـح جمـاح اللسـان حتـى تهـدأ، لا تأخـذ قـرارًا في لحظـات غضـب فالرؤيـة تكـون مشوشـة والقـرارات في حينهـا ـ غالبهـا ـ تهـدم لا تبنـي .

العاطفة وحدها لا تكفي لاتخاذ قرار

مـا إن فـرغ النبـي ﷺ مـن عقـد صلـح الحديبيـة حتـى ظهـر اختبـار قـاسٍ أمـام المسـلمين، إذ جـاء «أبـو جنـدل بـن سـهيل» يرسـف في قيـوده، هاربًـا مـن ظلـم قريـش، معلنًـا إسـلامه وراغبًـا في اللحـاق بالنبـي ﷺ، لكـن بنـود الصلـح، التـي تـم الاتفـاق عليهـا قبـل لحظـات، كانـت واضحـة وصارمـة: مَـن جـاء مِـن المسـلمين إلى المدينـة يُـرد إلى قريـش.

رأى سـهيل بـن عمـرو، والـد أبي جنـدل، الفرصـة ليؤكـد التـزام المسـلمين بالاتفـاق، فقـام إليـه وأمسـك بثوبـه بعنـف، وصفـع ابنـه عـلى وجهـه وقـال : هـذا أول مـن أقاضيـك عليـه يـا محمـد!

لحظـة ثقيلـة عـلى قلـوب المسـلمين، يـرى الصحابـة أخاهـم يتوسـل إليهـم بـألم : «يـا معـشر المسـلمين! أأُرَد إلى المشركـين يفتنونـني في دينـي؟! فتدمـع العيـون وتغـلي القلـوب، لكـن النبـي ﷺ، رغـم الألم، كان يـرى أبعـد مـن اللحظـة، ويرسّـخ مبـدأ الوفـاء بالعهـد، فيقـول لـه مطمئنًـا: «يـا أبـا جنـدل اصـبر واحتسـب فـإن الله جاعـلٌ لـك ولمـن معـك مـن المسـتضعفين فرجـاً ومخرجـاً، إنـا قـد عقدنـا بيننـا وبـين القـوم صلحـاً، وأعطيناهـم عـلى ذلـك وأعطونـا عهـد الله، وإنـا لا نغـدر بهـم». [1]

لم تكـن كلـمات النبـي ﷺ وعـدًا بـلا معنـى، فقـد صدَّقـت الأيـام النبـي ﷺ، إذ لم يلبـث أبـو جنـدل أن فـرّ مـن قريـش، ولحـق بـه عـشرات المسـتضعفين الفاريـن بدينهـم، حتـى شـكّلت هـذه الفئـة قـوة مسـتقلة أنهكـت قوافـل قريـش، وأجبرتهـم عـلى إعـادة النظـر في اتفاقهـم، ليطلبـوا هـم أنفسـهم مـن النبـي ﷺ أن يأخـذ أصحابـه إلى المدينـة وبذلـك أسـقطوا بأيديهـم شرطًـا ظنـوا في حينهـا أنهـم غلبـوا بـه المسـلمين.

العاطفـة شيء طيـب لكنهـا وحدهـا لا تصلـح لإدارة المواقـف، لابـد لـشيء مـن الحكمـة، مـن التعقـل، مـن التضحيـة، ففـي الوقـت الـذي أدخـل أبـو جنـدل بكلماتـه عـلى المسـلمين كربًـا فـوق كربهـم، حتـى تحركـت مشـاعرهم تعاطفًـا معـه ورغبـة في نصرتـه ولـو بإخـلال العقـد ، فقـال سـهل بـن حنيـف وهـو واحـد مـن أولئـك الذيـن حـضروا الموقـف:

١ مرويات الإمام الزهري في المغازي – جـ٢ ص ٥٨٧

«يـا أيهـا النـاس اتهمـوا رأيكـم عـلى دينكـم، لقـد رأيتنـي يـوم أبي جنـدل، ولـو أسـتطيع أن أرد أمـر رسـول الله ﷺ عليـه لرددتـه.» [١]

كثـيرًا مـا تدفعنـا العاطفـة إلى اتخـاذ قـرارات متسرعـة، لأننـا نـرى الأمـور مـن زاويـة المشـاعر وحدهـا، فنتعاطـف مـع مَـن لا يسـتحق، ونسـامح مَـن يكـرر الخطـأ، ونرفـض اتخـاذ قـرارات حاسـمة خوفًـا مِـن جـرح مشـاعر الآخريـن، لكنهـا حـين تكـون بـلا عقـل، قـد تتحـول إلى نقطـة ضعـف يسـتغلها الآخـرون، أو تجعلنـا أسرى لمواقـف كان يمكننـا إدارتهـا بحكمـة أكـبر، العاطفـة وحدهـا قـد تجعلنـا نحـاول إرضـاء الجميـع عـلى حسـاب أنفسـنا، أمـا العقـل فيذكرنـا بأننـا مسـؤولون أيضًـا عـن سـعادتنا وحقوقنـا، وعندمـا يجتمـع الاثنـان، تصبـح قراراتنـا أكثـر اتزانًـا، فنحـن لا نفقـد إنسـانيتنا، لكننـا أيضًـا لا نقـع فريسـة للعاطفـة التـي قـد تقودنـا إلى نتائـج لم نحسـب لهـا حسـابًا، فالانضبـاط هـو الخيـط الممـدود بـين الأهـداف وتحقيقهـا.

العاطفـة أشـبه بنـار دافئـة تهبنـا الحماسـة، لكـن إن لم يُلجمهـا العقـل، أتـت عـلى كل مـا حولهـا مـن حكمـة ورويـة، فكـم مـن قـرارات اتُّخـذت في لحظـة انفعـال، تحـت تأثـير الحـب أو الغضـب أو الحـزن، فـإذا بهـا تُخلّـف وراءهـا سلسـلة مـن النـدم والأسـى، إنهـا قـد تدفعـك لأن تمسـك بيـدٍ كنـتَ تظنهـا خلاصـك، أو تـترك أخـرى لأنـك شـعرت بجفـاء عابـر، لكنهـا لا تنظـر أبعـد مـن اللحظـة، أمـا القـرار الحـقّ، فهـو ثمـرة تـوازن بـين القلـب والعقـل، بـين مـا نشـعر بـه، ومـا نعلـم أنـه الأصلـح عـلى المـدى البعيـد.

اتخـاذ القـرار السـليم لا يعنـي كبـت مشـاعرك، بـل إنضاجها، أن تسـمع نـداء القلـب، لكن لا تنفـرد بـه، بـل تُجلسـه إلى جـوار بصيرتـك وتـزن الأمـور بعـدل، فالعاطفـة وحدهـا قـد تـبرر لـك مـا لا يُـبرَّر، وتُعميـك عـن الخطـر المغلَّـف بالـود، لذلـك، كل قـرار لا يُراجـع بمنظـار الوعـي، ولـو بـدا مشـبعًا بالحـب أو الرحمـة، قـد يتحـول إلى عـبء لا خـلاص منـه، لأن النوايـا الطيبـة وحدهـا لا تصنـع حيـاة متوازنـة.

في كل موقـف يواجهنـا، لا بـد مـن أن نسـأل أنفسـنا: هـل هـذا القـرار مبنـي عـلى إحسـاس لحظـي أم عـلى تفكـير منطقي؟

١ البخاري (٧٣٠٨)

هل سينعكس أثره على المدى البعيد كما أتمناه، أم أنه مجرد استجابة لمشاعر مؤقتة؟

هل أنا مستعد لتحمل تبعات هذا القرار مهما كانت؟

هل اختياري هذا يعبر عني أم أنه مجرد هروب من واقع معين؟

هل لو عاد بي الزمن سأتخذ القرار نفسه أم أنني سأتصرف بشكل مختلف؟

هــذه الأسـئلة ليسـت رفاهيـة فكريـة، بـل أدوات ضرورية لضبـط اندفاعاتنـا قبـل أن تتحـول إلى مسـارات دائمـة، فالحيـاة لا تُقـاس بكـمِّ مـا نفعلـه في لحظـة حماسـة، بـل بقدرتنـا عـلى الانحيـاز للقـرار الأصـوب، ولـو بـدا حينـه أقـل دفئًـا، فالـتروي قبـل الاختيـار هـو احـترام لمـا تبقـى مـن طاقتنـا، لكرامتنـا، لأحلامنـا التـي لا نريـد أن نخذلهـا بقـرارات مرتجلـة، ونحـن حـين نراجـع دوافعنـا، نميّـز بـين القـرار النابـع مـن وعينـا، وذلـك المتفلـت مـن فـورة مشـاعرنا، فكـم مـن بـاب فتحـه الانفعـال وأغلقتـه الحكمـة بعـد فـوات الأوان! وكـم مـن فرصـة ظنناهـا مـلاذًا، فـإذا بهـا عبئًـا لأننـا لم نمنـح عقولنـا فرصـة أن تقـول كلمتهـا!

إن الاشـتياق لا يـبرر العـودة لمـن كسرنـا، والخـوف لا يصنع مخرجًـا آمنًـا، بل قد يسـوقنا إلى هاويـة أعمـق، فلنصـغ إلى مـا نشـعر بـه، لكـن دون أن نُسـلّمه زمـام الأمـور وحـده، وحين نُسـأل عـن قراراتنـا، لـن يُسـأل قلبنـا عـمّا شـعر، بـل عقلنـا عـمّا قـرر، نعـم قـد لا نحاسـب عـلى مشـاعرنا، لكنهـا لا تعفينـا مـن مسـؤولية مـا نختـاره تحـت تأثيرهـا، فالمشـاعر قـد تعذرنـا، لكنهـا لا تحمينـا مـن عواقـب قـرارات اتخذناهـا بقلـوب مرتجفـة وعقـول غائبـة.

كرامتك ليست سلعة

لم يكـن «بـلال بـن ربـاح» مجـرد رجـل أسـلم، بـل كان روحًـا تجسـدت فيهـا العـزة، وقلبًـا لم يعـرف الخضـوع لغـير الله، دخـل الإسـلام بيقـينٍ لا يتزعـزع، وقابـل العـذاب برضـا مَـن أيقـن أن الله معـه، وظـل ثابتًـا كالصخـرة التـي أرادوا أن يسـحقوه بهـا، لم يكـن الإسـلام بالنسـبة لـه مجـرد فكـرة، بـل كان نـورًا أضـاء لـه طريقًـا جديـدًا، دخـل الكعبـة يومًـا ونظـر إلى أصنامهـا، فبصـق عليهـا قائـلاً: «خـاب وخسـر مَـن عبدكـن».

كانــت تلــك اللحظــة إعلانًــا بأنــه لم يعــد عبــدًا للبــشر أو للأصنــام، بــل صــار عبــدًا لله وحــده، فلـما علمـت قريـش بإسـلامه، لم تجـد فيـه سـوى عبـدٍ لا قيمـة لـه، فاسـتباحت جسـده، ربطتـه بالحبـال، وجعلتـه صبيـة مكـة لعبـة لهـم، يسـحبونه بـين جبالهـا، يضربونـه حتـى يملّـوا، لا حتـى يرجـع عـن دينـه، ومـع ذلـك لم يخـرج مـن فمـه سـوى كلمـة واحدة: «أحـدٌ أحـد» لم يكـن ينطقهـا مـن بـاب التحـدي، بـل مـن عمـق الإيـمان، مـن يقـينٍ لا تهـزه السـياط، ولا تكـسره الحجـارة، اشـتد عليهـم صـبره فـزادوا في تعذيبـه، لكنـه كان ينظـر إليهـم بعينـين غارقتـين في الألم، لا ضعفًـا بـل اسـتعلاءً بإيمانـه، وحـين اشـتد غضبهـم عليـه كان جوابـه بسـيطًا، لكنـه أشـد وقعًـا مـن سـيوفهم: «إن لسـاني لا يحسـنه»، لم يعـرف كيـف ينطـق بالكفـر، لم يتعلـم المسـاومة، لم يجِـد في قلبـه مكانًـا للخضـوع.

كان أميـة بـن خلـف يخرجـه إلى صحـراء مكـة حـين تشـتد حـرارة الشـمس، يطرحـه عـلى الرمـال المحرقـة، يضـع الصخـرة العظيمـة عـلى صـدره، ويقـول لـه: «سـتبقى هكـذا حتـى تمـوت، أو تكفـر بمحمـد، وتعبـد الـلات والعـزّى.» لكـن بـلالًا، الـذي أثقلـوه بالحجـارة، لم يكــن يحمــل في قلبــه ســوى يقــينٍ خفيــفٍ كريشــة، لكنــه أثقــل مــن أن يزحزحــه أي طغيـان، فنظـر إلى جـلاده، ومـن بـين أنفاسـه المرهقـة لم يخـرج إلا مـا كان يحملـه في قلبـه: «أحـدٌ أحد»

لم يكــن صوتًــا يائسًــا، بــل كان صرخــة الحريــة في وجــه العبوديــة، وكان إعلانًــا أن القــوة ليسـت في السـياط، بـل في الإيـمان الـذي لا ينكـسر، في الكرامـة التـي لا تُشـترى، وفي العبـد الــذي صــار أعظــم مــن ســيده، لأن ســيده كان عبــدًا لأصنامــه، أمــا هــو فــكان عبــدًا لله وحـده.

الكرامـة هـي الحـدّ الـذي لا ينبغـي لأحـد أن يتجـاوزه، وحـين يجعـل المـرء كرامتـه سـلعة، فإنـه يفتـح البـاب لاسـتغلاله، يتعلـم الآخـرون كيـف يسـاومونه، كيـف يمنحونـه الفتـات مقابـل تنـازلات منـه، كيـف يحولونـه إلى تابـع لا يملـك قـراره، وكيـف يدفعونـه شـيئًا فشـيئًا إلى التفريـط في نفسـه قبـل أن يـدرك أنـه صـار بـلا هويـة ولا قيمـة.

الكرامـة لا تعنـي العنـاد الفـارغ، ولا تعنـي رفـض الاعتـذار أو الاعـتراف بالخطـأ، لكنهـا تعنـي ألا تقبـل أن تُهـان، ألا تـرضى أن تكـون مجـرّد وسـيلة في يـد غـيرك، ألا تجعـل نفسـك قابـلاً للبيـع والـشراء في سـوق المصالـح، الكرامـة أن تحـب، ولكـن لا تتوسـل، أن تعتـذر عنـد الخطـأ، ولكـن لا تـرضى بالإهانـة، أن تكـون لينًـا، ولكـن لا تُكسر، مـن يحـترم نفسـه، يفـرض احترامـه عـلى الآخريـن، ومـن يفـرط في كرامتـه مـرة، يجـد نفسـه مضطـرًا للتنـازل مـرات ومـرات حتـى يصبـح بـلا صـوت، بـلا موقـف، بـلا قيمـة.

كثـيرون باعـوا كرامتهـم طمعًـا في منصـب، أو خوفًـا مـن خسـارة علاقـة، أو طمعًـا في رضـا مَـن لا يقدّرهـم، لكنهـم حـين خسروا كل ذلـك لم يبـقَ لهـم شيء، فـلا دام المنصـب، ولا اسـتمرت العلاقـات، ولا كسـبوا احـترام أحـد، فالنـاس لا يهابـون إلا مـن يعـرف كيـف يصـون نفسـه.

لا تسـعَ لنيـل القبـول عـلى حسـاب نفسـك، ولا تسـمح لأحـد أن يجعلـك تشـعر بأنـك أقـل مما أنـت عليـه، فالحيـاة مليئـة بالاختبـارات التـي تضـع كرامتنـا عـلى المحـك، وهنـاك أوقـات سنشـعر فيهـا أن التنـازل عـن جـزء مـن احترامنـا لأنفسـنا قـد يحقـق لنـا راحـة مؤقتـة، أو يحـل لنـا مشـكلة قائمـة، لكـن الحقيقـة أن كل مـرة تفـرّط فيهـا في كرامتـك، فأنـت تـزرع بـذرة لخسـارة أكـبر في المسـتقبل، فـما قيمـة الكرامـة إن لم تكـن درعًـا يحميـك مـن التنـازل عـما لا ينبغـي التنـازل عنـه؟ وكيـف تُسـمى كرامـة إن كنـت تسـاوم عليهـا عنـد أول اختبـار؟ وأي معنـى يبقـى لهـا إن كنـت تمنحهـا لمـن لا يقدّرهـا؟ وأيـن موقعهـا إن كنـت تفـرط فيهـا خوفًـا مـن خسـارة عابـرة؟ وهـل تبقـى كرامـة إن رضيـت أن تُـداس مقابـل رضـا الآخريـن؟

بعض الأوجاع جاءت لترمم لا لتهدم

لما علمت السيدة عائشة بمقولة أهل الإفك في عِرضها قالت تصف حالها: «وقد بكيتُ ليلتين ويوماً لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى ظننت أن البكاءَ فالقٌ كبدي».

لم يكن بكاؤها مجرد دموع حزن، بل كان نزيف قلبٍ جُرِح بسكين الغدر، وعقلٍ يعصف به الألم من أقرب الناس إليها، في تلك اللحظات القاسية، لم تجد عزاءً يخفف عنها وطأة الموقف، ولم يكن لها من ملجأ إلا الله، فانهارت بالبكاء حتى خشيَت أن ينفطر فؤادها من شدّة الحزن، فبعض الأوجاع تغيّر ملامح الوجه فيذبل بعد نضرة، وبعضها يستوطن الليل فلا يجرؤ النوم على الاقتراب في حضوره، وبعضها يثقل القلب حتى تشعر أن نبضه يكاد يخفت من فرط الهم، فيضيق الصدر كما تضيق الدنيا، فلا تجد لوصف حالك تعبيرًا أبلغ من قول عائشة: «حتى ظننت أن البكاء فالقٌ كبدي»

بعض الأوجاع تأتي لتمزّق الغشاوة التي كانت تحجب عن أعيننا حقيقة البشر، فنراهم بعد المحنة على حقيقتهم، بلا أقنعة ولا تجميل، وبعضها يُساق إلينا لننتبه إلى الطريق الذي أبعدنا عن الله، فنعود إليه قسرًا بعد أن كنا نظن أن الدنيا تكفينا، وبعض الأوجاع تُبعث إلينا لا لتهدم، بل لترمم، وإن بدت لحظتها الأولى وكأنها تخلع في داخلنا شيئًا لن ينجبر، لكن الزمن كفيل بأن يُظهر لنا الوجه الآخر للألم، ذاك الذي لم يكن يُهدمنا، بل كان يعيد بناءنا بطريقة لم نكن لندركها لولاه.

إن الألم، حين يحتضننا، لا يفعل ذلك ليهزمنا، بل ليعيد تشكيلنا، ليكسر التعلّق الزائف، ويكشف لنا عمقنا الحقيقي، ذاك الذي لا يَظهر إلا تحت الضغط، فبعض الأوجاع لا تأتي لتؤذينا، بل لتعرّفنا بأنفسنا، وتمنحنا وعيًا لا يُنال في لحظات الرخاء، إنه يدفعنا إلى رؤية دواخلنا ونحن مجردون تماما من مظاهر القوة، من الدعم المطلق من المحيطين بنا، حيث نصبح أكثر إنصاتًا لصوتنا الداخلي، فنُعيد ترتيب أولوياتنا، ونُغربل علاقاتنا، وننظر إلى الحياة بعين أكثر وعيًا، قد تجبرنا على شيء من العزلة، لكنها ليست عزلة عن الحياة، بل عزلة عن ضجيج ما كان يشتتنا، عزلة تمنحنا

فرصـة لمراجعـة أنفسـنا لنقـف أمامهـا دون أقنعـة، ونتسـاءل: مـا الذي يسـتحق أن نتمسـك بـه؟ ومـا الـذي يجـب أن نتركـه وراءنـا دون نـدم؟

ليـس كل سـقوط خسـارة، فأحيانًـا نحـن لا نسـقط بـل نُجـبر عـلى الركـوع كـي نـرى الأرض التـي نقـف عليهـا، ونعيـد اختيـار خطواتنـا بثبـات، كل مـا يُكـسر داخلـك، يـترك مجـالًا للنـور أن يدخـل، فليسـت كل الأوجـاع كسـورًا تُفزعنـا، أو ربـمّا تقتلعنـا مـن جذورنـا، بـل بعضهـا - عـلى شـدته - جـاء ليرمّـم مـا لم نكـن نـراه مكسـورًا ، فـالله لا يبتـلي عبـده ليعذّبـه، بـل ليطهّـره، ويُعيـده إلى ذاتـه أقـوى ممـا كان.

يوسـف عليه السلام، أُخـذ مـن حضـن أبيـه وأُلقـي في الجـبّ، ثـم سُـجن ظلـمًا، لم تكـن تلـك النكبـات كـسرًا لمسـيرته، بـل كانـت نحتًـا إلهيًّـا دقيقًـا، أعـدّه ليكـون عـلى خزائـن الأرض، وفي حياتنـا، كـم مـن تجربـة مؤلمـة كشـفت لنـا حقيقـة مـن حولنـا؟

كم من ودٍّ انكسر فأخرجنا من التعلّق البشري إلى الاعتماد على الله؟

كم من خسارة فتحت لنا بابًا ما كنا لنطرقه ونحن في غمرة الرفاه؟

فأوجاعـك، إن أحسـنت تأملهـا، قـد تكـون صوتًـا خفيًّـا مـن الله، يخـبرك أن هنـاك مـا يجـب إصلاحـه، مـا يجـب تركـه، أو مـا آن أوان تغيـيره.

فما الألم إن لم يكن الحد الفاصل بين ما كنا عليه، وما يجب أن نصبح عليه؟

وهـل يمكننـا أن نـدرك قيمتنـا الحقيقيـة دون أن نمـر بلحظـات تُجبرنـا عـلى إعـادة النظـر في أنفسـنا؟

الفضل لأهله... لا يسقط بالتقادم

لم تكـن السـيدة «خديجـة» مجـرد زوجـة للنبـي ﷺ، بـل كانـت سـنده الأول، وركنـه الشـديد، وعونـه الـذي لا يخونـه، ربـع قـرن مـن العطـاء بـلا مـنٍّ، والوفـاء بـلا حـد، والاحتـواء بـلا مقابـل، كانـت نبراسًـا يـضيء ظلمـة المحـن، ودفئًـا يبـدد بـرد الشـدائد، كانـت مـلاذه حـين أثقلتـه الأعبـاء، وطمأنينتـه حـين زلزلتـه الأحـداث، تـؤازره في أحـرج اللحظـات، تشـد مـن أزره، تعينـه عـلى تبليـغ رسـالته، وتواسـيه حـين يشـتد عليـه الأذى، لم تكـن دعمـه بالـكلام فحسـب، بـل حملـت أعبـاء الدعـوة عـلى عاتقهـا، شـاركته رحلـة المشـقة مـن بدايتهـا، قاسـت العـداء والقطيعـة، وتحملـت فـراق الأحبـة واضطهـاد القريـب والبعيـد، ضحّـت بمالهـا وتجارتهـا، فذابـت ثروتهـا في سـبيل الله، لكنهـا لم تنـدم يومًـا، فقـد كان حبهـا للنبـي ﷺ وإيمانهـا برسـالته أكـبر مـن أي خسـارة دنيويـة.

يـوم أن عـاد مـن الغـار يرتجـف مما رأى، كانـت أول مـن احتضـن خوفـه بكلماتهـا الخالـدة فقالـت لـه: «كلا، أبـشر، فـوالله لا يخزيـك الله أبـدا؛ إنـك لتصل الرحـم، وتصـدق الحديث، وتحمـل الـكَلَّ ، وتَقْـرِي الضيـف، وتُعِين عـلى نوائـب الحـق»،[1] فكانـت أول مـن صدّقـه حـين كذّبـه النـاس، وأول مـن آمـن بـه حـين كفـر بـه القريـب والبعيـد ، كانـت نموذجًـا نـادرًا للمـرأة وتجسـيدًا واقعيًـا لمعنـى السـند، لم تكـن مجـرد زوجـة، بـل كانـت شريكـة في أعظـم رسـالة، وأمًّـا لهـذه الأمـة قبـل أن تصبـح أُمًّـا لأولادهـا، وبقيـت سـيرتها درسًـا خالـدًا في الحـب الـذي لا يمـوت، والوفـاء الـذي لا يُمحـى.

رحلـت خديجـة، لكنّهـا لم ترحـل مـن قلـب النبـي ﷺ، ظلـت ذكراهـا حـاضرة، عطرهـا يعبـق في بيتـه، واسـمها يجـري عـلى لسـانه، ومـا كان يذكرهـا إلا بحـب ووفـاء، حتـى أثـارت غـيرَةَ عائشـة ذات يـوم، حينـما دخلـت عليـه هالـة بنـت خويلـد أخـت خديجـة، فارتعـش قلبـه لسـماع صوتهـا، فقـد كان شـبيهًا بصـوت خديجـة، فقـال: «اللهـم هالـة» فغـارت عائشـة وقالـت: مـا تذكـر مـن عجـوز مـن عجائـز قريـش، حمـراء الشـدقين [2]، قـد هلكـت في الدهـر، قـد أبدلـك الله خـيرًا منهـا، فغضـب النبـي ﷺ حتـى تمعّـر وجهـه،

---

١ البخـاري (٦٩٨٢) ومسـلم (١٦٠)، تحمـل الـكَل أي تسـاعد الضعيـف واليتيـم الـذي لا عائـل لـه ، وتقـري الضيـف أي تكرمـه وتهـيء لـه طعامـه ، وتعـين عـلى نوائـب الحـق أي تعـين النـاس في المصائـب الـتي تـنزل بهـم
٢ معناه عجوز كبيرة قد سقطت أسنانها من الكبر - تمعر وجهه أي تغير.

وهـو الـذي لم يكـن يغضـب إلا لحـق، ثـم قـال بحـزم المحـب الـوفي: «مـا أبدلنـي الله عـز وجـل خـيرًا منهـا، قـد آمنـت بي إذ كفـر بي النـاس، وصدقتنـي إذ كذبنـي النـاس، وواسـتني بمالهـا إذ حرمنـي النـاس، ورزقنـي الله عـز وجـل ولدهـا إذ حرمنـي أولاد النسـاء» (1) فأدركـت عائشـة مكانـة خديجـة في قلـب النبـي ﷺ، وقالـت : «والـذي بعثـك بالحـق لا أذكرهـا إلا بخـير».

النفـوس الكريمـة تعـرف معنـى العطـاء، لكنهـا قبـل ذلـك تـدرك قيمـة العرفـان، فـلا تتجاهـل الأيـادي التـي مُـدت لهـا في وقـت حاجـة، ولا تنكـر المعـروف الـذي أسـند ظهرهـا حـين مالـت بهـا الأيـام، وصاحـب الفضـل لا يجحـد أهـل الفضـل، لأن الجحـود لا يليـق إلا بمـن ضاقـت نفسـه عـن تقديـر الآخريـن، النفـوس العظيمـة تُقـدّر العطـاء ولا تجحـد الخـير، تـدرك أن الطريـق لم يكـن يومًـا مفروشًـا بالـورود، وأنهـا لم تصـل وحدهـا، بـل كانـت هنـاك أيـادٍ امتـدت، وكلـمات سـاندت، وقلـوب أحسـنت الظـن، وأشـخاص فتحـوا أبوابًـا حـين ظـن أنهـا مغلقـة، صاحـب الفضـل لا يتنكـر لمـن أعانـوه، ولا ينسـب نجاحـه لنفسـه وحدهـا، بـل يقـف كلـما حقـق إنجـازًا، وينظـر خلفـه بامتنـان لأولئـك الذيـن كانـوا جـزءًا مـن رحلتـه، صاحـب الفضـل ينسـب الفضـل لأهلـه مهـما مـرت السـنون فهـو حـق لا يسـقط بتقـادم الزمـان ولا يُنسـى مـع الزمـن، فالمعـروف حـقٌ لا تبطلـه الأيـام، ولا تمحـوه تقلبـات الدهـر.

لا أحـد يصنـع مجده وحـده، ولا أحد يتجاوز الصعـاب دون معين، فمن يُنكـر فضل الآخرين اليـوم قد يجد نفسـه غـدًا في موضع الحاجـة لمن أنكرهم، والحياة ليسـت سـباقًا فرديًـا، بل هي شـبكة مـن العلاقات المتداخلـة، يحتاج كل منا للآخـر في وقت ما، وصاحب الفضل لا ينسـى مـن سـانده، ولا يخـذل مـن وقـف معـه، ولا يغلـق البـاب أمـام مـن فتح لـه بابًـا يومًـا ما، لا تُنسـيه الأيـام مـن سـاندوه، ولا تغريـه النجاحـات بالتعـالي عـلى مـن كانـوا معـه في خطواتـه الأولى، الحيـاة تـدور، ومـا نحـن فيـه اليوم قـد يتبدل غـدًا، فقد يكـون المرء في موضـع المُعطي ثـم يصبـح في موضـع المُحتـاج، وحينهـا لن يجد حولـه إلا من أحسـن إليهم، والأيـام لا تحترم مـن ينكـر المعـروف، ولا تمنـح دوام العز لمـن يتنكر لأهـل العز.

---

١ البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧) ، وأحمد (٢٤٨٦٤) واللفظ له

سجناء الأماني

التمني هـو ذلـك الوهـم اللطيـف الـذي يزيـن لنـا الواقـع كـما نشـتهي، لكنـه في حقيقتـه مجـرد سراب يسـتهلك أعمارنـا دون أن نقـترب ممـا نريـد، هـو أشـبه بفـخ عقـلي يجعـل الإنسـان أسـير الأحـلام دون أن يحـرك سـاكنًا لتحقيقهـا، فكـم مـن شـخصٍ تمنـى أن يصبح كاتبًـا مرموقًـا لكنـه لم يكتـب حرفًـا! وآخـر تمنـى الثـراء لكنـه لم يجـرؤ عـلى اتخـاذ خطـوة جـادة في مـشروع أو اسـتثمار! وكـم مـن طالـبٍ تمنـى التفـوق لكنـه لم يفتـح كتابًـا! وكـم مـن شـخصٍ حلـم بالسـفر واكتشـاف العـالم لكنـه لم يتخـذ يومًـا خطـوة نحـو التخطيـط أو الادخـار! وكـم مـن آخـر تمنـى أن يكـون لديـه جسـد ريـاضي لكنـه لم يـمارس الرياضـة ولـو لدقائـق! وكـم مـن شـخصٍ تمنـى إصـلاح علاقتـه بأحدهـم، لكنـه انتظـر أن تـأتي المبـادرة مـن الطـرف الآخـر حتـى فـات الأوان!

ليـس عـلى الأمنيـات رقيـب، يشـجعك كل مـن يحيـط بـك عـلى الحلـم دون حسـاب، عـلى تمنـي كل شيء بـلا حـدود أو ضوابـط، فنصنـع لأنفسـنا عالمًـا في الخيـال لا مسـتحيل فيـه، لا ضوابـط تحكمـه، لكـن الحقيقـة تحمـل لنـا شـيئًا آخـر أكثـر واقعيـة، فنجـد أنفسـنا في حـيرة بـين حيـاة في الواقـع وحيـاة في الخيـال!

ولعـل أكـبر فـخ يقـع فيـه الإنسـان في عـصر الإغـراق التكنولوجـي هـو الغـرق في التمنـي بـلا حـدود، فنرسـم في أذهاننـا خطـطٌ لا يدعمهـا منطـق ولا تؤيدهـا معطيـات الواقـع، ورغـم ذلـك، نتمسـك بهـا وكأنهـا حقائـق قابلـة للتحقـق، ممـا يجعلنـا نعيـش في عزلـة عـن الحقيقـة ونبتعـد عـن مسـار الحيـاة الفعـلي، وهـذا الإسراف في التمنـي يمنـح العاطفـة سـيطرة مفرطـة عـلى العقـل، فيطغـى الوهـم عـلى الحقيقـة، ويصبـح التمسـك بالأحـلام غـير الواقعيـة وسـيلة للهـروب بـدلًا مـن أن يكـون دافعًـا للتحقيـق فيكـرس طغيـان العاطفـة عـلى العقـل، والأوهـام عـلى الحقائـق، وتضيـع الأعـمار بـين «لـو» و «ليـت»، متناسـين أن الأمنيـات وحدهـا لا تغـير الواقـع، وأن الأمـل بـلا عمـل ليـس سـوى سراب، ففـي التمنـي المجـرد، تتحـول المشـاعر إلى سـيد الموقـف، متجـاوزة كل برهـان منطقـي، نجـد أنفسـنا شـاردين في عـوالم مـن الاحتـمالات التـي لا أسـاس لهـا، نبنـي آمـالًا عـلى أرض رخـوة، ونشـيد قصـورًا فـوق جبـال مـن الرمـال.

والمشـكلة في التفكـير بالتمنـي أنـه يمنحنـا شـعورًا زائفًـا بالراحـة، فنقنـع أنفسـنا بـأن الأمـور ستتحسـن مـن تلقـاء نفسـها، وأن الفـرص سـتأتي إلينـا دون سـعي، وأن العقبـات سـتزول بمجـرد رغبتنـا في ذلـك، لكنـه في الحقيقـة أشـبه بالتخديـر، يسـلبنا الدافـع للتحـرك، ويتركنـا أسرى لدوامـة الانتظـار، فكـم مـن شـخص بقـي في وظيفـة لا تليـق بـه لأنـه يتمنـى أن تتحسـن بيئتهـا يومًـا مـا، وكـم مـن علاقـة اسـتمرت رغـم أنهـا تـؤذي صاحبهـا فقـط لأنـه يتمنـى أن يتغـير الطـرف الآخـر؟ التفكـير بالتمنـي ليـس إلا سـجنًا نقيّـد بـه أنفسـنا، نصنـع قضبانـه بأيدينـا، ونقنـع أنفسـنا أننـا سـنخرج منـه يومًـا، بينـما الحقيقـة أن المفتـاح كان دائـمًا في أيدينـا لكننـا لم نجـرؤ عـلى اسـتخدامه .

والحيـاة لا تعطـي مـن يتمنـى بـلا سـعي ، ولا مـن يسـعى بـلا غايـة ينشـدها، الرغبـة وحدهـا لا تكفـي، والأمـاني لا تبنـي مجـدًا، فالأمـاني التـي لا تدفعهـا بخطـوة تبقـى سرابًـا، والنصيـب الـذي لم تبـادر إليـه لـن يسـقط في راحتيـك مـن تلقـاء نفسـه، والـرزق الـذي لم تخـطُ نحـوه سـيذهب لغـيرك ممـن امتلـك الجـرأة للتحـرك، حتـى وإن كان أمامـك أقـرب ممـا كان أمامـه، فإمـا أن تـترك الأمـاني المعلقـة وتتحـرك نحوهـا، أو سـتبقى متفرجًـا بينـما يقتنصهـا غـيرك، إن لم يكـن للحلـم جهـد يُترجـم، وإن لم تُدعـم الأمنيـات بخطـوات عمليـة، فسـتبقى مجـرد فقاعـات تتلاشـى عنـد أول اصطـدام بالواقـع، فالحيـاة لا تعـترف بالمتمنـين، بـل بالمجتهديـن، ومـن أراد أن يـرى أحلامـه تتحقـق، فعليـه أن ينهـض مـن دائـرة الأوهـام إلى سـاحة العمـل.

سوّق نفسك بذكاء، وصدق

خـرج يوسـف عليه السلام مـن السـجن بعـد سـنين مـن الظلـم والصـبر، لكنـه لم يخـرج ضعيفًـا أو مهـزوزًا، بـل خـرج شـامخًا واثقًـا مـن قيمتـه، وعندمـا وقـف بـين يـدي ملـك مـصر، لم يكـن حديثـه اسـتعراضًا للمعانـاة التـي مـرَّ بهـا، ولم يكـن تـوددًا واسـتعطافًا، بـل كان حديثًـا مختـصرًا واضحًـا يحمـل يقينـه بقدراتـه، عـبَّر للملـك عـن رؤيـاه بدقـة، ثـم بـكل ثقـة قـال:﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ لم يطلـب المنصـب طمعًـا، بـل لأنـه أدرك أن لديـه الكفـاءة لإدارتـه بأمانـة وحكمـة، وأنـه قـادر عـلى إنقـاذ مـصر مـن مجاعـة قادمـة.

هـذا المشـهد يعلمنـا أن تقديـم أنفسـنا لا يحتـاج إلى خطـب طويلـة أو اسـتعراض مبالـغ فيـه، بـل يحتـاج إلى وضـوح وصـدق، ليـس المهـم أن تتحـدث كثـيرًا، بـل أن يكـون لكلامـك قيمـة، أن يعكـس حقيقتـك، وأن يكـون متصـلًا بالغـرض الـذي تتحـدث مـن أجلـه، فكثـيرون يضيعـون فرصهـم بـين تـردد يمنعهـم مـن إبـراز مـا يميزهـم، وبـين مبالغـة تجعـل حديثهـم فارغًـا مـن المضمـون، إظهـار المـرء مميزاتـه أمـر مهـم، أن يعـرف قـدر نفسـه فـلا يقبـل بالقشـور مـن الأشـياء، لكـن خيطًـا رفيعًـا يفصـل بـين التحـدّث عـن النفـس بطريقـة إيجابيـة تُظهـر مـا تمتلكـه مـن مميـزات، وبـين التباهـي بقدراتـك واسـتعراض مهاراتـك بطريقـة تثـير سـخط الآخريـن .

إن إدراك الإنسـان لمـا يميـزه وقدرتـه عـلى إبـراز ذلـك هـو مفتـاح أسـاسي للنجـاح، لكـن الأهـم مـن مجـرد الإدراك هـو فـن تقديـم الـذات، فالمهـارات والقـدرات لا تتحـدث عـن نفسـها، بـل تحتـاج إلى صاحبهـا ليعرضهـا بوضـوح وثقـة، إن لم تكـن أنـت أول المؤمنـين بقدراتـك، فكيـف تتوقـع مـن الآخريـن أن يمنحـوك الفرصـة؟ وإن لم تكـن لديـك الجـرأة للتعبـير عـن إمكاناتـك، فمـن سـيتولى هـذه المهمـة نيابـة عنـك؟

الثقـة ليسـت مجـرد شـعور داخـلي، بـل هـي انعـكاس لواقـع ملمـوس، أن تؤمـن بنفسـك لا يعنـي أن تمـلأ الدنيـا ضجيجًـا بمزايـا غـير حقيقيـة، ولا أن تبنـي نجاحـك عـلى أنقـاض الآخريـن بانتقاصهـم أو المبالغـة في أخطائهـم، فالتسـويق لنفسـك لا يعنـي خـداع النـاس، لأن الأيـام كفيلـة بفضـح المدعـين وإظهـار الحقائـق التـي يحـاول البعـض طمسـها

بالكلـمات، أظهـر مـا يميـزك، تحـدث عـن قدراتـك بثقـة ووضـوح، لكـن اجعـل ذلـك قائـمًا عـلى أسـس متينـة مـن العمـل والاجتهـاد، لا حاجـة إلى مقارنـة نفسـك بالآخريـن أو التقليـل منهـم، فمـن لا يقتنـع بكفاءتـك كـما هـي، لـن يقتنـع بهـا مهـما حاولـت تشـويه غـيرك، والأهـم مـن ذلـك، كيـف يمكنـك أن تفهـم ذاتـك وتحقـق طموحاتـك إذا كنـت منشـغلًا بمراقبـة الآخريـن أكثـر مـن تركيـزك عـلى تطويـر نفسـك؟

الحيـاة مليئـة بالمواقـف التـي تحتـاج منـك أن تتحـدث عـن نفسـك، عـن إمكاناتـك، عـن أحلامـك، لكـن السـؤال: كيـف تفعـل ذلـك؟

هل تتحدث بثقة ووعي، أم بتردد يشكك الآخرين في قدراتك؟

هل تزين كلامك بالمبالغات التي قد تُفقده المصداقية، أم تعرض حقيقتك كما هي؟

النجـاح لا يعتمـد عـلى كثـرة الـكلام، بـل عـلى صدقـه، ومـدى ارتباطـه بالهـدف الـذي مـن أجلـه تتحـدث، فكـن واضحًـا، صادقًـا، ومؤمنًـا بنفسـك، فـرب كلمـة واحـدة تُقـال بثقـة قـد تفتـح لـك أبوابًـا لم تكـن تحلـم بهـا، فالنـاس لا يُشـدّون إلى ضجيـج العبـارات، بـل إلى صـدق النـبرة، وإلى ذاك البريـق الـذي يلمـع في العـين حـين تتحـدث مـن قلبـك لا مـن حفظـك.

والنجـاح لا يحتـاج إلى اسـتعراض لغـوي ولا إلى بهرجـة خطابيـة، بـل إلى كلمـة تعـرف أيـن تضعهـا، ومتـى تقولهـا، ولمـن توجههـا، والكلمـة التـي نقصدهـا ليسـت وسـيلة للإقنـاع فحسـب، بـل هـي مـرآة تعكـس وضـوح رؤيتـك، ونقـاء نيتـك، وثبـات قدمـك عـلى طريقـك، فمـن كان حديثـه نابعًـا مـن إيـمان عميـق بهدفـه، لا يُضطـر للـصراخ ليُسـمَع، فالأثـر لا يُقـاس بعلـو الصـوت، بـل بعمـق الصـدق.

الحكمة في تمام التوقيت

أراد « تُبَّع» ملك اليمن أن يجهّز جيشًا وأن يؤمّر عليه رجلًا، فجيء له بأناس كلٌ يدعي أنه أهلٌ للقيادة فقال الأول : أنا جريء عضبٌ لساني [1]، أعرض عن الأمر وإن ساءني، لا أُنتقص في قومي، ولا يظفر بي خصمي.

قال له الملك : انصرف ليس لهذا دعوتك؛

ثم دعا آخر فقال: انعت لي نفسك.

فقال الرجل: أعطي المائة، وأحمل الدية، وأسير بالسوية، وأسبق إلى الغاية.

قال الملك: انصرف ليس لهذا دعوتك؛

ثم دعا آخر فقال: انعت لي نفسك.

قال: أصطنع الجميل، وأنهض بالثقيل، وأعود وأجود، وأكرم القعيد، وأشبع ضيفي وإن جاع عيالي.

قال الملك: كدت ولم تفعل انصرف؛

ثم دعا بآخر فقال: انعت لي نفسك .

قال: أضرب عند النزال، وأُغشى الأبطال، وألقح الحرب بعد الحيال[2]، إذا أدبروا طعنت[3]، وإذا أقبلوا ضربت[4]، أترك قرني سطيحًا[5]، وكبش القوم نطيحا[6].

فقال الملك: سُئلت فبيّنت، ونطقت فأحسنت، اذهب فأنت أنت، وولّاه قيادة الجيش. [7]

١ عَضُبَ اللِّسانُ أي صار حادّاً
٢ لقِحت الحربُ أي هاجت بعد سكون.
٣ أي بالرمح
٤ أي بالسيف
٥ أي الفارس الند أتركه مقتولا
٦ وكبش القوم نطيحا أي أترك أقواهم مهزوما
٧ التذكرة الحمدونية (٢ / ٤٠٧)

كلهـم تحـدث عـن مناقبـه في غـير موضعهـا، إنـما أراد الملـك قائـدًا للجيـش لا شـيخًا لقبيلة يكـرم الضيـف ويتحمـل الديـات، لـذا لمـا تحـدَّث الأخـير عـن بأسـه في الحـرب وشـجاعته في النـزال أثنـى عليـه وولَّاه.

وجـود الإنسـان في موقـف معـين يلزمـه بتحديـد مسـار كلامـه، فليسـت كل الكلـمات تُقال في كل وقـت، ولا كل حديـث يصلـح لـكل مقـام، فكـما أن لـكل موقـف هيبتـه، فـإن لـكل مقـام لغتـه التـي تناسـبه، ومـن يجهـل هـذه القاعـدة قـد يجـد نفسـه في مواقـف محرجـة، أو قـد يفقـد تأثـيره عندمـا يتحـدث بغـير مـا يتطلبـه الظـرف، فالـكلام في المجالـس الرسـمية يختلـف عـن الأحاديـث الوديـة، ومـا يُقـال في لحظـة فـرح ليـس هـو مـا يليـق بلحظـات الحـزن، كـما أن طريقـة الحـوار مـع الأصدقـاء تختلـف عـن أسـلوب الحديـث مـع كبـار السـن أو أصحـاب القـرار.

وكـما أن الكلمـة المناسـبة في وقتهـا تفتـح الأبـواب المغلقـة، فـإن الكلمـة الخاطئـة في غـير موضعهـا قـد تهـدم جسـورًا بُنيـت عـلى مـدى سـنوات، والعاقل مـن يملـك بصـيرة التمييز بـين مـا يُقـال ومتـى يُقـال، وبـين مـا يُفعـل وكيـف يُفعـل، فالرشـد ليـس في الحديـث الكثـير، بـل في الحديـث المـدروس، وليـس في التفاعـل العشـوائي، بـل في التـصرف المتـزن الـذي يراعـي المقـام والزمـان والأشـخاص، فلـكل كلمـة سـياقها، ولـكل فعـل دوافعـه، والتـصرف بحكمـة يقتـضي مراعـاة الظـروف والمتغـيرات، فليـس مـن الفطنـة أن يمـزح المـرء حيـث يقتـضي الموقـف جديـة، أو أن يتهـاون في موضـع يسـتدعي الانتبـاه، أو أن يتعامـل بخفـة في موقـف يتطلـب الثقـل والاتـزان، فلـكل موقـف أسـلوبه المناسـب، ولـكل مقـام تـصرف يليـق بـه، ومـن أحسـن تقديـر ذلـك، كان أكثـر حكمـة وتأثـيرًا.

والحيـاة مليئـة بأمثلـة تُبرهـن عـلى ذلـك؛ فكـم مـن شـخص فقـد احـترام النـاس بسـبب كلمـة غـير محسـوبة، وكـم مـن آخـر كسـب القلـوب لأنـه أحسـن اختيـار عباراتـه! وربـما نـرى في واقعنـا مـن يخلـط بـين الجـرأة والفظاظـة، وبـين الصراحـة والوقاحـة، فـلا يـدرك أن الكلمـة وإن كانـت حقًـا، فإنهـا تحتـاج إلى طريقـة مناسـبة لقولهـا، وإلا فقـدت أثرهـا وتحولـت إلى سـبب للنفـور والعـداوة.

النية لا تكفي إذا تعطّلت بها الحركة

قـضى النبـي ﷺ بـيْن رجُلَـين، فقـال المقـضيُّ عليـه لَّمـا أدبـر: حسـبي الله ونعـم الوكيـل، فقـال النبـي ﷺ : « إنَّ الله يلـوم عـلى العَجـزِ، ولكـن عليـك بالكَيـسِ، فـإذا غلَبَـك أمـر، فقـل: حسـبي الله ونعـم الوكيـل» [1]

في هـذا الحديـث، اختصـم رجـلان في مسـألة، فحكـم النبـي ﷺ لأحدهمـا بنـاءً عـلى البيّنـة التـي أقامهـا، فانـصرف الطـرف الآخـر غاضبًـا وقـال: «حسـبي الله ونعـم الوكيـل». ربـما كان صاحـب حـق، لكنـه لم يحسـن إثباتـه، وكأنـه يشـير إلى أن المدعـي أخـذ مـا ليـس لـه بحـق، عندهـا قـال النبـي ﷺ: «إن الله يلـوم عـلى العجـز.» أي: أن الله يـذم التهـاون والتقصـير في السـعي وراء الحقـوق، فـلا يكـن المـرء ضعيفًـا ثـم يكتفـي بالاعتـماد عـلى الدعـاء، بـل عليـه أن يكـون فطِنًـا يقظًـا، متخـذًا لـكل السـبل المشروعـة في إثبـات حقـه، «ولكـن عليـك بالكيـس.» أي: بالأخـذ بالأسـباب والتـصرف بحكمـة وحـزم، إن كان لـك حـق، فاحفظـه بالإثبـات، واجمـع الشـهود، وأقـم البينـة حتـى إذا وقفـت أمـام القضـاء كنـت قـادرًا عـلى اسـترداده، خـذ بـكل مـا تسـتطيع مـن وسـائل ثـم إن لم تسـتطع الوصـول إليـه رغـم اجتهـادك، فحينهـا قـل: «حسـبي الله ونعـم الوكيـل» .

وهـذا الحديـث يلامـس جوهـر التجربـة الإنسـانية، ففـي دروب الحيـاة حيـث تتكالـب المحـن وتتبـدّل المواقـف، تتنـوّع النفـوس في اسـتجاباتها: مَـن يقـف في وجـه العاصفـة، ومَـن تنثنيـه أولى الريـاح، ومَـن يُديـر ظهـره هاربًـا، ومَـن يرضـخ مستسـلِمًا كأن لا حيلـة لـه، ومَـن يتقمّـص دور الـلا مبـالي، هربًـا مِـن ثقـل المسـؤولية، ومَـن يُهـزَم في داخلـه قبـل أن تطـأ قدمـه سـاحة المواجهـة، بـل وربـما مَـن يضيـق صـدره بالحيـاة حتـى يـرى الخـلاص في الرحيـل عنهـا.

نعـم، الهمـم تتفـاوت، لكـن هـذا التفـاوت لا يـبرّر التقهقـر، ولا يُجيـز التخـاذل، فالعجـز ليـس أن تواجهـك الأزمـات، بـل أن تُصغّـر ذاتـك أمامهـا، أن تُقنـع قلبـك بأنـك خُلقـت لزاويـةٍ باهتـةٍ في الحيـاة، لا تتجـاوز حـدود العيـش دون أثـر، العجـز أن يُسـلب حقـك وأنـت تُـبرّر للصـوص، وتُشـيّد للظالمـين أعـذارًا مـن خوفـك، العجـز أن تخمد فيـك شرارة

---

١ سنن أبي داوود (٣٦٢٧)

الغضـب أمـام جـورٍ صـارخ، فتغـضّ الطـرف، وتمـضي وكأنـك مـا رأيـت ولا سـمعت، العجـز أن تُـردّد «حسـبي الله ونعـم الوكيـل» وأنـت قابـض عـلى يديـك عـن العمـل، كأنـما جعلـت الدعـاء مهربًـا مـن الفعـل لا رفيقًـا لـه، أن تمـضي بـك الأيـام بـلا معنـى، بـلا أثـرٍ يُذكـر، بـلا إنجـازٍ يشـهد لـك، ثـم تُعلّـق فشـلك عـلى شـماعة الأقـدار، وكأنـك مـا كنـت طرفًـا في مـسرح الحيـاة، بـل متفرجًـا يـبرّر العجـز، ويتقـن الرثـاء لنفسـه، فـأول النـصر في الداخـل، وأول الهزيمـة أيضًـا.

ليـس العجـز في أن تُضيِّـع حقوقـك فحسـب، بـل في ألا تـدرك قيمتهـا مـن الأسـاس، أن تعتـاد النقـص فـلا تفكـر في تغيـير حالتـك، أن تـرى الحلـم بعيـدًا فـلا تسـعى إليـه، أن تقتنـع بالقليـل رغـم أنـك قـادر عـلى الأكثـر، العجـز أن تُطفـئ في نفسـك شرارة الشـغف، أن تستسـلم للظـروف بـدلًا مـن أن تغـير فيهـا، أن تـبرر تقاعسـك بالحظـوظ والقـدر، متناسـيًا أن الله وهبـك القـدرة عـلى السـعي، وجعـل النتائـج بيـده وحـده، لكنـه سيسـألك عـن الطريـق الـذي سـلكته، عـن المحـاولات التـي بذلتهـا، عـن الفـرص التـي تركتهـا تفلـت مـن بـين يديـك، ثـم جلسـت تتسـاءل: لمـاذا لم أصـل؟

العجـز لا يقتـصر فقـط عـلى تـرك السـعي وراء الحـق، بـل يتعـداه إلى العيـش بـلا رؤيـة، إلى أن تفقـد بوصلتـك في الحيـاة، فتصبـح ريشـة في مهـب الريـح، تتحـرك حيثـما دُفعـت لا حيثـما تريـد، العجـز ليـس في ضعـف الجسـد ولا في قلـة الحيلـة، بـل في أن تسـير بـلا وجهـة، أن تسـتيقظ كل صبـاح بـلا دافـع، أن تتكـئ عـلى الأيـام وكأنـك غريـب عنهـا، تمـرّ خلالهـا مـرور الصامتـين الذيـن لا رأي لهـم ولا موقـف، فالحيـاة لا تخلّـد الراكضـين وراء رغـد العيـش فحسـب، بـل ترفـع شـأن أولئـك الذيـن وقفـوا بثبـات في وجـه الفـراغ، وصنعـوا مـن أعمارهـم قيمـة، ومـن معاركهـم معنـى، ومـن قلوبهـم سـلاحًا لا يصـدأ.

ومـا الحيـاة إن لم تكـن معركـة؟ ومـا الإنسـان إن لم يكـن مقاتـلًا في سـبيل مـا يؤمـن به؟ومـا الفكـرة إن لم تُختـبر في ميـدان الواقـع، ويُدافـع عنهـا تحـت وهـج الشـك والمعارضـة؟

التمسك بالأشياء الخادعة خدعة

يقـول الرافعـي في كتابـه وحـي القلـم: « وأَنْزَلَتْـهُ مـن درجـة أنـه كلُّ النَّـاسِ إلى منزلـة أنـه ككل النـاس».

وهـو معنـى يلخـص تحـولًا نفسـيًا يحـدث حـين تنكشـف حقيقـة الأشـخاص في أعيننـا، فبعـد أن كنـا نراهـم شـيئًا اسـتثنائيًا، نكتشـف أنهـم في نهايـة المطـاف مجـرد بـشر، لا يزيـدون عـن غيرهـم ولا يمتلكـون تلـك الهالـة التـي كنـا نحيطهـم بهـا، فكأنـما كان في عينيـه شـخص يختـزل العـالم كلـه، ثـم إذا بالحقيقـة تجـرده مـن تلـك المكانـة، فيغـدو مجـرد فـرد آخـر بـين البـشر، لا يميـزه شيء عمـن سـواه.

وكـم مـن أشـخاص رفعناهـم إلى مراتـب عاليـة في قلوبنـا، وظننـا أن الدنيـا لا تحتـوي مثلهـم، فـإذا بالزمـن والتجربـة يكشـفان لنـا أنهـم ليسـوا إلا انعكاسًـا لمـا أردنـا رؤيتـه، وليسـوا كـما تصورناهـم في البدايـة، وهـذا التحـول ليـس هينًـا، فكـم هـو مـؤلم أن تكتشـف أن مـا كنـت تـراه اسـتثناء لم يكـن إلا وهمًـا صنعتـه عاطفتـك!

كذلـك في العلاقـات، إن لم تكـن ثمارهـا ناضجـة تـؤتي دفء القـرب، فـلا مفـر مـن أن تجنـي مرارتهـا، فالتعلـق أحيانًـا ليـس دليـل قـوة، بـل علامـة عـلى أننـا لم نواجـه الحقيقـة بعـد، وإن كانـت التفاصيـل تسـتنزفك والذكريـات تحـاصرك مـن كل صـوب، فـأي راحـة ترجُـو؟ وكيـف لنفسـك أن تهـدأ وهـي مثقلـة بحمـل المـاضي؟ هـوِّن عليـك، لا تجعـل مـرارة التذكـر تقيـدك، بـل ألـقِ بهـا في زوايـا النسـيان، نعـم، النسـيان شـاق، لكنـه أهـون مـن التعلـق بوهـم، فالتمسـك بالأشـياء الخادعـة أكثـر إنهـاكًا مـن تجاوزهـا، انقـل رصيـد الذكريـات إلى خانـة المهمـلات، فـما هـي إلا صـور عابـرة تحتفـظ بهـا خلايـاك العصبيـة، والمـخ وحـده مـن يقـرر أيهـا يسـتحق البقـاء وأيهـا يجـب أن يُطـوى في طيـات النسـيان، وإن أدركـت أنـك أنـت المتحكـم فيـما تفتحـه وتغلقـه مـن نوافـذ المـاضي، سيسـهل عليـك أن تضـع الذكريـات التـي تُرهقـك خلـف الأبـواب المغلقـة، وستتلاشـى شـيئًا فشـيئًا، حتـى يغـدو ذاك الـذي كان «كل النـاس» مجـرد شـخص آخـر في زحـام العابريـن، «ككل الناس» وغـدا ذاك الـذي كان كل البـشر كلـل البـشر، مـرّ ككل العابريـن، وانتهـى كـما تنتهـي كل الفصـول التـي تجاوزناهـا بصمـت.

كثـيرًا مـا يُغـري الإنسـان مظهـر الأمـور، فيظنهـا حقيقـة تسـتحق التمسـك بهـا، لكنـه حـين يُمعـن النظـر يجـد أنهـا ليسـت سـوى غـلاف جميـل يخفـي خـواءً مـن الداخـل، فالوعـي لا يكـون فقـط في اكتشـاف زيـف بعـض الصـور، وإنـما في تقبـل أن البـشر بـشر، فيهـم العيـوب كـما فيهـم الفضائـل، فـلا أحـد «كل النـاس» ولا أحـد «لا شيء»؛ كلٌّ يحمـل جـزءًا مـن الضـوء وجـزءًا مـن الظـل، وعلينـا أن نتعلـم كيـف نـرى كليهـما دون أن نخـدع أنفسـنا، لنـرى الأشـخاص كـما هـم لا كـما نراهـم، فكـم مـن محبـة انهـارت حـين تكشّـفت العيـون عـن عيـوب لم تكـن تُـرى، لا لأن العيـوب طغـت، بـل لأن التوقعـات كانـت مُفرطـة، والصـورة المُتخيَّلـة أكـبر مـن الواقـع، فالعدالـة في الحـب ضرورة، لا قسـوة، ورؤيـة النـاس عـلى مـا هـم عليـه لا عـلى مـا نتمنـى، ليسـت خيانـة للمشـاعر، بـل وفـاء للنضـج، وعلامـة عـلى وعـي ينقـذ القلـوب مـن أن تُنهـك في وهـم التقديـس أو تنكـسر تحـت وطـأة الخيبـة.

وهـذه ليسـت دعـوة للقسـوة أو إنـكار فضـل مـن أحببنـا، لكنهـا دعـوة للنظـر إلى النـاس بميـزان العـدل، بـلا تضخيـم يرفعهـم فـوق البـشر، ولا إجحـاف يُنقـص مـن قدرهـم، أن نحـب لا يعنـي أن نغـض الطـرف عـن العيـوب، ولا أن نمنحهـم صـك الـبراءة في كل مـا يفعلـون، فالعلاقـات المتزنـة تقـوم عـلى رؤيـة متكاملـة، نـرى الجـمال والنقـص، نعـترف بالمواقـف الطيبـة دون أن نغفـل عـن لحظـات الخـذلان.

إن إنصـاف مـن نحـب لا يُضعـف الحـب، بـل يمنحـه جـذورًا أعمـق، تبقيـه قائـمًا حـين تهـزّه ريـاح الحقيقـة، وحـين ننصـف مـن نحـب، فإننـا نحبهـم لذواتهـم لا لصـورة مثاليـة رسـمناها في خيالنـا، نحبهـم رغـم النقـص، لا بسـببه، نراهـم كـما هـم لا كـما نريدهـم أن يكونـوا، فالمحبـة العاقلـة لا تعنـي التغـاضي عـن الخطـأ، بـل القـدرة عـلى مواجهتـه دون أن نخـسر الاحـترام، ولا تعنـي المثاليـة المفرطـة، بـل التـوازن بـين القلـب والعقـل، بـين العاطفـة والحقيقـة.

بين الثقة والحذر.... لا يُلدغ المؤمن مرتين

وقـع أبـو عـزة الجمحـي في الأسر يـوم بـدر، فلجـأ إلى اسـتدرار عطـف النبـي ﷺ، متذرعًـا بفقـره وكثـرة عيالـه، فقـال: لقـد عرفـت مـالي مـن مـال، وإني لـذو حاجـة وذو عيـال»، فـرقّ لـه قلـب النبـي ﷺ ، وأطلقـه بـلا فـداء، إحسـانًا ورحمـة، لكنـه لم يكـن أهـلًا لهـذا العفـو، فقابـل الإحسـان بالغـدر، ولم يكـن الامتنـان دافعـه، بـل كانـت الخديعـة منهجـه، فرجـع إلى مكـة وقـال خدعـت محمـدًا.

ولم يلبـث أن نقـض عهـده وعـاد لمحاربـة المسـلمين يـوم أحـد، متوهمًـا أن الغـدر قـد ينجـح مرتـين، فخـرج إلى حـرب المسـلمين وحـضر أُحـدا ثـم لمـا رجـع المشركـون عـن أُحـد خـرج رسـول الله ﷺ في آثارهـم مرهبًـا لهـم حتـى انتهـى إلى حمـراء الأسـد، فوقـع في الأسر مـن جديـد، وحـين جـيء بـه أمـام النبـي ﷺ، عـاد إلى حيلتـه القديمـة، محـاولًا اسـتدرار العفـو بـذات العبـارات التـي أنقذتـه مـن قبـل، لكـن النبـي ﷺ هـذه المـرة لم يكـن ليمنحـه فرصـة أخـرى، فقـد تعلّـم أن الإحسـان لا يُهـدر في غـير أهلـه، وأن العفـو عـن الغـادر قـد يكـون ضربًـا مـن السـذاجة، فنظـر إليـه بحـزم وقـال «لا والله لا تمسـحُ عارضيـك[1] بمكـة تقـول سـخرتُ بمحمـد مرتـين»[2] ثـم أطلـق القاعـدة الخالـدة في مثـل هـذا الموقـف فقـال النبـي ﷺ « لا يلـدغ المؤمـن مـن جحـر واحـد مرتـين»[3] فلـم يكـن مجـرد تحذيـر مـن الوقـوع في نفـس الخطـأ، بـل كان دعـوةً للتعلّـم مـن التجربـة، لا لمجـرد الحـذر بـل لاتخـاذ موقـف واعٍ لا يُكـرر الألم .

إن هـذا الموقـف ليـس مجـرد حادثـة تاريخيـة، بـل هـو مبـدأ إنسـاني عظيـم، يعلمنـا أن الإحسـان لا يعنـي الغفلـة، وأن السـماحة لا تعنـي السـذاجة، فالمؤمـن رحيـم لكنـه ليـس ضعيفًـا، يعفـو لكنـه لا يُخـدع مرتـين، والمكـر وإن ظـن صاحبـه أنـه ينجـح، فـإن الأيـام تكشـفه، والثقـة التـي تُكـسر مـرة قـد لا تُرمـم أبـدًا، والحيـاة مليئـة بأشـخاص يُتقنـون التلـون، يتوسـلون إلى القلـوب الطيبـة كـي تُعيـد فتـح أبوابهـا لهـم، متناسـين أنهـم هـم مـن أغلقوهـا أول مـرة.

١ العارضان هما جانبا الوجه حيث ينبت شعر اللحية، والمقصود هنا: لن تعود إلى مكة مسرورًا متباهيًا، تمسح لحيتك بيديك في زهو وفرح.

٢ البداية والنهاية لابن كثير ٥١/٤

٣ البخاري ٦١٣٣

ولكـن كـما قـال النبـي ﷺ، فالمؤمـن لا ينبغـي أن يلـدغ مـن نفـس الجحـر مرتـين، بـل عليـه أن يتعلـم، أن يمنـح الخـير لكـن بعقـل، أن يسـامح لكـن بحـذر، فليـس كل مـن ادّعـى النـدم يسـتحق فرصـة أخـرى، وليـس كل مـن بكـى أمامـك صادقًـا فيـما يقـول.

وقـد جـاء عـن عمـر بـن الخطـاب قولـه : « ضَـعْ أمـرَ أَخيـكَ عـلى أَحسـنِهِ حتـى يجيئَـكَ مـا يغلبُـكَ» [١] أي: أن الأصـل في التعامـل هـو إحسـان الظـن، لكـن إن ظهـر ما يسـتوجب الحـذر، فـإن العقـل يقتـضي ألا يُفـرط في الثقـة بمـن جـرب عليـه مكـرًا وخديعـة، فالتعلـم مـن التجـارب يعنـي أن نحتضـن المـاضي بـكل مـا فيـه، لا لنعيـش فيـه، بـل لنسـتلهم منـه العـبرة التـي تـضيء لنـا طريـق الغـد بـشيء مـن الوضـوح، هـو إدراك واعٍ بـأن لـكل موقـف حكمـةً يحملهـا، سـواء جاءنـا في ثـوب الفـرح أو لفّـه الحـزن، فـكل تجربـة تـترك أثرهـا، إنهـا ليسـت مجـرد حـدث عابـر، بـل هـي رسـالة تحمـل في طياتهـا درسًـا، قـد يكـون مؤلمًـا أحيانًـا، لكنـه ضروري للتعلـم، فالذيـن يتعظـون بـما مـروا بـه لا يحتاجـون إلى إعـادة المعانـاة نفسـها، لأنهـم يسـتخلصون الحكمـة مـن كل موقـف، فيصبحـون أكثـر وعيًـا وأكثـر قـدرة عـلى اتخـاذ قـرارات صائبـة.

فالتجربـة الأولى درس، أمـا العـودة العميـاء فخسـارة مضاعفـة، وليـس حسـن الظـن غفلـة، بـل هـو اختيـار مـشروط بالبصـيرة، يُمنـح لمـن لم تغيّرهـم المواقـف، ولم تكشـفهم الأزمـات، أولئـك الذيـن إن ائتمنتهـم عـلى قلبـك عـاد كامـلًا غـير منقـوص، أمـا إطـلاق الثقـة بـلا تـروٍّ، فـذاك مـا يُرهـق القلـوب ويشـوّش العقـول، ويحـوّل العلاقـات مـن سـكينة إلى فـوضى تأويـلات وتوجّـس، فتذبـل بـلا ذنـب، وتفسـد بـلا جريـرة.

---

١ المتفق والمفترق للخطيب البغدادي (١/ ٣٠٤)

ميدان الجهل واسع

بعدما أورد الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» بعض نصوص مسيلمة الكذاب التي زعم أنها قرآن مُنزَّل عليه قال : « فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن نشتغل به وأسخف من أن نفكر فيه وإنما نقلنا منه طرفًا ليتعجب القارئ وليتبصر الناظر فإنه على سخافته قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل وميدان الجهل واسع».[1]

الجهل ليس مجرد غياب المعرفة، بل هو مساحة شاسعة تمتد بقدر ما يتسع الغرور، وميدان مفتوح لمن يحاول أن يزين الباطل برداء الحق، وكما قال الباقلاني عن مسيلمة الكذاب، فإن كلماته كانت ركيكة، ومع ذلك وجد لها أتباعًا، لم يكن ضعف منطقه عائقًا أمام من أعمى الجهل بصيرتهم، بل كان لهم حُجة وبيانًا، ولهم فيه إعجابًا وافتتانًا.

هكذا يعمل الجهل؛ يزين الوهم حتى يصير يقينًا في أعين أصحابه، يرفع الباطل حتى يبدو وكأنه حق، يفتح أبوابه لكل من أراد أن يصنع لنفسه مكانة وإن كانت على حساب الحقيقة، وكم من مدعٍ في التاريخ زعم النبوة، وكم من متكلف حاول مجاراة فصاحة القرآن، فجاءت كلماته هزيلة لا تصمد أمام العقل ولا تستقيم مع الفطرة، لكن العجيب أن كل باطل، مهما بلغت سخافته، يجد من يصفق له، فمن الناس من لا يبحث عن الحقيقة بل عن أي شيء يملأ به فراغ فكره، ولو كان أوهامًا منسوجة بخيوط الكذب.

وإن كان مسيلمة قد وجد مَن يصدقه، فإن لكل زمن «مسيلمته»، ولكل جهل سوقه الذي يروج فيه، وللضلال أرضه الخصبة التي لا تعقم أبدًا، وهذا هو المشهد الذي يتكرر في زماننا، حيث أصبحت بعض المنصات الرقمية مرتعًا خصبًا للأفكار الهشة، والأطروحات المتهالكة التي لا يكاد العقل السليم يستسيغها، ثم تكون الطامة الكبرى حين يجد المرء أن هذه الترهات لا تكتفي بالظهور، بل تجد لها أتباعًا مخلصين، يؤمنون بها، يدافعون عنها، وربما يفنون أعمارهم في سبيل نشرها.

---

١ إعجاز القرآن للباقلاني (١/١٥٦)

إننـا لا نعيـش مجـرد زمـن يكثـر فيـه الجهـل، بـل زمـن يُصنـع فيـه الجهـل ويُسـوّق كأنـه وعـي، حيـث يتـم الترويـج للتفاهـة عـلى أنهـا نجـاح، وتُقـدَّم الشـخصيات الفارغـة في واجهـة المشـهد، فيتصـدر الصفـوف الأولى مـن لا رأي لهـم ولا رؤيـة، كالمهرجـين الذيـن يملـؤون المسـارح صخبًـا بـلا مضمـون، لكـن العجيـب أن الأضـواء كلهـا مُسـلطة عليهـم، والهتـاف يصاحبهـم مـن كل صـوب، حتـى يخيـل للناظـر أن التفاهـة لهـا مـردود يفـوق المعرفـة، وأن الصخـب أجـدى مـن الصمـت العميـق، فترسـخت في أذهـان الأجيـال الصاعـدة قناعـة خطـيرة: أن السـعي في دروب العلـم جهـدٌ لا جـدوى منـه، وأن الطريـق المختـصر للثـراء والشـهرة هـو الانضـمام إلى ركـب الضحالـة والسـطحية.

وهنـا تظهـر خطـورة صناعـة الجهـل، إذ لا يقتـصر أثرهـا عـلى تشـويه الـذوق العـام فحسـب، بـل تمتـد لتغلـق الأبـواب أمـام كل محاولـة للارتقـاء، فتضعـف الهمـم، وتتحـول القـدوات مـن أصحـاب الفكـر والعلـم إلى رمـوز جوفـاء لا تحمـل سـوى مظاهـر زائفـة، والأسـوأ أن الجهـل حـين يتجـذر لا يبقـى حبيـس الأفـراد، بـل يتحـول إلى قـرارات، ومواقـف، وسياسـات، ويصـير لـه صـوت، بـل أصـوات، تُدافـع عنـه وكأنـه وعـيٌ بديـل، أو مـوروث يجـب حمايتـه.

فالجهـل لا يقبـع في الزوايـا المظلمـة، بـل يرتـدي أثـواب الثرثـرة، ويمـلأ المنصـات، ويصنـع رأيًـا عامًـا هشًـا يصفـق للمؤثـر لا للمؤثـر فيـه، ويتبـع الصـوت الأعـلى لا الفكـرة الأوضـح، وفي واقعنـا، صـار الجهـل سـوقًا مفتوحـة تُعـرض فيهـا الشـعارات أكثـر مـن الأفـكار، وتُكـرَّم فيهـا السـطحية وتُقـصى العقـول الناقـدة، تـرى مَـن يجهـل أبسـط القواعد يتصـدر للفتـوى، ومَـن لا يفـرّق بـين العاطفـة والحقيقـة يصـوغ قـرارات مصيريـة، وحـين يغيـب التمييـز، يصبـح الجهـل صوتًـا يخنـق العقـل، وتُصـادَر المسـاحة أمـام مَـن يحـاول أن يفكـر بصـوت مختلـف.

وميـدان الجهـل، إن لم نغلقـه بالعلـم، اتسـعت حـدوده في كل بيـت ومنـبر وشاشـة، يُصـاغ فيـه الـرأي دون معرفـة، وتُناقـش فيـه القضايـا الكـبرى بجهـل مُركَّـب، فيغيـب التمييـز بـين المعلومـة والـرأي، بـين الحقيقـة والانطبـاع، بـين النـص والفهـم، فمواجهـة الجهـل لا تكـون بالاسـتهزاء فقـط، بـل بالعلـم الـذي يفضحـه، وبالعقـل الـذي يدحضـه، وبالوعـي الـذي يـضيء الطريـق لمـن كادوا أن يُضلَـوا، فميـدان الجهـل واسـع، لكـن ميـدان الحـق

أبقـى وأرسـخ، وإن زاحمـه الباطـل حينًـا، فـلا يـدوم لـه مقـام، وفي هـذا الميـدان، تُحـارب المعرفـة لا لخلـل فيهـا، بـل لأنهـا تُتعـب أصحـاب العقـول الكسـولة، وتُزعـج مـن اعتـاد التصفيـق لمـا لا يفهـم، يُربكهـم مـن يسـأل «لمـاذا؟» أو «كيـف عرفـت؟»، ويغضبهـم مـن يطلـب الدليـل لا العاطفـة.

ومـع كل هـذا، يبقـى الأمـل في القلـة التـي تقـاوم، تلـك التـي لا تسـاير، ولا تخشـى أن تكـون وحدهـا إن كان في وحدتهـا بصـيرة، فالمعركـة ليسـت ضـد الجهـل فقـط، بـل ضـد الاستسـلام لـه، ضـد الرغبـة العميقـة في البقـاء ضمـن المألـوف مهـما كانـت ضحالتـه، فـإذا أردنـا أن نغلـق هـذا الميـدان، لا بـد أن نفتحـه أولًا داخلنـا، ونتسـاءل :

كم فكرة نحملها لأننا نؤمن بها؟

وكم فكرة نرددها لأننا فقط وجدنا الناس يرددونها؟

وهل نحن نملك شجاعة مراجعة ما نظنه يقينًا؟

وهـل نجـرؤ عـلى الاعـتراف بـأن بعـض مـا ندافـع عنـه بشـدة ليـس إلا جهـلًا نحبـه لأنـه يشـبهنا؟

الزينة الظاهرة لا تعني قلبًا مطمئنًا

رأى عمـر بـن الخطـاب رجـلًا في السـوق يحمـل تمـرة وينـادي عليهـا صارخًـا : « لقـد وجـدت تمـرة فمَـن صاحبهـا؟» فعـلاه عمـر بعصـاه يوبخـه وقـال لـه: دعـك مـن هـذا الـورع الـكاذب.

هـذه القصـة القصـيرة التـي نقلـت إلينـا موقفًـا مـن مواقـف عمـر بـن الخطـاب ، ليسـت مجـرد روايـة عـن التمـرة والـورع، بـل هـي مـرآة تعكـس فهـمًا عميقًـا لمعنـى الصـدق مـع النفـس، ونفـورًا مـن التظاهـر الـذي يُلبـس الفضيلـة ثـوب الريـاء، فعمـر، الفـاروق، مـا كان ليضرب رجـلًا عـلى تمـرة لـولا أنـه رأى في فعلـه أكثـر من مجـرد أمانـة، رأى اسـتعراضًا مبالغًـا فيـه، ريـاءً يتخفـى خلـف قنـاع الـورع، وصوتًـا يطلـب التصفيـق لا الحقيقـة، كان عمـر بـن الخطـاب يـزن الأمـور بميـزان الفطـرة السـليمة، لا يخدعـه مظهـر خـادع ولا صـوت مرتفـع، فـرأى في صراخ الرجـل عـلى تمـرة ضائعـة، ريـاءً يُنكـر الجوهـر ويعشـق الزيـف، فوبخـه عـلى مـا رأى فيـه مـن «ورعٍ كاذب»؛ ورع يرفـع التمـرة الصغـيرة إلى مقـام المسـائل الجلـل، ليسـتر بـه تقصـيرًا في مـا هـو أعظـم شـأنًا وأثقـل وزنًـا، فالمبالغـة في التدقيـق في الأمـور الصغـيرة مـع إهمـال الأهـمّ هـو نـوع مـن الزهـد المزيّـف، وعمـر، بعـين بصيرتـه، ميَّـز بـين التُقـى الصـادق والتُقـى المُتكلَّـف، ونبهنـا أن الـورع الحـق لا يُنـادى عليه في الأسـواق، بـل يُحمَـل في القلـب ويُثبـت في المواقـف.

لقـد أدرك عمـر بـن الخطـاب أن مثـل هـذه المظاهـر قـد تُصبـح نوعًـا مـن التديـن المصطنـع الـذي يرسّـخ الانشـغال بالشـكليات عـلى حسـاب الجوهـر، فيتحـول الديـن إلى أداء شـكلي بـدلاً مـن أن يكـون منهـج حيـاة يوجّـه السـلوك والقـرارات نحـو مـا هـو أنفـع وأقـوم، فالـورع الحـقّ هـو الـذي يجعـل صاحبـه يتجنـب الظلـم، ويقـف مـع الحـقّ وإن كان عـلى حسـاب مصلحتـه، وهـو الـذي يدفعـه للإصـلاح الحقيقـي لا للبحـث عـن صغائـر يتباهـى بهـا أمـام النـاس، والأمـر لا يقتصـر عـلى الأفـراد فقـط، بـل يمتـد إلى المجتمعـات التـي قـد تنشـغل بتفاصيـل لا أثـر لهـا، بينـما تـترك قضاياهـا المصيريـة دون حـلّ، فتضيـع في دوّامـة مـن الجـدل العقيـم حـول القشـور، بينـما تتفاقـم المشـكلات الحقيقيـة دون أن تجـد مـن يتصـدى لهـا وأظننـا نعـاصر هـذا رأي العـين .

نعـم، نحـن مأمـورون بـأن نحكـم عـلى النـاس بظاهـر أفعالهـم، وأن نـوكل سرائرهـم إلى الله، لكـن ذلـك لا يعنـي أن نُغفـل بصائرنـا أو نعطّـل عقولنـا، بـل علينـا أن نُحكّـم الفطنـة ونسـتفتي قلوبنـا قبـل أن نأخـذ بـكل قـول أو ننخـدع بـكل صـورة، فكـم مـن الأقنعـة سـقطت عنـد أول اختبـار حقيقـي، وكـم مـن أصـوات كانـت هادئـة حتـى جـاء مـا أظهرهـا عـلى حقيقتهـا.

لقـد علمتنـا الأحـداث الأخـيرة في بلداننـا أن الثقـة المطلقة قـد تكـون سـذاجة، وأن الصورة التـي ترسـمها مخيلتنـا عـن الأشـخاص قـد تخالـف تمامًـا حقيقتهـم عنـد المحـكّ، فليس كل سـاكن هادئًـا، ولا كل مبتسـم ودودًا، ولا كل متحـدث بليغًـا صادقًـا، لذلـك، إن أردت أن تصبـح أحكامـك أقـرب إلى الصـواب، فـلا تجعـل الصـورة النمطيـة التـي سـبق واتخذتهـا عـن أشـخاص لم تختبرهـم المواقـف ولم تمحصهـم الابتـلاءات، قيـدًا يحكـم عـلى كل جديـد، بـل تعامـل مـع كل موقـف عـلى أنـه حالـة خاصـة تسـتوجب التأمـل والتدقيـق، فالبـشر ليسـوا دائـمًا كـما يظهـرون، والمظاهـر قـد تكـون أكثـر الأشـياء قـدرة عـلى التضليـل، إذ قـد تختبـئ خلـف الوجـوه البريئـة نوايـا خبيثـة، وقـد تخفـي العبـارات العذبـة مكـرًا مدبّـرًا، ولهـذا لم يكـن المظهـر يومًـا دليـلاً قاطعًـا عـلى الحقيقـة، بـل مجـرد سـتار قـد يُكشـف عنـد أول اختبـار.

جـاءت امـرأة إلى شريـح القـاضي تخاصـم في شيء وكانـت ظالمـة فجعلـت تبكـي، وأظهـر شريـح عـدم الاطمئنـان لدعواهـا، فقيـل لـه أمـا تراهـا تبكـي؟ فقـال قـد جـاء إخـوة يوسـف عليه السلام أباهـم عشـاء يبكـون وهـم ظلَمـة كَذبَـة، لا ينبغـي لأحـد أن يقـضي إلا بالحق.

فالدمـوع، رغـم مـا توحـي بـه مـن ضعـف ومظلوميـة، ليسـت دائـمًا برهانًـا عـلى الصـدق، ولا كل بـكاء دليـل بـراءة، فقـد يبكـي الظـالم كـما يبكـي المظلـوم، وقـد تختلـط المشـاعر الصادقـة بأخـرى مصطنعـة يُـراد بهـا مخادعـة القلـوب واسـتدرار العطـف، ولـو كانـت الدمـوع وحدهـا تُنصـف، لـكان إخـوة يوسـف أحـقّ بالعطـف يـوم جـاءوا أباهـم عشـاءً يبكـون، لكـن حقيقتهـم انكشـفت، وبقيـت دموعهـم شـاهدًا عـلى أن البـكاء قـد يكـون سـتارًا يسـتر الظلـم، وهـذا مـا فهمـه القـاضي شريـح، فالقضـاء لا يُبنـى عـلى العواطـف وحدهـا، بـل عـلى الحقائـق والبينـات.

فكـم مـن قضايـا حُكـم فيهـا لصالـح الباطـل لأن أصحابهـا عرفـوا كيـف يُتقنـون دور المظلـوم، وكـم مـن حقـوق ضاعـت لأن أصحابهـا لم يُجيـدوا اسـتدرار العطـف كـما فعـل غيرهـم، لـذا، لا يُخـدع العاقـل بالدمـوع ولا تؤثـر فيـه الانفعـالات، بـل يبحـث عـن الدليـل ويتمسـك بالإنصـاف، فالعـبرة ليسـت بمـن يبكـي أكثـر، بـل بمـن يملـك الحـق.

الـورع الصـادق لا يـصرخ بـه في الأسـواق، بـل يسـكن الضمـير، ويُختـبر في الخفـاء، لا عـلى مسـارح العيـون، ومـا أكثـر الذيـن يُجيـدون رفـع شـعارات الزهـد والنزاهـة، وهـم في باطنهـم لا يرجـون إلا المديـح، ومـا أقـل مـن يعمـل بصمـت، فيُزهـر أثـره ولـو لم يُذكـر اسـمه، فنحـن في زمـن بـات فيـه التجمُّـل مهـارة، والتصنّـع وسـيلة للقبـول، فتغلّبـت المهـارة في التجمُّـل عـلى الصـدق في الشـعور، وبـات التمثيـل يُفـسَّر عـلى أنـه ورع، والتكلـف يُظـنّ إخلاصًـا حتـى أصبـح مـن السـهل أن يُخـدع الإنسـان بـما يـراه، ويغفـل عـمّا يجـب أن يُدركـه، فلنتريـث قبـل أن نحكـم، ولنبحـث عـن الإنسـان خلـف القنـاع.

إن أقسـى الخيبـات تلـك التـي نكتشـف فيهـا أننـا لم نخـدع إلا أنفسـنا، وأن مـن حسـبناه مـرآة للنقـاء، لم يكـن سـوى طيـفٍ جميـلٍ لفـراغ باهـت، فلنـزن النفـوس بميـزان الوعـي لا الإعجـاب، فالبصـيرة وحدهـا قـادرة عـلى كشـف الفـرق بـين مـن يعبـد الله في صمـت، ومـن يعبـد نظـرات النـاس في صخـب.

يا صديقي :

إن أكثـر الخسـارات مـرارة، تلـك التـي نـدرك فيهـا متأخريـن أننـا راهنّـا عـلى وهـمٍ جميـل، بينـما الحقيقـة كانـت تقـف خلفـه صامتـة، تنتظـر أن نـرى بعـين البصـيرة لا بسـطح النظـرة.

الرزق بقدر الحاجة، واللطف بقدر البلاء

ليس كل تأخير في الرزق حرمانًا، ولا كل بلاءٍ نقمة، فإن الله ـ جلّ في علاه ـ يقدّر الأقدار بحكمةٍ لا تخطئ، ويقسم العطايا بما تعلمه رحمته، لا بما تشتهيه أنفسنا، فكثيرًا ما نُرهق أرواحنا بالسؤال: لماذا لا يأتيني ما أريد؟ بينما يغيب عنّا أن ما نريد قد لا يكون لنا فيه خير، وأن ما نملكه الآن هو تمام ما نحتاجه، لا ما نظن أننا نريده، تأمل في حال من رُزق فوق طاقته، فانقلب ماله نقمةً عليه؛ نزاعات، وحسد، وانشغال عن نفسه وأهله، بينما آخر يعيش بالكفاف، لكنه ينام قرير العين، هادئ البال، محاطًا بحب مَن حوله، ورضا في قلبه.

والأمر لا يقتصر على المال، بل يمتد إلى الصحة، العلاقات، الفرص، وكل ما نظنه «رزقًا» ننتظره، فكل عطية تأتي على قدر الحاجة، وكل حرمان يحمل في طياته وقايةً من ضرر، أو ادخارًا لخيرٍ مؤجل، أما اللطف، فهو عناية الله إذا نزل البلاء، وهو السلوى حين تعجز الحيلة، وهو التسخير حين تضيق الأسباب، فإن اشتدّ الكرب، فاعلم أن اللطف قادم، وأن البلاء لا ينزل إلا ومعه ما يخفف وقعه، وإن خفي عن عينيك.

في الحديث أن النبي ﷺ قال: تنزِلُ المعونَةُ مِنَ السماءِ علَى قَدْرِ المؤْنَةِ، وينزِلُ الصبرُ على قدرِ المصيبةِ[1] والمعنى: أن الله ينزل للعبد رزقه على قدر حاجته؛ فإن كانت حاجته قليلة قلَّ، وإن كانت كثيرة أمدَّه الله بمعونته، ويأتي من الله لطف للعبد المصاب، على قدر المصيبة التي حلتّ به؛ فإن عظمت المصيبة أفرغ الله عليه صبرًا كثيرًا؛ لطفًا منه تعالى به؛ لئلا يهلك جزعًا، وإن خفَّت فبقدرها.

المعونة، بما تحمله من وجوه العطاء، ليست محض مالٍ يُبذل أو يدٍ تُمد، بل نفحة ربانية تُساق بقدر ما أُنيط بك من أعباء، فهي قرينة التكليف، توازيه وتُلازمه، فإذا ثقلت حمولة الأيام، زادك الله سعة في الروح، وقوة في التحمل، وبصيرة في السير، ومن ذاق طُمأنينة التوكل، لم يُرعبه هول الطريق، ولا أرهقته خطواته؛ إذ يعلم أن الأقدار لا تُرسل مجردة، بل مسبوقة برحمة، ومصحوبة بتيسير، ومختومة بعونٍ يسكن

١ صحيح الجامع (٣٠٠١)

القلـب قبـل أن يُصلـح الحـال، فالمعونـة ليسـت في زوال المشـقة، بـل في اتسـاع الصـدر لهـا، وفي القـدرة عـلى عبورهـا دون أن تنكـسر، قـد لا يُبسـط لـك الطريـق، لكنـه يُبسـط لـك الصـدر، وقـد لا يُنـزع الهـم، لكنّـه يُـودِع في قلبـك مـن الطمأنينـة مـا يوسّـع صـدرك لمـا ضـاق بـه العـالم، ففـي ميـزان الله، لا تـأتي الشـدائد منفلتـة مـن اللطـف، ولا تنـزل الأقـدار بمعـزل عـن مـا يعـين عـلى احتمالهـا، وكـما أن المؤونـة تُقـدّر بقـدر مـا يحتاجـه الإنسـان ليقـوم بأمـره، فـإن المعونـة تُرسـل بـما يكفيـه ليصـبر ويثبـت، فالعـون لا يتأخـر، لكنـه يـأتي عندمـا تكـون مسـتعدًا لاسـتقباله، فـالله سـبحانه لا يضعـك في موقـف إلا وهـو يعلـم أن لديـك مـا تحتاجـه لتجـاوزه، سـواء كان ذلـك صـبرًا، أو حكمـة، أو أشـخاصًا يسـخرهم لـك في اللحظـة المناسـبة.

وهـذا مـا نعيشـه حينـما ينـزل بنـاء بـلاء مما نظـن أن الحيـاة بعـده ربـما تتوقـف بنا فتكتشـف مـع الأيـام أنـك لم تفـنَ كـما خُيّـل إليـك، وأنـك مـا زلـت تمـضي، وأن الألم الـذي حسـبته نهايـة العـالم، لم يكـن سـوى صفحـة طُويـت مـن كتابـك، تمـضي الحيـاة هينـةً بـاردة عـلى غـير مـا توقعـت، فـكل ذلـك لم يمـر عبثًـا، بـل لأن الابتـلاء قـد حـلَّ مصحوبًـا بلطـفٍ إلهـي يُسـكن القلـب ويهدئـه، ليمنـع عنـه الجـزع ويخفـف ثقـل الألم، فسـلّم قلبـك، وامـضِ مطمئنًـا، فثِقـل الابتـلاء لا يعنـي أن الطريـق توقـف، بـل أن الله يعـدّك لمـا هـو أثمـن ممـا ظننتـه ضـاع، فـإن رزقـك لـن يخطئـك، ولطـف الله لا يغيـب عنـك، فـإن مـع العسر يـسرًا، يـسر مـلازم لـه لا قبلـه ولا بعـده.

يا صديقي :

سـتدرك مـع مـرور الأيـام أن مـا وُهـب لـك، كان تمـام مـا تحتاجـه لتسـتقيم خطواتـك، وأن كل لطـفٍ سـاقه الله إليـك في لحظـات الانكسـار، كان أثمـن مـن ألـف رغبـة لم تُلـبَّ، فاطمئـن؛ فـإن الله لا يُحمِّـل قلبًـا مشـقة إلا وقـد صـاغ لـه طاقـة احتـمال، ولا يقذفـك في غـمار الشـدة إلا وقـد سـبقك إليهـا بلطفـه.

بين الألم النفسي والوهن الجسدي صلة لا تُرى

الألم النفسي قد لا يُرى، لكنه حين يتوغل في الروح، يترك بصماته على الجسد شيئًا فشيئًا، فالتعب الذي لا يبرره جهد، والخمول الذي لا تُفسّره قلة نوم، والصداع الذي لا يسكته دواء، كلها إشارات خافتة إلى جراح خفية في الداخل، بين كل تنهيدة ثقيلة وخفقة قلب مضطربة، حزنٌ صامتٌ يتكلم بلغة الجسد.

إن النفس إذا ضاقت، ضاقت معها الأعضاء، وإن سكنت واطمأنت، خفّ الحمل حتى على العظام، ليست الشكوى دائمًا من نقص الحديد أو قلة الفيتامينات، بل من فَقْد الأمان، أو توالي الخيبات، أو تراكم القلق والخوف، فالجسد مرآة صامتة لما يحدث في أعماق النفس، وكل عافية تبدأ من الداخل، من راحة القلب وسكينة الروح، قد يثقل جسدك وإن نِمت دهرًا، ويخفّ إن مرّت عليك ساعات معدودة في راحة، لأن ما يُنهكنا في الحقيقة ليس قلة النوم، بل الثقل الذي تحمله أرواحنا عند الاستيقاظ، قد تستيقظ كسيرًا بعد نوم طويل لأنك تنتظر يومًا لا تريده، يثقل عليك بما فيه من التزامات لا تحبها، وأحاديث لا تطاق، وأعمال لا تنتمي إليها، بينما تنهض نشيطًا من غفوة قصيرة إذا كان ما ينتظرك يلامس قلبك، ويمنحك سببًا لتبذل دون أن تشعر بالتعب.

القوة لا تنبع من عضلات مشدودة، بل من دوافع داخلية تبعث فيك العزم، ومن روح متشبثة بالأمل، فالجسد لا يخذل صاحبه حين يتّقد الشغف، لكنه يخمد حين تُطفئه الرتابة، أو تجهز عليه الخيبة، لهذا ترى الرياضي الذي ظنّ الجميع أنه هُزم، يعود من الرماد بكلمة تشعل فيه الحماسة، فيقلب النتيجة وينتصر، هو هو الجسد، لكن الذي تغيّر هو الصوت الذي تحدثت به النفس إلى ذاتها.

إن القدرة الجسدية مرآة لحال النفس، فإن وجدت المعنى، تدفقت منك طاقات لا تُقاس، وإن غاب الدافع، انطَفَأْتَ ولو كنت في تمام العافية، ويمكن اختزال هذه العلاقة المعقدة بين النفس والجسد في حقيقة لا مراء فيها: كلما ازدادت الضغوط النفسية اشتد الخلل في التوازن الجسدي، وكأن الجسد يُترجم ما تعجز الروح عن البوح به، إنها علاقة ليست سطحية أو ظرفية، بل علاقة عميقة،

يتأثـر فيهـا الجسـد مبـاشرة بـما يعتمـل في الداخـل مـن صراعـات وقلـق وكتـمان، وكلـما ازدادت الهـوة بـين الإنسـان ونفسـه، تباعـد عـن العافيـة، لا لأن الجسـد لم يعـد قـادرًا، بـل لأن الـروح المنهكـة حجبـت عنـه القـدرة.

الرضـا الداخـلي، والانفتـاح النفسـي عـلى الـذات والبيئـة، لا ينعكسـان فقـط عـلى راحـة الضمـير، بـل في صفـاء الوجـه، وخفـة الحركـة، ونشـاط القلـب، فحـين يكـون الإنسـان متصالحًـا مـع ذاتـه، فاهمًـا لحـدوده، مـدركًا لمـا يمكـن تغيـيره ومـا لا يمكـن، فإنـه يخـفّ عنـه التوتـر، وتبهـت الضغـوط، ويصبـح جسـده شريـكًا لـه لا عائقًـا في طريقـه، فأغلـب العلـل النفسـية لا تنشـأ مـن أحـداث عابـرة، بـل مـن صراعـات صامتـة، ومطالـب دفينـة لم تُلـبَّ، ورغبـات حُـوصرت خلـف واجبـات وقوالـب، وحـين يُهمَـل هـذا الداخـل، يـصرخ الخـارج، فتنهـار الطاقـة، ويختـل التـوازن، ويصبـح الجسـد مـرآة مقلقـة لصـوت داخـلي لم يُصـغَ لـه.

فـإذا كان شيء ممـا تـراه قـد فُـرض عليـك في حياتـك وليسـت لديـك القـدرة عـلى تغيـيره فحـاول بقـدر الإمـكان ألا تزيـد مـن حالـة السـخط عليـه لئـلا تحطـم مـا تبقـى مـن طاقتك وتخسر كل شيء، فهـذه الأمـور التـي تعتقـد أنهـا بسيطة تتـسرب بـين خلايـا جسـدك يومًا بعـد يـوم هدمًـا لا بنـاءً، وليكـن حـاضرًا في خلـدك أن التعـافي منهـا ليـس مقاسًـا واحـدًا يناسـب الجميـع، وليسـت لـه خريطـة إرشـادية يمكـن السـير عـلى خطواتهـا، إنهـا رحلـة فريـدة بـكل تفاصيلهـا، فالسـعادة في الحيـاة ليسـت في غيـاب المشـاكل إنـما في القـدرة عـلى التعامـل معهـا، والتـوازن النفـسي ليـس ترفًـا، بـل ضرورة وجوديـة.

والرضـا — في أعمـق معانيـه — ليـس قبـول العجـز، بـل هـو إدراك عميـق لحـدود الممكـن، وتوجيـه واعٍ للجهـد نحـو مـا يمكـن إصلاحـه، دون أن تُسـتنزف الـروح في صراعٍ مـع مـا لا يُطـال، وهـذا الوعـي هـو الـذي يحفـظ الطاقـة، ويحمـي النفـس مـن الاحـتراق، والجسـد مـن الانهيـار.

قبول شيء ما لا يعني بالضرورة أنك تحبه

سأل ابن عَزْرَةَ زوجته يومًا: نشدتك بِالله هل تحبيني؟

فقالت بصراحة: أما إذ نشدتني بِالله، فلا.

فخرج من بيته حزينًا حتى أتى عمر بن الخطاب وأخبره بما جرى، فأرسل عمر إلى زوجته، وسألها: أنت الّتي تقولين لزوجك: لا أحبك؟

فأجابت: يا أمير المؤمنين نشدني بالله، أفأكذب؟

فقال لها عمر بحكمة القائد الخبير بالنفوس: «نعم، فاكذبيه، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدًا فلا تحدثه بذلك، فإن أقل البيوت الذي يُبنى على الحُب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والإحسان».[1]

الصراحة الجارحة ليست دائمًا فضيلة، بعض الحقائق، وإن كانت صادقة، حين تُقال في غير موضعها تصير سهمًا لا كلمة، وتهدم بدل أن تبني، وعمر بن الخطاب لم يُرد أن يُعلّم المرأة خداعًا، بل أراد أن يُعلّمها حُسن القول، وأدب الصمت حين يُخشى أن تجرح الحقيقة قلبًا لا يحتمل، فبعض الحقائق لا تُقال، لا لأننا نكذب، بل لأننا نُؤْثر السلام على الصدام، والبقاء على الهدم، فلم يكن عمر يأمر بالكذب، بل كان ينبه إلى ضرورة تغليف الحقيقة بما يحفظ الودّ، ويرعى العشرة، ويرأب الصدع في بيتٍ قد يكون فيه من المودّة ما يُعوّض عن وهج الحب الغائب، فللحب مواسم، قد يجيء دفّاقًا في البدايات، ثم يخفت تحت ركام المسؤوليات، ويعلوه غبار الاعتياد، ولكن لا يعني ذلك موته، بل ربما كان في طور التحول إلى ما هو أعمق: الرحمة، وقد قال الله تعالى في وصف الزواج: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، فالمودة حرارة المشاعر، والرحمة دفء السلوك، وربما غابت الأولى أحيانًا، لكن الرحمة إن بقيت، بقي معها الأصل، فما أكثر ما تهدمه الصراحة العارية، حين لا تتزن بلغة الشعور! وما أكثر البيوت التي ما زالت عامرة، لا لأن الحب يسكنها ليل نهار، بل لأن الإحسان ظلّها، والتغافل رفيقها، والصبر حارسها.

---

١ تهذيب الآثار -ابن جرير الطبري (ص١٤٢)

ليسـت كل القلـوب تخفـق بالعشـق، ولكنهـا تسـتطيع أن تنبـض بالاحـترام والتقديـر، فكم مـن بيـوت بنيـت عـلى الشـغف ثـم انهـارت حـين فُقـد الاحـترام، وكـم مـن بيـوت بـدأت بجفـاف العاطفـة لكنهـا اسـتمرت بحكمـة القلـوب التـي عرفـت كيـف تمنـح الأمـان حتـى في غيـاب الحـب بمعنـاه التقليـدي، وليسـت كل القلـوب قـادرة عـلى البـوح، ولا كل النفـوس مأمونـة عنـد الغضـب، فاجعـل بينـك وبـين مَـن تحـب مسـافة للصفـح، ومجـالًا للتأويـل، واتـرك للحكمـة بابًـا مواربًـا، تعـبر منـه المشـاعر حـين تختنـق الطـرق المبـاشرة، فمـن ظـن أن كل زواج يجـب أن يكـون قصيـدة حـب، فقـد جهـل طبيعـة الحيـاة، فالحـب وحـده لا يكفـي إن لم يسـنده الوفـاء، ولا يـدوم إن لم يحتضنـه الإحسـان، فكـم مـن زوجـين خبـا بينهـما الوجـد، ولكـن بقـي بينهـما عهـدٌ كريـم، وتغافـل راقٍ، ويـد تمسـك اليـد وإن ثقـل الطريـق.

وفي قـول عمـر: « إن أقـلّ البيـوت الـذي يُبنـى عـلى الحـب» تسـلية لـكل مَـن ظـنَّ أنـه وحـده مـن يفتقـد ذلـك البريـق، وتوجيـه نحـو مـا هـو أثبـت وأبقـى: العـشرة بالإسـلام، بـما أمـر الله مـن صـبر وسـتر وحلـم، والإحسـان، أي أن تـؤدي الـذي عليـك، وإن قـصَّر مَـن أمامـك.

وفي تعاملاتنـا اليوميـة أيضـا نجـد شـيئًا مـن هـذا المعنـى، فقـد نواجـه مواقـف تتطلـب منـا قبـول أمـور قـد لا نشـعر تجاههـا بمشـاعر الحـب أو الشـغف، ومـع ذلـك علينـا تقبلهـا والتعامـل معهـا بـشيء مـن اللـين واللطـف، ولا يكـون هـذا القبـول بمثابـة استسـلامٍ منـا، لأن قبـول حقيقـة مـا أو موقـف معـين يعنـي ببسـاطة التعامـل مـع الواقـع كـما هـو، فبعض العلاقـات، وبعـض اللحظـات، وحتـى بعـض الأحـلام، قـد يكـون لهـا مـكان في حياتنـا دون أن تكـون مركزهـا، فنتقبلهـا كـما هـي دون أن نحمّلهـا فـوق طاقتهـا أو نطلـب منهـا أكثـر ممـا تسـتطيع أن تمنـح، وبهـذا الفهـم لا نصطـدم بالواقـع كلـما خذلتنـا التوقعـات.

يا صديقي:

بعـض العلاقـات وجـدت لتكـون عابـرة بـأدب، وبعـض المواقـف جـاءت لتعلّمنـا لا لتُفرحنـا، وبعـض الأحـلام تقودنـا نحـو غيرهـا، لا لنبلغهـا، فليسـت كل علاقـة يُرجـى منهـا أن تكـون حبًـا أسـطوريًا، ولا كل لحظـة يُشـترط أن تكـون ملهمـة.

المثالية المفرطة....سجن

هـا هـي روح «حنظلـة بـن أبي عامـر» تناضـل بين وعـي القلـوب وجريـان الحيـاة، غارقًا في بحـار الإيـمان حـين يجلـس إلى رسـول الله ﷺ، فتتجـلّى لـه المشـاهد السـماوية كأنها مرسـومة بعـين البصـير، تتراقـص أمـام ناظريـه الجنـة والنـار بـلا حجـاب، لكنـه مـا إن يعـود إلى عتمـة دنيـاه بـين أهـل بيتـه وأعبائـه الدنيويـة، حتـى تـذوب تلـك اللآلـئ الروحيـة، ويتبـدد صفـاؤه كضـوء خافـت في ليـالي الغربـة، فتخـال نفسـه قـد ابتلعتـه ظـلال النفـاق، وتثـور في نفسـه ريـح الشـك والهـم.

وفي يـوم مـن الأيـام، قابـل أبـو بكـر الصديـق ذلـك الوجـه المتكـدر، فسـأله برفـق: «كيـف أنـت يـا حنظلـة؟» فأجـاب بمـرارة: « نَافَـق حنظلـة»، معـبرًا عـن معانـاة التمـزق بـين لحظـات النـور عنـد رسـول الله ﷺ، وحياتـه بـين زوابـع الدنيـا، حيـث ينشـغل بـالأزواج والأولاد والضيعـات ـ مجاهـل الدنيـا ومتاعهـا ـ وينسـى كثـيرًا مما ذُكِّـرَ بـه في مجلـس النبوة، حتـى كأنـما لم يسـمع شـيئًا مـن ذلـك الذكـر الخالـد.

فلـم يجـد أبـو بكـر إلا أن شـاركه الشـعور ذاتـه، فانطلقـا معًـا نحـو رسـول الله ﷺ، ليشـكُواَ لـه ذلـك الـصراع الـذي يعصـف بهـما، فأرشـدهما النبـي ﷺ بكلـمات تختـزل حكمـة التـوازن والاعتـدال في الـروح وعـدم الهـوس بالكـمال الروحـي فقـال : «والـذي نفـسي بيـده، إن لـو تدومـون عـلى مـا تكونـون عنـدي وفي الذِكـر، لصافحتكـم الملائكـة عـلى فُرُشِـكُمْ وفي طُرُقِكُـمْ، ولكـن يـا حنظلـة سـاعة وسـاعة، ثـلاث مـرات».[١]

فبـيَّنَ لهـم النبـي ﷺ ـ ونحـن مـن بعدهـم ـ حقيقـة النفـس البشرية، أنهـا لا تسـتطيع أن تبقى في حالـة واحـدة مـن الصفـاء الروحـي طـوال الوقـت، فكـما تحتـاج إلى لحظـات الخشـوع والذكـر، تحتـاج أيضًـا إلى التفاعـل مـع الحيـاة ومشـاغلها، والإيـمان ليـس بثبـات المشـاعر، بـل بصـدق القلـب في العـودة إلى الله رغـم تقلـب الأحـوال، والنفـس البشريـة جُبلـت عـلى التقلّـب والتفـاوت، وذاك ليـس عيبًـا فيهـا، بـل سُـنّة مـن سـنن الخلـق، حتـى خيـار هـذه الأمـة مـن الصحابـة لم يسـلموا مـن تذبـذب الأحـوال وتفـاوت منـازل القلـوب، ولم يكـن ذلـك ضعفًـا في إيمانهـم، بـل سَـيرًا طبيعيًّـا في درب البشريـة.

١ مسلم ٢٧٥٠

الهـوس بالمثاليـة هـو حالـة ذهنيـة تتملـك المـرء وتسـيطر عـلى أفعالـه رغبـة منـه في فعـل كل مـا يقـوم بـه عـلى أكمـل وجـه، ليـس للحـد المطلـوب بـل يفوقـه، فيصبـح أسـيرًا لتوقعـات عاليـة لا تقبـل النقـص أو الخطـأ، ممـا يجعلـه يشـعر بالذنـب تجاه أمـور طبيعيـة، يعيـش في صراع دائـم مـع ذاتـه ومـع مَـن حولـه، فـكل خطـوة يخطوهـا لا يراهـا كافيـة، وكل إنجـاز يحققـه يبـدو ناقصًـا في نظـره، وكأنـما يسـير في سـباق لا نهايـة لـه، وربـما يرجـع ذلـك لكـون المـرء يشـعر أن قيمتـه الحقيقيـة ليسـت في ذاتـه إنـما يسـتمدها مـن الأفعـال التـي ينجزهـا، وربـما مـن نظـرات الانبهـار في أعـين المحيطـين بـه، ومـع الوقـت، يتحـول هـذا السـعي المحمـوم إلى عـبء ثقيـل ورحلـة مرهقـة حيـث لا يكافـئ صاحبـه نفسـه أبـدًا، لأن عينيـه دائـمًا عـلى مـا نقـص، لا عـلى مـا تحقـق.

والهـوس بالكـمال لا يعنـي التفـوق، بـل قـد يكـون عائقًـا أمامـه، لأن البحـث عـن المثاليـة المطلقـة قـد يـؤدي إلى الـتردد والخـوف مـن الإقـدام، وكأن الإنسـان يُفضِّـل ألا يبـدأ شـيئًا عـلى أن يفعلـه ناقصًـا، نعـم قـد يبـدو في البدايـة وكأنـه سـعي مـشروع للتميـز، لكنـه مـع الوقـت يتحـول إلى قيـد ثقيـل يكبـل صاحبـه، فالـذي يخطـط لـكل شيء بدقـة متناهيـة، يجـد نفسـه عاجـزًا عـن التكيـف مـع أي تغيـير مفاجـئ، وكأن أي انحـراف عـن المخطـط المثـالي خيانـة للنجـاح، لا مجـرد عـارض مـن طبيعـة الحيـاة، فالطالـب الـذي لا يقبـل إلا بالكـمال، يسـتهلك روحـه في ملاحقـة الدرجـات، ويهتـز كيانـه لأدنـى نقـص، كأن الجهـد الـذي بذلـه يتلاشـى عنـد فاصلـة ناقصـة أو رقـم مفقـود، والموظـف الـذي يراجـع عملـه عـشرات المـرات خوفًـا مـن هفـوة عابـرة، يسـتهلك أيامـه في تفتيـشٍ مرهـقٍ عـن العيـب، حتـى يُجهـده القلـق ويقتلـه الـتردد، والفنـان الـذي لا يـرى في لوحتـه إلا مـا ينقصهـا، يبقـى سـجينًا لإحسـاس النقـص، فـلا يهنـأ بجـمال مـا أبـدع، ولا يفـرغ يومًـا مـن رسـم لم يكتمل، والكاتـب الـذي يقـرأ مـا خطـه قلمـه وكأن كل حـرفٍ ناقـص، وكل جملـةٍ معيبـة، يتراجـع عـن النـشر، وتبقـى كلماتـه طـي الأدراج، تُراكـم الغبـار بـدلًا مـن أن تلامـس القلـوب.

حتـى في العلاقـات الإنسـانية، يتسـلّل هـذا الهـوس بصـورة خفيـة، حـين ينتظـر أحدهـم مـن أحبابـه الكـمال المطلـق في الأقـوال والأفعـال، فـإذا خالفـوه مـرة، خابـت ظنونـه، وارتبكـت روحـه، ظانًّـا أن الحـب لا يحتمـل الزلـل، ناسـياً أن النقـص سـمة البـشر، وأن الجـمال في العلاقـات ليـس بغيـاب العيـوب، بـل بقدرتنـا عـلى التعامـل معهـا برحمـة وفهـم.

فالهـوس بالكـمال يجعـل مـن الحيـاة حلبـة صراع مـع أنفسـنا والنـاس، لا مسـاحة فيهـا للرضـا، ولا وقـت للاحتفـال بـما أُنجـز، وللنجـاة مـن كل هـذا لا بـد مـن أن نعيـد تعريـف الإنجـاز في عقولنـا، وأن نحـرّر أنفسـنا مـن قيـود التصـورات المطلقـة التـي لا تقيـم وزنـاً للتفـاوت الإنسـاني أو لظـروف الحيـاة المتقلّبـة، أن تبـدأ بقبـول النقـص، لا كعيـبٍ يجـب إخفـاؤه، بـل كجـزء أصيـل مـن نسـيج التجربـة الإنسـانية، وألا ننسـى أن لـكلّ خطـأ حكايـة ولـكل عيـب رونقـاً يميـز إنسـانيتنا، والاعـتراف بـأن كل نقـص هـو مـرآةٌ تُظهـر لنـا جانبًـا مـن حقيقـة أننـا بـشر.

أن نُـدرّب أنفسـنا عـلى الرؤيـة الرحيمـة، أن نـرى الجهـد قبـل النتيجـة، والنيـة قبـل الصـورة النهائيـة، وأن نحتفـي بالمحاولـة كـما نحتفـي بالنجـاح، أن تـرك مسـاحة للخطـأ لا يعنـي التراخـي، أن نُمسـك بأيدينـا في لحظـات الوهـن بـدلًا مـن أن نرفـع صـوت اللـوم، وأن نتذكّـر دومًـا أن التـوازن ليـس في أن نُتقـن كل شيء، بـل في أن نُحسـن السـير عـلى حافـة النقـص دون أن نسـقط في حفـرة الإنـكار أو جلـد الـذات، أن تتعلّـم كيـف تحتفـل بتقدّمـك مهـما كان ضئيـلاً، وأن تتنفـس بعمـق، وتقـول: «كفـى... هـذا الجهـد كان كافيًـا لهـذا اليـوم».

لا تنتظـر أن تكتمـل فيـك كل الـشروط، ولا أن تخلـو نفسـك مـن الـتردد والقصـور لتخطـو نحـو الحيـاة؛ امـضِ كـما أنـت، بنقصـك وتـردّدك، فالسـير نفسـه يُعلّمـك مـا لا تمنحـه لـك المثاليـة المزعومـة. النجـاح ليـس أن تصـل دون عثـرات، بـل أن تواصـل السـير حـين تتضـاءل الرؤيـة، أن تتشـبث بهدفـك حـين يخذلـك الواقـع، وأن تسـتمر في رسـم طريقـك ولـو عـلى أرضٍ مهتـزّة، لأن التقـدم الحقيقـي يصنعـه الإصرار، لا الصـورة المثاليـة التـي قـد لا تـأتي أبـداً.

أسقام الروح لا زمان لها

ضاعـت قـلُادة أخـت أبي بكـر الصديـق، فقـام في النـاس يسـتنجدهم بأمانـة الإسـلام، أن يردوهـا، يكـرّر النـداء مـرة بعـد مـرة، لا ليصـون جوهـرةً ماديـة، بـل ليختـبر قلوبًـا تزعـم أنهـا آمنـت بـالله ورسـوله، فـكان وقـع صمتهـم أقسـى مـن ضيـاع عِقدهـا، حتـى قالهـا مـن أعـماق قلبـه: «يـا أُخيَّـة احتسـبي طوقـك، فـوالله إن الأمانـة في النـاس لقليـل». [1]

قـد تسـتغرب أن يضيـع حـق في زمـن أبي بكـر، وتظـن أن مثـل هـذه الأحـداث لا تكـون إلا في عصـور الغفلـة والتفلـت، لكـنّ نظرتنـا للزمـن تحمـل في طيّاتهـا خداعًـا خفيًـا؛ فـكلّ جيـل يـرى زمنـه أشـدّ فتنـة، وينظـر للـماضي بعدسـةٍ تُظهـر النـور وتطمـس العتمـة، وهـذا خلـل في الإدراك لا في الحقيقـة، فليـس الزمـان هـو مَـن يَفسـد أو يَطهُـر، بـل النفـوس هـي التـي تعلـو وتهبـط، تصـدق وتخـون، تُشـعُّ أو تنطفـئ.

لقـد كانـت في زمـن الصحابـة نفـوس تجاهـد وقلـوب تزكـو، لكـن كانـت فيـه أيضًـا نفـوس تتلـكأ في الطاعـة، وتتقاعـس عـن الأمانـة، بـل وفيهـم مَـن نافـق، وكتـم مـا في صـدره، بـل منهـم مَـن ارتـدّ لمـا مـات النبـي ﷺ، فهـل كان الزمـان ناقصًـا أم أن النفـوس هـي التـي نقُصـت؟ فالعلّـة ليسـت في تبـدّل السـنين، بـل في خفـاء العلـل عـن العيـون.

النـاس في كل عـصر بـشر، فيهـم مَـن يبيـع دينـه بدرهـم، ومَـن يحفـظ الأمانـة ولـو جـاع، فيهـم مَـن يُخفـي خبثـه تحـت قنـاع الصـلاح، ومَـن يُـضيء ليلـه بدعـوة خفيّـة لا يراهـا إلا الله، ومـا يخلّـد مـن العصـور ليـس وفـرة الخـير فيهـا، بـل صـدى الذيـن ثبتـوا في خضـمّ الفتنـة، الذيـن لم يُغيّرهـم الزمـان بـل غـيّروا بـه، فصـاروا علامـات في جبـين التاريـخ.

ولعـلّ مـن أعظـم مـا تهبـه القـراءة في كتـب الأوائـل أنهـا تزيـل الغشـاوة عـن وهمنـا بـأن الإنسـان يتغـير بتغـير الزمـان، فتجعلنـا نبـصر حقيقـةً طالمـا غفلنـا عنهـا: أن الطبائـع الإنسـانية واحـدة في جوهرهـا، تتبـدل مظاهرهـا وتتشـابه دوافعهـا، لكـن الإنسـان هـو الإنسـان، تتنازعـه نـوازع الخـير ونـوازع الـشر، في كل عـصر وحـين.

١ مستدرك الحاكم ٤٣٦٣وصححه

انظـر إلى قـول الأعمـش، وقـد عايـش أجيـالًا متعاقبـة، فـرأى تفاوتهـا في الخُلـق والسـجايا، فقـال: «أدركـت أقوامـاً كان الرجـل منهـم لا يلقـى أخـاه شـهراً وشـهرين، فـإذا لقيـه لم يـزده عـلى: كيـف أنـت؟ وكيـف الحـال؟، ولـو سـأله نصـف مالـه لأعطـاه، ثـم أدركـت أقوامـاً لـو لم يلـقَ أخـاه يومـاً سـأل عـن أدق تفاصيلـه، ولـو سُـئِل عـن شيء مـن مالـه لبخـل بـه». وكأنـما يصـور لنـا مشـهدًا مـن حياتنـا اليـوم، بتغـير ألفاظـه وثبـات معانيـه، فهـذا السـخاء الباطنـي الـذي لا يُسرف في السـؤال لكنـه يغـدق بالعطـاء، يقابلـه جيـل يُغرقـك بالاهتـمام الظاهـري، وهـو عـن البـذل أبعـد مـا يكـون، فـما قالـه الأعمـش ليـس مجـرد حنـين إلى زمـنٍ غابـر، بـل شـهادة رجـل شـهد تبـدُّل القلـوب وتحـوّل النفـوس، فانحـسرت السـعة واتسـعت الظنـون، وربـما ظـنّ كلُّ جيـلٍ أنـه أشـقى مِـن الـذي قبلـه، فـراح ينـدب تبـدل الطبـاع وتـآكل القيـم وتناسـى أنـه جـزء أصيـل في المشـهد الكبـير .

ويزيـد الحريـري هـذا المعنـى عمقًـا حـين يـؤرّخ لانحـدار التعامـل بـين النـاس، لا بتغـير الزمـان، بـل بتراجـع القيـم فقـال: «تعامـل القـرن الأول بالديـن، حتـى رقّ الديـن، ثـم تعامـل الثـاني بالوفـاء حتـى ذهـب الوفـاء، ثـم تعامـل الثالـث بالمـروءة حتـى ذهبـت، ثـم تعامـل الرابـع بالحيـاء حتـى زال، ثـم لم يبـقَ للنـاس إلا التعامـل بالرغبـة والرهبـة».

تلـك الشـهادات الصادقـة لا تُفضَـح بهـا أجيـال سـابقة، ولا يُقـدّس بهـا مَـن مـضى، بـل تُخبرنـا أن التغـير ليـس قـدرًا يصيـب الزمـان، بـل خيـارًا يُمارسـه الإنسـان، فكـما عرِفـت كل العصـور خونـةً وأوفيـاء، جُبنـاءَ وشـجعانًا، فـإن معيـار النُبـل والضعـة ليـس الزمـان، بـل الضمـير الـذي يسـكن القلـب، والـذي يقـرأ التاريـخ بإنصـاف يـدرك أن النقـاء ليـس حكـرًا عـلى زمـنٍ دون آخـر، وأن انحـراف الطبـاع لا ينحـصر في عـصرٍ بعينه، بل هـو صراعٌ دائـم بـين النفـس ومـا تهـوى، لا يخمـد بمـرور السـنين، ولا يتقـدّم بتطـور الحضـارات، بـل يبقـى الامتحـان الأزلي للإنسـان أينـما كان.

فـإن أردت أن تحكـم عـلى زماننـا هـذا، فانظـر إلى نفسـك، هـل تصـدق فيـه؟ هـل تحفـظ فيـه حقًـا؟ هـل تقيـم ميـزان العـدل في الخفـاء قبـل العلـن؟ فـإن فعلـت، فاعلـم أن الخـير مـا زال حيًّـا، وأن الزمـان لم يتغـير، بـل أنـت مَـن منـح لـه معنـى.

لو كان لك ما أخطأ طريقه إليك

الأرزاق لا تضـلّ طريقهـا، والمقاديـر لا تخطـئ وجهتهـا، والأقـدار لا تُغـيِّر خـطّ سـيرها إرضـاءً لرغبـةٍ أو جـزع، فـكلّ شيءٍ يسـير وفـق ميـزانٍ دقيـقٍ لا يضـلّ ولا ينسـى، وإن تأخـر مـا ترجـوه، فاعلـم أن مـا عنـد الله يُؤتـى في حينـه، لا قبـل لحظـة ولا بعدهـا، فـما فاتنـا لم يكـن مقـدّرًا لنـا، ولـو كان لنـا لما ضـاع مـن بـين أيدينـا، فالـرزق كالمـوت، يعـرف طريقـه إلى صاحبـه، لا يحيـد عنـه ولا يضلّـه، ومـا حُرمـت منـه، وظننـت أنـه حرمـان، قـد يكـون وقايـة مـن شرّ لم تـره، الاختيـارات التـي اشـتاقت لهـا نفسـك ولم تدركهـا، ربـما لـو أدركتهـا لأرهقتـك وأشـقتك، والطريـق الـذي انحرفـت عنـه رغـم محاولاتـك، قـد يكـون اسـتمراره سـببًا في هـلاكك، كلهـا رسـائل تدعـوك إلى الطمأنينـة في مواجهـة الفقـد، وإلى يقـين بـأن مـا كتبـه الله لـك سـيصل إليـك، ومـا لم يكـن لـك لـن تنالـه مهـما سـعيت.

في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال: «إن العبـد لا يبلـغ حقيقـة الإيـمان حتـى يعلـم أن مـا أصابـه لم يكـن ليخطئـه، ومـا أخطـأه لم يكـن ليصيبـه».[1] كلُّ مـا كُتـب لـك سـيمضي إليـك ولـو سُـدّت في وجهـك الأبـواب، وكلُّ مـا لم يُقـدَّر لـك، لـن تنالـه ولـو مـددت لـه يـدك بـكلّ مـا تملـك، مـا كان لـك، سيسـوقه الله إليـك برفـق أو بعسـر، ومـا لم يكـن، سـتغلق دونـه الأبـواب مهـما طرقتهـا، فكـم مـن أمـر سـعيت إليـه بـكل جهـدك، ثـم رأيتـه يبتعـد عنـك رغـم محاولاتـك؟ وكـم مـن شيء لم تتوقعـه، فـإذا بـه يُقبـل إليـك بـلا عنـاء؟! وكـم مـن بـاب طرقتـه مـرارًا، وظننـت أن لا حيـاة لـك بدونـه، ثـم أغلـق أمامـك، لتكتشـف لاحقًـا أنـه لم يكـن يصلـح لـك إن جـاء؟! وكـم مـن خسـارة ظننتهـا نهايـة الطريـق، فـإذا بهـا بدايـة جديـدة لأمـر أعظـم مما كنـت تتخيـل؟! وكـم مـن دعـوة دعوتهـا بإلحـاح، وظننـت أن تأخيرهـا حرمـان، فـإذا بإجابتهـا تـأتي في الوقـت الـذي تحتاجهـا فيـه، لا حـين ظننـت أنـك تريدهـا؟! هـذه هـي حكمـة الأقـدار، لا تُخطـئ مواضعهـا، ولا تتـوه عـن أصحابهـا.

إن مـا كُتـب لـك سـيصل إليـك ولـو كان بينـك وبينـه أبعـد المسـافات، ومـا لم يُكتـب لـك لـن تنالـه ولـو مـددت إليـه كل أسـبابك، امـضِ في طريقـك مطمئنًـا، فالـرزق لا يُخطـئ صاحبـه، والخـير الـذي قسـمه الله لـك سـيجدك حيـث كنـت، في وقتـه المناسـب، وبالطريقـة التـي شـاءها الله، لا كـما خططـت أنـت.

١ تخريج كتاب السنة للألباني حديث ٢٤٧ وقال إسناده حسن

في كتابــه العزيــز، قــال الله ســبحانه: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [1] أي: لكيـلا يغـرق قلبكـم في الحـزن والأسـى عـلى مـا لم تحصلـوا عليـه، فالفقـدان قـد يكـون حمايـة، والـرزق الـذي لم يصلـك لم يكـن لك مـن الأسـاس، ولـو كان مقـدّرًا لـك لما حـال بينـك وبينـه شيء، و« تَأۡسَوۡاْ » مـن الأسـى وهـو الحـزن والضيـق الـذي يصيـب القلـب بعـد ابتـلاء حـلَّ بـه، وكـما أن الابتـلاء اختبـار للصـبر، فـإن العطـاء اختبـار للشـكر، ولهـذا حـذّرت الآيـة مـن الفـرح الـذي يتجـاوزه إلى الغـرور والعُجـب، فتجـد المـرء ينسـب مـا نالـه مـن النعـم إلى جهـده وحيلتـه، متناسـيًا فضـل الله ومنّـه، لـذا ختمـت الآيـة بقولـه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ في إشـارة إلى مـن أعمتـه النعمـة عـن حقيقتهـا، فبـات ينظـر إلى غـيره باسـتعلاء، وهـو لا يـدرك أن مـا في يـده ليـس إلا ابتـلاءً في صـورة عطـاء: أيشـكر أم يكفـر؟

وهــي آيــة تُــربّي روحًــا لا تلتفــت كثــيرًا للخســارات، ولا تغــترّ بالهبــات، بــل تــرى مــا وراءهــا مــن تدبــير الله وحكمتــه، فتهــدأ وتوقــن أن الخــير ليــس فيــما تــراه، بــل فيــما يريــده الله لــك، وليــس المقصــود مــن الآيــة النهــي عــن الحــزن أو الفــرح في ذاتهــا، فهــما مشــاعر فطريــة لا ينفــكّ عنهــا الإنســان، وإنــما النهــي عــن الحــزن الــذي يصحبــه جــزع وســخط عــلى أقــدار الله، وعــن الفــرح الــذي يتجــاوز شــكر النعمــة إلى الكــبر والتعــالي، فالمطلــوب هــو التــوازن: صــبر عنــد البــلاء، وشــكر عنــد النعــم، لا قنــوط عنــد الفقــد، ولا غــرور عنــد العطــاء، فالمؤمــن لا ينكــر مشــاعره، لكنــه يهذّبهــا، فــإن نــزل بــه البــلاء صــبر ورأى فيــه حكمــة، وإن أصابتــه النعمــة شــكر ولم يطــغَ.

فـلا تعلّـق قلبـك إلا بواهـب الخـير كلـه، ولا تجعـل تأخـر الـشيء بابًـا للشـك، ولا حرمانًـا للرضـا، ولا منفـى للأمـل، فـإن الله إذا منـع أعطـى، وإذا أخـذ عـوّض، وإذا أخّـر فإنـه هيـأ، ومـا عـلى المؤمـن إلا أن يُحسـن الظـن ويسـتبقي الطمأنينـة في قلبـه، فـإنّ الله لا يُدبّـر لـك إلا خـيرًا، وإن غـاب عنـك وجـه الخـير فيـه.

١ الحديد (٢٣)

القطرة الأخيرة لم تملأ الكوب

ربـما نتوهـم أن النقطـة التـي فـاض بهـا الكـوب هـي التـي أحدثـت الفـرق، لكنهـا في الحقيقـة لم تكـن إلا تتويجًـا لمـا سـبقها مـن قطـرات، فالسـعادة أو التعاسـة، والنجـاح أو الفشـل، والراحـة أو الإرهـاق، والقـوة أو الضعـف، كلهـا ليسـت وليـدة لحظـة واحـدة، بـل نتيجـة تراكـمات طويلـة مـن قـرارات وتجـارب ومواقـف مررنـا بهـا، حتـى جـاءت اللحظـة التـي أظهـرت حقيقتهـا، لم يولـد أي منهـا فجـأة بسـبب لحظـة عابـرة أو موقـف واحـد.

فالصداقـة التـي تنهـار فجـأة لم تهدمهـا لحظـة خـلاف عابـر، بـل كان هنـاك تراكـم مـن المشـاعر المكبوتـة والمواقـف غـير المحلولـة ، والـزواج الـذي ينتهـي بسـبب مشـكلة واحـدة لم يكـن مسـتقراً مـن الأسـاس، بـل كان يعـاني مـن تصدعـات لم يجـرِ إصلاحهـا في وقتهـا، والطالـب الـذي يرسـب في اختبـار لم يكـن رسـوبه بسـبب ورقـة الامتحـان وحدهـا، بـل لأن هنـاك إهمـالاً متراكـماً لم ينتبـه إليـه في الوقـت المناسـب، فكانـت النتيجـة مـا آل إليـه حالـه، والشـخص الـذي يعـاني مـن مشـاكل صحيـة خطـيرة لم يصـل إلى هـذه المرحلـة بسـبب وجبـة غـير صحيـة واحـدة، بـل بسـبب نمـط حيـاة غـير متـوازن، والريـاضي الـذي حقـق إنجـازاً لم يبلغـه بسـبب تمريـن أخـير أجـراه، بـل لأن وراءه سـنوات مـن التدريـب والانضبـاط، وحتـى في عـالم الأعـمال، فالشركـة التـي تنهـار لم تسـقط بسـبب أزمـة واحـدة فقـط، بـل نتيجـة قـرارات خاطئـة تراكمـت عـبر الزمـن، والتاجـر الـذي يحقـق ثـروة لم يفعـل ذلـك بـين عشـية وضحاهـا، بـل بفضـل سـنوات مـن التخطيـط والعمـل الجـاد .

كلهـا نـماذج مـن واقـع الحيـاة تخبرنـا أن القطـرة الأخـيرة لم تكـن هـي مـن مـلأت الكـوب، بـل كانـت مجـرد جـزء مـن رحلـة طويلـة أوصلـت الأمـور إلى مـا هـي عليـه ـ نجاحًـا أو إخفاقًـا ـ، تمامًـا كـما يُقـال في المثـل الشـائع: «القشـة التـي قصمـت ظهـر البعـير»، فالانهيـار لا يحـدث بسـبب المشـكلة الأخـيرة وحدهـا، بـل يـأتي نتيجـة تراكـم طويـل مـن الضغـوط والمشـاكل التـي لم يتـم التعامـل معهـا في وقتهـا حتـى جـاءت اللحظـة التـي لم يعـد فيهـا الاحتـمال ممكنًـا، فـلا يحـدث الانفجـار فجـأة، بـل هـو نتيجـة تراكـمات لم ينتبـه إليهـا

أصحابهـا أو ظنـوا أنهـا أمـور صغـيرة يمكـن تجاوزهـا، حتـى جـاءت القشـة الأخـيرة لتكشـف أن الأمـر لم يكـن بسـيطًا كـما ظنـوا.

كل قطـرة في رحلتـك لهـا أثرهـا ـ إيجابًـا أو سـلبًا ـ، وإن لم تـره الآن، فهـو يتجمـع في صمت، حتـى تـأتي تلـك اللحظـة التـي يفيـض فيهـا الكـوب، فـيراه الجميـع ممتلئًـا، لكنـك وحـدك سـتدرك كـم مـن الجهـد اسـتغرقه ليصـل إلى ذلـك الامتـلاء، تلـك اللحظـات التـي لم يلتفـت إليهـا أحـد، للجهـود التـي بُذلـت بصمـت، للأيـام التـي مضـت في صراع داخـلي بـين اليـأس والإصرار، فالقطـرة الأخـيرة لا تمـلأ الكـوب، لكنهـا تظهـر امتـلاءه، وكذلـك الأحـلام لا تتحقـق مـن ضربـة واحـدة، بـل مـن محـاولات متكـررة، مـن خطـوات صغـيرة متراكمـة، مـن صـبر طويـل لم يكـن يـراه أحـد، حتـى تـأتي لحظـة يظنهـا النـاس حاسـمة، لكنهـا ليسـت سـوى نتيجـة لرحلـة طويلـة، فـلا تغـتر بوهـج النهايـات، ولا تسـتهِن ببذور البدايـات.

القطـرة الأخـيرة لا تمـلأ الكـوب، لكنهـا تكشـف عـن كل قطـرة سـبقتها، تُعلن أن مـا خفي تحـت السـطح لم يكـن هبـاءً، بـل كان بنـاءً صامتًـا، صبـورًا، عنيـدًا، كذلـك الأحـلام، لا تنبـت مـن صـدى التمنّـي، ولا تنبثـق فجـأة مـن فـراغ، بـل تُصـاغ في الخفـاء، في سـكون الليـالي، في مشـقّة الأيـام، في العثـرات التـي تُقـاوم، والتضحيـات التـي لا تُـرى، والدمـوع التـي تُخفـى عـن الأعـين.

إن كل لحظـة حاسـمة مـا هـي إلا حصـادٌ لتاريـخ مـن الصـبر، وإن كل مجـد ظاهـر تقـف خلفـه خيبـات لم تُـدوَّن، ومعـارك لم يُصفّـق لهـا أحـد، وأرقٌ لم يُشـاركه أحـد، فإيـاك أن تظنّ أن المجـد يُولـد دفعـة واحـدة، أو أن النجـاح يأتيـك في صيحـة انتصـار، بـل يُنسـج خيطًـا خيطًـا مـن خيبـاتٍ صامتـة ومواقـف تُلزمـك الثبـات، وتُعلّمـك كيـف تسـير حتـى حين لا تـرى الطريـق، فـلا تسـتعجل القطـرة الأخـيرة، ولا تنتظرهـا وكأنهـا كل شيء، ولا تظنـنّ أن البدايـات الخافتـة أقـل شـأنًا مـن النهايـات المدويـة، فـكل قطـرة لهـا دور، وكل خطـوة لهـا ثقـل، وكل لحظـة صـبرٍ هـي حجـر في صرح الإنجـاز.

في الرخاء يتقن الجميع التمثيل

في أيـام الرخـاء، يتقـن الجميـع ارتـداء الأقنعـة، وتتشـابه الوجـوه في الابتسـامة، ويتكاثـر حولـك مـن يمـلأون الوقـت بكلـمات لطيفـة وأفعـال ملسـاء، فـكل شيء سـهل حـين تكـون الأبـواب مفتوحـة، والموائـد عامـرة، والدنيـا تُـضيء وجـوه النـاس، ولكـن مـا أيـسر أن تبـدو فاضـلًا حـين لا يمتحنـك الجـوع، أو الحـزن، أو الخـوف، أمـا إذا انقلبـت الموازيـن، وضاقـت عليـك الدنيـا بـما رحبـت، حينئـذٍ تُرفـع الأقنعـة، وتنكشـف الوجـوه عـلى حقيقتهـا، ففـي لحظـة الانكسـار، لا تصنـع المواقـف أحـدًا، بـل تكشـف مـا كان مسـترًا في خفايـا النفـوس، تُظهـر مَـن كان في جـوارك حقًـا، ومَـن كان ظـلًا لظلّـك لا أكثـر.

في أزمنـة العـسر، حـين تتبـدد الطمأنينـة كضـوءٍ تهـاوى، يُمتحـن الصـبر، وتُـوزن المـروءات، وتظهـر المعـادن، فمنهـم مَـن يتخـلى حتـى قبـل أن تطلـب، ومنهـم مَـن يبقـى، لا لأنـك طلبـت، بـل لأن الوفـاء عنـده خُلُـق لا يُفـاوض عليـه، فـلا تُخـدع بكثـرة المصفقين في أيامـك البيضـاء، ولا تـزن الرجـال بحديثهـم في مجالـس الرضـا، فالحقيقـة تولـد في العاصفـة، والذهـب لا يُختـبر إلا بالنـار، وفي مسـيرة الحيـاة، سـتمرُّ بالكثـير مـن الوجـوه، وتتعامـل مـع شـتى الأنـواع مـن البـشر، تجـد مَـن قلبـه كالجوهـرة النفيسـة، أصيـلٌ في مواقفـه، نقـيٌّ في معدنـه، لا يتبـدل مـع تبـدل الظـروف، ولا تغـيره المصالـح، ومنهـم مَـن لمعانـه زائـف، يخدعـك ببريقـه حتـى تقـترب، فتكتشـف أنـه ليـس سـوى قطعـة مـن معـدن رخيـص، سرعـان مـا يصـدأ عنـد أول اختبـار.

في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال: «النـاسُ معـادِنٌ كمعـادِنِ الذهـبِ والفضـةِ»[1] النـاس معادن أي: أصـولٌ مختلفـة، تتفـاوت أخلاقهـم، طباعهـم، خيرهـم وشرهـم، صبرهـم وجزعهـم، كـما تتفـاوت المعـادن، وكلهـا مـن باطـن الأرض منهـا النفيـس النـادر ومنهـا الخسـيس الـذي لا قيمـة لـه، منهـا الذهـب الـذي يـزداد قيمتـه مهـما مـرت عليـه السـنون، ومنهـا الحديـد الـذي يثبـت في الشـدائد، ومنهـا مـا يتغـير مـع أقـل مؤثـر، ومنهـا مـن لا تميـز لـه، يتشـكل حسـب مـا تُمليـه عليـه الظـروف.

---

١ البخاري ٣٤٩٦ ومسلم ٢٦٣٨

لكـن مـا الـذي يُظهِـر هـذا التبايـن بـين النـاس؟ مـا الـذي يجعلنـا نصنـف هـذا بالخـيّر وهـذا بالشريـر؟ مـا الـذي يجعلنـا نقـول هـذا تقـي وهـذا شـقي؟ والتسـاؤل الأهـم كيـف تعـرف معدنـك أنـت؟ هـل أنـت ممـن يصمـد في وجـه التحديـات؟ أم ممـن يتلـون حسـب المصالـح؟ هـل أنـت ممـن يفـي بوعـده، أم ممـن يُغـيِّر مبادئـه وفـق الحاجـة؟

يقـول النـاس في أمثالهـم : «في البحـر كل الأسـماك تحسـن العـوم لكـن عنـد الميـزان لـكل منهـا سـعر» وهـذا ينطبـق تمامًـا عـلى البـشر؛ ففـي أوقـات الرخـاء، يبـدو الجميـع نبـلاء ، وكأنهـم ملائكـة لا عيـب فيهـم، إذ لا شيء يدفعهـم لإظهـار حقيقتهـم المخفيـة، فالاختبـار الحقيقـي يظهـر في الأزمـات والشـدائد، فهـي التـي تُميـط اللثـام عـن النفـوس، وتكشـف معـادن النـاس كـما تكشـف النـار عـن صفـاء الذهـب أو زيفـه، عنـد الحاجـة، يظهـر الصـادق مـن المتصنـع، الكريـم مـن البخيل، والشـجاع مـن المتخـاذل، فليسـت الكلمات ولا الادعـاءات هـي مـا يحـدد قيمـة الإنسـان، بـل مواقفـه عندمـا يُوضـع أمـام اختبـار الضمير، حيـث لا مجـال للتجمُّـل، ولا فرصـة لإخفـاء الحقيقـة، وقـد قـال الفضيـل بـن عيـاض: «النـاس مـا دامـوا في عافيـة مسـتورون، فـإذا نـزل بهـم البـلاء صـاروا إلى حقائقهـم، فصـار المؤمـن إلى إيمانـه، وصـار المنافـق إلى نفاقـه». فالمحـن ميـزانٌ عـادل، تُظهـر مَـن كان لـك حقًـا، ومَـن كان لنفسـه فحسـب، ولـن تعـرف معـادن البـشر في أيـام الطمأنينـة، وحدهـا أيـام الفـزَع مَـن سـتخبرك، فالشـدائد ليسـت مجـرد ابتـلاءات، بـل مرايـا صادقـة تعكـس معـادن البـشر عـلى حقيقتهـا، لا كـما يدّعـون.

وهـذا مـا وصفـه القـرآن الكريـم بدقـة حـين ربطـه بقضيـة الإيـمان والعبـادة، فقـال تعـالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[١] إنـه الإيـمان المـشروط، الـذي يتلـون حسـب المصلحة، فـإن وافق هـواه ظهـر التقـى والـورع، وإن دارت الأيـام وتبدلـت الأحـوال، سـقط عنـه قنـاع التديـن وكشـف وجهـه الحقيقـي، فمصلحتـه هـي الميـزان، وليسـت المبـادئ ولا العقيـدة، ومثـل هـؤلاء لا تثبـت لهـم مواقـف، ولا يُرجى منهـم وفـاء، فالمصلحـة وحدهـا هـي التـي تحكـم علاقتهـم بالنـاس وبالحيـاة نفسـها.

١ الحج [١١]

العَجلة تصم الآذان عن نصيحة العقل

كتـب عمـرو بـن العـاص إلى معاويـة يعاتبـه في التـأني، فكتـب إليـه معاويـة: «أمـا بعـد، فـإن التفهـم في الخـير زيـادة ورشـد، وإن المتثبـت مصيـب والعَجِـلْ مخطـئ، وإن مـن لم ينفعه الرفـق ضرّه الخـرق، ومـن لم تعظـه التجـارب لم يـدرك المعـالي، ولا يبلـغ الرجـل أعـلى المبالغ حتـى يغلـب حلمـه جهلـه، والعاقـل سـليم مـن الزلـل بالتثبـت والأنـاة وتـرك العجلـة، ولا يـزال العَجِـل يجتنـي ثمـرة النـدم».

في بعـض التريـث خـير، بـل هـو الخـير كلـه أحيانًـا، فليـس كل مـا يُـدرك بسرعـة يسـتحق العنـاء، ولا كل مـا يتأخـر ضيـاع، فالمسـافة بـين العجلـة والتـأني هـي الفـارق بـين نـدم يستوطن القلـب، وحكمـة تـضيء الـدرب، فكـم مـن أمـر بـدا مسـتعجلًا في أعيننـا، فتبـين لنـا بعـد حـين أن الانتظـار كان أنفـع وأصلـح! وكـم مـن خطـوة هرعنـا إليهـا ظنًـا أنهـا سـتختصر علينـا الطريـق، فلـم تكـن إلا تعثـرًا كلفنـا أضعـاف مـا كنـا نهـرب منـه! وكـم مـن قـرار اتُّخـذ في غمـرة التسرع فـكان هدمًـا بـدل بنـاء! وكـم مـن كلمـة اندفعـت بـلا رويـة فكانـت طعنـة لا تندمـل!

التـأني ليـس ترفًـا، بـل هـو ركـن راسـخ مـن أركان النجـاح، والعجلـة لم تكـن يومًـا سـبيلًا لـلإدراك، بـل طريقًـا معبّـدًا بالنـدم، فالتفكـر قبـل الفعـل، والتمهـل قبـل الحكـم، والتريـث قبـل الـرد، هـو مـا يرفـع المـرء فـوق مـوج العاطفـة العـارم، فيرسـو بسـفينته إلى بـرّ الصـواب، والعاقـل ليـس مَـن يسـابق الزمـن بتهـور، بـل مَـن يـدرك أن لـكل أمـر أوانًـا، ولـكل خطـوة وقتهـا، وأن التعجـل قـد يكـون وأدًا للفـرص بـدل اغتنامهـا.

فالحيـاة لا تُقـاس بعـدد الخطـوات التـي نقطعهـا، بـل بجـودة الطريـق الـذي نسـلكه، ومَـن اسـتعجل الحصـاد قبـل نضـوج الثمـر، لم يـذق منـه إلا طعـم المـرارة، فـما قيمـة قـرار يُتخـذ باندفـاع، ثـم يقـضي صاحبـه بقيـة عمـره يحـاول إصـلاح مـا أفسـدته العجلـة؟ ومـا جـدوى كلـمات تخـرج بـلا حسـاب، ثـم لا تكفـي الاعتـذارات لمحـو أثرهـا؟

إن كثـيرًا مـن الأخطـاء الجسـيمة لم تكـن لتقـع لـو أن أصحابهـا منحـوا أنفسـهم برهـة للتفكـير، لحظـة للـتروي، قليـلًا مـن التريـث قبـل الاندفـاع وراء العاطفـة أو الهـوى.

دائـما كل إفـراط أو تفريـط يـضر ولا يفيـد، فالعجلـة تـأتي بعواقبهـا الوخيمـة والإفـراط في التـأني يُذهـب بالفـرص أدراج الريـاح، لـذا حينـما نتحـدث عـن التـأني لا نقصـد بـه التراخـي والخمـول، إنـما التريـث ولـو برهـة قبـل اتخـاذ قـرار في أمـر مصـيري، فالتـأني ليـس مجـرد تأجيـل للخطـوات، بـل هـو تبنـي لنهـج يُتيـح للفكـر التأمـل في تفاصيـل اللحظـات الصغـيرة، ويسـمح للقلـب بـأن ينعـم براحـة البـال وسـط صخـب الحيـاة، إنـه ليـس تهاونًـا أو بطـأً عقيـمًا، بـل هـو اسـتماع لصـوت العقـل قبـل أن يـصرخ الزمـن بقراراتـه، إنـه أشـبه برسـالة مـن الزمـن بـأن لـكل شيء وقتـه المناسـب.

لـكل قـرار متـأنٍ صـدى يبقـى مـع الذكريـات، يذكّـرك بـأن الاسـتعجال قـد يحجـب التفاصيـل، فليـس التأخـر دائـمًا خسـارة، وليـس البـطء دائـمًا تقاعسًـا، بـل في بعـض التريـث خـير، لأن الخطـوة التـي تـأتي في وقتهـا قـد تُجنبـك الكثـير مـن النـدم، ولأن القـرار الصائـب ليـس هـو الأسرع، بـل هـو الأعمـق نظـرًا والأبعـد أثـرًا.

إن الإنسـان في عجَلتـه يهـدم أكثـر ممـا يبنـي، وفي قسـوته يـؤذي نفسـه قبـل أن يـؤذي غـيره. فكـم مـن قلـب أبعدنـاه ونحـن نظـن أننـا نحمـي كبرياءنـا؟ وكـم مـن ودّ قتلنـاه بأيدينـا، ظنًـا منّـا أننـا نحفـظ كرامتنـا؟

فـما خسرتـه حـين اشـتدّت يـدك، ربـما كنـت ستكسـبه لـو ربـتَّ عليهـا بلـين، ومـا أضعتـه حـين رفعـت صوتـك، ربـما كنـت سـتناله لـو ترفعـت عنـه بـأدب، ومـا فرّقتـه حـين قسـوت، ربـما كنـت سـتجمعه لـو منحتـه دفءَ الحنـان، ومـا أصررت عـلى فقدانـه بالعنـاد، ربـما كنـت سـتحافظ عليـه لـو اخـترت التفاهـم طريقًـا، فلعلـك كنـت سـتأسر مَـن كسرتـه، وتربـح مَـن خسرتـه، لـولا أنـك اسـتعجلت الـردّ قبـل أن تفهـم، واخـترت القسـوة قبـل أن تمنـح فرصـة، وتمسّـكت بالكبريـاء حتـى فـات الأوان.

يـا صديقـي، ليسـت كل معركـة تُخـاض بالسـيف، وليسـت كل قضيـة تُكسـب بالصـوت الأعـلى، أحيانًـا يكفـي أن تُبقـي البـاب مواربًـا ليعـود مـن ظننتـه قـد رحـل إلى الأبـد .

زهر ينبت من صخور الوقت

في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال « ومَـن يَتَصَـبَّرْ يُصَـبِّرْهُ اللّٰهُ » [1] يتصـبَّر، أي: يجتهـد في الصـبر عـلى غـير طبيعتـه، فليـس الصـبر دائـمًا سـجية يولـد بهـا الإنسـان، بـل قـد يكـون فضيلـة يكتسـبها بالمجاهـدة، قـد يبتـلى المـرء بـما لا تطيقـه طبيعتـه، فيغلبـه الضجـر ويهـمّ بالشـكوى، لكنـه يعـاود شـدّ قلبـه ويمنـع لسـانه، بدايـة يصـبر تكلفًـا لا طبعًـا، لكنـه يجـد في ذلـك التكلـف بابًـا إلى التحـلي بـه، فيجازيـه الله بـأن يسـكب في قلبـه مـن الطمأنينـة مـا يبـدد اضطرابـه، ويمنحـه مـن اليقـين مـا يجعلـه أقـوى ممـا كان يظـن، فالصـبر لا يـأتي دفعـة واحـدة، بـل يُبنـى بالتكـرار، وتُـروّض عليـه النفـس شـيئًا فشـيئًا، حتـى يصبـح خُلقًـا متأصـلًا فيهـا، لا مجـرد ردة فعـل وقتيـة.

والتصـبر ليـس فقـط عـلى المصائـب، بـل عـلى مشـقة الحيـاة، عـلى تأخـر الأحـلام، عـلى النـاس وأخطائهـم، عـلى الظـروف ومتغيراتهـا، فإننـا لا نقـوى بالصدمـات إنـما بالصـبر عليهـا والتعـافي منهـا، فالـذي تحمَّـل مشـاق الصدمـة لا يخـرج مـن محنتـه كـما دخلهـا، بـل يخـرج أقـوى، أنضـج، وأكثـر يقينًـا بـأن كل شـدة تحمـل في طياتهـا منحـة مخفيـة، لا يدركهـا إلا مـن ثبـت وصـبر عليهـا حتـى انكشـف لـه وجـه الخـير فيهـا، وإلا فكيـف تسـتقضي الله في أمـرك ثـم تسـخط إن رأيـت قضـاءه مخالفـاً لهـواك؟

كثـيرًا مـا نعـبر مواسـم يابسـة، وأيامًـا كالصخـر، قاسـية الملمـس، لا تهبنـا إلا ذرات أمـل متناثـرة، لكـن في أحشـاء تلـك القسـوة، حيـث يظـن المـرء أن الحيـاة قـد انطفـأت، يتسـلل خيـط سرّي يحمـل وعـدًا بالحيـاة، يمـد جـذوره في الصمـت، ويتشـبث بالـشروخ الضيقـة، يـشرب مـن نـدى متقطّـع، وينمـو عـلى مهـل، حتـى يشـق قلـب الصخـر ويواجـه الضـوء بجبـين مرفـوع، وهكـذا الإنسـان حـين تحتضنـه القسـوة، وتشـتد عليـه قبضـة الأيـام، لا ينجـو بقـوة الظـروف، بـل بصلابـة القلـب، إنـه يتعلـم أن يُصغـي لصـوت داخـلي خافـت يهمـس لـه: «ليـس عليـك أن تنتـصر دفعـةً واحـدة، يكفـي أن تبقـى واقفًـا حتـى يـأتي موسـم الإزهـار» وحـين يحـين ذلـك الموسـم، يـدرك أن الجفـاف لم يكـن إلا امتحانًـا لقدرتـه عـلى حمـل بـذرة الحيـاة في قلبـه، وأن الزمـن الـذي يقسـو، هـو نفسـه الـذي يُنضِـج الثـمار.

---

١ البخاري ١٤٦٩

إننا لا نقوى بالصدمات، إنما بالتعافي منها

الصدمات بحد ذاتها قد تتركنا أكثر ضعفًا، أكثر هشاشة، إنما الذي يبني المرء رحلته في التخطي، في التعافي بعد الصدمة، في ترميم روحه بعد التصدع ، وفي ترتيب فوضى المشاعر والأفكار بعد التجربة، فالتعافي من الصدمة ليس مجرد نسيان أو تجاوز، بل هو إدراك أن ما حدث لم يكن النهاية، وأننا رغم كل شيء ما زلنا قادرين على الوقوف، على الاستمرار، على إيجاد أنفسنا من جديد، لا كما كنا، بل كما أصبحنا، أقوى، أعمق، وأكثر فهمًا، وأن نخرج من التجربة بشيء مختلف، بنسخة أشد صلابة وأقدر على مواجهة الحياة.

إنه يعني أن نسمح لأنفسنا بأن نشعر بالحزن لكن دون أن نستسلم له، أن نفهم ألمنا دون أن نصبح أسرى له، أن نتعلم كيف نحمل ذكريات الماضي دون أن تثقل خطانا نحو المستقبل، ستأتي لحظات تشعر فيها أنك عدت إلى نقطة الصفر، وأن الجرح ما زال نابضًا كما كان، لكن لا بأس، فهذا جزء من الرحلة، لا تقسو على نفسك في الأيام التي تبدو فيها ضعيفًا، ولا تستعجل العودة إلى ما كنت عليه، فربما لم يكن ما كنت عليه هو الأفضل لك أصلًا، فالقوة ليست في تجاهل الألم، بل في امتلاك القدرة لمواجهته، وفي تقبله كجزء من رحلتنا، ثم المضي قدمًا دون أن نسمح له أن يعطل حياتنا .

إننا نقوى حين نصنع من ألمنا درسًا، وحين نحول الصدمات إلى بداية جديدة لا إلى قيد يعيقنا، نقوى حين نمنح أنفسنا حق الحزن، ولكن دون أن نغرق فيه، حين نبحث عن النور رغم العتمة، حين نرفض أن نظل أسرى لماضٍ انتهى، فالتعافي ليس تجاهلًا للألم، بل هو اعتراف به دون أن نستسلم له، هو أن نحمل ندوبنا بفخر، لا كعلامات ضعف، بل كأوسمة تثبت أننا نجونا، أننا تعلمنا، وأننا رغم كل شيء ما زلنا قادرين على الوقوف من جديد.

التعافي لا يحدث فجأة، ولا يأتي على هيئة معجزة تمحو كل أثر للألم، بل هو عملية مستمرة، تحتاج إلى الصبر والوعي والرغبة في الشفاء، هو أن تتعلم كيف تعيد بناء نفسك رغم التصدعات، كيف تعيد رسم ملامح أيامك رغم ما فقدته، كيف تعيش

دون أن يحمـل قلبـك مـرارة مـا مـضى، هـو أن تـدرك أن الحيـاة لـن تتوقـف لتلملمـك، بـل عليـك أن تمـضي رغـم الجـراح، أن تختـار ألا تبقـى عالقًـا في دور الضحيـة، أن تسـتعيد زمـام أمـرك بنفسـك، إنـه لا يعنـي نسـيان مـا حـدث، بـل التعايـش معـه بطريقـة لا تعيـق الحيـاة.

فكـم مـن إنسـان مـرّ بمحنـة فـزادت ضعفـه، وآخـر مـرّ بهـا نفسـها فخـرج منهـا أصلـب عـودًا وأهـدأ روحًـا، والفـرق ليـس في وقـع الألم بـل في مسـاحة الصـبر، وفي قـدرة القلـب عـلى أن يضمّـد انكسـاره بالإيـمان، لا بالإنـكار.

إن القـوة الحقيقيـة ليسـت في ألا نسـقط، بـل في أن نقـوم مـن السـقوط بكرامـة، نلملـم بقايـا أنفسـنا بهـدوء، ونوقـن أن الله مـا ابتلانـا ليُهلكنـا، بـل ليهيئنـا لمـا هـو أعظـم، وكل تعـافٍ بعـد وجـع هـو شـهادة عـلى أن داخلنـا بقايـا مـن نـور لا تنطفـئ، وأننـا مهـما تكسّرنـا يمكننـا أن نُعـاد أجمـل ممـا كنـا.

والبدايـة تكـون بالاعـتراف بـالألم بـدلًا مـن إنـكاره، فالهـروب لا يشـفي الجـراح، بـل يتركهـا تنـزف في الخفـاء، اسـمح لنفسـك بالشـعور بالحـزن، بالغضـب، ولكـن لا تـدع هـذه المشـاعر تسـتهلكك، تحـدث عـمّا يؤلمـك مـع شـخص تثـق بـه، أو دوّنـه عـلى الـورق إن لم تجـد مـن يسـمعك، لا تتعجـل التعـافي، فـكل شـخص لـه وقتـه الخـاص في الشـفاء، لا تقـارن رحلتـك بغـيرك، ولا تجلـد نفسـك إن اسـتغرقت وقتًـا أطـول ممـا توقعـت، غـيّر البيئـة التـي تذكّـرك بـالألم، وابحـث عـن عـادات جديـدة تعيـد بنـاءك نفسـيًا وعاطفيًـا، اعتـنِ بجسـدك كـما تعتنـي بروحـك، فالعافيـة الجسـدية تنعكـس عـلى النفـس، مـارس الرياضـة أو أي نشـاط يسـاعدك عـلى تصفيـة ذهنـك، سـامح نفسـك، وتقبـل أنـك لـن تعـود كـما كنـت قبـل الصدمـة، لكـن يمكنـك أن تكـون نسـخة أقـوى، أكثـر وعيًـا، وأكثـر امتنانًـا للحيـاة

اسـمح لنفسـك بتقديـر التقـدم الـذي تحـرزه مهـما بـدا ضئيـلًا، فالتعـافي لا يعنـي فقـط التخلـص مـن الألم، بـل بنـاء حيـاة تتسـع لمـا هـو أكثـر مـن مجـرد تجـاوز الصدمـات، حيـاة مليئـة باللحظـات التـي تصنـع لـك معنـى جديـدًا وسـعادة خالصـة لا ترتبـط بالمـاضي، بـل تنبـع مـن الحـاضر ومـا تصنعـه فيـه .

الضجيج لا يصنع وزنًا

«كثـرة التباهـي نقـص» هـي مقولـة شـائعة تدعمهـا تجـارب الحيـاة أن كثـيرًا مـن النـاس يحـاول تعويـض مـا يفتقـده بإظهـار مـا يمتلكـه، وكثـيرًا مـا يُخيّـل إلى مَـن يكثـر التباهـي أنـه يُثبـت ذاتـه ويرفـع مِـن قـدره، غـير أن التباهـي المفـرط لا ينبـع مـن وفـرة، بـل مـن خـواءٍ مسـتتر، فالنفـس الممتلئـة حقًـا لا تضـجُّ بالصـوت، ولا تُكثـر مـن العـروض، لأنهـا مشـغولة بالبنـاء لا بالعـرض، وبالجوهـر لا بالمظهـر، فمـن كان يملـك اليقـين بقيمتـه لا يلهـث خلـف تصفيـق، ولا ينتظـر المديـح ليشـعر أنـه موجـود، بـل يمـضي في حياتـه ثابـت الخطـى، صامـت العطـاء، واثقًـا أن الأثـر أصـدق مـن الزهـو، وأن النـاس تـرى النـور دون أن يـصرخ.

أمـا كثـرة التباهـي، فليسـت إلا قناعًـا رقيقًـا يخفـي هشاشـة في الداخـل، وكلـما ازداد الصـوت، ازداد الشـك، وكلـما اتسـعت الزينـة، ضاقـت الحقيقـة، وقديـمًا قالـوا: «مـن مـلأ الدنيـا حديثًـا عـن نفسـه، فاعلـم أنـه لم يجـد فيهـا مَـن يشـهد لـه سـواه».

نعـم إن إظهـار النعـم أمـر محمـود ولا عيـب فيـه، وإظهـار المـرء مـا يحسـنه يضعـه في موضـع يليـق بـه، لكننـا نقصـد ذاك التفاخـر الـذي لا حاجـة لـه ولا فائـدة منـه إلا التباهـي بـما تملـك عـلى مَـن لا يملـك، فالتباهـي ـ المبالـغ فيـه ـ ليـس دليـلًا عـلى العظمـة بـل هـو انعـكاس لنقـص داخـلي يحـاول صاحبـه تعويضـه بأضـواء الـكلام وإبهـار الآخريـن.

فمـن يكثـر مـن الحديـث عـن إنجازاتـه وممتلكاتـه هـو غالبًـا مَـن يشـعر بفـراغ لا يسـتطيع مـلأه إلا بإظهـار ذاتـه أمـام النـاس، وكأنـه يبحـث عـن تصفيـق خارجـي ليُطمئـن قلبـه، ليتحـول التباهـي إلى قنـاع يخفـي ضعـف الثقـة بالنفـس، فأصـدق الثقـة مـا تجـلّى في الصمـت، ومـا أثبتتـه الأفعـال دون أن تسـتدعي ضجيـج التفاخـر.

وكل إنسـان أدرى بحقيقـة دوافعـه حـين يُظهـر شـيئًا مـن ذاتـه، أهـو نقـص يسـعى إلى سـتره أم نعمـة يقـرّ بهـا؟ فالتباهـي ليـس دائـمًا مذمومًـا، فقـد يكـون إظهـارًا للحـق مـن غـير تزكيـة، كـما فعلـت أم المؤمنـين عائشـة حـين سُـئلت عـن مسـألة في الغُسـل، وكان السـائل مـترددًا مسـتحييًا، فأجابتـه بقولهـا «عـلى الخبـير سـقطت» أي أنـك سـألت مـن

يملـك العلـم الأكيـد فيـما تسـأل عنـه، فلـم يكـن في كلامهـا فخـرٌ ولا تعـالٍ، بـل إدراك واعٍ لمـا تحملـه مـن علـم.

ويبقـى الإنسـان أصـدق مَـن يـزن ذاتـه، فـإن كان مـا يُظهـره للنـاس تزييفًـا لتعويـض خـواءٍ في الداخـل، فقـد اختـار أن يبيـع جوهـره بثمـن بخـسٍ، إذ لا نجـاة لمـن انشـغل بتجميـل صورتـه عـلى حسـاب بنـاء حقيقتـه، أمـا مَـن عـرف نفسـه حـق المعرفـة، فلـم يحتـج إلى تضخيمهـا ولا إلى تسـويقها، فالأثـر أبلـغ مـن الادعـاء، والعمـل الصـادق أرسـخ مـن كل زينـة، فليس التواضـع ضعفًـا، بـل هـو القـوة التـي لا تـصرخ، والعظمـة التـي لا تسـتعرض، إنـه حضـور راسـخ لا يسـتمد قيمتـه مـن نظـرات النـاس، بـل مـن صـدق صاحبـه، ومـن أثـره الخفـي الـذي يبقـى وإن غـاب صوتـه.

والأشـد خطـرًا مـن التباهـي بالباطـل أن يعتـاد المـرء عـلى قيـاس قيمتـه بعيـون الآخريـن، فيصـير أسـيرًا لنظرتهـم، يتكلـف في كل قـول وفعـل ليحصـل عـلى تصفيقهـم، ويشـعر بالضآلـة إن لم يُلحـظ أو يُمـدح.

وهـذه العبوديـة الخفيـة تـسرق مـن الإنسـان جوهـره، فتجعلـه يركـض خلـف أضـواء زائلـة بـدلًا مـن أن ينشـغل ببنـاء نفسـه، فالفـرق شاسـع بـين مَـن يسـعى لإثبـات وجـوده عـبر اسـتعراض مـا لديـه، وبـين مَـن يثبـت وجـوده بصمـت، بعملـه وأثـره، فالقيمـة الحقيقيـة لا تُطلـب، بـل تُسـتحق، ومَـن كان واثقًـا ممـا لديـه، فلـن يشـغله أن يُـرى، لأن أثـره سـيمتد حتـى لـو لم يتحـدث عنـه، فالإنجـاز الحقيقـي يعلـن عـن نفسـه دون ضجيـج.

إن العظمــة لا تحتــاج إلى إعــلان، والتفــوق لا يُثبــت بالضجيــج، بــل يُلمَــس في الأثــر، ويُعـرف في صمـت العمـل، ويظهـر حـين ينكشـف الزيـف وتبقـى الحقيقـة وحدهـا، تلمـع بـلا طـلاء، وتسـمو بـلا تبـاهٍ.

حيرة الخطى لا تصنع وصولًا

أحيانًا يكون الحل أمامنا بسيطًا، لكن الإفراط في التعقيد والسعي وراء التفاصيل غير المهمة قد يجعل الأمور أصعب بلا داعٍ، ليست كل الأوامر بحاجة إلى تحليل واستفسار مفرط، فحين أمر الله بني إسرائيل بذبح بقرة، كان الأمر بسيطًا في بدايته:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ ، لكنهم لم يمتثلوا مباشرة، بل بالغوا في التساؤل والتدقيق، فسألوا عن عمرها، ثم لونها، ثم طبيعتها، حتى ضيقوا على أنفسهم وجعلوا الأمر أشد تعقيدًا مما كان، وفي النهاية، لم يجدوا إلا بقرةً نادرةً باهظة الثمن ليذبحوها، فليس كل أمر يحتاج إلى جدال، وليس كل تفصيل يستحق التوقف عنده، فالإفراط في البحث عن شروط أكثر مما طُلب قد يكون عثرةً في طريق الفعل، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة منذ البداية، لما ضيقوا على أنفسهم حتى صار إيجادها عسيرًا.

كلنا تدفعنا الحياة لطرق شتى متفرعة ومع الوقت يظهر التشتت، تشتت الفكر أحيانا والرغبات أخرى ، فنترك أنفسنا للحياة، نسير في طرق لا تمثلنا ونقترب من أشخاص لا تشبهنا ونتحمل مشاقًا كنا في غنى عنها لو فكرنا بشيء من التعقل للاختيارات والبدائل المتاحة، خطوة واحدة واضحة المعالم أفضل من ألف خطوة بلا تدبر ولا روية ولا تفكر، فالأولى ندرك بها غايتنا والثانية تلقي بنا في غيابات التشتت فلا ندرك غاية وربما أضعنا أنفسنا .

تقول الكاتبة إليزابيث غيلبرت: «الإبداع لا يأتي لمن ينتظر الإلهام، بل لمن يجلس ويبدأ» ، وهكذا كل وصول لا يُصنع بالتخمين، بل بالحركة، فالحيرة لا تصنع نجاحًا، ولا تحفظ فشلًا، هي فقط تُطيل الانتظار وتقتل الأعمار دون جدوى، الطريق لا يُكشف لمن ينتظر أن يرى نهايته، بل لمن يخطو فيه بثقة، يَضل أحيانًا، يصيب أحيانًا، لكنّه يتقدم، لأن السكون ليس حيادًا، بل تأخر، ولأن الوضوح لا يأتي قبل الحركة، بل من قلبها، فالحياة لا تهب خيراتها للمتردّدين، ولا تفتح أبوابها لمن يقف في منتصف الطريق، يتأمل الجهات ولا يخطو، يُحصي الاحتمالات دون أن يختار.

كـم مـن فتـى ظـلّ حبيـس الـتردد، يتنقّـل بـين ميـول كثـيرة دون أن يحسـم خيـاره، حتـى أفنـى زهـرة عمـره يبحـث عـن الطريـق «الأمثـل»، في حـين مـضى زملاؤه في طـرقٍ مختلفـة، بلغـوا بعضهـا وخابـوا في بعضهـا، لكنهـم عـلى الأقـل عرفـوا طعـم السـعي، وعلّمهـم الطريـق مـا لا تعلّمـه الحـيرة، وكـم مـن فتـاة أرهقتهـا المقارنـات، تنتظـر الوقـت «المناسـب» للبـدء، حتـى فاتهـا الوقـت كلّـه، فوضـوح الوجهـة ليـس رفاهيـة، بـل هـو طـوق نجـاة يمنعـك مـن الضيـاع وسـط زحـام الاحتـمالات، مَـن يعـرف إلى أيـن يسـير، لا تهـزّه العواصـف ولا تضلّلـه المنعطفـات، ومـا أكثـر الذيـن سـاروا في دروب لم تكـن لهـم، فقـط لأنهـم خافـوا التوقـف والتفكـير، فوجـدوا أنفسـهم في منتصـف الطريـق بـلا رغبـة حقيقيـة في الاسـتمرار، ولا سـبيل واضـح للعـودة.

العمـر نفسـه محـدد ووقتـك كذلـك، فـما الفائـدة مـن اسـتنزاف طاقتـك في غـير مكانهـا؟ تقـرأ فيـما لا يـضرك جهلـه وتحلـل مـا لا يعنيـك أمـره، وتقحـم نفسـك في كل حديـث قـد لا تكـون لـك بـه صلـة، وتبـدي رأيـك في كل مسـألة وإن لم يطلـب منـك، وتتعاطـف مـع كل عابـر مـرَّ بجـوارك ، أليـس كل هـذا تشـتتًا وهـدرا لطاقتـك المحـدودة؟ ألا ينقـص مـن قدرتـك عـلى إنجـاز مـا كنـت تأمـل يومـا مـا تحقيقـه؟ اخـتر كل شيء بعنايـة، الأشـخاص والأماكـن والقضايـا، اخـتر مـا يسـتحق أن تخـوض مـن أجلـه معـارك الحيـاة، فالأقـدام التـي تسـير في كل اتجـاه لا تصـل.

الاختيـار ليـس مجـرد قـرار عابـر، بـل هـو مـا يحـدد شـكل حياتـك، فإمـا أن تصنـع طريقك بوعـي، وإمـا أن تسـتيقظ يومًـا لتجـد نفسـك عالقًـا في طـرق رسـمها لـك غـيرك، لم تكـن يومًـا لـك ، فحـيرة الخطـى لا تصنـع وصـولًا، لأن السـفينة التـي تبقـى في المينـاء خوفًـا مـن العاصفـة، لا تبلـغ الضفـة الأخـرى، ولا تعـرف أبـدًا متعـة الإبحـار.

بعض البُعد حياة، وبعض القرب موتٌ بطيء

قـال عمـر بـن الخطـاب: «اعتـزل مـا يؤذيـك» [1] ثـلاث كلـمات فقـط لخـص بهـن نظرتـه للعلاقـات في حياتنـا، فقـط اعتـزال لا تمسُّـك، لا رضـا بواقـع لا يناسـبك، لا معافـرة دون جـدوى، لا تعلـق بأمـل لا أمـارة لـه ، فقـط اعتـزل لتريـح نفسـك المضطربـة، ليهـدأ قلبـك الحائـر، لتطمئـن مـن داخلـك، فـما بقـاؤه إلا مزيـد مـن الألم، مزيـد مـن الجهـد بـلا فائـدة، مزيـد مـن التحمـل فـوق الطاقـة، مزيـد مـن اسـتنزاف الطاقـة في طريـق خاطـئ واختيـار خاطـئ، فقـد يكـون الخـير كلـه في اعتـزال الأذى لا التعـرض لـه، في اعتـزال كل مصـدر يجـر خلفـه وجـع لا التمسـك بـه .

نحـن نحتـاج إلى العلاقـات في حياتنـا لتمنحنـا السـعادة لا لترهقنـا، نتقـرب إلى النـاس لنأنـس بهـم لا ليزيـدوا مـن متاعـب الحيـاة علينـا، إنهـا جـاءت لتكـون مصـدر راحـة، لا سـاحة صراع نفسـي تُسـتنزف فيهـا روحـك، فـلا يكفـي أن تكـون العلاقـة قائمـة، بـل يجـب أن تكـون مـلاذًا آمنًـا، لا مصـدرًا للقلـق والإجهـاد، بعـض العلاقـات تجعلـك تشـعر وكأنـك تحمـل وزنـاً ثقيـلاً لا ينتمـي إليـك، بينـما أخـرى تمنحـك خفـة الـروح والسـكينة.

بعـض العلاقـات تـأتي لتضيـف لحياتـك بهجـة وسـكينة، وبعضهـا لا تزيـدك إلا اضطرابًـا وإجهـادًا، ومـع ذلـك، تجـد نفسـك متمسـكًا بهـا بدافـع العـادة أو الخـوف مـن الوحـدة، بينـما في الحقيقـة، لا شيء أكثـر اسـتنزافًا مـن البقـاء في علاقـة لا تمنحـك سـوى الخيبـة، فليـس كل رابطـة تسـتحق أن تُغـذى، وليـس كل شـخص يملـك حـق البقـاء في حياتـك.

أن تحيـط نفسـك بعلاقـات صحيـة هـو نـوع مـن العنايـة الذاتيـة، أن تختـار مَـن يبقـى ومَـن يرحـل هـو دليـل عـلى وعيـك بقيمتـك، فليسـت الأنانيـة أن تضـع نفسـك أولًا، بـل الأنانية أن تُجـبر نفسـك عـلى البقـاء في علاقـات تؤلمـك خشـية الوحـدة أو الشـعور بالذنـب، اخـتر دائـماً العلاقـات التـي تـضيء حياتـك، لا تلـك التـي تطفـئ بريقـك، ابحـث عـن تلـك التـي تمنحـك الطمأنينـة دون أن تضطـر للقتـال مـن أجلهـا، فليـس الرحيـل دائـمًا خسـارة، أحيانًـا يكـون اسـتعادة لذاتـك.

---

١ الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ٨٩٩٦

العلاقـات الحقيقيـة هـي التـي تمنحـك مسـاحة لأن تكـون ذاتـك دون خـوف، دون تكلّـف، ودون اضطـرار مسـتمر لإثبـات قيمتـك، إنهـا لا تحتـاج إلى مجهـودٍ مضـنٍ لإبقائهـا حيّـة، فهـي تنمـو طبيعيًـا كالشـجرة التـي تمتـد جذورهـا في الأرض دون أن يضطـر أحـد إلى سـحبها قسرًا، وليـس كل مـا بـدأ جميـلًا يسـتحق الاسـتمرار، فبعـض العلاقـات تحمـل بدايـات مبـشرة، لكنهـا مـع الوقـت تتحـول إلى سـاحة مـن التوقعـات غـير المتحققـة والخـذلان المتكـرر.

لا تجعـل الخـوف مـن التغيـير يبقيـك في أماكـن لا تنتمـي إليهـا، ولا تسـمح لعاطفـة عابـرة أن تحكـم عـلى مسـتقبلك، فلعـل أبسـط حقـوق النفـس أن نحيطهـا بمَـن تسـعد بـه لا مَـن يجعـل أيامنـا أكثـر صعوبـة ، فالحـب لا يُقـاس بالاشـتراط أو التوقـع، بـل بالصـدق والتقبـل، تشـعر أنـك لسـت بحاجـة لأن تثبـت شـيئًا، لأنـك يُحتفـى بـك لذاتـك، لا لمـا تحـاول أن تكونـه، وهـذه هـي الميـزة الحقيقيـة للعلاقـات النقيـة، فهـي تنقلـك مـن ضيـق القلـق والشـك إلى سِـعة السـلام والطمأنينـة.

التواضع الزائد لا يُقرب بل يُستهان به

ليس كل خفضٍ للرأس دليلَ حكمة، ولا كل تواضعٍ علامة رِفعة، فثمة تواضعٌ مسرفٌ لا يورث مهابة، بل يُفقد صاحبه وزنه بين الناس، حين ينكسر الإنسان أكثر مما ينبغي، يتجرأ عليه مَن لا يُحسن حتى النظر في عينيه، وحين يُحسن الظنّ في كل مَن حوله، ويخفض جناحه بلا حدود، يتلاعب به مَن لا يقدّر فضلًا ولا يعرف مقامًا ، نعم التواضع خلقٌ نبيلٌ لكنه قد يُساء فهمه فيضع مِن قدر صاحبه، فالتواضع النبيل هو ما كان نابعًا من قوةٍ داخلية، ووعي بقيمتك، لا ما كان خضوعًا يُراعي الناس على حساب الكرامة، أو لطفًا متكلفًا على حساب الهيبة، قال علي بن أبي طالب : «قيمة كل امرئ ما يُحسن»، فإذا لم يحسن المرء تقدير نفسه، لن يحسن الناس تقديره، فالناس بطبعها تميل لمن حفظ مكانته بلا تكبر، ورفع نفسه بلا تعال، وابتسم تواضعًا لا تذلّلاً.

فالتواضع، وإن كان فضيلة عظيمة، إلا أنه إذا تجاوز حدّه المشروع، انقلب إلى ضعف يُذهب الهيبة، ويجعل صاحبه عرضة للتقليل من شأنه، فالتواضع في جوهره وسطٌ بين رذيلتين؛ بين كِبرٍ يجعل صاحبه متعاليًا متجبرًا، وتهاون في احترام الذات يُذلّ الإنسان أمام الآخرين ظنًّا منه أنه بذلك يتحلى بالأدب والتواضع، وكما يُذمّ الكبر، يُذمّ أيضًا التنازل عن الكرامة، فليس في الامتثال الدائم لرغبات الآخرين، والرضوخ لكل أمر، تواضع، بل في ذلك امتهان للنفس وقبول بالهوان.

قال ابن خلدون في مقدمته : «مَن وقع عليه القهر ولم يدفعه عن نفسه اكتسب طبع المذلة» ، فالانكسار المتكرر يتحول إلى طبع، والطبع يصبح قدرًا لمن لا يسعى إلى تغييره، فمن أراد العزة، فليواجه، ولو لمرة، ومن أراد الكرامة، فليحارب لأجلها، فإن لم تستطع الانتصار، فلا تستسلم، وإن لم تأخذ حقك اليوم، فلا تعتد التفريط فيه غدًا، فإنما يملك الإنسان مِن نفسه بقدر ما يدافع عنها.

قد يكون لك حق تتغاضى عنه كرماً، أو تتركه اختيارًا جبراً لخاطر، أو حفاظًا على صلة رحم، أو شفقة بحال، فهذا من سمو النفس وعلوّ الأخلاق، لكن أن تتركه عجزًا، دون أدنى محاولة لاسترداده، فهو أول طريق الهوان، فالتنازل عن الحق من باب العجز ليس تواضعًا، بل استسلام يُفقِد الإنسان احترامه لنفسه قبل أن يسقط

مكانتـه في أعـين الآخريـن، فالنـاس لا يحكمـون عليـك بـما تدّعيـه عـن نفسـك، بـل بـما تتيحـه لهـم مـن سـلوك تجاهـك، فـإن سـمحت لهـم أن يسـلبوك حقوقـك بـلا مقاومـة، فلـن يـترددوا، وإن ألفـوا منـك الصمـت عـلى الظلـم، فلـن يـردّوا إليـك حقـك طواعيـة.

والنـاس بطبيعتهـا تـزدري الضعيـف الـذي لا يدافـع عـن نفسـه، وتهـاب القـوي الـذي يعـرف كيـف يحفـظ حقـه، فالقـوة ليسـت دائـمًا في المـال أو الجـاه، بـل في إدراك الإنسـان لقيمتـه، وفي عـدم تهاونـه في الدفـاع عـن حقـه، مهـما بـدت الوسـائل محـدودة، أمـا مـن أقنـع نفسـه بالعجـز واستسـلم للظلـم، فقـد ظلـم ذاتـه قبـل أن يظلمـه الآخـرون، وخـذل أهلـه الذيـن يرونـه قـدوةً وسـندًا، فـإن لم يكـن في قوتـه مـا يكفـي لاسـترداد حقـه، فليكـن في كلماتـه مـا يثبـت أنـه لـن يسـكت عليـه، أمـا الصمـت المُهـين عـلى سـلب الحقـوق، فهـو أبشـع ألـوان الهـوان، إذ لا يُلبـس صاحبـه ثـوب المذلـة في أعـين الغربـاء فحسـب، بـل في أعـين أقـرب النـاس إليـه، فكيـف يكـون قـدوةً لمـن حولـه وهـو أول مـن اسـتهان بنفسـه؟ إن رفـع الصـوت بالمطالبـة بالحـق، حتـى وإن كان خافتًـا، خـيرٌ مـن صمـتٍ يجعـل الظلـم يتجـذر حتـى يصـير عـادة، فالنـاس لا ترحـم مـن يَسـهُل اسـتباحته، ولا تحـترم مـن يُفـرّط في احـترام نفسـه.

لا أحـد سـينهض لنجدتـك إن كنـت أنـت أول مـن تخـلى عـن حقـه، ولا أحـد سـيحفظ لـك قـدرك إن كنـت أول مَـن اسـتصغر شـأنه، فالنـاس، مهـما بلـغ جبروتهـم، لا يهابـون إلا مَـن يضـع حـدًا لتجاوزاتهـم، حتـى وإن لم يكـن قويًـا في ظاهـر الأمـر، لأن مَـن يرفـض الهـوان، ولـو بأبسـط الأفعـال، يُشـعر مَـن أمامـه أنـه ليـس سـهل الكسـر، وقـد قيـل: «إن الإحسـان إلى النـاس قيـدٌ، وإسـاءتهم تحريـرٌ»، فمـن أسـاء إليـك فقـد فـكّ وثاقـك، وأسـقط مكانتـه في عينيـك، فإيـاك أن تجعـل ضعفـك حُجـةً لتقبُّـل الظلـم، أو تهاونـك ذريعـةً ليعتـاد الآخـرون النيـل منـك.

الفرص ليست نادرة بل العيون المفتوحة عليها قليلة.

مشـكلة الفـرص أنهـا لا تـأتي معهـا برقيـة أنهـا فرصـة عليـك اغتنامهـا، لـذا قـد تـأتي عـشرات الفـرص وترحـل ولم تنتبـه لهـا إلا بعـد فـوات الأوان ، فـذاك النصيـب الـذي لم تتحـرك مـن أجلـه قـد يكـون نصيـب مَـن سـعى لأجلـه، الـرزق الـذي لم تخطـو نحـوه كان رزق غـيرك حينـما التمسـه بخطواتـه .

فالفـرص ليسـت نـادرة كـما نظـن، بـل نحـن مَـن نضيـق أعيننـا عـن رؤيتهـا حـين نحـصر أنفسـنا في خيـارات محـدودة رسـمها الخـوف والاعتيـاد، حـين نقنـع أنفسـنا بـأن هـذا الطريـق هـو الوحيـد، وهـذه الوظيفـة هـي المـلاذ الأخـير، وهـذا الشـخص هـو محـور الحيـاة، فنظـل أسرى لوظيفـة تسـتنزف كرامتنـا خشـية ألا نجـد غيرهـا، دون أن نحـاول البحـث عـن بديـل، فنقبـل مشـاقها ونتجاهـل احتـمالات أخـرى ربـما كانـت أفضـل، ونتمسـك بأشـخاص ظننـا أنهـم محـور حياتنـا، فنحتمـل مـن الألم مـا كان يمكـن تجنبـه، معتقديـن أن الرحيـل عنهـم يعنـي الانهيـار، فنخـسر فرصًـا كان يمكنهـا أن تقودنـا إلى حيـاة أكثـر راحـة وسـلامًا ونعيـش أيامًـا مثقلـة بالنـدم عـلى مـا لم نجـرؤ عـلى فعلـه، نغـرق في الـتردد، عاجزيـن عـن اتخـاذ قـرارات مصيريـة، فنحمِّـل أنفسـنا أعبـاء لا ضرورة لهـا، وتضيـع منـا الفـرص، نحيـا داخـل دائـرة مغلقـة، نخشـى مغادرتهـا رغـم ضيقهـا، لأننـا ألفنـا وجودهـا، لكـن الحقيقـة المؤلمـة أن الفـرص لا تضيـع، بـل تذهـب لمـن يملـك الجـرأة عـلى انتزاعهـا، لمـن يـدرك أن الحيـاة ليسـت انتظـارًا، بـل قـرارًا، وأن كل لحظـة تمـضي في الـتردد هـي لحظـة تُقتطـع مـن عمـر الإنجـاز.

نحـن لا نُهـزم حـين نخـسر فرصـة، بـل حـين نقنـع أنفسـنا بأنـه لم يكـن هنـاك بديـل، حـين نـبرر ضعفنـا بأنـه قـدر محتـوم، بـدلًا مـن أن نؤمـن بـأن لنـا حريـة الاختيـار، فالعقـل الـذي يعتـاد الاستسـلام يصبـح عاجـزًا عـن رؤيـة المخـارج حتـى لـو كانـت أمامـه، والـروح التـي تخضـع للخـوف تُصبـح سـجينته، فـتراه يقـف عنـد كل بـاب مغلـق يطـرق عليـه بأيـدٍ مرتعشـة، بينـما الأبـواب الحقيقيـة لا تُفتـح إلا لمـن يدفعهـا بثقـة، فـلا شيء يُضعـف الإنسـان أكثـر مـن قناعتـه بأنـه بـلا خيـارات، ولا شيء يُحـرره أكثـر مـن إدراكـه أن الحيـاة أوسـع ممـا رسـمته لـه مخاوفـه.

في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال لرجـل يعظـه «اغتنـم خمسًـا قبـل خمـس: شـبابك قبـل هِرَمِـكَ، وصحتـك قبـل سَـقَمِكَ، وغنـاءك قبـل فقـرك، وفراغـك قبـل شُـغلك، وحياتـك قبـل موتـك»[1] حديـث مفعـم بالموعظـة لاغتنـام فـرص الحيـاة في خمسـةَ أحـوالٍ يكـونُ عليهـا الإنسـان قبـل خَمْـسٍ مِـن العـوارضِ التـي قـد تحـدث مسـتقبلًا فـلا يسـعفك العمـر لإدراكهـا ثانيـة، إنـه نـداء يذكّرنـا أن لـكل مرحلـةٍ مـن حياتنـا وهجًـا لا يتكـرر، وفرصـةً إن ذهبـت لم تعُـد، فالشـباب طاقـة لا تـدوم، والصحـة زاد لا يُؤمَـن بقـاؤه، والغنـى قـد لا يطـرق البـاب مرتـين، والفـراغ واحـة بـين شـواغل لا تنتهـي، والحيـاة نفسـها ظـلّ زائـل، لا ضـمان لـه ولا أمـان، فمـن لم يغتنـم شـبابه ليطلـب فيـه العلـم أو يُصلـح قلبـه، فمتـى يفعـل؟ ومـن لم ينهـل مـن نعمـة الصحـة ليـزرع في دنيـاه مـا ينفعـه في أخـراه، فمتـى يـزرع؟ ومـن لم يسـخّر غنـاه للخـير قبـل أن يـذوق مـرارة الفقـر، فبـأي يـد سـيمنح؟ ومـن لم يحسـن إدارة أوقاتـه في الفـراغ، فـماذا يبقـى لـه حـين يغمـره الشـغل؟ أمـا الحيـاة، فهـي الهديـة الكـبرى، التـي لا تُعـوض، فـإن لم نُحسـن عيشـها، فـلا رجـاء بعـد المـوت إلا بـما قدّمنـاه فيهـا.

وكأن النبـي ﷺ يرسـم خريطـة للحيـاة ويضـع لنـا علامـات تحذيريـة قبـل أن نصـل إلى منعطفـات لا رجـوع منهـا، إنـه نـداء للاسـتيقاظ قبـل أن يخطـف العمـر فرصـه، وتنقلـب الأحـوال فـلا نسـتطيع التعويـض، فالفـرص ليسـت مجـرد لحظـات عابـرة، بـل هـي انعـكاس لاسـتعدادنا لهـا، لصبرنـا عـلى البحـث عنهـا، لجرأتنـا عـلى اقتحامهـا، ولإيماننـا بأننـا نسـتحقها، فـإن كنـت ممـن يقـف عـلى ضفـة الانتظـار، فتذكـر أن الحيـاة لا تمهـل المترددين، وأنـك إن لم تصنـع قـرارك بنفسـك، فـإن الزمـن سـيتولى صنعـه عنـك، ولـن يكـون بالـضرورة كـما أردت .

الأيـام تمـضي خفيفـة الخطـى، ثقيلـة الأثـر، فـلا تؤجـل طاعـة، ولا تسـوّف عمـل خـير، فإنـك لا تـدري متـى تـدق الخامسـة بابـك، فـلا تجـد مـا اغتنمـت، ولتتأمـل لفـظ النبـيﷺ (اغْتَنِـمْ) إنهـا تقـودك لانتـزاع الفـرص لا انتظارهـا، إنهـا ليسـت مجـرد دعـوة عابـرة، بـل هـي أمـر بالمسـارعة، بالحركـة، بعـدم الركـون إلى الانتظـار، فالفـرص لا تـأتي لمـن يجلـس منتظـرًا، بـل لمـن يسـعى إليهـا ويبـادر باغتنامهـا قبـل أن تحـاصره الأقـدار وتُغلـق الأبواب.

---

١ المستدرك (٧٨٤٦) وصححه، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٥)

مَن أحبَّك عاتبك

في قصـة موسـى عليه السلام مـع الخـضر، رأى موسـى عليه السلام مـا لم يكـن يتخيـل حدوثـه، ومـا لم تستوعبه معايـيره للحكـم عـلى الأمـور، ورغـم أنـه ألـزم نفسـه بالصـبر وعـدم الاعتراض، إلا أن فطرتـه لم تحتمـل الصمـت أمـام مـا بـدا لـه مخالفًـا للحـق والعـدل، فاعـترض غـير مـرة، حتـى جـاء وقـت الفراق، لكـن الخِـضر، قبـل أن يتركـه، لم يتركـه للشـكوك والظنون، ولم يجعلـه أسـير التسـاؤلات التـي قـد تبقـى عالقـة بـلا جـواب، ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [1] قبـل أن يفـارق، لم يتركـه للظنـون والتأويـلات، لم يتركـه للاحتـمالات والتخمينـات التـي قـد تضلـل الفهـم وتشـوش الإدراك، بـل كشـف لـه وجـه الحكمـة الـذي كان خافيًـا عنـه.

ومـا ألطـف قـول عمـر بـن الخطـاب: «لا تقطـع أخـاك عـلى ارتيـاب ، ولا تهجـر دون اسـتعتاب» فقبـل الفـراق وتغـير القلـوب يـأتي العتـاب لينقـذ مـا تبقَّـى مـن حبـال الـود موصولـة. العتـاب ليـس هجومًـا، بـل هـو رجـاء، هـو محاولـة لإعـادة وصـل مـا بـدأ يتباعـد، وصـوتٌ خافـتٌ يقـول: «أنـت مهـم لـديّ، ولهـذا أعاتبـك» .

ولكن يبقى التساؤل : مَنْ نُعاتب؟

نُعاتـب مَـن نريـد الاحتفـاظ بهـم، نعاتـب مَـن يهمنـا أمرهـم، مَـنْ نحـن بحاجـة إلى بقائهم في حياتنـا بـلا ضغينـة في القلـب ولا تغـير في المعاملـة، نعاتـب مَـنْ نريـد أن نراهـم في كل مـرة وظاهرنـا كباطننـا لا نجامـل بكلمـة تخفـي خلفهـا مـرارة، إننـا نعاتـب قبـل أن يفـوت أوان العتـاب، نعاتـب لئـلا نشـعر بالنـدم عـلى أشـياء فاتـت كان يمكـن إدراكهـا، عـلى أخطـاء كان يمكـن تداركهـا، نعاتـب بـودٍّ ولطـف لئـلا نفسـح للشـيطان مكانًـا في قلوبنـا فيغذيهـا بالحقـد عـلى مَـن هـم سـبب في بقائنـا أسـوياء .

المحبّـة الحقيقيـة ليسـت ثوبًـا مـن المجاملـة، ولا قناعًـا مـن الابتسـامات العابـرة، بـل هـي يقظـة الـروح تجـاه روح أخـرى، وحـرص القلـب عـلى قلـبٍ اختـاره ليكـون قريبًـا منـه، إنّ مـن يحبـك لا يـتركك تضيـع بـين يـدي نفسـك، بـل يمـدّ إليـك حبـل العتـاب، وإن كان خشـن الملمـس، ليمنعـك مـن الانـزلاق إلى هاويـةٍ لا تعـود منهـا كـما كنـت، قـد يجرحـك

١ الكهف: ٧٨

قولـه، وقـد يكـسرك نـبره، لكنـك ـ في أعماقـك ـ تـدرك أنـه جـرح مـن مِـشرط الطبيـب، لا مـن خنجـر العـدو، فالعتـاب في جوهـره إعـلان عـن أن هنـاك جـسرًا مـا زال قائـمًا بينكـما، وأن هنـاك مـا يسـتحق الإصـلاح .

أمـا البُغـض، فطبيعتـه الخفـاء، وسـلاحه الصمـت المسـموم. يـراك تـزلّ، فـلا يمـد يـده، ويشـهد اعوجاجـك، فـلا يقوّمـه، لأنـه لا يريـد نجاتـك أصـلًا، يـراك تسـير نحـو جـدار، فيكتفـي بـأن يزيـح مـن أمامـك التحذيـر لتصطـدم بكامـل قوتـك، وربـما يبتسـم في وجهـك، بينـما في صـدره يتمنّـى لـو أن خطواتـك تعثّـرت إلى الأبـد، فالبُغـض لا يواجهـك، بـل يـتركك تفنـى ببـطء، مسـتمتعًا بأنـك أنـت مَـن تحفـر قـبرك بنفسـك، فالفـرق بـين العتـاب والإضـمار هـو الفـرق بـين اليـد التـي تدفعـك إلى الوقـوف، واليـد التـي تـتركك لتسـقط دون أن تمتـد.

العتـاب حيـاة، لأنـه يواجهـك بالصـدق حتـى لـو كـسرك، والإضـمار مـوت صامـت، لأنـه يخدعـك بالسـكوت حتـى تتـآكل وحـدك، لا تخـشَ مَـن يعاتبـك، فذلـك الـذي يـراك تسـتحق النجـاة، بـل اخـشَ مَـن يسـكت عنـك، لأنـه قـد كتـب في قلبـه حكـمًا غيابيًـا بسـقوطك، ولم يخـبرك.

وخـير العتـاب مـا كان هينًـا لطيفًـا، يشـبه العنـاق أكثـر ممـا يشـبه الصـدام، يوضـح الخطـأ دون أن يُحـدث جرحًـا، ويـترك مجـالًا للتفاهـم دون أن يُشـعل القطيعـة، فمـن يُعاتبـك بـودّ يخشـى خسـارتك أكثـر ممـا يخشـى جـرح كبريائـه، لـذا قيـل في وصـف العتـاب أنـه «كـسحب شـوكة مـن الوجـدان والـروح، يـؤلم بحـق، لكـن طالمـا كان وجودهـا كان أكثـر ألمـاً» فمـن أحبـك حقًّـا لم يـرضَ أن تفسـد بينكـما المـودّة بصمـتٍ ثقيـل أو سـوءٍ غـير معاتَـب، لأنـه يـرى في العتـاب ترميـمًا لا هدمًـا، ووصـلاً لا قطيعـة، فالعتـاب لغـة القلـوب الصادقـة، التـي لا تحتمـل الكسر في الخفـاء، ولا تألـف التظاهـر بالسـكينة فـوق صـدوع لا تُـرى، مَـن أحبـك لا يـراك تخطـئ ثـم يصمـت ليجمـع عليـك الضغينـة، بـل يأتيـك بقلبـه قبـل لسـانه، يربّـت عـلى الزلـل بصـدق النيـة لا بطعـن الغـدر، أمـا مَـن أبغضـك، فـلا يكلّـف نفسـه عتابًـا، لأنـه لا يهمـه إصـلاحٌ ولا رجـوع، بـل يراكـم الحقـد في جوفـه حتـى تفيـض كراهيتـه في ملامحـه دون أن ينطـق، فإيـاك أن تـسيء فهـم مَـن عاتبـك، فلربـما حمـل لـك في عتابـه حبًّـا أكـبر مِـن حـب مَـن صافحـك وفي قلبـه نـار لم يُبدِهـا .

من عُرف بالفضل، هانت زلّته

مَـن رقّـت شـمائلهم وثقلـت موازينهـم في ميـزان الوفـاء، لا تُـوزن زلّاتهـم بميـزان العـوام، بـل بميـزانٍ يُـدرك أن الكـرام إن أخطـأوا، فـما كانـت زلّاتهـم عـن خُبث طبـع، بـل عـن بشريّـة لحظـة، وإن زلّـت أقدامهـم فهـم أول العائديـن إلى جـادة الصـواب، كأنهـم مـا وُجـدوا إلا ليُجـددوا العهـد مـع النقـاء بعـد كل كبـوة، فالعثـرات ليسـت نهايـة القلـوب العظيمـة، بـل هـي اسـتراحةُ إنسـانٍ عـلى قارعـة التعـب، لا تهـدم بهـا بنيـان عِـشرة، ولا تسـقط لأجلهـا شـجرة ثقـةٍ نمـت عـلى مـدى الأيـام.

حـين أقـدم الصحـابي «حاطـب بـن أبي بلتعـة» عـلى إرسـال رسـالة إلى قريـش يخبرهـم فيهـا بتحـرك النبـي ﷺ نحـو مكـة، لم يكـن ذلـك عـن نفـاق أو خيانـة، بـل عـن اجتهـاد خاطـئ، أراد بـه أن يكـون لـه يـد عندهـم يحفـظ بهـا أهلـه في مكـة، لكنـه مـع ذلـك ارتكـب خطـأ جسـيمًا، خطـأ قـد يُفسَّر عـلى أنـه خيانـة كـبرى في لحظـة حاسـمة مـن تاريـخ الدعوة، فلـما انكشـف أمـره، وأُتي بـه إلى النبـي ﷺ، لم يتسـرع في الحكـم عليـه، ولم يُطلـق الاتهامـات جزافًـا، بـل اسـتمع إليـه أولًا، أعطـاه فرصـة لتوضيـح موقفـه، فأقـرَّ حاطـب بذنبـه، وبـيّن دافعـه، ولم يـبرر خطـأه بـل اعـترف بـه، حينهـا، ثـار عمـر بـن الخطـاب غـيرةً عـلى الديـن، وطلـب الإذن بقتلـه، لكـن النبـي ﷺ أوقفـه بكلمـة عظيمـة خلّدهـا التاريـخ قائـلًا لعمـر: « إنـه قـد شـهد بـدرًا، ومـا يدريـك لعـل الله اطَّلـع عـلى مـن شـهد بـدرًا، فقـال: اعملـوا مـا شـئتم؛ فقـد غفـرت لكـم» [1]

لقـد أراد النبـي ﷺ أن يضـع الأمـور في نصابهـا الصحيـح، فحاطـب لم يكـن مجـرد رجـل أخطـأ، بـل كان رجـلًا لـه سـابقة جهـاد وبـلاء في سـبيل الله، رجـلًا شـهد بـدرًا، وكان لـه مـن الفضـل مـا يشـفع لـه عنـد الله، فكيـف يُلغـى كل هـذا بسـبب لحظـة ضعـف؟ إنـه ميـزان العـدل الـذي لا يجحـد الفضـل، ولا يجعـل الهفـوة تحجـب تاريخًـا مـن الإحسـان، ليعلمنـا أن الأحـكام لا تُبنـى عـلى لحظـة واحـدة، وأن الرحمـة لا تتعـارض مـع العـدل، بـل تكمّلـه وتعطيـه بُعـده الإنسـاني، لم يتجاهـل خطـأه، لكنـه أيضًـا لم يختـصر حيـاة الرجـل كلهـا في هـذه الزلـة.

---

١ البخاري (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤)

فالتشـدد في محاسـبة أهـل الفضـل عـلى زلاتهـم دون النظـر إلى حسـناتهم يـؤدي إلى نفـور القلـوب منهـم، وإخمـاد روح العطـاء والمـروءة فيهـم، إذ لا أحـد معصـوم مـن الخطـأ، والنـاس لا تُـوزن بزلتهـم العارضـة، وإنـما بمجمـوع أعمالهـم وسـيرتهم، فلـو أُخِـذ كل كريـم بزلتـه، وكل سـخي بهفوتـه، لانطفـأت شـموع الخـير في المجتمـع، ولهـاب أهـل الإحسـان أن يمـدوا أيديهـم مخافـة أن يقطعهـا التجريـح والتشـهير عنـد أول خطـأ.

والحكمـة أن يُنظـر إلى عثـرة صاحـب المـروءة بعـين الإنصـاف، لا عـين التشـفي، فـإن بقـاء أهـل الفضـل بـين النـاس أحيـاء الـروح، مرفوعـي الهامـة، يعنـي اسـتمرار الخـير، وبقـاء القـدوة، وحفـظ التـوازن الأخلاقـي الـذي تسـتقيم بـه المجتمعـات، أمـا مَـن يجعـل زلـة أحدهـم سـببًا لإهـدار فضائلـه، فإنـه يقـود النـاس إلى الجفـاء والقسـوة، ويجعـل كل مَـن يحـاول الإحسـان مـترددًا خائفًـا مِـن أن يُـدان عنـد أول سـقطة.

والمـروءة تقتـضي أن نـزن النـاس بـما غلـب عليهـم مـن الخـير، لا أن نحاسـبهم عـلى زلـة واحـدة ونتجاهـل تاريخهـم الحافـل بالعطـاء، فكـم مـن شـخص لم يبخـل بمالـه، أو جهـده، أو حتـى وقتـه لمسـاعدة الآخريـن، لكنـه حـين تعثـر أو زلَّ، لم يجـد مـن يُقـدِّر إحسـانه، بـل قوبـل بالعتـاب والتخـلي وكأنـه لم يصنـع معروفًـا مـن قبـل، فـإن كنـا نعـذر مـن لم يمنـح، فمـن الأولى أن نُقـدِّر مَـن جعـل العطـاء نهجـه، وألا تُختـزل صورتـه في هفـوة عابـرة، فالتجـاوز عـن زلـة ذوي المـروءة والأخـلاق ليـس تهاونًـا في الخطـأ، بـل إنصـافٌ لمـن غلـب خـيره زلتـه، ولمـن أثقـل ميزانـه بالعطـاء قبـل أن يـزل في موقـف واحـد، والقلـوب الواسـعة لا تُختـصر في عثـرة، والإنسـان يُـوزن بمسـيرته، لا بلحظـة ضعـف عابـرة، أن يُنظـر إلى الإنسـان بكليتـه لا بلقطـة مجتـزأة مـن حياتـه، فكـما نحـب أن يُغـض الطـرف عـن عثراتنـا، علينـا أن نتعلـم الترفّـع عـن تصيُّـد هفـوات مـن مـلأوا الدنيـا بجـمال أفعالهـم .

وإلا فـما المـروءة إن لم تكـن عـذرًا عنـد العثـرة؟ ومـا الشـهامة إن لم تكـن سـترًا لزلـة الكريم؟ ومـا الإنصـاف إن لم يكـن ميزانًـا يـرى الفضـل قبـل الخطـأ؟ ومـا النُبـل إن لم يكـن تقديـرًا لمـن كانـت حسـناته أكثـر مـن زلاته؟ومـا الوفـاء إن لم يكـن حفظًـا لمواقـف الخـير وعـدم نكرانهـا عنـد الزلـل؟

مَن ذاق الحرمان، أتكون يده أوسع أم أشد قبضًا؟؟

يقـول الاسـتاذ جـلال أمـين في كتابـه «مـاذا علمتنـي الحيـاة»: «إن الحرمـان المـادي في الصغـر أمـر خطـير للغايـة إذ يترتـب عليـه في الغالـب ماديـة مفرطـة في الكـبر، هكـذا كنـت أميـل دائـمًا ، كلـما رأيـت شـخصًا يسـيطر عليـه حـب المـال ، إلى البحـث عـن سـبب ذلـك في ظـروف نشـأته ، وكلـما وجـدت شـخصًا كريـمًا سـخيًا ومسـتعدًا للتضحيـة بالكسـب المـادي مـن أجـل فكـرة أو مبـدأ افترضـت عـلى الفـور أنـه لم يصـادف حرمانًـا في صبـاه».

وكلماتـه تسـلط الضـوء عـلى معادلـة النفـس البشريـة المعقـدة، تلـك التـي يصوغهـا الحرمان أو الوفـرة في الطفولـة، فتصبـح إمـا سـاحةً للبـذل أو ميدانًـا للهـوس بالمـادة، لكنهـا تثـير في القلـب تسـاؤلًا أعمـق: هـل يمكـن لإنسـان قاسـى الفقـر وذاق مـرارة الحاجـة أن يكـون جـوادًا معطـاءً إذا أتـاه الـرزق؟ أم أن نـدوب العَـوَز تـترك أثـرًا لا يُمحـى، فتجعلـه أسـير الخـوف مـن الفقـد، حتـى وإن امتلـك مـا يكفيـه ويزيـد؟

إن تجربـة الحيـاة لا تقـدم لنـا إجابـة واحـدة قاطعـة، بـل تـسرد قصصًـا متباينـة، فبعـض مَـن كابـد الحرمـان صـار أكثـر سـخاءً، كأنـما أراد أن يجنـب غـيره مـا ذاقـه، بينـما آخـرون انغلقـوا عـلى أنفسـهم، يخشـون العـودة إلى مـاضٍ لم يرحمهـم، فقـد يكـون الحرمـان نـارًا تصهـر النفـس، فتجعلهـا أكثـر إنسـانية، أو جرحًـا لا يندمـل، فيغـدو صاحبـه عبـدًا لمخاوفـه، لكـن الفـارق في تلـك اللحظـة التـي يقـرر فيهـا الإنسـان: أي درب سيسـلك؟

قـد نميـل ـ في قـرارة أنفسـنا ـ إلى أن مَـن ذاق مـرارة الجـوع هـو أول مـن يبـادر بإطعـام غـيره، وأن مَـن قاسـى الحرمـان هـو أكثـر النـاس سـخاءً حـين تتـاح لـه الفرصـة، وأن مَـن عانـى مشـقة أمـر مـا هـو الأقـدر عـلى الإحسـاس بمَـن يمـر بـه، وكأن الألم يـترك أثـرًا عميقًـا في الـروح، لا يمحـوه الزمـن ولا تبـدده الأيـام، فتجـاوز المحنـة لا يعنـي نسـيانها، بـل ربـما يجعلهـا أكثـر حضـورًا في الذاكـرة، فيدفـع صاحبهـا إلى أن يكـون عونًـا لمـن يمـر بهـا، كأنـه يـداوي جرحـه القديـم بمواسـاة غـيره.

لكـن الأمـر ليـس مجـرد انعـكاس للمعانـاة، فليـس كل مَـن عانـى يصبـح كريـمًا، وليس كل مَـن تـألم يكـون رحيـمًا، فمـن ذاق مـرارة الحرمـان، لا يعـود كـما كان، تتبـدل ملامـح قلبـه،

إمـا نحـو سَـعة لا تُطـاق، أو ضيـق لا يُحتمـل، بعضهـم إذا مُنـح بعـد طـول فاقـة، رقّ قلبـه، وأدرك أن الألم لا يُطـاق، فصـار يجـود بـما في يـده، لا عـن غنـى، بـل عـن خـبرة في وجـع المحتاجـين، لا يسـأله سـائل إلا لبّـى، لأنّ ذاكـرة حرمانـه مـا زالـت حـاضرة، وكل عطـاء منـه هـو احتجـاج ناعـم عـلى زمـنٍ خذلـه، وآخـرون، لمـا وُسِّـع عليهـم بعـد فقـر، شـدّوا القبضـة، كأنهـم يخشـون أن يعـود الفقـد مـن جديـد، فيمسـكون النعمـة كأنهـا توشـك أن تفلـت، وكأن الخـير شـحيح، لا يتكـرر، وهـؤلاء لا يبخلـون لأنهـم أنانيـون، بـل لأنهـم مـا زالـوا تحـت أثـر الرعـب مـن الحاجـة الأولى، يظنـون أن الأمـان في التمسـك، لا في التـوكل.

فالبعـض يـرى في العطـاء تهديـدًا لمـا حصـل عليـه بعـد معانـاة، بينـما يـراه آخـرون وسـيلة للتحـرر مـن آثـار ذلـك الحرمـان، فليـس للأمـر قاعـدة ثابتـة، بـل هـو مرتبـط بشـخصية الإنسـان، وبوعيـه، ومـدى تصالحـه مـع تجاربـه السـابقة، فهنـاك مَـن يتعلـم مِـن الحرمـان قيمـة العطـاء، وهنـاك مَـن يتعلـم منـه التمسـك والتشـبث، وهنـا يظهـر دور الطبـع، فمعـدن الإنسـان هـو مـا يحـدد كيـف تتشـكل اسـتجابته لمـا مـرَّ بـه، هـل يجعلـه الألم أكثـر لينًـا ورحمـة، أم أكثـر قسـوة وتحجـرًا؟

فالطبـاع جـزء لا يتجـزأ مـن تكويـن النفـس، تنمـو مـع الإنسـان منـذ الصغـر، تتأثـر بتجـارب الحيـاة لكنهـا تظـل راسـخة، تظهـر في لحظـات الاختبـار، حيـث يُكشـف جوهـر الإنسـان عـلى حقيقتـه، بعيـدًا عـن الادعـاء والتصنـع، فالطبـاع جـزء راسـخ مـن شـخصية الإنسـان، تتشـكل منـذ الطفولـة وتتجـذر مـع التجـارب والمواقـف، حتـى تصبـح كالبصمة التـي تميـزه، فالأمـر إذن يعتمـد عـلى طبيعـة الإنسـان وتكوينـه النفـسي؛ فليـس هنـاك إجابـة واحـدة تصلـح لـكل الأحـوال، بـل هـو مرتبـط بشـخصية الإنسـان، وبوعيـه، ومـدى تصالحـه مـع تجاربـه السـابقة.

الطباع تَغلِب أم تُغلَب

الطبع هو الصفة الراسخة في النفس، التي يولد بها الإنسان أو تنشأ فيه منذ نشأته الأولى، وتصبح جزءًا من تكوينه الفطري، وهو أقرب إلى الغرائز والميول الطبيعية التي لا تحتاج إلى تعليم أو تكلّف، مثل شخص بطبعه حليم، لا يغضب بسرعة، أو آخر كريم، تجود يده بلا حساب، وهو ثابت نسبيًّا، يتأثر بالتجارب لكنه لا يزول بسهولة.

أما التطبع فهو ما يكتسبه الإنسان من صفات ليست في طبيعته الأصلية، بل يتعلّمها ويكتسبها من البيئة، أو يدرّب نفسه عليها حتى تصير عادة له، مثل شخص كان شديد الغضب، لكنه روّض نفسه حتى صار حليمًا، أو مَن لم يكن كريمًا بطبعه، لكنه تعلّم السخاء وتدرّب عليه، فالتطبع سلوك مكتسب، وهو مرهون بالإرادة والنية والمجاهدة.

فالطباع هي النواة الصلبة التي تتشكل منها شخصية الإنسان، تترسخ منذ الصغر، وتتعمق مع التجارب والمواقف، لكنها ليست قيدًا أبديًا لا فكاك منه، والسؤال الذي يفرض نفسه: هل الطباع تَغلِب الإنسان أم تُغلَب بالتدريب والإرادة؟

الحقيقة أن الطباع ليست سجنًا مغلقًا، لكنها أيضًا ليست صفحة بيضاء يمكن مسحها بسهولة، فالبخيل يمكنه أن يتعلم الكرم، والعصبي قد يدرب نفسه على الحلم، والمتردد يستطيع اكتساب الثقة، والمتشائم يمكنه أن يُعوّد نفسه على التفاؤل، والانطوائي قد يتعلم مهارات التواصل والانخراط في المجتمع، والمندفع يستطيع أن يروض نفسه على التروي والتفكير قبل اتخاذ القرار، والكسول يمكنه أن يكتسب روح الاجتهاد بالمثابرة، والمتكبر قد يتعلم التواضع بمجاهدة نفسه، والحسود يستطيع أن يربي قلبه على القناعة والرضا.

تجربة الحياة تخبرنا أن هناك من يُخضع طباعه لسلطان عقله، فيروض الحدة بالحلم، والبخل بالسخاء، والتردد بالجرأة، فيبدو لمن حوله إنسانًا جديدًا صنعته الإرادة، لكنه في لحظات الاختبار الحقيقية قد يعود لما جُبِل عليه، لأن الطباع لا تموت، بل تختبئ

أحيانًـا، لكـن هـذا لا ينفـي حقيقـة أن جـزءًا مـن تعديـل سـلوك سـلبي قـد تحسـن بـشيء مـن الإصرار والرغبـة في تقليـل تأثـيره، فالتغيـير لا يعنـي طمـس الطبيعـة الأصليـة، وإنـما قيادتهـا بحكمـة، بحيـث تصبـح أكثـر انسـجامًا مـع الحيـاة، وأقـرب لمـا يليـق بالإنسـان الواعـي المتـزن، فالمسـألة ليسـت أن تُمحـى الطبـاع، بـل أن تُـروَّض، لا أن تُلغـى، أن تُصقـل حتـى تصبـح أكثـر انسـجامًا مـع الحيـاة والمجتمـع.

وفي المقابـل، هنـاك مـن يستسـلم لهـا، يـبرر انفعالـه بحـدة طبعـه، ويعلـل تقلبـه بمزاجـه، وكأن الإنسـان لا يملـك مـن أمـر نفسـه شـيئًا، فيـترك لهـا العنـان فتشـكله كـما تريـد، متجاهـلًا أن الإنسـان هـو سـيد عاداتـه لا أسـيرها، وأن الإرادة قـادرة عـلى تهذيـب الطبـع ولـو بعـد حـين، فليـس كل عصبـيّ محكومًـا بالغضـب، ولا كل مـتردد محكومًـا بالعجـز، ولا كل بخيـل محكومًـا بالحرمـان، بـل هـي دوائـر يمكـن للمـرء أن يتحـرر منهـا إن أراد، لكنهـا تحتـاج إلى وعـي مسـتمر وجهـد صـادق، فمَـن اعتـاد تبريـر سـلوكياته بطباعـه، عـاش أسـيرًا لهـا، ومَـن آمـن بقدرتـه عـلى تغييرهـا صنـع مـن نفسـه نسـخة أقـوى وأكثـر نضجًـا.

والفـارق بـين التغيـير العابـر والتحـول العميـق يكـون في الاختبـار الحقيقـي، فقـد يسـتطيع العصبـي ضبـط أعصابـه في مواقـف معينـة، لكنـه إذا فُوجـئ بلحظـة اسـتفزاز أو غضـب، انكشـفت حقيقتـه وظهـرت طبيعتـه الأصليـة، لأن الطبـاع ليسـت مجـرد سـلوكيات سـطحية، بـل جـذور ممتـدة في عمـق النفـس، تنمـو مـع الإنسـان وتتشـكل مـع تجاربـه، لكنهـا، وإن لم تُمـحَ تمامًـا، يمكـن تهذيبهـا، ويمكـن للإنسـان أن يعيـد توجيههـا لتكـون أكثر نضجًـا واتزانًـا، بحيـث لا تتحكـم فيـه، بـل يتحكـم هـو بهـا في بعـض المواقـف.

ويظـل السـؤال مفتوحًـا بـلا إجابـة حاسـمة، لأن كل إنسـان حالـة فريـدة، أشـبه بمزيـج خـاص مـن التجـارب والتأثـيرات التـي لا يمكـن تعميمهـا بشـكل قاطـع، لا نفيـاً ولا إثباتـاً، فليـس أمـام المـرء إلا أن يخـوض رحلتـه بنفسـه، يختـبر طباعـه، ويكتشـف مـدى قدرتـه عـلى تهذيبهـا أو الخضـوع لهـا، فبـين مَـن ينجـح في ترويـض نفسـه والتحكـم في انفعالاتـه، وبـين مَـن تظـل طباعـه هـي القائـد الأول لمسـار حياتـه، يبقـى الفـارق في الوعـي وفي الاختيـار.

الريح لا تحتاج شهادة الورق

في زمـنٍ تزدحـم فيـه المنصـات، ويُقـاس الوجـود بعـدد المتابعـين، تذكّـر أن القيمـة لا تُقاس بالصـدى، بـل بالجوهـر، فليسـت كثـرة الأعـين دليـلاً عـلى عظمـة مـا يُقـال، ولا انتشـار الاسـم علامـة عـلى صـدق الفكـرة، فمِـن النـاس مَـن يمـرّ صامتًـا، لكنـه يـترك في الأرواح أثـراً أعمـق مـن كل ضجيـج، ومنهـم مـن يمـلأ الفضـاء حضـورًا، لكنـه فـارغ عنـد التأمـل، هـشّ عنـد أول اختبـار، فالقيمـة الحقيقيـة تُصنـع في اللحظـات التـي لا توثقهـا الكامـيرات، حـين تُحسـن وتغفـر وتُعطـي دون أن تكتـب «هـا أنـا ذا» فـلا تُسـرِف جهـدك في اللهـاث خلـف الأضـواء، ولا تُفـرّط بقيمـك لتُقـال فيـك كلمـة، أو يُشـار إليـك بالبنـان فكـم مـن أسـماءٍ ارتفعـت ثـم بهتـت، وكـم مـن شـهرةٍ لامسـت السـماء ثـم تهـاوت كغبـارٍ ناعـم لا يُمسـك، فالذكـر الـذي يُنتـزع بالقـوة، أو يُصطنـع بالتكلّـف لا يـدوم، لأنـه لا ينبـع مـن أثـرٍ حقيقـي، أمـا الذيـن زرعـوا الخـير بصمـت، ومضـوا لا يرجـون تصفيقًـا ولا عرفانًـا، فحكاياتهـم تُـروى دون أن يطلبـوا مـن النـاس ذِكـرًا ، ولتتأمـل قـول النبـيﷺ: «إن الله يحـب العبـد التقـي الغنـي الخفـي» (١)، غنـيٌّ عـما في أيـدي النـاس، خفـيٌّ لا يتصـدر ولا يتصنّـع، بـل يعمـل لله، وفي النـاس أثـره كالمطـر، لا صـوت لـه، لكـن الأرض تحيـا بـه لا بغـيره.

كان «النعـمان بـن مقـرن» قائـدًا لجنـد المسـلمين في معركـة نهاونـد، تلـك المعركـة التـي كـسر فيهـا المسـلمون شـوكة الفـرس، ومهـدوا لفتـح بلادهـم، قـاد النعـمان جيشـه ببسـالة حتـى نـال الشـهادة، فتـولى القيـادة بعـده حذيفـة بـن اليـمان، الـذي بعـث إلى عمـر بـن الخطـاب بالمدينـة مـن يبـشره بالنـصر العظيـم، دخـل الرسـول عـلى عمـر، ونبـض النـصر في كلماتـه، فقـال: أبـشر يـا أمـير المؤمنـين بفتـح أعـزَّ الله فيـه الإسـلام وأهلـه، وأذلَّ فيـه الـشرك وأهلـه.

فسأله عمر بلهفة: أ النعمان بعثك؟ قال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين

فاهتـز قلـب الفـاروق، واغرورقـت عينـاه بالدمـع، واسـترجع قائـلاً : إنـا لله وإنـا إليـه راجعـون، ثـم سـأل بوجـل: ومَـن بعـده؟ ويحـك، مَـن مـات بعـده؟

---

١ مسلم٢٩٦٥

فأخـذ الرجـل يُعـدِّد الأسـماء واحـدًا تلـو الآخـر، حتـى بلغ عـددًا كبـيرًا، ثـم قـال وآخرين لا تعرفهـم يـا أمـير المؤمنـين! فبكـى عمـر وقـال كلماتـه الخالـدة: ومـا ضرهـم ألا يعرفهـم عمـر؟ ولكـن الله يعرفهـم، وقـد أكرمهـم بالشـهادة، ومـا يصنعـون بمعرفـة عمـر؟

ومـا يصنعـون بمعرفـة عمـر لهـم، بـل مـا حاجتهـم لمعرفـة البـشر، وقـد كُتبـت أسـماؤهم في سـجلات السـماء؟! مضـوا، لا يبتغـون شـهرةً ولا ذكـراً، ولكنهـم نالـوا الخلـود الحـقّ في ديـوان الـربّ، حيـث لا تضيـع الأسـماء، ولا يَخفـى الإحسـان، لم يسـعوا وراء الأضـواء، ولم يلهثـوا خلـف التصفيـق، بـل أرادوا أن يكونـوا مجهولـين في الأرض، معلومـين في السـماء.

وفي بـكاء عمـر كانـت العـبرة، فقـد كانـوا جنـودًا مجهولـين في المعركـة، ولكنهـم أصبحـوا رمـوزًا في مسـيرة الديـن والرسـالة، وكتبـوا بدمائهـم درسًـا خالـدًا: أن العظمـة ليسـت في أن يذكـرك النـاس، بـل في أن يقبلـك الله، فـما قيمـة الأسـماء إن لم تُحفـر في سـجلّ الخلـود عنـد الله؟ ومـا نفـع الشـهرة إن كانـت زائفـة، يذروهـا النسـيان كـما يـذرو الريـح الغبـار؟ إن الريـح لا تحمـل ورقـةً تقـول فيهـا: «أنـا مؤهّلـةٌ لأهُـبَّ» ولا تُنتظـر مـن الطبيعـة توقيعًـا لتبـدأ مهمّتهـا، فلـماذا نظـن نحـن أن الاعـتراف بنـا مرهـون دائـمًا بثنـاء النـاس عـلى صنيعنـا،؟ أو أن القيمـة لا تُثبـت إلا إذا وُقّعـت عليهـا الأقـلام؟ الريـح لا تُمسَـك، ولا تُقنّن، ولا تنتظـر ختـمًا عـلى ظهـر عبورهـا، هكـذا الحريـة، وهكـذا الموهبـة الفطريـة، وهكـذا كلّ مـا خُلـق ليكـون دون أن يُسـتأذن.

وفي دوران الحيـاة المتسـارع، يلهـث الإنسـان خلـف مـا يظنـه نقصانًـا فيـه، فيغـدو عمـره سـعيًا متتابـع الأنفـاس نحـو صـورةٍ مكتملـة في مـرآة الآخريـن، ومـع مـرور الوقـت، يتسـلل إلى القلـب شـغفٌ بالبقـاء، لا البقـاء في الحـق، بـل في الذاكـرة، في الذكـر، في أن يكـون اسـمه عـلى كل لسـان، وصورتـه في كل مشـهد، حتـى لـو كان الثمـن شـيئًا مـن نقائـه، أو قطعـة مـن جوهـره، غـير أن الحقيقـة، مهـما تأخـر وقعهـا، لا تخلـف وعدهـا: إن مـا يسـتقر في القلـوب لا يُنقـش بالحديـث العـالي، بـل يُـزرَع في الصمـت، في النبـل الخفـي، في المواقـف التـي تُبنـى بـلا عدسـات ولا جمهـور، إنهـم الباقـون بـلا لافتـة، الحـاضرون بـلا ضوضـاء، الذيـن كانـوا يسـندون الحيـاة مِـن خلـف السـتار، ثـم انصرفـوا، وبقـي نورهـم عـلى مـسرح الحـدث قائـمًا يشـهد.

في حضرة الألم، يكفي أن تنصت

أحيانـا نقـدم خدمـة كبـيرة للآخريـن حينـما نصغـي إليهـم فقـط، ليـس مـن الـضروري دائـمًا أن تمـد يـدك لتنقـذ مَـن يتـألم، أحيانًـا يكفـي أن تبقـى قريبًـا منـه، تسـتمع لارتباكـه وألمـه دون أن تقاطعـه أو تفـرض عليـه حلولـك، أن تقـف إلى جـواره وتنصـت لارتجـاف صوتـه، أن تُصغـي لا لـترد، بـل لتفهـم، أن تُنصـت بقلبـك قبـل أذنيـك، كثـيرون لا يحتاجـون نصيحـة، ولا ينتظـرون حـلاً، هـم فقـط يبحثـون عـن مـأوى آمـن لكلماتهـم المتعبـة، عـن أحـد لا يقاطـع حزنهـم بإمـلاءات، ولا يختـصر أوجاعهـم بجملـة «اصـبر واحتسـب».

في الأثـر أن عمـر بـن الخطـاب قـال: « إذا رزقـك الله ود امـرئ مسـلم، فتشـبث بـه مـا اسـتطعت» تشـبث بـه لأن الصـدق الـذي يمنحـك إيـاه قَـلَّ أن تجـده، صـدق في النصيحـة وفي الاسـتماع وقـت ضجيـج النفـس، ذاك الـذي تطيـب نفسـك للحديـث معـه فتشـعر أن مشـاعرك ليسـت مجـرد أنفـاس عابـرة بـل قصـة تسـتحق أن تُسـمع وتحتضـن ، ينصـت كـما لـو كان يسـمع همسـات الـروح قبـل أن تنطـق الكلـمات، فالإنصـات ليـس مجـرد فعـل بسـيط نقـوم بـه أثنـاء حديـث الآخريـن، بـل هـو أحـد أعمـق أشـكال العطـاء التـي يمكـن أن نقدمهـا لهـم، فقـد لا يحتـاج الإنسـان إلى نصيحـة جاهـزة، ولا إلى حلـول سريعـة، بـل يحتـاج فقـط إلى أن يشـعر بـأن هنـاك مـن يسـتمع إليـه ، فحـين نصغـي، نحـن لا نسـاعده عـلى التعبـير فقـط، بـل نمنحـه شـعورًا بالأمـان، ونخـبره – دون كلـمات – أنـه ليـس وحيـدًا في معركتـه مـع الحيـاة، فالإنصـات ليـس ضعفًـا، بـل هـو مصـدر قـوة يُبنـى بـه جـسرٌ خفـي بـين القلـوب، حيـث يشـعر الآخـرون بأنهـم مسـموعون، مفهومـون، ومهمـون في هـذا العـالم المزدحـم.

الإصغـاء فعـل محبـة، لا يُـرى، لكنـه يُشـعَر بعمـق، هـو احـترام لوجـع الآخـر، وإقـرار بـأن آلامـه لا تُسـتهان، والقلـوب المرهقـة لا تُـداوى بالعجالـة، بـل بالاحتـواء، بالصـبر عـلى بـوح متعثـر، وبكلـمات مطمئنـة تقـول دون أن تُقـال: «أنـا هنـا، ولا حاجـة لـك أن تتظاهـر بالقـوة بعـد الآن» فكـم مـن روح نجـت لأنهـا وجـدت مـن يُنصـت لهـا دون أن يُدينهـا! وكـم مـن صـدع التحـم، لا بطبيـب، بـل بصديـق يجيـد الصمـت أكثـر مـن الـكلام، ويجيـد البقـاء أكثـر مـن التدخـل.

قـال يونـس بـن عبـد الأعـلى صديـق الشـافعي: مـا رأيـت أحـدًا لقـي مـن السـقم مـا لقـي الشـافعي، فدخلـت عليـه، فقـال: اقـرأ مـا بعـد العشريـن والمائـة مـن آل عمـران، فقرأت، فلـما قمـت قـال: «لا تغفـل عنـي فـإني مكـروب»[1] ذاك الـذي مـلأ الأرض علـمًا يشـتكي ضيـق صـدره ويسـأل صاحبـه ألا يغفـل في السـؤال عنـه، ليسـت كل العطـاءات مـالًا، فقـد تكـون في منـح لحظـة مـن اهتمامنـا، في صـدق اسـتماعنا، في القـدرة عـلى أن نكـون منصتـين بإخـلاص لـذاك القلـب الـذي يئـن تحـت وطـأه الهمـوم، لحظـة صـدق تُعطـي قلـوب الآخريـن فرصتهـا للشـفاء.

النـاس يحملـون أعبـاءً ثقيلـة، يخوضـون صراعـات داخليـة لا تُـرى، ويعيشـون لحظـات ضعـف لا يجـرؤون عـلى كشـفها بسـهولة، وعندمـا يجـدون مَـن يُنصـت إليهـم دون اسـتعجال أو اسـتخفاف، فـإن ذلـك يمنحهـم فرصـة لترتيـب أفكارهـم، والتخفـف مـن ثقـل مشـاعرهم، وربـما حتـى اكتشـاف الحلـول بأنفسـهم.

فكثـيرًا مـا يكـون البـوح نصـف العـلاج، والإنصـات هـو الـدواء الـذي لا يُكلـف شـيئًا لكنـه يُحـدث فرقًـا هائـلًا في نفـس صاحبـه، كان عبـد الله بـن مسـعود ـ الصحـابي ـ إذا خرج عـلى أصحابـه قـال لهـم: «أنتـم جـلاء حـزني» فـما أجملـه مـن وصـف، كأنـما يصـف الـدواء لأكثـر أوجاعنـا النفسـية ومشـاكلنا الوجدانيـة، فبعـض القلـوب لا يداويهـا إلا صـدق الصحبـة، ولا يجلـو كدرهـا إلا وجـه مُحـبّ، وحديـث خالـص مـن شـوائب التكلّـف، فـالأرواح تضعـف كـما تضعـف الأبـدان، وفي اللقـاء الصـادق، والسَّـعة بـين الرفـاق، مـا يُنـير عتمـة القلـب ويخفّـف ثقـل الهـم.

يـا صديقـي: فلتكـن ذاك الجـلاء للأحـزان، لا بكثـرة الـكلام، بـل بحضـور يُشـبه السـكينة، وبقلـب لا يسـأل كثـيرًا بـل يحتـوي كثـيرًا، فالصديـق الصـادق لا يُغـير قَـدَرَ الله، لكنـه يُهـوِّن عبـوره.

١ سير أعلام النبلاء (١٠/٧٢)

سلامٌ تائه بين الاحتمالات

في زمـنٍ باتـت فيـه الاحتـمالات أكثـر مـن اليقـين، والتخمـين أكثـر حضـورًا مـن الحقيقـة، صـار السـلام الداخـلي غريبًـا، يبحـث لـه عـن مـأوى فـلا يـكاد يجـده، ذاك السـلام الـذي وُعدنـا بـه إن نحـن أحسـنا التـوكل، ورضينـا بالقسـمة، وسـلّمنا بـما كُتـب، بـات تائهًـا بـين «مـاذا لـو؟» و «مـاذا إن؟»، يغـرق في دوامـة التفكـير المسـتمر، ويـذوب في قلـق لا يهـدأ، فالقلـق ليـس ضجيجًـا صاخبًـا كـما يبـدو، بـل همـسٌ داخـلي لا ينقطـع، يشـبه طرقًـا خفيفًـا عـلى أبـواب القلـب، إنـه السـلام التائـه بـين احتـمالات لا حـصر لهـا، وتسـاؤلات لا إجابـة لهـا، حتـى تغـدو الحيـاة سلسـلة مـن الأسـئلة المعلّقـة، واللحظـة الراهنـة مسرحًـا لتوقـع الأسـوأ قبـل أن يحـدث.

القلـق لا يعيـش في الواقـع، بـل في التصـورات، في احتـمالات لا تقـع أبـدًا لكنهـا تسـتنزف الأعصـاب وكأنهـا واقـع قائـم، والمـؤلم فيـه أنـه يتخفـى في صـور شـتّى: حـرص مفـرط، تفكـير زائـد، اسـتعداد لا ينتهـي، لكنـه في جوهـره خـوفٌ مـن المسـتقبل، وريبـة مـن كل شيء آمـن، القلـق لا يُغـيّر القـدر، لكنـه يُهـدر الحـاضر، ويُبـدد الطمأنينـة، إنـه مثـل الظـلّ الـذي يلاحقنـا، لا لأنـه حقيقـي، بـل لأننـا نسـمح لـه بـأن يُخيفنـا.

إننـا نقلـق مـن الغـد الـذي لم نعشـه بعـد، مـن القـرارات التـي لم نتخذهـا، مـن الأفـكار التـي لم تـر النـور ، المخـاوف التـي لا وجـود لهـا سـوى بداخلنـا، نقلـق مـن أمـور لم تحـدث وأيـام لم تـأت بعـد، وهـذا القلـق يعطـي الأشـياء الصغـيرة حجـمًا أضخـم، والأمـور التافهـة شـأنًا أعظـم ، والأجسـام الضئيلـة ظـلًا أكـبر، وننسـى أو نتناسـى أن وراء سـتار الغيـب لطفًـا أعظـم مـن قلقنـا، وأن الغـد ليـس عـدوًا يجـب الحـذر منـه، فكـم مـن أمـر حسـبته خسـارة فـإذا بـه بـاب للنجـاة؟ وكـم مـن رجـاء لم يُسـتجب حـين دعـوت، ثـم جـاء حـين تهيـأ قلبـك لاسـتقباله؟ وكـم مـن تأخـير كشـف لـك أنـه كان حمايـة، لا حرمانًـا؟ أليسـت الحياة مليئـة بألطـاف لا نراهـا إلا حـين نهـدأ؟ تأمـل كيـف يُرسـل الله إلى حياتـك أشـخاصًا، أحداثًـا، تحـولات، لم تطلبهـا، لكنهـا كانـت الجـواب عـلى سـؤال لم تنطقـه، فـكل تعثّـر قـد يكـون تمهيـدًا، وكل انتظـار قـد يخفـي في جوفـه دهشـة العطـاء إذا جـاء وقتـه.

ولا نعني هنا ذلك القلق الذي يدفع صاحبه إلى الاجتهاد والسعي، القلق الذي يحفّز المرء على الإبداع، كالتاجر الذي يسهر الليالي لتحسين جودة بضاعته قبل عرضها، أو الطالب الذي يبذل جهده في التحصيل استعدادًا لاختباره، أو الموظف الذي يسعى لاكتساب المهارات قبل التقديم لوظيفة جديدة، فهؤلاء جميعًا يقلقون، لكن قلقهم بنّاء، وهو في جوهره جزء من الأخذ بالأسباب، لكن القلق الذي نعنيه ذلك الذي يطغى فيه الخوف على المنطق، والتمني على السعي، والعجز على الإيمان بالجهد والرضا بالنتائج، فكم من شخصٍ سهر ليلًا يتقلب على وسادته لا لأن ألمًا جسديًا أنهكه، بل لأن عقلَه لا يتوقف عن تخيلٍ لاحتمالات لم تحدث، يخاف من المرض قبل أن يزوره، ومن الفقر قبل أن يُصاب به، ومن الفقد قبل أن يطرق بابه، ها هو ذا القلق الذي يأكل العمر وهمًا، لا لأن شيئًا وقع، بل لأن شيئًا قد يقع.

طالب يقضي أيامه في توتر دائم، يخشى الرسوب وهو لم يبدأ بعد المذاكرة، امرأةٌ تنتظر نتيجة تحليل طبي، فتعيش أيامها بين احتمالات المرض والشفاء، فتجفّ الحياة في عينيها قبل أن يأتي الخبر، وموظف يرهق أعصابه بخوفه من فقدان وظيفته، رغم أن شيئًا لم يُخبره بذلك، وفتاةٌ تخشى ألا يأتيها نصيبها، فتغلق أبواب الفرح، وتبني حول نفسها أسوار الانتظار، وتنسى أن الأقدار لا تمضي على هدى القلق، بل على حكمة الرحيم، وأمٌ تُرهق قلبها كل ليلة بخوفٍ على أبنائها، من طرقٍ لم يسلكوها بعد، ومن مصائب لم تقع، وهذا تمامًا ما أشار إليه مارك توين حين قال: «لقد عانيت في حياتي من مصائب كثيرة، أغلبها لم يحدث قط».

إذا حاولت الاستفسار عن سبب قلقهم، فلن تجد إجابة واضحة أو منطقية، سوى أنه انعكاس لرغبة الإنسان الفطرية في التحكم المطلق بكل ما يحيط به، وخوفه من المجهول الذي لا يملك عليه سلطانًا، وكلما تعمّق هذا الشعور، تقلّصت مساحة الطمأنينة في حياته، إننا لم نُخلق لنعيش أسرى الخوف من المجهول، ولا لنُستنزف بأفكار الفشل قبل أن تبدأ الخطى، حتى أجسادنا تعرف الفرق بين مَن يحمل هدفًا ويمضي نحوه، ومَن يسكنه القلق ويأكله التوجس؛ فالنفس حين تنشغل بالأهداف الحياتية ولا تفكر في أمر تخشاه تزداد مناعتها في مواجهة الأمراض، وحين تأسرنا فكرة مرض ما فإنها تضعف وتقل قوتها على الصمود.

صدق الروح....وإنسانية الحضور

تقول مايا أنجيلو: «الناس لا يتذكرون ما قلته، بل كيف جعلتهم يشعرون» فالمشاعر التي تتركها إيجابًا أو سلبًا في الآخرين هي التي تدوم في ذاكرتهم أكثر من الكلمات أو الأفعال، فالكلمات تعبر الآذان، لكن ما يلامس القلوب وحده يبقى، إننا قد لا نحمل في ذاكرتنا نبرة الحديث ولا تفاصيله، بل نحمل وقعَه داخلنا، تلك الطمأنينة التي انسابت من كلمة صادقة، أو ذلك الوجع الذي خلَّفه جفاء بارد، فالمشاعر هي الطين الذي تُشكَّل به الذاكرة، والظلّ الذي يبقى بعد انطفاء المشهد، وما من إنسانٍ نلقاه إلا ونترك فيه شيئًا: لمسة خفية، شعورًا عابرًا، دفقة أمل أو وخز وجع، وقد نرحل دون أن نعلم أننا صرنا فصلًا في كتابه الداخلي، لا يُمحى ولا يُعاد ترتيبه، فهل نعي ونحن نمرّ بالناس، أننا نحمل ما يُثقلهم أو ينهض بهم؟ أن في بسمة عابرة، أو نظرة حانية، أو إنصات صادق، حياة قد تنبعث في صدر أحدهم؟

إن الأثر الإنساني لا يُقاس بضخامة الفعل، بل بعمق الشعور الذي يخلفه، هناك مَن تحدّث طويلًا فلم يُذكَر، ومَن مرَّ صامتًا لكن حضوره سكن الأرواح كأنفاس خفيفة من طيب، لا تُرى، لكنها تُشَمّ كلما ضاق الصدر، فصدق الروح ليس كلمة نطقها بقدر ما هي تصرف نقوم به وقرار نتخذه، ليس أن ننطق بالحقيقة بقدر ما أن تكون أفعالنا تمثل ما ننطق به، فما قيمة أن ندعي الصدق في القول بينما لم تصدق أفكارنا ومشاعرنا؟ الصدق أن تكون صاحب حياة واحدة وقناع واحد، لا أن ينطق اللسان بالحقيقة بينما عقولنا تتصارع بالأفكار المتناقضة، وقلوبنا تتصارع بالمشاعر الزائفة، الصدق أن نمتلك قلبًا يحمل مشاعر واحدة، وعقلًا يملك فكرًا واحدًا، وهو لا يُقاس بعدد المرات التي نقول فيها الحقيقة، بل بمدى التزامنا به حتى عندما يكون ثمنه غاليا، وتوابعه مرهقة، حين يُختبر المرء في أصعب الظروف، عندما يكون الصمت خيارًا أسهل، أو عندما يكون الكذب طريقًا مختصرًا للهروب من عواقب غير مرغوبة، الصدق أن تكون كما أنت، لا أكثر ولا أقل، فالناس لا تأسرها الكلمات المنمّقة، إنما تنجذب ببصيرتها إلى ذلك النور الخفيّ الذي يشعّ من أرواح الصادقين، أولئك الذين يحضرون لا بجلبة ولا ادّعاء، بل ببساطة إنسانية تُشعرك أنك مرئي، مسموع، مفهوم، حتى دون أن تنطق.

السعادة لا تُصنع بل تُستشعر

في طفولتنـا، لم نكـن نعـرف شـيئًا عـن التصنُّـع، كنـا نعيـش ببسـاطة، نضحـك بصـدق، ونبكـي دون خجـل، نفـرح بالحلـوى ونحـزن لفقـد لعبـة، نُحـبّ مـن يبتسـم لنـا وننسـى الإسـاءة بعـد دقائـق، كانـت قلوبنـا صافيـة لا تحمـل ضغينـة، وأرواحنـا خفيفـة لا تثقلهـا المقارنـات أو التوقعـات، لم نكـن نحتـاج لـدورات تدريبيـة لنتعلـم الامتنـان، فقـد كنـا نُدهـش مـن أبسـط النعـم، ولم نكـن نبحـث عـن قيمتنـا في أعـين النـاس، بـل كنـا نراهـا في قدرتنـا عـلى اللعـب والركـض ومـلء المكان بالضحـك.

لكننـا كبرنـا، فـازدادت الحسـابات وتكاثـرت الأقنعـة، صـارت السـعادة مؤجلـة، مشروطـة، تُقـاس بعـدد الإنجـازات ورضـا الآخريـن، وصرنـا نخفـي آلامنـا خلـف عبـارات عابـرة وابتسـامات مصطنعـة، نرتـب مشـاعرنا وفـق مـا يليـق بالمواقـف، ونخشـى العفويـة كأنهـا ضعـف، تبدّلـت أولوياتنـا، وتحوّلـت الحيـاة مـن ملعـب واسـع إلى جـدول مزدحـم، وانشـغلنا باللحـاق بالمواعيـد أكثـر مـن اللحـاق بأحلامنـا.

نعـم، غيّرتنـا الحيـاة، لا عـلى مسـتوى المظاهـر فحسـب، بـل عـلى مسـتوى العمـق، تلـك البسـاطة التـي ولِدنـا بهـا أضعناهـا بـين تعقيـدات النضـج، وبـراءة القلـب التـي كنـا نُحسـن بهـا الظـن في كل شيء، أضعناهـا في دهاليـز التجـارب القاسـية، ومـا عدنـا نعيـش الحيـاة بـل نحـاول فقـط أن نتكيّـف معهـا، تمسُـكنا بـما في أيدينـا لم يعـد كالسـابق، مـع أول إخفـاق نتعلـم التنـازل ثـم سرعـان مـا نضـع لـه قواعـد ونسـميه فـن التنـازل لئـلا نشـعر بالانحطـاط أمـام أنفسـنا، مـاذا غـيرت بداخلنـا الحيـاة ؟ هـل غـيرت أفـكارًا ؟ أم غـيرت مشـاعر ؟ أكاد أجـزم أنهـا غـيرت صلـب تكويننـا النفـسي والفكـري ، وكثـيرًا مـن بـراءة طفولتنـا .

إن السـعادة لا تحتـاج إلى تصنّـع، بـل إلى تصالـح مـع حقيقتنـا، إنهـا ليسـت في غيـاب العيـوب، بـل في القـدرة عـلى العيـش رغـم وجودهـا، إنهـا ليسـت منتجًـا يُصنـع في مصنـع، ولا وصفـة جاهـزة تُنسـخ مـن تجـارب الآخرين، بـل شـعور داخلي لا يُفـرض ولا يُسـتورد، بـل يُسـتدعى مـن زوايـا الـروح المهملـة، كثـيرون يظنـون أن بإمكانهـم صناعـة السـعادة بـشراء أشـياء أكثـر، أو تحقيـق شـهرة أوسـع، أو مراكمـة إنجـازات تبهـر الآخريـن، ثـم

يفاجـأون أن الفـراغ مـا زال مقيـمًا في صدورهـم، وأن الضحـك لا يعنـي الفـرح دائـمًا، وأن البريـق لا يعنـي الامتـلاء، فهـي ليسـت مشروعًـا هندسـيًّا تُشـيَّد أركانـه عـلى مقاسـات الظـروف، ولا وصفـةً تُخلـط فيهـا المكونـات الخارجيـة بانتظـامٍ فتصنـع النشـوة، إنهـا في حقيقتهـا، لحظـة داخليـة لا تُـرى، إنـما تُحَـس، هـي شـعورٌ يُولَـدً في القلـب لا في الحـدث، ينبـع مـن الرضـا، لا مـن الكـمال، ومـن القناعـة، لا مـن التملّـك، نعـم، نركـض كثـيرًا نحـو امتـلاك مـا نظـن أنـه سـبب فرحنـا: بيـت أجمـل، وظيفـة أرقـى، علاقـة مثاليـة، سـفر بـلا قيـود، لكـن حـين نصـل، نفاجـأ أحيانًـا بـأن الداخـل مـا زال فارغًـا، لأن السـعادة لم تكـن هنـاك، بـل كانـت في قدرتنـا عـلى أن نستشـعر النعمـة في مـا بـين أيدينـا طـوال الطريـق، لا في مـا ننتظـر أن نحصـده.

في الواقـع الـذي نحيـاه، تعلّمنـا أن نُخطـط لـكل شيء: النجـاح، الـزواج، الدخـل، حتـى الصـور التـي نلتقطهـا، لكننـا لم نُـدرّب أنفسـنا عـلى أن نستشـعر اللحظـة بـشيء مـن الامتنـان، أن نلمـس الجـمال في الأمـور البسـيطة التـي تحـدث بـلا تجمـل ولا نفـاق، في فنجـان قهـوة، أو ضحكـة طفـل، أو حضـن أم، أو دعـوة صادقـة في جـوف الليـل.

فالسـعادة ببسـاطة قـرار، قـرار أن تـرى النعمـة، لا الغيـاب، أن تـرى الجـمال، لا النقـص، في القـدرة عـلى الشـعور بالنِعَـم رغـم النقـص، والابتسـام رغم التعـب، والرضـا رغـم العُسْر، ليسـت في أن تملـك كل شيء، بـل ألا تشـعر أنـك بحاجـة إلى كل شيء، أن تسـتيقظ ممتنًا، وأن تمـضي يومـك دون أن يثقلـك الحسـد أو يؤرقـك السـخط، أن تُجيـد الاسـتمتاع بـما تملـك لا أن تـذوب لهاثًـا خلـف مـا لا تملـك، ففـي واقـع يمـوج بالضجيـج، ويتفاخـر فيـه النـاس بـما يملكـون، يصبـح العثـور عـلى السـعادة كالبحـث عـن طيـف في ضـوء النهـار؛ لا يُـرى إلا لمـن هـدأ قلبـه، وأصغـى لصـوت الأشـياء الصغـيرة: فنجـان قهـوة بصحبـة محـب، لحظـة صفـاء في آخـر النهـار، دعـوة صادقـة مـن قلـب أم، أو حتـى صمـتٌ لا يطالبـك بـأن تكـون شـيئًا، لقـد عـاش أنـاسٌ في القصـور وذاقـوا البـؤس، وعـاش آخـرون في زوايـا متواضعـة ونامـوا وقلوبهـم مطمئنـة، السـعادة لا تُقـاس بكثـرة مـا نملـك، بـل بعمـق مـا نشـعر.

لكل وجعٍ ضفةٌ يصل إليها «الرضا»

الساعات الأولى للوجع ليست مقياسًا، ولا تُؤخذ الأحكام من وهلة الفقد، فالحزن بطبعه يضجّ، لكن الرضا يمشي الهوينى، يتسلّل كالندى، لا يُرى إلا بعد أن يجفّ الدمع وتصفو الرؤية، فليس الألم مستقرًّا أبديًّا، ولا الجراح أوطانًا نسكنها إلى الأبد، وإن بدت في لحظاتها الأولى كأنها النهاية، فكل وجع، مهما اشتدّ، يظلّ في جوهره سيلًا هائجًا، يبحث عن ضفةٍ يرسو إليها، وقد لا نراها في عتمة النزف، لكن الأيام تمضي بنا نحوها، بخطى بطيئة، لكنها ثابتة.

ومنذ نعومة أظفارنا وعبارة «الحمد لله» ترافقنا كظلٍّ لا يُفَارِق ضوءه، تقال لنا عند كل مصيبة، وتُلقَّن لنا عند كل خيبة، حتى صارت جزءًا من تكويننا النفسي، تخرج من أفواهنا تلقائيًّا، أحيانًا بإيمان، وأحيانًا كعادة، لكن ربما ما ينقصنا ليس ترديدها، بل أن تُترجم هذه الكلمة إلى يقين مستقر، أن يكون حمدًا نابعًا من قلب لا تهزه رياح البلاء، قلب يرى في كل قَدَر نافذة خفية للخير، لا مجرد انكسار مغلف بالتصبّر، فالابتلاء الحقيقي ليس في خسارة المال أو فوات الأمنيات، بل في موقف تُنتزع فيه طمأنينتك، وتُقلب فيه أقدارك على غير ما اشتهيت، فتُجرّ قسرًا إلى طرق لم تخترها، وتُجبر على تحمّل ما لم تستعد له، وتتذوق طعم العجز وأنت ترى ما أردته يتوارى أمامك بلا وداع، وهناك، حيث تنهار أدوات الاحتمال الظاهري، وتنكشف هشاشة المظاهر، يبرز معدن النفس: هل هي راضية بما كتب الله، أم ساخطه تخدع نفسها بالتظاهر بالرضا؟

الرضا، في عمقه، ليس خنوعًا، بل استسلامًا واعيًا لمشيئة الله، وثقة ناضجة لا يشوبها التذمر، بل يرافقها الفهم، أن ما غاب عنك خير مما كنت ترجوه، هو يقين لا يُنتزع من الكتب، بل يُولد في قلب أنهكته التجارب، قلب استوعب أن الألم مرحلة في طريق التهذيب، وأن الحرمان امتحان يُكشف به صدق التسليم، ففي لحظة السقوط لا تبحث الحياة عن صلابتك، بل عن مدى لطفك مع ذاتك، عن إيمانك بأن ما ضيّعه الله عنك لم يكن رزقًا، وأن ما أبطأ عنك سيأتيك حين يحين ميعاده، لا قبله بل حين تتهيأ له روحك.

الحيـاة لا تمـرّ بأحـد مـرور الكـرام، بـل تنقّـب في روحـه، تمتحنـه في أعـز مـا يتمنـى، وتنتـزع منـه مـرات الطمأنينـة حتـى يعودهـا بطريـق الرضـا الـذي يُسـكِّن القلـب، لا الرضـا الـذي يُقـال، بـل ذاك الـذي يُعـاش في النظـرة، في القَبـول، في الصـبر عـلى مـا لا يُفهـم الآن ويُكشَـف لاحقًا، حـين نعلـم أن لله ألطافًـا لا تُـرى لحظـة الوجـع، لكنهـا تُفهـم حـين يُجبر الخاطـر، فننظـر إلى الـوراء ونهمـس لأنفسـنا: «الحمـد لله» هـذه المـرّة بقلـبٍ مُوقـن، لا بلسـانٍ معتـاد.

وأشـدّ مـا يُبتلى بـه الإنسـان هـو مـدى ثباتـه ورضـاه عنـد الحرمـان، حـين تنحـرف الأقدار عـن مسـارات توقعاتـه، ويُفـرض عليـه أن يسـلك دروبًـا لم يخترهـا، ويواجـه مواقـف تخالـف مـا يهـواه، فيُضطـر إلى خـوض تجـارب مـا كان ليقـترب منهـا لـو خُـيّر، فيعيـش مرارتهـا لحظـة بلحظـة، ومـع كل كبـوة، يظـلّ يتأرجـح بـين المقاومـة والانكسـار، حتـى يتعلـم كيـف يجاوزهـا بالفهـم لا بالإنـكار، وبالصـبر لا بالعجلـة، تهتـزّ جوانـب قلبـه كل مـرة، لكنـه يجاهـد ليعـود إلى سـكينته، ويُقنـع نفسـه بـأن مـا كتبـه الله، وإن بـدت ملامحـه قاسـية، لا يحمـل إلا الخـير في جوهـره، وهنـاك، في أعـماق قلبـه، يسـتقر الرضـا ويخـفُّ الوجـع، ويهـدأ النزيـف الخفـيّ الـذي لا تـراه العيـون.

فكـم مـن أمـرٍ حسـبناه شـقاءً فـإذا هـو عتبـة إلى نعـم خفيـة! وكـم مـن محنـةٍ أظلمـت في عيوننـا، ثـم كشـفت عـن وجـه رحيـم سـاقنا نحـو فـرج لم نكـن لنبلغـه لولاهـا! مـا أكثـر التأخـيرات التـي كرهناهـا، ثـم حمدنـا الله عليهـا حين بـان لنا مـا كانـت تصدّنا عنـه، فالحياة لا تُمـلي علينـا فصولهـا كـما نحـب، وغالبًـا مـا تأتينـا في أثـواب لا نشـتهيها، ومـا بـين الحـب والكـره، والقبـول والرفـض، تقـف القلـوب راضيـة، مطمئنـة بأن كل مـا جاء مـن الله خير، وإن غـاب عنّـا وجـه الحكمـة فيـه، حينهـا، لا يعـود الإنسـان بحاجـة لفهـم كل تفصيـل، يكفيـه أن يسـير مطمئنًـا بـأن مـا يختـاره الله، ولـو خالـف رجـاءه، هـو الخـير كل الخـير، فلتنصت بروحك لا بأذنك، ولتقرأ بقلبك لا بعينك: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]

١ البقرة (٢١٦)

لكل نجمٍ سماؤه

مقاييس النجاح لا تخضع لميزان واحد، بل تتشكّل بتشكّل النفوس وتختلف باختلاف البيئات والغايات، فمن الظلم أن تزن إنجازاتك بمكيال غيرك، أو تقيس رحلتك بمسافة لم تمشها، إذ إن لكل امرئ طريقه الذي خُطّ له بخيوط من ظروفه، وطاقاته، وهمومه، وآماله، فالنجاح ليس نهاية تُطرَق، بل مسيرة تتبدل مع الأيام، تتسع فيها الرؤى وتتغير الأولويات، وما تراه اليوم غاية، قد تغدو مجرّد مرحلة مررت بها في طريقٍ أطول وأعمق، قد ترى نفسك ناجحًا اليوم بمعيار معين، ثم تكتشف لاحقًا أن النجاح بالنسبة لك أصبح شيئًا مختلفًا تمامًا، فبدلاً من قياس نجاحك وفقًا لمعايير الآخرين، حدد لنفسك ما يعنيه النجاح بالنسبة لك، ضع خطتك الخاصة لتحقيقه، بحيث يكون منسجمًا مع ذاتك، وليس مجرد انعكاس لما يراه المجتمع أو الآخرون .

كل إنسان يعيش وفق ظروفه وقدراته، وما يبدو لك نجاحًا سريعًا عند غيرك قد يكون خلفه سنوات من المعاناة والتجارب التي لم ترها، فعقد المقارنات باب لا يفتح إلا على الشعور بالنقص أو الغرور، وكلاهما مهلك، لأنك حين تقارن نفسك بغيرك، فأنت إما تقلل من ذاتك لأنك تركز على ما ينقصك، أو تبالغ في تقديرها لأنك ترى ما تملك ولا ترى ما ينقصك.

حتى في مواجهة المشكلات نجد هذا التباين، ففكرة فرض حل واحد لمشكلة ما يمكن تعميمه هو مضيعة للوقت والجهد، فلا يوجد حل واحد يصلح للجميع حتى وإن تشابهت المشكلة، فإذا ما تعرضت لمشكلة ما وأصغيت لتجارب الآخرين في التعامل معها تجد نفسك تتهيأ لصياغة حل يناسبك قد يكون مزيجًا من حلول الآخرين، أما فكرة اتباع خطوات معينة للوصول لنتائج معينة قد لا تكون حلًا أمثل، لأن كاتبها يحكي تجربته التي عاشها وخطواته التي تناسبه، وقد لا تلتئم مع وضعيتك وإمكاناتك فلا تعطي نتائج إيجابية معك رغم نجاحها معه، فما يراه أحدهم قمة الإنجاز قد يكون مجرد محطة عابرة لغيره، وما يعتبره شخص ما نجاحًا قد لا يحمل ذات القيمة لشخص آخر.

دع خُطاك تسبق أعذارك

كان فتـى يختلـف إلى أم المؤمنـين «عائشـة» فيسـألها وتُحدثـه فجاءهـا ذات يـوم يسـألها فقالـت: يـا بُنـيَّ هـل عمِلـت بعدمـا سـمِعت منـي؟ فقـال: لا والله يـا أمَّـه. فقالـت: يـا بُنـيَّ فبِما تسـتكثر مـن حُجـج الله علينـا وعليـك؟! [1] كل معرفـة لا تُثمـر عمـلًا إنـما تتحـوّل إلى حُجّـة عـلى صاحبهـا، لا في صالحـه. فالعلـم ليـس زينـةً، بـل هـو مسـؤولية، إنهـا تذكّرنـا أن الحـروف وحدهـا لا تُنجـي، وأن السـطور لا تُقيـم حُجّـة إلا إذا صـارت واقعًـا في السـلوك، فالعـبرة ليسـت بكثـرة السـؤال ولا بتكـرار السـماع، بـل بالخطـوة التـي يمشـيها القلـب والجـوارح في طريـق الطاعـة.

بـادر بإنهـاء أعمالـك المؤجلـة، فـإن التراكـم لا يُثقـل الجـداول وحدهـا، بـل يثقـل الـروح ويبعثـر الذهـن ويسـتهلك طاقـة القلـب قبـل الجسـد، تلـك المهـام الصغـيرة التـي تؤجلهـا، لا تظـل كـما هـي، بـل تكـبر في داخلـك وتتكـدّس عـلى عتبـة الراحـة، فتمنعـك مـن المـضيّ بخفـة، التأجيـل ليـس راحـة، بـل خدعـة مؤقتـة؛ فـكل مـا تؤجلـه سـيعود إليـك مضاعفًا، محمّـلاً بتأنيـب الضمـير وضغـط الوقـت.

قـد تكـون ممـن يؤجـل المهـام ليـس لصعوبتهـا بـل لانعـدام الرغبـة في إنجازهـا أو لعـدم يقينـك بقدرتـك عـلى تحقيقهـا أو لأنـك تريـد الأشـياء أن تـأتي بـدون سـعي منـك، وقـد تكـون ممـن يؤجـل المهـام لكثـرة المشـتتات التـي تحـوط بـك، ففـي عـالم يمـوج بالمشـتتات التـي تحاصرنـا مـن كل جانـب، أصبحـت قدرتنـا عـلى إنجـاز مـا نسـعى لتحقيقـه تتضـاءل، الهواتـف الذكيـة، وسـائل التواصـل الاجتماعـي، الإشـعارات التـي لا تتوقـف، وحتـى الأفـكار المتضاربـة التـي تغـزو عقولنـا، كلهـا عوامـل تـسرق منـا طاقتنـا الذهنيـة دون أن نشـعر، لـذا فـإن تقليـل المشـتتات المحيطـة بنـا لم تعـد رفاهيـة، بـل ضرورة حتميـة لـكل مَـن يسـعى إلى حيـاة أكثـر اسـتقرارًا، فالتشـتت ليـس مجـرد إزعـاج مؤقـت، بـل هـو اسـتنزاف مسـتمر لقدراتـك ، وكلـما قللـت مـن الملهيـات، أصبحـت أكثـر حضـورًا في حياتـك، فالتحـدي ليـس في وجـود المشـتتات، بـل في قدرتـك عـلى تجاهلهـا والتركيـز عـلى مـا يسـتحق انتباهـك حقًـا.

---

١ فيض القدير للمناوي (٥/ ٥٠٨)

كل الذين قالوا شيئًا طيبًا وغادروا، بقوا

روى ابـن خلـكان في كتابـه «وفيـات الأعيـان» أن «ربيعـة الـرأي»، شـيخ الإمـام مالـك، خـرج أبـوه في البعـوث إلى خراسـان أيـام بنـي أميـة، وتـرك ربيعـة حمـلًا في بطـن أمـه، وتـرك عندهـا قبـل سـفره ثلاثـين ألـف دينـار، ولمـا رجـع بعـد ثلاثـين سـنة، دخـل مسـجد المدينـة، فنظـر إلى حلقـة وافـرة، فأتاهـا فوقـف عليهـا، وإذا فيهـا مالـك والحسـن وأشراف أهـل المدينـة، ولمـا سـأل عـن صاحـب هـذه الحلقـة أجابـوه بأنـه ربيعـة بـن أبي عبـد الرحمـن (ابنـه) فرجـع إلى منزلـه وقـال لزوجتـه «لقـد رأيـت ولـدك عـلى حالـة مـا رأيـت أحـدًا مـن أهـل العلـم والفقـه عليهـا» فقالـت لـه: فأيهـما أحـب إليـك: ثلاثـون ألـف دينـار، أم هـذا الـذي هـو فيـه؟

فقال: لا -والله- بل هذا.

فقالت: أنفقت المال كله عليه.

قال: فوالله ما ضيَّعتيه[1]

«فـوالله مـا ضيعتيـه»، كلمـة ضاربـة في أعـماق التاريـخ قدمًـا، خلَّـدت الموقـف وربـما لـو قـال غيرهـا مـا حُفـظ الموقـف ولا الـرد ، لكنـه أيقـن أن ثمـرة الإنفـاق أبقـى مـن ثمـرة الاكتنـاز، فالمـال المدَّخـر قـد يمنحـك شـعورًا بالأمـان، لكـن المـال المنفـق بحكمـة يمنحك أثـرًا لا يـزول، وكل مـا تكتنـزه سـيبقى مجـرد عَـرَضٍ زائـل، ومـا تنفقـه في الخـير يبقـى ممتـدًا عـبر الزمـن، كـزرع يُثمـر في أماكـن لم تتخيلهـا ثـم يرحـل الانسـان بجسـده ويبقـى أثـره فيـما زرعـه في الآخريـن.

وهـذه القصـة تختـصر لنـا فلسـفة الحيـاة الحقيقيـة؛ إذ أن المـال إن لم يُسـتنفق فيـما ينفـع، فإنـه لا يتجـاوز كونـه أرقامًـا زائلـة، أمـا العلـم، فهـو الـذي يرفـع صاحبـه، وينفـع النـاس، ويـترك أثـرًا خالـدًا عـلى مـرِّ الزمـان ، ومنهـا نتعلـم أن وراء كل إنسـان عظيـم تضحيـة صامتـة وجهـدًا غـير منظـور، فـالأم لم تـرَ في المـال وسـيلة تـرف، بـل رأتـه أداة لبنـاء

١ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢ /٢٨٩،٢٩٠

مستقبل ابنها، فوهبته كل ما تملك ليصبح عَلَمًا بين الفقهاء، فكان صنيعها هذا برهانًا على أن الاستثمار الحقيقي في العقول، لا في الأرصدة.

وتعلّمنا من حكايتها أن العظمة لا تُبنى من فراغ، بل من قلوب نذرت نفسها لغيرها دون انتظار مقابل، ومن نفوس آثرت البذل على الرفاه، والتعب على الراحة، فلم تكن الأم تُدوِّن تضحياتها، ولا تُعلن عن عطائها، لكنها كانت تؤمن أن كل قطرة عرق، وكل حرمان، ستثمر في يوم ما علمًا ينتفع به الناس، وذكرًا لا يُنسى، فإن الأيادي التي تبني العقول بصمت، هي ذاتها التي تصنع الأمجاد دون أن تطرق أبواب الضوء، فالحضارات لم تُشيَّد فقط على أكتاف العلماء، بل على أكتاف من صنعوا العلماء، وآمنوا أن العقل إذا سُقي بالتضحية، أثمر ما لا تبلغه كنوز الأرض.

ولعل أجمل ما القصة إدراك الأب أن المال الذي تركه لم يكن إلا بذرة غرستها الأم بحكمة، لتنبت عالمًا يُشار إليه بالبنان، وهذا الاعتراف الصادق منه بأن المال لم يُضَيَّع لم يكن مجرد إقرار بفضل الأم، بل كان انحناءة احترام أمام صنيع خفيٍّ لم يتنبه له إلا حين رأى ثماره، فقد أدرك الأب حينها أن المال لا يُخلِّد أثره بكثرة ما يُكْتَنَز، بل بحُسن ما يُستثمر.

حين تُوَجَّه النعمة إلى بناء عقلٍ وتهذيب نفسٍ ورفع قدر، فإنها تتحول من مجرد رصيد إلى أثر خالد، كانت نظرة الأب لزوجته وقد تفتّح الغرس بين يديه، مزيجًا من الفخر والامتنان، إذ رأى بعينه كيف يحوِّل الإخلاصُ المالَ المحدود إلى أثرٍ غير محدود، وكيف تصنع الحكمة من المتاح مستقبلًا عظيمًا، فتيقن أن الكنز الحقيقي كان في المرأة التي أحسنت الغرس، لا في المال الذي تركه ورحل.

تأتيك العناية من حيث أحسنتَ

كــم مــن إنســان بــذل جهــدًا في علاقــة جفّــت، أو موقــفٍ نُــسي، أو معــروفٍ قوبــل بالجحــود، ثــم في أشــد لحظاتــه انكســارًا، جــاءه الفــرج مــن طريــق لم يخطــر لــه عــلى بــال، ذلــك لأن العنايــة لا تُســتدعى مــن حيــث نرجــو، بــل مــن حيــث يعلــم الله موضــع ضعفنــا واحتياجنــا، فالإحســانُ ليــس صفقــة تُعقــد بينــك وبــين النــاس، بــل نيــةٌ تُودِعهــا في خزائــن الغيــب، وحــين تُخلــص لهــا، تتــولّى الســماء أمرهــا، فالعنايــة لا تأتيــك لأنــك اســتحققتها أمــام النــاس، بــل لأنــك كنــت صادقًــا حــين لم يــركَ أحــد، فقــد تحســن في موضــعٍ يُقابــل بالخــذلان، ثــم تُفاجــأ ببــاب يُفتــح لــك في زاويــة لم تخطــر لــك عــلى بــال، فتأتيــك العنايــة حــين تتعــب وتظــن أن مــا فعلتــه قــد تبخّــر، لكنهــا لم تذهــب، بــل كانــت تُخبَــأ لــك، لتجيء حــين يكــون حضورهــا أعظــم أثــرًا ، ومــا أكثــر مَــن أحســنوا وســاروا بــين النــاس فارغــين مــن التقديــر، مثقلــين بالجفــاء، ثــم وجدوهــا تلــك اللحظــة التــي يُرفَــع فيهــا عــن القلــب حجــاب الانتظــار، وكأن خاطــرا يهمــس في أذنــك حينهــا «لســت وحدك.....كنــا نــرى»

كان «سـفيان بـن عيينـة»، مُحـدِّث الحـرم، يسـير ذات يـوم مـع أحـد أصحابـه، فأتـاه سـائل ولم يكـن معـه مـا يعطيـه، فبكـى ثـم قـال «أي مصيبـة أعظـم مـن أن يُؤمّـل فيـك رجـل خـيرًا فـلا يصيبـه؟»[1] هـذه دمعـة العـالِم، لا عـلى المـال، بـل عـلى خـذلان الرجـاء، فكـم مِـن فقـير مـدّ يـده لا لمالـك، بـل لرحمتـك، فكنـت سـببًا في كسرة قلبـه بـدلًا مـن أن تكـون سـببًا في جـبره، فحوائـج النـاس مقضيـة بـك أو بدونـك، ولكـن مـن عظيـم الفضـل أن تكـون أنـت الجسر الـذي تمـرّ بـه حاجتهـم إلى الفـرج، وأن تكـون اليـد التـي يختارهـا الله لتكـون سـببًا في تفريـج الكـرب، فتذكـر حينهـا أن الأمـر ليـس صدفـة، بـل اصطفـاء، ولا تسـتصغر معروفًـا، فكـم مـن قلـب أحيـاه لطـفٌ منـك لم يسـتغرق منـك جهـدًا يُذكـر.

الحيــاة تــدور، ومــا تبذلــه اليــوم ســتجده غــدًا، وربــا في لحظــة لم تكــن تتوقعهــا، فمــن جــبر خاطــر غــيره، ســخَّر الله لــه مــن يجــبر خاطــره، ومــن مســح دمعــة محتــاج، وجــد مــن يمســح دموعــه عنــد الحاجــة، وكــم مــن شــخصٍ كان في ضائقــة فوجــد يــدًا ممــدودة إليــه، وكل ذلــك ليــس مصادفــة، بــل هــو وعــد الله الــذي لا يتخلــف.

١ وفيات الأعيان (٢/٣٩٣)

من تاه في العواقب ضيّع البدايات

كثـيرون لم يهزمهـم الطريـق، بـل هزمتهـم تصوّراتهـم عنـه، ظلّـوا عـلى عتبـة البـدء، يُفكّكـون المسـتقبل تفكيـكًا، ويُرهبهـم كل احتـمال، حتـى اسـتحال عليهـم أن يبـدؤوا، والحقيقـة أن لا أحـد يـرى العواقـب كلّهـا، فالضـوء لا يظهر كامـلًا مـن أول المسـير، بـل تـضيء لـك الخطـوات كلّـما تقدّمـت، فللتفكـير وزنـه، وللتـأني منزلتـه، لكـن حـين يتحـوّل التقديـر المفـرط للعواقـب إلى متاهـة لا مخـرج منهـا، تُزهَـق البدايـات في مهدهـا، فللمشـورة وطـرح الآراء ومناقشـتها أوقاتهـا، وللعـزم والتنفيـذ والمـضي والعمـل أوقاتهـا، فـإذا انتهـى وقـت المشـورة بـدأ وقـت العـزم ولا رجعـة فيـه، فالـتردد يبلبـل الآراء ويُميّـع الأمـور، ومـن أكثـر النظـر في العواقـب لم يشـجع ، يهـاب كل أمـر قبـل أن يبـدأ فيـه.

قبـل غـزوة أحـد، جمـع النبـي ﷺ أصحابـه للتشـاور في أمـر المواجهـة مـع المشركـين: هـل يبقـون داخـل المدينـة لصـد الهجـوم، أم يخرجـون للقـاء العـدو في سـاحة القتـال؟ وبعـد نقـاش ومـداولات، اتفقـوا عـلى الخـروج لملاقـاة المشركـين خـارج المدينـة، رغـم أن النبـي ﷺ كان يميـل إلى البقـاء داخلهـا، مسـتندًا إلى رؤيـا رآهـا قبـل المعركـة، ومـع ذلـك، حـين رأى إجماعهـم عـلى الخـروج، وافـق عـلى رأيهـم ودخـل إلى بيتـه ليرتـدي درعـه اسـتعدادًا للقتـال، ولكـن بعـد أن تسـلح النبـي ﷺ، شـعر بعـض الصحابـة بالنـدم، خشـية أن يكونـوا قـد دفعـوه إلى خيـار لم يكـن يرغـب فيـه، فقالـوا: «يـا رسـول الله، إن شـئت قاتلناهـم في المدينـة ولا نخـرج» وهنـا جـاء رد النبـي ﷺ حاسـمًا « إِنَّـه ليـس لنَبـيٍّ إذا لَبِـسَ لَأْمَتَـه أنْ يَضَعَهـا حتـى يُقاتِـلَ»[1] ليـس لنـا الآن أن نرجـع عـن عزمنـا بعدمـا كان.

ليسـت كل أمـور الحيـاة يُضمـن نتائجهـا، فـإذا عزمـت عـلى أمـر فقـم لـه ولا تكثـر الحديـث فيجـد الشـك لقلبـك سـبيلًا، ويصيـب الـتردد قـرارك ، فـما أكثـر مَـن بقـوا في أماكنهـم بينـما كان بإمكانهـم التقـدم، لكنهـم استسـلموا للشـكوك والخـوف مـن الفشـل، فبقـوا عالقـين في دوامـة التفكـير دون أن يتخـذوا خطـوة واحـدة نحـو الأمـام، العـزم هـو الفاصـل بـين أصحـاب الأحـلام وأصحـاب الإنجـازات، فكـم مـن شـخص امتـلأ عقلـه بالأفـكار العظيمـة، لكنـه لم يتحـرك لتنفيذهـا، فظـل لم يـبرح مكانـه بينـما آخـرون أقـل منـه

١ تخريج المسند للأرناؤوط (١٤٧٦٧) وصححه

علـمًا أو خـبرة، ولكـن أكثـر منـه جـرأة وإقدامًـا، تجـاوزوه وسـبقوه. فمـن أكثـر النظـر في العواقـب تـردّد، ومـن بالـغ في الحـذر ضيّـع فرصًـا لا تعـود، فالعقـل حـين يسترسـل في تخيـل الاحتـمالات المقلقـة، يتحـول إلى قيـد يكبـل صاحبـه عـن التقـدم، ويـزرع في قلبـه رهبـةً مـن كل جديـد، لا يُنكـر أحـد فضـل التبـصّر والتأمـل، ولكـن حـين يتحـول النظـر في العواقـب إلى فـخ للتهيـب والجمـود، يفقـد الإنسـان جـرأة البـدء، وتضيـع منـه أبـواب كان يمكـن أن تفتـح لـه آفاقًـا رحبـة.

إن بعـض الأبـواب لا تُفتـح إلا لمـن يطرقهـا، وبعـض النجاحـات لا تُنـال إلا بخـوض الغـمار، فالخـوف مـن الفشـل قـد يقيـك ألم التجربـة، لكنـه لا يمنحـك لـذة الوصـول، ومن ينتظـر يقـين النهايـات قبـل أن يتحـرك، سـيبقى في مكانـه يعايـن مـا يصنعـه غـيره، ويقنـع مـن الغنيمـة بالسـلامة، فكثـير مـن النجاحـات العظيمـة تحققـت لأن أصحابهـا امتلكـوا الجـرأة عـلى خـوض التجربـة رغـم المخاطـر، فلـو انشـغلوا فقـط باحتـمالات الفشـل لمـا بـدأوا أصـلاً.

ومـن يـدرك أن الـتردد لا يمنـع القـدر، وأن المبالغـة في الحسـابات لا تضمـن النتائـج، سـيمضي بخطـوات واثقـة دون أن يسـتنزف طاقتـه في التفكـير المفـرط والخـوف مـن الاحتـمالات السـيئة، فالمهـم ليـس أن تضمـن النجـاح المطلـق، بـل أن تخـوض التجربـة وتتعلـم منهـا، لأن الحيـاة لا تعطـي ضمانـات، لكنهـا تكافـئ الشـجعان الذيـن لا يهابـون الإقـدام، لذلـك، إذا بلغـت مرحلـة العـزم، فـلا تتراجـع، وإذا اتخـذت قـرارًا، فامـضِ فيـه بقـوة، لأن كثـرة التفكـير بعـد العـزم تُضعـف العزيمـة، وكثـرة الالتفـات إلى الخلـف تعرقـل المسـير.

فمـن قصـد أمـرًا مـن الأمـور فـلا يغـالي في التفكـير في عاقبـة ذلـك الأمـر، هـل ينتهـي بخـير ؟ هـل يجـر عـلي ويـلات بعـده؟ هـل سـأندم عـلى فعلـه؟ عـشرات الأسـئلة التـي تلقـي في القلـب الخـوف والرهبـة فـلا تجـترئ عـلى المـضي فيـه ، الحيـاة لا تسـير بحسـابات دقيقـة دائـمًا، ولا تضمـن مآلاتهـا مهـما دققـت النظـر، لكـن مَـن يتعلـم أن يتـوازن بـين التبـصر والإقـدام، بـين الحـذر والمخاطـرة، هـو وحـده مـن يحصـد الثـمار، أمـا مـن استسـلم لوسـاوس «مـاذا لـو؟» فلـن يتـذوق طعـم «لقـد فعلـتُ ونجحـت».

في ظلال الرتابة تموت الأرواح

الرغبـة في الراحـة قـد تُلبس الرتابـة ثـوب الأمـان، لكنهـا في حقيقتهـا قيـد ناعـم يُقعِـد العزائم عـن المسير، حتـى يغـدو المرء غريبًـا في نفسـه، لا يتقـد شـوقًا لـشيء، ولا يحـزن عـلى فـوات شيء، وإنـما يعيـش ليكـرر لا ليخلـق، ليعتـاد لا ليتقـدم، فمـن عـاش أسـير العـادة، ماتـت فيـه روح المغامـرة، وتجمـدت آمالـه تحـت ثلـج الاعتيـاد.

ففـي ظـلال الرتابـة تمـوت الأرواح، لا بصخـبٍ مـدوٍّ، بـل بصمـتٍ ثقيـلٍ لا يُلتفـت إليـه، حـين تتشـابه الأيـام، وتفقـد اللحظـات نكهتهـا، ويغـدو الصبـاح نسـخة باهتـة مـن أمـسٍ ممـل، يبـدأ الإنسـان بالتـآكل مـن الداخـل دون أن يـدري، فالتكـرار يـسرق مـن القلـب شـغفه، ومـن الفكـر حيويتـه، ومـن الـروح جذوتهـا الأولى، لا شيء يضعـف الهمّـة كروتـين لا يُكـسر، ولا شيء يقتـل الطمـوح كتكـرار الأفعـال بـلا هـدف أو تجديـد.

الروتـين اليومـي هـو عـادة التزمنـا بهـا منـذ طفولتنـا، وتربينـا عليهـا، كعـادات النـوم والاسـتيقاظ، وعـادات المذاكـرة واللعـب، وغيرهـا ممـا يمـس نشـاطنا اليومـي، ومـع تكرار حدوثـه غـدا أمـرًا روتينيًـا يتكـرر بـلا تفكـير، إنـه عـلى مسـتوى إنجـاز الأعـمال أمـر جيـد، حيـث أنـك تخصـص لـكل نشـاط تقـوم بـه وقتًـا محـددًا، لكنـه عـلى المسـتوى النفسـي أمـر مرهـق، فالسـير ضمـن روتـين محـدد هـو عمليـة تجميـد غـير مقصـودة للعقـل، وذلـك لأن تكـرار نفـس الفعـل يصيـب المـرء بالرتابـة والملـل، يقلّـل مـن نشـاطه، يؤثـر سـلبًا عـلى نظرتـه للحيـاة فتصبـح كئيبـة، يظهـر شريـط الحيـاة كيـوم يتكـرر بـكل تفاصيلـه ليدخـل المـرء بـلا وعـي أو قصـد فيـما يسـمى بالاكتئـاب النفسـي.

والنجـاة مـن هـذا المـوت الصامـت تكـون بالتحـول، بالتجديـد، بالخـروج عـن النسـق، بخلـق فـوارق بـين اليـوم والأمـس، بإحيـاء الشـغف في التفاصيـل، والانتبـاه للصغـير مـن المتـع، فلعـل في خطـوة مختلفـة، أو فكـرة مجنونـة، أو قـرار مؤجـل، عـودة لوهـج الحيـاة الـذي انطفـأ تحـت رمـاد التكـرار.

اكـسر الروتـين بـأي شيء لا تجعـل الأيـام يومًا مكـررًا، فالتغيـير البسـيط في العـادات اليومية يمنـح العقـل فرصـة للانتبـاه، ويعيـد إليـه شيء مـن الحيويـة، كاكتشـاف أماكـن جديـدة،

أو تجربـة هوايـة غـير مألوفـة، أو حتـى تعديـل جـدول اليـوم بإدخـال نشـاط مختلـف، اقـرأ ولـو صفحـة، مـارس الرياضـة ولـو لدقائـق، اصنـع شـيئًا مختلفًـا كل يـوم حتـى ولـو كان أمـرًا بسـيطًا، غـيّر في مظهـرك، في ملابسـك، في ديكـور المنـزل أو المكتـب، تعلـم شـيئًا جديـدًا لا تعـرف عنـه كثـيرًا، اصنـع تغيـيرًا في نشـاطك اليومـي ، هـذه الأمـور التـي تعتقـد أنهـا بسـيطة سـتجدد مـن طاقتـك عـلى تقبـل يـوم جديـد بهـدف وسـعي جديديـن.

لا تـدع الأفعـال المكـررة يوميًـا تنـل منـك، فالحـل ليـس في التخلـص مـن الروتـين تمامًـا، فهنـاك عـادات ضروريـة لا غنـى عنهـا لتنظيـم الحيـاة، ولكـن المطلـوب هـو تحقيـق التوازن بـين الالتـزام بالأساسـيات وإيجـاد متسـع مـن الوقـت لكسر النمطيـة.

قيود العقل الخفيّة

ليسـت كل القيـود مـن حديـد وسلاسـل تُـرى بالعـين، بـل بعضهـا أشـد وأثقـل، لأنهـا تنشـأ في أعـماق النفـس، وتتمـدد خفيـة في زوايـا الفكـر، كـم مـن إنسـان أقعـده وهمـه لا عجـزه، وأوهنـت عزيمتـه فكـرة تسـللت خلسـة، ثـم تربّعـت عـلى عـرش ذهنـه حتـى صـارت كأنهـا الحقيقـة! هـذه القيـود العقليـة الخفيّـة لا تحتـاج إلى حـارس، لأنهـا تجعـل صاحبهـا حارسًـا عـلى نفسـه، يراقـب خطـاه، ويكبـح اندفاعـه، ويـبرر تأخـره، وهـو يظـن أنـه لا يـزال يملـك أمـره.

يقـول أبـو حامـد الغـزالي في كتابـه «المسـتصفى» عـن الوهـم: «فـإن الوهـم عظيـم الاسـتيلاء عـلى النفـس، ولذلـك ينفـر طبـع الانسـان عـن المبيـت في بيـت فيـه ميـت مـع قطعـه بأنـه لا يتحـرك، ولكنـه كأنـه يتوهـم في كل سـاعة حركتـه ونطقـه»

فحـين يُهيمـن الوهـم، تُختطـف الإرادة، ويُعـاد تشـكيل الواقـع بـما يتـواءم مـع المخـاوف لا مـع الحقائـق، فيعيـش الإنسـان أسـيرًا لاحتـمالات لم تقـع، ومقارنـات لا تنتهـي، وتصـورات لا تمـتّ لواقعـه بصلـة، حتـى يغـدو عالمـه سـجناً بـلا قضبـان، والأدهـى أن هـذه القيـود لا تُكسـر إلا مـن الداخـل؛ إذ لا فائـدة مـن كل محـاولات الدعـم والتشـجيع مـا لم يقتنـع الإنسـان بأنـه هـو مـن صنـع قفصـه، وأنـه وحـده القـادر عـلى تهشـيم قضبانـه.

فأعـمال النـاس تـأتي نتيجـة لمـا في نفوسـهم مـن معتقـدات وأفـكار، فـما ينطبـع في نفـس الإنسـان يتسـلط عـلى سـلوكه ومواقفـه إزاء الأحـداث والأشـخاص، بغـض النظـر عـن صـواب ذلـك الـذي في النفـس، أو خطئـه، وهـذا مـا يُسـمى بالوهـم ، فهـو اعتقـاد خاطـئ مبنـي عـلى اسـتناد غـير صحيـح مـن الواقـع يقتنـع بـه المـرء حـد اليقـين رغـم انتفـاء أي دليـل عـلى إمكانيـة حدوثـه، يتوهـم المـرء أمـرًا مـن الأمـور فيدفعـه هـذا الوهـم لاتخـاذ مواقـف معينـة، وسـلوك محـدد يتفـق ومـا يمليـه هـذا الوهـم، فكأنـما صـارت أوهامـه عقيـدة بالنسـبة لـه.

وأكثـر الخلـق نفوسـهم مطيعـة للأوهـام، فتجـد إقـدام بعضهـم عـلى أمـر أو إعراضهـم

عنـه بسـبب أوهـام سـيطرت عـلى عقولهـم فأسرتهـم، كثـيرون لا يفشـلون بسـبب قلـة الحيلـة أو نقـص الإمكانـات، بـل بسـبب الخـوف المـزروع في عقولهـم، والـتردد الـذي يثقـل خطاهـم، فمـن يستسـلم لأوهامـه يصبـح أسـيرًا لهـا، فـلا يتقـدم خطـوة إلى الأمـام إلا وهو مشـغول باحتـمالات السـقوط، ولا يـشرع في أمـر إلا وهـو ممتلـئ بالخـوف مـن الفشـل، فيصنـع بنفسـه الحواجـز التـي تعيقـه، حتـى لـو كانـت الفـرص أمامـه متاحـة والأبـواب مشرعـة والطـرق ممهـدة .

النجـاح في كثـير مـن الأحيـان ليـس لمـن يملـك القـوة الكـبرى، بـل لمـن يملـك الجـرأة عـلى تجـاوز مخاوفـه، لمـن يـدرك أن الأوهـام ليسـت إلا قيـودًا وهميـة يمكـن كسرهـا متـى مـا قـرر ذلـك، فكـم مـن فرصـة ضاعـت لأن صاحبهـا صـدَّق أنـه غـير قـادر، بينـما الحقيقة أنـه لم يجـرّب أصـلاً! وكـم مـن أوهـام أسرتنـا بأننـا لا نتقـن شـيئًا فأصبحنـا نـرى الأخطـاء التـي نرتكبهـا أسرع وأعظـم ممـا يراهـا الآخـرون، وقـد لا نـرى سـواها! وكـم مـن مـرة التفتنـا إلى مـاض فأسرتنـا الهمـوم فضـاق في أعيننـا الكـون الفسـيح! وكـم مـن خـوف مـن عـدم النجـاح حـال دون أن نخطـو خطـوة واحـدة نحـو أهدافنـا ! وكـم مـن شـعور بعـدم الاسـتحقاق جعلنـا نـرى أنفسـنا أقـل مـن أن نحقـق شـيئًا لـه قيمـة ! التحـرر مـن الأوهـام يبـدأ بـإدراك حقيقتهـا، والتوقـف عـن تصديـق كل مخـاوف تهمـس بهـا النفـس، فمـن تهيّـب الطريـق لم يقطَعْـه، ومـن وثـق بخطـاه وصـل إلى حيـث يريـد.

فاحـذر مـن فكـرة صغـيرة تتغـذى عـلى ترددك، تنمـو في غفلتـك، وتصبـح سـياجًا يطوقـك مـن حيـث لا تـدري، وتذكّـر دومًـا: ليـس الوهـم أن تـرى مـا لا وجـود لـه، بـل أن تُسـلّم لـه وتسـكن إليـه، فتضيـع الحقيقـة في ظـلال الخـوف، فالبدايـات تحتـاج إلى جـرأة، لا إلى ضـمان، وإلى قلـبٍ يعـرف أن مـا ضـاع بالـتردّد، لا تُرجعـه أشـجع النهايـات.

الحياة الافتراضية أفسدت الواقع

لا تجـد حـوارًا إلا مـع ناجـح مشــهور في أي مجـال وإن لم يكـن لـه قيمـة تذكـر، فلـم نعـد نسـمع عـن الإنجـازات الفرديـة البسـيطة، لم نعـد نـرى الأشـخاص العاديـين ، لم نعـد نـرى في الصفـوف الأولى إلا المترفـين، يقدمونهـم لنـا كأنهـم قـدوات، فارتفـع سـقف الطمـوح عنـد البسـطاء لإدراك شيء مـن نعيمهـم فضاعـت منهـم الحيـاة، لا هـم طالـوا مشـاركتهم ولا هـم تنعمـوا بحياتهـم.

دعنـي أخـبرك أن الحيـاة التـي يقدمونهـا للنـاس عـلى أنهـا الحيـاة المثاليـة في عصرنـا هـذا ظالمـة، إنهـم يرهقـون قوانـا بالبحـث عـن الكـمال، عـن الحيـاة المترفـة، عـن المثاليـة في كل شيء، عـن المقارنـات التـي تخللـت حتـى طعامنا وملابسـنا، رغـم أن الحيـاة تتسـع للجميع، تتسـع للنجـاح والإخفـاق، تتسـع للراحـة والتعـب، تتسـع للطموحـين والبسـطاء، تتسـع للغنـى والفقـر، لكنهـا مـع سـعتها لـن تتسـع إلا باتسـاع نفوسـنا، والحيـاة التـي نقصـد الحيـاة الحقيقيـة أمـا التـي يسـمونها الافتراضيـة التـي يعيشـها المـرء خلـف شاشـة هاتفـه فهـي حيـاة ينقصهـا حيـاة، مهـما بـدت مشـوقة وممتعـة، إنهـا تسـلب مـن المـرء عمـره دون أن ينتبـه إلا متأخـرا!!

الحيـاة الحقيقيـة ليسـت فيـما نـراه عـلى الشاشـات، وليسـت في مطـاردة أفـكار صاغتهـا عقـول لا تشـبهنا، بـل هـي في أن نحيـا وفـق قيمنـا، أن نجـد سـعادتنا في البسـاطة، أن نرتـاح في واقعنـا بـدل اللهـاث خلـف واقـع مصنـوع، هـي أن نعيـش حاضرنـا بكامـل وعينـا، لا أن نهـدر أعمارنـا في ملاحقـة سراب، ثـم نلتفـت لنجـد أننـا لم نعشـها كـما أردنـا، بـل كـما أراد لنـا الآخـرون، هـي التـي نحتضـن فيهـا عيوبنـا ونفخـر بتجاربنـا المتناقضـة، الحيـاة الحقيقيـة ليسـت مجـرد عـرض عـلى شاشـات الهواتـف، بـل التـي تمـزج بـين الألم والفـرح، بـين التحـدي والرضـا، بـين العمـل الـدؤوب والاسـترخاء الهـادئ، هـي حيـاة تُعـاش بـكل تفاصيلهـا، بعيـدًا عـن قيـود التمثيـل والمقارنـات التـي لا تنتهـي.

بإمكانك أن تقول «لا» دون أن تشرح «لماذا»

ليست كل الأبواب التي تُطرق تستحق أن تُفتح، ولا كل الدعوات إلى القُرب تليق بالروح، أحيانًا تكون كلمة «لا» قمة الصدق مع الذات، فما أكثر المواقف التي يُظَن فيها أن الصمت جفاء، أو أن التراجع جريمة، أو أن الرفض أنانية، لكنك لست مضطرًا دائمًا أن تبرّر حضورك أو غيابك، أن تُفسّر انسحابك، أو تُقنع أحدًا بأنك لم تعد كما كنت، فهي ليست رفضًا للآخر، بقدر ما هي انحيازٌ للنفس، لصون القلب من التكلّف، والوقت من التبدّد، والمشاعر من الاستنزاف.

إن رفض ما لا يتماشى مع مبادئنا أو لا يخدم مصالحنا ليس سلوكًا أنانيًا بل هو تعبير عن احترامنا لأنفسنا وتمسكنا بحقوقنا، فحين نتعلم أن نقول «لا» دون شعور بالذنب، نُعيد تعريف حدودنا ، فحن لا نرفض الأشياء لمجرد الرفض، بل لأننا نملك الحق في اختيار ما يناسبنا وما يتفق مع رؤيتنا للحياة، قد يحاول البعض دفعنا إلى مسارات لا تلائمنا، لكن مَن يعرف قيمته يدرك أن كسب رضا الآخرين لا يجب أن يكون على حساب راحته ووضوح أهدافه، وهذا لا يعني الانعزال أو التمرد، بل يعني اختيار ما يتماشى مع قيمنا، وعدم السماح بأن نكون مجرد أدوات لتحقيق رغبات الآخرين على حساب ذاتنا، فليس هناك خطأ في رفض ما لا يخدمنا، لأن أعمارنا أثمن من أن تُستهلك في أمور لا تضيف إلى حياتنا سوى مزيد من الضغوط والتنازلات غير المبررة.

إننا عندما نقول «لا» للأشياء التي لا تناسبنا، فإننا في الوقت نفسه نقول «نعم» لأنفسنا، لراحتنا النفسية، لأهدافنا التي تستحق وقتنا وجهدنا، فقول «لا» حين يكون الرفض هو القرار الصحيح، هو فعل من أفعال النضج العاطفي والوعي الذاتي، فمن يقدر ذاته لا يسمح بأن تُستنزف طاقته في مجاملات لا معنى لها، أو أن يُدفع إلى ما يتعارض مع قيمه لمجرد إرضاء، فالذين لا يستطيعون الرفض في الوقت المناسب غالبًا ما يجدون أنفسهم محاصرين في التزامات تثقل كواهلهم، ويشعرون بالضيق مما قَبِلوه دون اقتناع، وغالبًا ما يجدون أنفسهم محاصرين في دوائر من الاستنزاف العاطفي والجسدي، حيث يصبحون أسرى لمطالب لا تنتهي، ورغبات لا تخصهم.

ومـن المؤسـف أن الكثيريـن يخلطـون بـين اللطـف والخضـوع، فيتصـورون أن الموافقـة الدائمـة هـي السـبيل للحفـاظ عـلى العلاقـات، بينـما في الحقيقـة، العلاقـات التـي تقـوم عـلى المجاملـة الزائـدة وعـدم القـدرة عـلى الرفـض سرعـان مـا تتحـول إلى عـبء ثقيـل، ولذلـك، فـإن «لا» التـي تُقـال في وقتهـا قـد تكـون مفتاحًـا لحيـاة أكثـر حريـة واحترامًـا للـذات، حيـاة لا يحكمهـا الخضـوع الأعمـى لرغبـات الآخريـن، بـل تُوجّههـا قناعـة داخليـة بـأن الاحـترام الحقيقـي يبـدأ مـن احـترام الإنسـان لنفسـه أولًا .

إن الإنسـان قـد يُسـلب كل مـا يملـك، تُنتـزع مـن بـين يديـه زينـة الحيـاة، وتُهـدم مـن حولـه معـالم الأمـان: يُنتـزع جسـده بالمـرض، وبيتـه بالضيـاع، ومالـه بالفقـر، وحريتـه بالقهـر لكنـه يظـل يملـك مـا لا سـلطان لأحـد عليـه: طريقتـه في الاسـتجابة، واختيـاره لرد فعلـه، فـردّة فعلـك ليسـت مجـرد لحظـة عابـرة، بـل هـي موقـف، وهويـة، وإعـلان غـير مكتـوب عـن جوهـر روحـك، ولـذا، فـإن مـن أعظـم مـا يُبتـلى بـه الإنسـان ليـس الظـرف ذاتـه، بـل قدرتـه عـلى إدارة نفسـه في خضمـه، حـين لا يملـك تغيـيره، لكنـه يملـك أن يختـار كيـف يواجهـه.

لم يزرعوا النور داخلك، إنما أزاحوا الغبار عنه

ليس الفضل فيمَن قال لك من أنت، بل فيمَن صمت أمامك حتى تسمع صوتك، ومَن نظر إليك كما لو أنه يُذكّرك بأنك كنت كافيًا منذ البداية، فثمة أشخاص لا يضيفون إليك جديدًا، بل يمدّونك بمرايا صادقة ترى بها ما غاب عنك من صفاء ذاتك، لا يلقّنونك الجمال، بل يزيلون عن قلبك ما علق به من غبار الأيام، حتى تراه يشعّ كما لم تره من قبل، هم أشبه بنسمةٍ تمرُّ على مرآةٍ مطموسة، فتكشف ما تحتها من ملامحك الأصلية، لا ما أضافته عليك التجارب والخيبات.

في الحياة، هناك أوقات مرفوضة لكنها مفروضة، تمرُّ عليك رغمًا عنك، لا تشبه ما أردته، ولا تحمل ملامح ما دعوت الله به طويلًا، لحظات لا تختارها، لكنها تختارك لتعيد تشكيلك، لتختبر صبرك، ولتُريك في مرآتها مَن أنت حقًّا حين تُسلب منك أسباب القوة والرضا، إنها كعواصف الخريف تشتت ما حصدناه في أنفسنا عبر الزمان من مواقف وصعوبات وشيء من الخذلان، لكننا لا نتعلم الحياة من الآخرين بل من أنفسنا، من تلك الخدوش ، من ذاك الخذلان، نتعلم كيف نبني أنفسنا من جديد رغم كل ما سقط منا أرضًا، فما دام لنا جذور ثابتة فالنهوض من جديد مسألة وقت، إنه نهوض يمنحك حياة جديدة تكون فيها أكثر نضجًا بعدما ألقيت عن كاهلك كثيرًا من الأوراق التي كنت تظن أنها هي ما تبقيك كما أنت .

لكن هذا لا يحدث صدفة، فغالبا ما يحدث بوجود شخص مختلف عمن يحيطون بك، فبعض الأشخاص الذين نلتقي بهم لا يضيفون لنا شيئًا جديدًا، لكنهم بقدرتهم الفريدة على رؤية الجانب المشرق بداخلنا، يجعلوننا نرى أنفسنا بصورة أجمل، يوقظون الصفات التي كادت تذبل تحت وطأة الحياة، إنهم لا يصنعون منك شخصًا آخر، بل يعيدونك إلى ذاتك الحقيقية، يحررون منك الإنسان الذي كاد يختبئ خلف خيباته ومخاوفه.

بعض القلوب كالمرايا الصافية، تعكس لك أجمل ما فيك، فتذكّرك أنك لست مجرد ملامح أو كلمات، بل روح تملك القدرة على الإشراق متى وجدت مَن يوقظ نورها، إنهم لا يصنعون شيئًا خارقًا، هم فقط أعطوك المساحة لأن تكون كما أنت، بلا

تصنُّـع أو خـوف مـن النقـد، يشـجعونك عـلى أن تحـب ذاتـك قبـل أن تطلـب الحـب مـن الآخريـن، يذكّرونـك أنـك قـوي حتـى حـين تشـعر بالضعـف، وأنـك قـادر حتـى حـين تملـؤك الشـكوك، يـرون مـا عجـزت عـن رؤيتـه في نفسـك، يذكرونـك بـأن في أعماقـك ضـوءًا يسـتحق أن يلمـع، أن كلماتـك تحمـل دفئًـا، أن وجـودك في حيـاة أحدهـم ليـس عبثًـا بـل هبـة.

إنهـم لا يغيّرونـك، بـل يسـاعدونك عـلى العـودة إلى ذاتـك الحقيقيـة، لا يتحدثـون فقـط عـن جمالـك، بـل يجعلونـك تشـعر بـه، في ابتسـامتك العفويـة، في ثقتـك حـين تتحـدث، في ارتياحـك حـين تكـون عـلى سـجيتك دون قلـق أو تصنُّـع، معهـم، لا تحتـاج إلى إثبـات شيء، لأنهـم ببسـاطة يرونـك كـما أنـت، ويجعلونـك تـدرك أنـك لم تكـن يومًـا بحاجـة إلى التغيـير لتكـون جميـلًا، يمنحونـك فرصـة العـودة إلى نسـختك التـي تاهـت في زحـام التوقعـات والنقـد، فيضمـدون جراحـك لا بوعـود زائفـة، بـل بحقيقـة أنـك لسـت ناقصًـا كـما ظننـت، بـل مغطـى فقـط بطبقـاتٍ مـن الإنـكار والخـذلان.

في حضرتهـم لا تشـعر بأنـك مطالـبٌ بـأن تكـون شـيئًا، بـل أنـك كافٍ كـما أنـت، وأن كل النقـص الـذي حسـبته عيبًـا، مـا هـو إلا ممـر إلى اكتمالـك الحقيقـي، إنهـم لا يشـعلون داخلـك نـورًا لم يكـن موجـودًا، بـل يزيحـون السـتائر التـي أسـدلتها الحيـاة عـلى نوافـذك، فيدخـل النـور مـن حيـث كنـت تظـن أنـه قـد غـاب إلى الأبـد.

عقلٌ لا يهدأ

عقـل مـليء بالأسـئلة، مزدحـم بالاحتـمالات، مرهـق دومًـا حتـى مـع سـكون الجسـد، لا يغفـو حـين ينـام الناس، ولا يسـكن حـين يُغلـق أحدهـم عينيه طلبًـا للراحـة، عقـلٌ لا يقبل الأشـياء كـما هـي، لا يُمـرّر المواقـف بسـطحية، ولا يسـلّم بالعابـر دون تحليـل وتمحيـص، كل كلمـة تُـوزن، وكل نظـرة تُفـكك، وكل لحظـة تُنقّـب في أعماقهـا عـن المعنـى، لا يعـرف البسـاطة المريحـة، بـل يتأرجـح بـين الحـذر والفهـم، وبـين الشـكّ والتأمـل، فيعيـش صاحبه كمـن يحمـل مـرآة عـلى كتفـه، تعكـس لـه كل مـا حولـه مضاعفًـا، وتجعلـه يـرى في كل موقـف وجهًـا آخـر، وفي كل قـول احتـمالًا أعمـق ممـا يبـدو، بـل حتـى في لحظـات الفـرح العابـرة لا تمـرّ عليـه إلا بعـد تفكيكهـا، والبحـث في مـا وراءهـا مـن احتـمالات.

لـن أبالـغ إن قلـت إنـه اضطـراب العـصر، السـمة الغالبـة، لهـذا الزمـان، عقـل لا يهـدأ، يـدور في دوائـر لا تنتهـي، يخلـق سـيناريوهات لا وجـود لهـا، فـلا يصـل بصاحبـه إلى حلـول، بـل يبقيـه عالقًـا في دوامـة مـن القلـق والخـوف والتحليـل المفـرط لـكل التفاصيـل حتـى أبسـطها، يُحمِّـل صاحبـه أعبـاءً لم تقـع، ويجعلـه سـجين أفـكاره التـي لا تهـدأ، كل فكـرة تتصـارع لتكـون في المقدمـة، كل همـس يتحـول إلى صخـب يصعـب تجاهلـه، تنعـدم القـدرة عـلى انتقـاء الأفـكار أو ترتيبهـا، يعجـز عـن إيقـاف سـيل المواضيـع التـي تتسـلل دفعـة واحـدة، فتختلـط التوافـه بالعظائـم، والـضروري بالعـرضي، حتـى يصبـح أشـبه بـبركان يوشـك عـلى الانفجـار في أي لحظـة، ليـس لفـرط التفكـير فحسـب، بـل لإحسـاس العجـز عـن إخمـاده .

والمشـكلة الأكـبر أن التفكـير الزائـد لا يحـل المشـكلات، بـل يزيدهـا تعقيـدًا، لـك أن تتخيل أنـك لسـت مطالبًـا بالتفكـير إنـما بالتوقـف عنـه، وبينـما يظـن صاحبـه أنـه يحـاول التحكـم في الأمـور، يجـد نفسـه في النهايـة عاجـزًا عـن اتخـاذ أي خطـوة، مرهقًـا نفسـيًا وعاطفيًـا، غـير قـادر عـلى الاسـتمتاع بلحظتـه الحـاضرة، لأنـه دائـم الانشـغال بالمـاضي الـذي لا يمكـن تغيـيره، أو المسـتقبل الـذي لا يمكـن التحكـم بـه، ولأن الحيـاة لا تنتظـر أحـدًا، فـإن ضحايـا التفكـير الزائـد يخـسرون فرصًـا لا تُعـوّض، سـواء في العمـل أو العلاقـات أو حتـى في الاسـتمتاع بأبسـط متـع الحيـاة.

والمفارقـة أن الحـل ليـس في التفكـير أكثـر، بـل في التوقـف عـن التفكـير الزائـد، في تدريـب العقـل عـلى إحـداث نـوع مـن التـوازن في إدارة الأولويـات وتحديـد مـا يسـتحق التفكـير الفعـلي مـن الأمـور، في التوقـف عـن الخـوف مـن المجهـول، فالحيـاة بطبيعتهـا غـير مؤكـدة وإذا تصـورت البـلاء قبـل أن يقـع فقـد اسـتقبلت البـلاء دون لطـف مـن الله ربـما هلكـت، في إدراك أن بعـض الأسـئلة لا تحتـاج إلى إجابـة، وأن بعـض القـرارات لا تسـتحق كل هـذا العنـاء، وأن الانشـغال بالحـاضر هـو المفتـاح الوحيـد للعيـش بسـلام، في اتخـاذ قـرار ينهـي المسـألة والمـضي فيـه دون تراجـع، فأغلـب التفكـير الزائـد يـأتي مـن الرغبـة في اتخـاذ القـرار «المثـالي» ، في مخاطبـة عقلـك « مـاذا بعـد؟ » لتحفـزه عـلى وضـع نهايـة بـدلا مـن خلـق سـيناريوهات جديـدة، في إجهـاد بدنـك بأعـمال شـاقة فالجسـد المتعـب تشـغله الراحـة أكثـر مـن التفكـير فيـما لا جـدوى منـه، في التحكـم بكـم المشـتتات التـي تحيـط بـك مـن أجهـزة هاتـف ومواقـع تواصـل وعـشرات المواضيـع التـي تتابعهـا في يـومٍ واحـد، في خلـق صداقـات جديـدة والانشـغال بهوايـة تأخـذك معهـا إلى حيـث تجـد نفسـك، في إشـغال النفـس بـشيء عمـلي تنشـغل بـه عـن التفكـير بـلا جـدوى، في التـدرب عـلى تقبـل الأمـور كـما هـي، فليـس كل شيء يسـتدعي التحليـل المسـتمر أو البحـث عـن تفسـير.

في إدراك أنّـك لسـتَ مطالبًـا بفهـم كل شيء، ولا ملزمًـا بتحليـل كل مـا يحـدث، فبعـض الأمـور تُؤخـذ كـما هـي، لا لأنهـا تافهـة، بـل لأن التعمـق فيهـا لا يُثمـر إلا تعبًـا، فاختـر معـاركك الفكريـة كـما تختـار معـاركك العاطفيـة، في أن تصـادق الصمـت فهـو مسـاحة يتنفـس فيهـا العقـل ويعيـد ترتيـب فوضـاه، ولحظـة صمـت حقيقـي — لا صـوت، لا شاشـة، لا سـؤال — قـد تكـون أكثـر علاجًـا مـن مئـة فكـرة تركـض خلفهـا، في أن تسـتمع لصـوت قلبـك، فالعقـل دون قلـبٍ يقسـو، ويُشـكّك، ويُفـرط في الحسـاب، في أن تسـتمع لإحساسـك حـين يُطمئنـك بـلا دليـل، فقـد يعـرف مـا لم يُدركـه العقـل المشـتّت، بعـض الأشـياء تُفهـم بمـرور الوقـت، لا بالإلحـاح عليهـا، كلهـا أفـكار ليـس الهـدف منهـا إيقـاف التفكـير تمامًـا، بـل تنظيمـه وتحويلـه إلى تفكـير أكثـر إنتاجيـة، بـدلًا مـن أن يكـون مصـدر قلـق وإرهـاق مسـتمر .

أحيانًـا يكـون التجاهـل والرضـا همـا العـلاج الحقيقـي لعقـل لا يهـدأ، فـلا تطلـب مـن عقلـك أن يهـدأ وهـو جائـع للسـكينة، ثـم تُطعمـه أخبـارًا، وشاشـات، ومقارنـات.

الرحمة الخفية في مواطن الضعف

حكـت امـرأة إلى أم المؤمنـين عائشـة عـن ذنـب مـا، فقالـت عائشـة: «يـا نسـاء المؤمنـين إذا أذنبـت إحداكـن ذنبـاً فـلا تخـبرن بـه النـاس ولْتسـتغفِرِ الله ولتتـب إليـه فـإن العبـاد يُعـيِّرونَ ولا يُغـيِّرونَ وإن الله يُغـيِّرُ ولا يُعَـيِّرُ». (١)

النـاس يعـيرون ولا يعـذرون، يلومـون ولا يحتـوون، يفضحـون مـا ظهـر ويتناقلـون مـا خفـي، وإن كانـوا أهـلاً أو أصحابًـا أو جيرانًـا، هـم بـشر، لا يملكـون سـوى أعـين تفتّـش، وألسـنة تهمـس، وقلـوب لا تلتمـس دومًـا العـذر، يُظهـرون شـماتة في زلّتـك، ويتخـذون مـن ضعفـك حديثًـا في مجالسـهم، أمـا الله، فهـو السـتّير الـذي إن سـترك، حجـب عنـك ألسـنة الخلـق ونظراتهـم، وجعـل في صمتـك وقـارًا، وفي انكسـارك عـزًّا لا يُفهـم، فكـم مـن نفـس علّمتهـا التجـارب أن لا تُظهـر وجعهـا لأحـد، لا لأن الكبريـاء يمنعهـا، بـل لأن التجربـة أوصلتهـا إلى يقـين: أنّ البـوح للبـشر غالبًـا لا يُجـدي، بـل قـد يفتـح عليـك أبوابًـا مـن التهكـم والتقليـل والخـذلان، تلـك النفـوس تمـضي يومهـا بابتسـامة صلبـة، فـإذا مـا أوت إلى فراشـها، انهمـرت دموعهـا في صمـت لا يـراه أحـد، وقـد يظنهـا النـاس قويـة، لكنهـا في حقيقتهـا مسـتورة، ومـا أعظمهـا مـن نعمـة! أن يكـون انكسـارك خفيًّـا، وأن لا يُـرى منـك إلا وجـه الصـبر.

حـين يَسـتر الله انكسـارك يكـون سـترًا للـروح قبـل الجسـد، وللقلـب قبـل الحـال، وللضعـف قبـل العيـب، ليـس كل مكسـور يظهـر عليـه الكسـر، فبعـض النـاس يبتسـم وفي داخلـه أنـين لـو ظهـر لزلـزل الأرض، وهنـا يتجـلّى لطـف الله في السـتر؛ أن لا يُكشـف مـا يُذلّـك، ولا يُفضَـح مـا يُوجعـك، ولا يُعـرَف مـا يُثقلـك، فالسـتر نعمـة لا يُدركهـا إلا مَـن ذاق مـرارة الانكسـار ومـرَّ مِـن تحـت جـدار الهشاشـة، يتلفـت خائفًـا مـن انكشـافه، لكنـه يجـد يـد الله الحانيـة تُغلـق عنـه أبـواب الفضيحـة، وتطـوي عـن أعـين النـاس صفحـة عجـزه. وربّ سـترٍ واحـد مـن الله، كان أكـرم مـن ألـف عطيـة، لأن الانكسـار حـين يُعرَف يصبـح وجعًـا مضاعفًـا، وذلًا يتغـذى عـلى نظـرات الشـفقة أو لـذع التوبيـخ.

١ مسند إسحاق بن راهويه (٣/ ٩٥٣)

الستر لا يعني فقط إخفاء معصية أو عيب، بل هو معنى شاسع يغمر تفاصيل الحياة، لطف خفي يرفرف على يومك دون أن تشعر، حين تتعثر وتقوم دون أن يراك أحد، فهذا ستر، حين تمر بأزمة خانقة ويهيئ الله لك مخرجًا قبل أن تحتاج مدّ يدك لأحد، فهذا ستر، حين يكفيك الله مذلة العجز، ومرارة السؤال، ونظرات الشفقة، فهذا ستر، بل قد يكون الستر في أن تُبتلى ثم تصبر، فيُقال عنك: ما شكا ولا تذمّر، وقد يكون في أن يُصاب غيرك بما سلِمتَ أنت منه، دون فضلٍ منك، بل بفضلٍ من الله صرفه عنك ولم تره.

الستر أن تُحفظ من الزلل، أو تُعان على ستره إن وقعت فيه، أن تُبتلى بمرض فتُشفى، دون أن يعلم الناس أنك خُضت على فراشك معركةً بين الحياة والموت، أن تُرزق بالقليل الذي يغنيك عن سؤال الناس، أو يُبسط لك في الرزق دون أن تتيه به، الستر ليس غياب البلاء، بل وجود الرحمة معه، هو ألا تكون الأفضل، لكن لا تُفضَح نقائصك، ألا تملك الكثير، لكن يُبارك لك في القليل، هو ألا تحتاج لأحد، إلا الله، فيكفيك.

إن القلوب التي اعتادت أن تحمل أوجاعها بصمت، وأن تخفي دموعها خلف الأبواب المغلقة، قد مُنحت حصنًا منيعًا يحميها من نظرات الشفقة التي تضعف، ومن كلمات المواساة التي قد تحمل في طياتها منّة، ومن استغلال البعض للضعف حين يُكشف.

يا صديقي:

ليس كل سقوط يحتاج إلى شاهد، وليس كل ألم يستوجب المواساة، أحيانًا يكون أكثر العزاء صدقًا هو ذلك الذي تمنحه لنفسك، حين تربّت عليها بكلماتك، وتواسيها بدعواتك، وتنهض بها مرة أخرى دون أن يشعر أحد بما مررت به.

اقرأ صمت أخيك .. فلعل عزّة النفس أسكتته

كان أبـو هريـرة الصحـابي مـن فقـراء المسـلمين ، غلبـه الجـوع يومًـا فجلـس عـلى الطريـق عله أن يجـد مَـن يُضيِّفـه فيسـد جوعـه، يقـول أبـو هريـرة : فمـر بي أبـو بكـر، فسـألته عـن آيـة مـن كتـاب الله، مـا أسـأله إلا ليطعمنـي، فمـرَّ ولم يفعـل، ثـم مـرَّ بي عمـر، فسـألته عـن آيـة مـن كتـاب الله، مـا أسـأله إلا ليطعمنـي، فمـرَّ ولم يفعـل، ثـم مـرَّ أبـو القاسـم ﷺ، فتبسـم حـين رآني، وقـال: أبـا هريـرة، قلـت: لبيـك يـا رسـول الله، قـال: اِلحـق، ومـضى؛ فاتبعتـه، ودخـل منزلـه، فاسـتأذنت؛ فـأذن لي، فوجـد قدحًـا مـن لبـن، فقـال: مـن أيـن هـذا اللبـن لكـم؟ قيـل: أهـداه لنـا فـلان، فقـال رسـول الله ﷺ: أبـا هريـرة، قلـت: لبيـك. قـال: اِلحـق إلى أهـل الصُفَّـة، فادعهم.....وجـاء أهـل الصفـة فقـراء المسـلمين فشربـوا حتـى ارتـووا ثـم نظـر النبـي ﷺ إلى أبي هريـرة وتبسـم يعلـم حالـه ومـا كان يسـتعفف أن يقولـه عيانًـا، فقـال ﷺ: «أبـا هريـرة، اشرب؛ فشربـت، ثـم قـال: اشرب؛ فلـم أزل أشرب ويقـول: اشرب، ثـم قلـت: والـذي بعثـك بالحـق، مـا أجـد لـه مسـلكًا؛ فأخـذ القـدح، فحمـد الله، وسـمَّى، ثـم شرب»[1]

بعـض النـاس لا يملكـون القـدرة عـلى البـوح بـما يؤلمهـم، ليـس ضعفًـا، بـل لأن عـزة النفـس تمنعهـم مـن الشـكوى، تمنعهـم مـن تكـرار الطلـب، تمنعهـم مـن إظهـار الحاجـة حتـى لـو كانـوا في أمسّـها، قـد تـراه سـاكنًا، متماسـكًا، لا يمـدّ يـده بالسـؤال، لكنـه في داخلـه يحمـل مـن الأوجـاع مـا لـو نطقـت بـه عينـاه لفـاض دمعهـا، فمـن النـاس مَـن يصمـت لأنـه لم يعُـد يملـك طاقـة للحديـث، ومنهـم مَـن يصمـت لأنـه أدرك أن كلماتـه لـن تغـيّر شـيئًا، ومنهـم مَـن يلـوذ بالصمـت لأن كرامتـه تأبـى أن يكـرر الطلـب أو أن يُشـعر الآخريـن بحاجتـه، ليـس كل صمـت راحـة، ولا كل سـكوت رضًـا، فكثـير مـن الصمـت خلفـه كلام متراكـم، ومطالـب لم تُفهـم، وحقـوق لم تُعـطَ.

إن كان في حياتـك مَـن يهمـك أمـره فـلا تنتظـر دائـمًا أن يُعـبّر لـك عـما يؤلمـه، بـل كـن فطنًـا، اقـرأ صمتـه كـما تقـرأ كلماتـه، فبعـض القلـوب لا تعـرف كيـف تـشرح وجعهـا، لكنهـا تتحـدث بطريقـة أخـرى، في نظراتهـا، في انسـحابها، في تغيـير نـبرة صوتهـا، حـين تـراه يبتعـد، أو يتجنـب الحديـث عـن أمـر مـا، فربـما لا يريـد أن يُثقـل عليـك، وربـما

[1] صحيح الترمذي ٢٤٧٧

يخشى أن يُحرج نفسه بالبوح عما بداخله، فكن أنت المبادر، كن اليد التي تُعينه قبل أن يطلب، والكلمة التي تخفف عنه قبل أن يبوح، فبعض الاحتياجات لا تُقال، وبعض الأوجاع لا تُشكى، لكنها تحتاج فقط إلى قلبٍ يفهم.

اقرأ صمت أخيك فلعل عزّة النفس أسكتته، كم من كلمة كانت تثقل قلبه، لكنه كتمها مخافة أن يُذل أو يُهدر ما بقي له من كرامة، فبعض الصمت ليس راحة، بل وجعٌ يصعب التعبير عنه، لا تسئ فهم الساكت، فقد يكون في داخله جراح لو نطق بها لاشتعل المكان، هناك مَن يتألم لكنه يأبى أن يُرى ضعيفًا، ومَن يطلب المساعدة بعينيه لأنه لا يقوى على طلبها بلسانه، قد تراه ساكنًا، وفي صدره ضجيج العالم، فلا تظنن أن مَن لم يشكُ لم يُبتلَ، فكم مِن نفوس نزفت تحت عباءة الصمت.

ذاك الذي أخذ جانبًا عنك ولم تشغل نفسك بمعرفة السبب وفسرت صمته على أنه زهدٌ أو جفاء، قد يكون في داخله ضجيج من الحزن والمطالب المكبوتة، لكنه اختار أن يختزنها بداخله بدلًا من أن يضعها أمام من لا يُقدّرها، كن عونًا لمن حولك، لا تنتظر منهم أن يطلبوا، فبعض القلوب لا تتحدث، لكنها تأمل أن تُفهم، تفقد مَن حولك بلطف، وراقب صمتهم قبل كلامهم، فإن من الناس مَن لا يقول «أعنِّي» وإن أثقله الهم، ومَن لا يمدّ يده طلبًا، وإن تقطّعت به السبل، لأنه تعلّم أن الاستجداء انكسار لا يليق بكرامته.

يا صديقي:

عزّة النفس قد تمنع الإنسان من البوح، لكنها لا تمنع القلب من الاحتياج، فكن ممن يقرأ الحزن في العيون، ويحنو دون أن يُحرِج، ويمنح دون أن يُطلب، فبعض المواقف تعيش طويلًا في الذاكرة، لا لجمال ما قيل، بل لروعة مَن فهم صمتك.

القلوب لا تُقرأ، لكن الكلام يُسمع

قـال الربيـع بـن سـليمان: دخلـت عـلى الشـافعي وهـو مريـض فقلـت لـه: «قـوى الله ضعفـك» فابتسـم الشـافعي، لا اعتراضًـا، بـل تنبّهًـا لمعنـى الكلمـة وقـال: «لـو قـوّى ضعفـي قتلنـي» ، قـال الربيـع: «والله مـا أردت إلا الخـير» فجـاء رد الشـافعي الـذي لم يتوقـف عنـد ظاهـر العبـارة، بـل ارتقـى بفهمـه إلى مقـام النيـة فقـال: «أعلـم أنـك لـو شـتمتني مـا أردت إلا الخـير» [1] الشـافعي لم يُـردّ الكلمـة عـلى صاحبهـا، بـل ردّ عنهـا مـا قـد يعلَـق بهـا مـن تأويـل، فألقـى ظـلّ الرحمـة عـلى رفيقـه، وأراحـه مـن حـرج العبـارة، بكلـمات لم يعكرهـا ابتـلاء المـرض، ونقـاء سريـرةٍ لم توجعهـا الأوجـاع، وشـهامة أدبٍ تـرى مـا وراء الكلـمات لا مـا يظهـر منهـا، كان جسـده يضعـف، ولكـنّ فطنتـه، وأدبـه، وسـعة صـدره، كانـت في أوج قوتهـا.

مـا أكثـر مـا تُخفـي القلـوب، ومـا أقـل مـا يُفهـم منهـا حـين تُحاكـم بالـكلام وحـده، فالكلمـة تُسـمع، وتُـوزَن، وتُبنـى عليهـا المواقـف، أمـا النيّـات فتُحبـس خلـف أضـلاعٍ لا يطّلـع عليهـا إلا الله، وهنـا الفجـوة بـين مـا يُقـال ومـا يُقصـد، بـين ظاهـر اللفـظ وخلفيّـة الشـعور، فالقلـوب عـلى عظمتهـا لا تُقـرأ، لا تُفتـح عـلى قارعـة المعنـى، لكـنّ الـكلام يُسـمع، يُقتطـع مـن سـياقه، ويُلقـى في سـاحات التأويـل، وقـد يُشـهر سـيفه عـلى مَـن لم يقصـد حربًـا، لهـذا، لا يُفلـح في العِشـرة ولا في المـروءة إلا مـن زُوّد ببصـيرةٍ تنظـر مـن خـلال العبـارات لا إليهـا، وتسـتخرج المعنـى مـن وراء الحـرف لا مـن حرفـه، تعلـم القائـل وتثـق في نيتـه فـإن خانـه اللفـظ لم تخنـا الثقـة فيـه.

العـبرة ليسـت بالنيـة وحدهـا بـل بوقـع الـكلام وأثـره، فالقلـوب لا تـوزن بالنوايـا بـل بـما يفصـح عنـه اللسـان، والكلمـة قـد تحمـل في ظاهرهـا الخـير، لكنهـا قـد تـأتي عـلى غـير مقصدهـا فتـؤذي مَـن نحـب دون أن نشـعر، فليـس كل قـول حسـن في نيتنـا يكـون حسـنًا في وقعـه عـلى الآخريـن، فالكلـمات كالسـكاكين، منهـا مـا يـداوي ومنهـا مـا يجـرح، ومـا بينهـما فـرق في حسـن التقديـر، وكـم مـن شـخص قصـد المواسـاة فـزاد الجـرح عمقًـا، أو أراد التخفيـف فـكان حديثـه عبئًـا إضافيًـا.

---

١ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (٢/ ١٣٥)

كثـيرون يعتقـدون أن النيـة الحسـنة تكفـي لتبريـر أي قـول أو فعـل، لكـن الحقيقـة أن وقـع الـكلام وأثـره لا يقـل أهميـة عـن النوايـا التـي صاحبـت قولـه، فقـد يقـول المـرء كلمـة بقصـد النصـح، لكـن أسـلوبه الجـاف أو طريقتـه الفظـة تجعلهـا تُحـدث جرحًـا بـدلاً من أن تكـون دافعًـا للإصـلاح، وربـما ينطـق أحدهـم بكلمـة عابـرة لا يقصـد بهـا سـوءًا، لكنهـا تقـع في نفـس السـامع كالسـهم، تؤذيـه أو تحزنـه أو تُشـعره بالإهانـة، فالقلـوب ليسـت كتبًـا مفتوحـة تُقـرأ في وضـوح، ولا الأرواح شاشـات تعـرض نواياهـا، بـل هـي أسرار لا يعلمهـا إلا الله، لذلـك، لا تعـوّل عـلى صفـاء نيتـك وحدهـا، بـل اجعـل كلامـك امتـدادًا لرحمـة قلبـك، ووازن بـين مـا تشـعر بـه وبـين مـا تُفصـح عنـه، لأن النـاس لا يسـمعون مـا في قلبـك، بـل مـا ينطـق بـه لسـانك، فكـم مـن علاقـة تصدّعـت، وكـم مـن صداقـة تهـاوت، بسـبب كلمـة قيلـت بـلا تدبـر.

رُب كلمة تقول لصاحبها دعني

هـو مثـل عـربي يُـضرب في النهـي عـن الإكثـار في حديـث قـد يكـون السـكوت عنـه أسـلم مـن الخـوض فيـه، فهـي نهـي عـن الإكثـار مخافـة الإهجـار، وأغـرب مـا في المثـل هـي قصتـه، فقـد ذُكِـرَ أن ملـكاً مـن ملـوك اليمـن خـرج للصيـد ومعـه خـادم لـه كان يقرِّبـه ويكرمـه، فـأشرف عـلى صخـرة ملسـاء ووقـف عليهـا، فقـال لـه الخـادم: لـو أن إنسـانا ذُبـح عـلى هـذه الصخـرة إلى أيـن كان يبلـغ دمـه؟ فقـال الملـك: اذبحـوه عليهـا لـيُرى دمـه أيـن يبلـغ، فذُبـح عليهـا، فقـال الملـك: رب كلمـة تقـول لصاحبهـا دعنـي.

ولعـل مـا نقصـده هنـا الـكلام الـذي يتجـاوز مسـاحتك الشـخصية ليقتحـم حيـاة غـيرك، فحياتـك شـأنك الخـاص تقـل أو تكثـر في أمـرك لـن يعيبـك أحـد، أمـا الحديـث الـذي تتجـاوز فيـه حياتـك لتفتـح صفحـة مـن حيـاة غـيرك هنـا عليـك الحـذر، فقـد تهتـك سـترًا مـا كان لـك أن تخـوض فيـه، أو تلقـي مقالـة بغـير بينـة تلـق رواجًـا بـين النـاس يتـأذى منهـا غـيرك ولـن تسـتطيع محـو آثارهـا، قبـل أن تتحـدث في مواقـف الجـد والحسـم، سـلْ نفسـك: هـل فيـما أقـول خـير؟ هـل سـيُصلح أم يُفسـد؟ فـإن لم تجـد جوابًـا يطمئـن إليـه قلبـك، فربـما كان الصمـت خـيرًا لـك مـن الـكلام، وإذا رأيـت شـيئًا لا يُعجبـك فـلا تكـن أول مـن يطلـق خـبره، فليـس كل مـا يُـرى يُـروى، وليـس كل مـا يُقـال يُنقـل، فالكلـمات ليسـت مجـرد حـروف تتطايـر في الهـواء، بـل لهـا وزنٌ وأثـر، قـد ترفـع صاحبهـا أو تُسـقطه، قـد تـواسي قلبًـا أو تجرحـه، قـد تفتـح بابًـا كان موصـدًا، أو تُغلـق أبوابًـا لا تُفتـح بعدهـا أبـدًا، لهـذا كان الصمـت في بعـض المواقـف حكمـة، وكان الـتروي قبـل الحديـث نجـاة.

ولعلـك تعـرف أن حديـث الإفـك في حـق أم المؤمنـين عائشـة بـدأ بكلمـه تجـاوز بهـا منافـق حيـاة غـيره فهـزت أركان المدينـة بيتًـا بيتًـا وتقسَّـم النـاس عـلى إثرهـا جماعـات واتجاهـات، ففـي كل مـا تجـاوز مسـاحتك الشـخصية انتبـه لقولـك فـرب كلمـة تنطقهـا بـلا بينـة وتعيـش عمـرًا بحسرتهـا ندمـا وألمـا ، فليسـت كل فكـرة تسـتحق أن تُقـال، ولا كل شـعور يجـب أن يُعـبَّر عنـه فـورًا، فكثـيرًا مـا تـود كلمـة لـو أنهـا لم تُنطـق، وكثـيرًا مـا يندم الإنسـان عـلى قـول تفـوَّه بـه في غفلـة مـن عقلـه أو لحظـة انفعـال.

ماضون بأوجاعنا الصامتة

ثمّة طرق لا نختارها بأيدينا، بل تدفعنا إليها الحياة دفعًا، فنسير فيها وقلوبنا مثقلة، وخطانا منهكة، وأرواحنا تُقاوم السقوط في كل منعطف، دروب مليئة بالأشواك، بالخذلان، بالفقد، بالتعب الذي لا يُرى، لكننا نواصل السير، لا لأننا أقوياء كما يظنّون، بل لأننا لا نملك رفاهية التوقّف، نمضي رغم الوجع، نحمل آمالنا كمن يحمل الماء في كفٍّ، نخشى أن يُراق، ونخشى أكثر أن لا نجد له موردًا في آخر الطريق، وقد نضحك في ظاهرنا، وقلوبنا تنزف في صمت، نواسي أنفسنا بكلمة، أو دعاء، أو ذكرى جميلة تجعل الأيام أخفّ وطأة.

تهدأ عاصفة الابتلاء، يرحل مَن كنا نرى الحياة بأعينهم، وتبقى الذكرى، نتعلّم مع الوقت أن الحزن لا يموت، لكننا نتكيف معه، يُخفف وطأته، ويعلّمنا كيف نمشي بألمٍ أقل، وحنينٍ أكثر، تمضي الحياة لا لأنها قاسية، بل لأنها فُطِرت على التقلّب، نحمل مَن فقدناهم في قلوبنا كصلاةٍ لا تنقطع، نستحضر ملامحهم في اللحظات الصامتة، نبتسم حين يزورنا طيفهم، ونذرف دمعًا إذا باغتنا الحنين، لأنهم كانوا يومًا جزءًا من قوتنا، وسنظل نحملهم معنا، لا كعبء، بل كأثرٍ جميل يربّت على أرواحنا في لحظات الانكسار ، لكننا، رغم كل شيء، نُكمِل الطريق، لا لأن الطريق سهلة، بل لأننا اعتدنا أن نمشي فوق الشوك بلا أنين، نُرمم تصدّعاتنا في الخفاء، نكفكف دموعنا في عتمات الليل، نُربّت على أرواحنا المتعبة كما تفعل الأمهات بأطفالهن بحنوٍّ لا يُرى، وبصبرٍ لا يُكافأ.

نمضي، وكلٌّ في صدره عزف لا يُسمع، وألمٌ لا يُقال، وسؤالٌ لا جواب له سوى الصبر، لا نُكثر الشكوى، لا لأنّ الوجع قليل، بل لأننا أدركنا أن بعض الأوجاع لا تُحكى نحملها كما يُحمل السرّ، نُخفيها خلف ابتسامات عابرة، وأحاديث لا تمسّ إلا سطح القلب، ومع كل خطوة وجعٌ مكتوم، لكن وراء كل دربٍ شاقّ، نهاية تُشبه الراحة، أو تُشبه النسيان، أو تُشبه الرضا بما قسّم الله، يبدو أن دروب الحياة قد عبرتنا قبل أن نعبرها، فلا تحسب أن مَن يمشي بجانبك بلا انكسار لم يُصب، إنه فقط ارتضى أن يكمل الرحلة ولو بقدم واحدة، ولو بنصف أمل، ولو بشبه حياة.

الفراغ يقتل أنبل ما في الإنسان

الفـراغ ليـس خلـوًّا مـن العمـل فحسـب، بـل خلـوٌّ مـن المعنـى، مـن الغايـة، مـن الشـعور بـأن للمـرء وزنًـا في هـذا الكـون، إنـه تلـك المسـاحة الصامتـة التـي يتسـلل منهـا الوهـم، وتتكاثـر فيهـا الهواجـس، وتتـآكل فيهـا الإرادة شـيئًا فشـيئًا حتـى ينطفـئ الحـماس وتذبـل الـروح، الفـراغ لا يقتـل الجسـد، بـل يقتـل أنبـل مـا في الإنسـان: عقلـه، وجدانـه، إحساسـه بقيمتـه، عزيمتـه، قيمـه، مبادئـه، حماسـته، وحتـى حسّـه الإنسـاني، فمـن اعتـاد أن يكـون فارغًـا، سـيجد نفسـه مسـتهلكًا في التفاهـات، منسـاقًا خلـف ضجيـج لا معنـى لـه، هاربًـا مـن ذاتـه بـدلًا مـن مواجهتهـا، وكـم مـن طاقـات عظيمـة خمـدت في ظـلال البطالـة، وكـم مـن أحـلام شريفـة دفنـت في مقابـر الـتردد والكسـل، لا لـشيء إلا لأن صاحبهـا لم يجـد مـا يمـلأ بـه وقتـه أو قلبـه.

في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال لرجـلٍ وهـو يَعِظُـه: اغتنِـمْ خمسًـا قبـل خمـسٍ: شـبابَك قبـل هَرَمِـك، وصِحَّتَـك قبـل سَـقَمِك، وغنـاك قبـل فقـرِك، وفراغَـك قبـل شُـغلِك، وحياتَـك قبـل موتِـك [1]

«وفراغَـك قبـل شُـغلِك» فالإنسـان كائـن خُلـق للحركـة، للبحـث، للسـعي، فـإن تـرك نفسـه نهبًـا للفـراغ، بـدأ يفقـد شـيئًا فشـيئًا شـغف الحيـاة نفسـها، ففـي الفـراغ، تتضخـم التفاصيـل الصغـيرة حتـى تصبـح جبـالًا، ويصبـح الـلاشيء كابوسًـا ثقيـلًا، إنـه يضخـم الشـعور، العاطفـة، التعـب، الألم، الأحـداث العابـرة تصبـح مؤثـرة، الكلـمات العابـرة تصبـح قاتلـة، كل شيء مـع الفـراغ خاضـع للتأويـل والتخيـل في أبشـع صـوره، إنـه كالصمـت الثقيـل الـذي يتسـلل بـين ضلـوع الإنسـان، يملـؤه بالضيـاع، ويجعلـه يتخبـط بـين ذكريـات المـاضي وأوهـام المسـتقبل، يفتـح الأبـواب للهواجـس، حتـى يجـد المـرء نفسـه غارقًـا في دوامـة لا تنتهـي مـن القلـق والضجـر واللامبـالاة، يحـوّل الحلـم إلى مجـرد فكـرة خاملـة لا تجـد طريقهـا للتنفيـذ، يقنـع الإنسـان بـأن السـكون راحـة، بينـما هـو في الحقيقـة اسـتنزاف بطـيء للـروح.

---

١ صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٥)

وما النجاة من هذا كله إلا بملء الفراغ بعمل حقيقي، بشيء ينمّي الإنسان بدلًا من أن يهدره، أن يُملأ الفراغ بما يستحق، بما يُثري الروح ويجعل للعمر قيمة.

اقرأ، تعلم، اعمل، ابتكر، ساهم، تحرك، اصنع شيئًا، حتى لو كان بسيطًا، فكل خطوة تخطوها نحو هدف، ولو كان صغيرًا، هي نجاة من الفراغ الذي يلتهم الإنسان دون أن يشعر، لا يشترط أن يكون الإنجاز عظيمًا، فحتى الخطوات الصغيرة تُبقي الروح حيّة، حتى التفاصيل البسيطة تصنع فارقًا، افعل أي شيء يُبقيك في حالة نمو، لأن الفراغ هو التربة التي تنبت فيها كل بذور الضياع والانطفاء، وما أتعس مَن ظنّ أن الراحة التامة غاية، فاستلقى على أريكة الفراغ حتى بات سجينها!

واحذر أن تترك قلبك بلا شغل، ووقتك بلا معنى، وروحك بلا رسالة، فإن أعظم ما يُنقذ الإنسان من سقوطه هو أن يُشغل بما يُحييه، لا بما يملؤه فقط، وإن رأيت مِن حولك مَن خبت شمعتهم فجأة، لا تسأل عمّا أصابهم بل اسأل: كم مضى عليهم وهم بلا وجهة؟ بلا رسالة؟ بلا يد تمسك بهم وتقول: أنت مهم، وجودك ليس عبثًا.

الخوف ينسج الأوهام، والتجربة تمزقها

الخـوف، في جوهـره، ليـس أكثـر مـن سـؤالٍ معلَّـق مـاذا لـو فشـلت؟ مـاذا لـو تألمـت؟ مـاذا لـو لم أكـن كافيًـا؟ أسـئلة تنهـش العـزم، وتبعثـر الخُطـى، وتمنـع المـرء مـن أن يمـدّ يـده نحـو الحيـاة، لكـن تلـك الأسـئلة، عـلى كثرتهـا وضجيجهـا، لا يوقفهـا التفكـير ولا يُسـكِتها الترقـب، بـل وحدهـا التجربـة تُخرسـها، فـما مـن طريـقٍ ينقلـك مـن الـتردد إلى اليقـين إلا أن تخطـو، أن تقـترب، أن تشـتبك مـع الحيـاة وجهًـا لوجـه، فكـم مـن إنسـانٍ انتظـر حتـى نضجـت الأعـذار في داخلـه، وظـلَّ أسـير احتـمالات لم تقـع، وسـقوطٍ لم يحـدث، وخـوفٍ لم يـأتِ حتـى جفّـت منـه الرغبـة، وغـاب عنـه الطريـق! ففـي التجربـة وحدهـا، تُولـد الإجابـات التـي لا يمنحهـا العقـل مهـما أعمـل تفكـيره، ولا يُهديهـا الزمـن مهـما طـال الانتظـار.

ونحـن هنـا لا نتحـدث عـن ذاك الشـعور الـذي يتخللنـا عنـد الوقـوع في خطـر مـا، بـل الشـعور الـذي يتخللنـا قبـل الفعـل فيحـول دون أن نبـدأ فيـه، حـين نقـدم عـلى شيء يصـادف رغبـة في أنفسـنا لكـن الخـوف مـن الإخفـاق يمنعنـا مـن البـدء، فمـن يظـن أن الدنيـا تسـتقيم بالأمـاني فهـو واه، لا يكفـي أن يحلـم المـرء بأمـر ليتحقـق، ولا يكفـي أن يتمنـى أمـرًا ليصـير ملكـه، بـل لا يكفـي أن يسـأل الله النجـاة دون إفـراغ السـبب، في كل مـكان عليـك أن تقاتـل لتنجـو .

في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال « واسْـتَعِنْ بـالله ولا تَعْجِـزْ» [1] ولا تعجـز أي لا تتكاسـل فتفعـل فعـل العاجـز، يغلبـك الخـوف مـن الفشـل عـن الإقـدام في الأمـر فيهزمـك الـتردد لا التجربـة، فالخـوف قبـل التجربـة عجـزٌ خفـيّ يتسـلل إلى النفـس فيكبلهـا بقيـود الوهـم، لا لأنـه يسـتند إلى واقـع، بـل لأنـه يُضخِّـم الاحتـمالات السـوداء في المخيلـة حتـى تصبـح جبـالًا يعجـز صاحبهـا عـن تسـلقها، وهـو لم يخـطُ خطـوة واحـدة بعـد، «ولا تَعْجِـزْ» إذا شرعـت في أمـر تـرى في منفعـة لـك وبـدأت فيـه فـلا تضعـف همتـك فتعجـز عـن تحقيـق شيء لـه قيمـة، فالقـوة ليسـت في غيـاب الخـوف، بـل في القـدرة عـلى تجـاوزه، فاخـشَ إن شـئت، لكـن لا تـدع الخـوف يقيّـدك، بـل امـضِ بـه، احملـه معـك حتـى يتلاشـى في زخـم

١ مسلم (٢٦٦٤)

المحاولة، فكل تجربة لم تخضها خشية الألم، ستحمل وجعًا من نوع آخر: وجع الندم.

الخـوف لا يحميـك مـن الفشـل، بـل يمنعك مـن أن تحاول أصـلاً، فالذيـن صنعوا لأنفسـهم مجـدًا، لم يُقدِمـوا لأنهـم ضمِنـوا النجـاح، بـل لأنهـم كـسروا حاجـز الـتردد ورفضـوا أن يظلـوا أسرى التخـوّف والانتظـار، فالعاجـز ليـس مَـن تعثّـر بعـد السـعي، بـل مَـن لم يسـعَ أصـلًا خوفًـا مـن التعثّـر، فكـم مـن حلـم وأدتـه التوقعـات قبـل أن يولـد! وكـم مـن موهبة ماتـت في مهدهـا لأن صاحبهـا خـاف أن يُخفـق أمـام النـاس! انظـر إلى مَـن امتنع عـن التقدّم لوظيفـةٍ يحلـم بهـا خشـية الرفـض، أو مَـن تراجـع عـن الحديـث أمـام جمـع لأنـه خـاف مـن التعلثـم، أو مَـن كتـم مشـاعره سـنين لأنـه ظـن أن البـوح سـيكسِره، كلّ أولئـك لم يُهزمـوا بالفعـل، بـل بالاحتـمال، لم يسـقطوا، بـل أقنعـوا أنفسـهم أن السـقوط مؤكـد قبـل أن يخطـو خطـوة، وفي المقابـل، مَـن جرّبـوا أدركـوا أن الحقيقـة كانت ألطف مـن خيالهم المذعـور، وأن مـا خافـوه لم يكـن إلا بابًـا مواربًـا، يكفـي أن تدفعـه لتجـد خلفـه سـاحةً واسـعة تنتظـرك، ذاك الـذي وقـف أول مـرة عـلى المسرح وكان صوتـه يرتجـف، لم يمـت كـما تخيّـل، بـل بكـى مـن الفـرح بعـد التصفيـق، وتلـك التـي خافـت مـن بـدء مشروعهـا ظنًّـا أنهـا لا تملـك مـا يكفـي، أصبحـت تُوظّـف غيرهـا بعـد سـنوات، لم يكونـوا بـلا خـوف، لكنهـم جاوبـوا بأسـلوب الحيـاة: بالمحاولـة.

جرّب.. فالواقع أصدق من الظنون، والخطوة الواحدة أبلغ من ألف «ماذا لو؟»

فقط جرّب، ودع الحياة تجيب.

بماذا يجب أن نفتخر؟

الفخــر صفــة تــلازم البــشر باختــلاف ثقافاتهــم، فهــو أقــرب إلى كونــه إحــدى الصفــات الأساسـية التـي يسـتدعيها الفـرد عندمـا يبـدع في أمـر لا يـأتي بـه نظـراؤه عـلى الوجـه الأمثـل، ولعـل مـا يفـسر ذلـك تواجـده عنـد الطفـل الـذي لم يفهـم بعـد معنـى الفخـر لكنـه يعـبر عنـه بـكل وضـوح حينـما يجـد ثنـاء عـلى فعـل حَسـن قـام بـه ، وقـد نـرى مَـن يبـدع في أمـر مـا لكنـه يعـرف الفـارق بـين الفخـر والغـرور فيكسـر شـهوة النفـس سريعًـا قبـل أن يسـكنها العُجـب فيتحـول الفخـر بمحامـد المـرء إلى كِـبر يسـكن القلـب فيقـوده إلى هلاكـه، فمـن ذلـك فعـل عمـر بـن الخطـاب حينـما حمـل قِربـة عـلى عنقـه، فقيـل لـه في ذلـك فقـال : «إن نفسـي أعجبتنـي ، فـأردت أن أذلهـا» وهـو هنـا لا يقصـد إذلال النفـس بحملهـا عـلى مـا تكـره، إنـما يقصـد تهذيـب النفـس لـترى مـا تفعلـه عـلى أنـه أمـر طبيعـي أتـت بـه ويـأتي بـه غيرهـا، فـلا تعجـب وتظـن أنهـا أتـت بـما لم يـؤت بـه .

وحـين نـرى مَـن يفتخـر بـإرث الأقدمـين فإنـه في الحقيقـة لا يفتخـر بـما يُفتخـر بـه، إنـما يعـترف أنـه لم يـؤد واجبـه كـما أداه سـابقوه وذلـك لأنـه يتباهـى بـإرث لم تكـن لـه فيـه بصمـة إبـداع، ليبقـى التسـاؤل بـماذا يفتخـر المـرء ؟

قـد يفتخـر البعـض بجـاهٍ ورثـه، أو مـالٍ جمعـه، أو نسـبٍ ينتمـي إليـه، بينـما تُنسـى حقيقـة أن الفخـر فيـما قـدّم لا في مـا وُهِـب، في مـا سـعيت إليـه بجهـدك لا مـا نلتـه بالمـيراث، كان ابـن المبـارك عالمًـا مجاهـدًا كريـم النفـس، ومـع ذلـك قيـل لـه يومًـا: «ألا تسـتحي أن تمـشي مـع الحمّالـين؟ فقـال: «أفتخـر أني أمـشي مـع مَـن يـرضى الله عنهـم، لا مَـن تـرضى عنهـم الدنيـا».

افخـر أنـك لم تـؤذِ أحـدًا حـين قـدرت، ولم تنكـسر حـين ضعفـت، وأنـك إن سـقطت، قمـت بيـدٍ نظيفـة لا تسـتجدي العطـف، وأنـك مـا زلـت تبتهـج لمـرأى غـروبٍ جميـل، أو لطـف إنسـان لا تعرفـه، أن النقـاء داخلـك لم يُطفـأ رغـم العتمـة.

افخـر بأثـرٍ طيّـب تركتـه في قلـب أمٍّ مكلومـة، أو في صـدر صديـقٍ كاد يغـرق لـولا كلمـة منـك، بدمعـة كتمتهـا كـي لا تُقلـق قلـب مَـن تحـب، أو بحلـمٍ سرت إليـه رغـم ضجيـج

الخـوف، بأنـك قاومـت قسـوة العـالم دون أن تفقـد رقّتـك، وأنـك أحببـت بصـدق في زمـنٍ يُبـاع فيـه الحـبّ عـلى الأرصفـة.

افخـر بإنجازاتـك، مهـما كانـت صغـيرة، مـا دامـت تعـبّر عـن اجتهـادك وسـعيك، بـكل لحظـة صبر، بـكل خطـوة تجـاوزت بهـا خيبـات مضـت، بالوقـوف مجـددًا بعـد كل سـقوط بقدرتـك عـلى التمسـك بمبادئـك رغـم الإغـراءات، وبقوتـك في مواجهـة التيـار حـين سـار الجميـع في الاتجـاه المعاكـس.

افخـر بالمواقـف الصغـيرة التـي لم يلاحظهـا أحـد لكنهـا صنعـت فرقًـا في حيـاة شـخص مـا، بكلمـة طيبـة قلتهـا فمسـحت عـن قلـب مهمـوم بعـض أوجاعـه، أو بابتسـامة منحتهـا لمـن كاد اليـأس أن ينهشـه، بأنـك لم تفقـد فطرتـك وسـط عـالم يـزداد قسـوة، وأنـك لا تـزال تحمـل في قلبـك إحساسًـا صادقًـا بالآخريـن، لا يسـعى للثنـاء ولا ينتظـر المقابـل.

افخـر بأنـك حـين وقفـت عـلى مفـترق الطـرق، اختـرت الطريـق الأصعـب لأنـه الأصـدق، لأنـه طريـق الإنسـان الـذي يريـد أن يكـون فخـورًا بنفسـه كلـما نظـر في المـرآة، بوخـز الضمـير الـذي يـردك إن شردت فيعيـدك إلى الصـواب سريعًـا، بأمانـةٍ حفظـت بهـا غائبًـا، بكلمـة طيّبـة خفَّفـت بهـا ألمًـا، بدمعـة رفعتهـا عـن عـينٍ منهكـة، بسـترٍ غلَّفـت بـه عـورة أخٍ لـك، بصـدقٍ مـا بدلتـه رغـم تبـدّل الظـروف، افخـر بأنـك لم تخـذل مَـن وثـق بـك، ولم تخـن مَـن أمـن جانبـك، ولم تبـع ضمـيرك في سـوق المغريـات.

ليـس الفخـر فيـما ترتديـه أو تمتلكـه، ولا في الألقـاب التـي تتزيـن بهـا الأسـماء، ولا في عـدد المتابعـين ولا التصفيـق الـذي يصـمّ الآذان، إنـما الفخـر في القيـم التـي نحملهـا، وفي أثرنـا الـذي لا يُمحـى، في الخـير الـذي نزرعـه، وفي المواقـف التـي تترفـع عـن الـرديء وتختـار الصـواب وإن كان مُـرًّا، إنـما الفخـر في قلـب مرتـاح ضمـيره، ونفـس تعلـو عـلى الأذى، وسـعي للخـير لا يـراه النـاس لكنـه محفـوظ عنـد ربّ النـاس، وحـين تتسـاوى الأجسـاد تحـت الـتراب، لـن يبقـى للمـرء إلا مـا افتخـر بـه حقًّـا: خُلُقـه، وعملـه، ونيّتـه.

فـإذا سـألوك: بـماذا تفتخـر؟ فقـل: بقلبـي، حـين لم يُصبـح حجـرًا، وبوجهـي حـين لم يتـوار خجـلًا مـن مـاضٍ سـقيم.

حين يتخطّى الفضول حدّه يُصبح اقتحامًا

تـزوج «سـلمان الفـارسي» فلـما أصبـح غـدا عليـه أصحابـه ، فقالـوا : كيـف وجـدت أهلـك؟ فأعـرض عنهـم، ثـم أعـادوا فأعـرض عنهـم، ثـم أعـادوا فأعـرض عنهـم، ثـم قـال : «إنـما جعـل الله تعـالى السـتور والخـدور والأبـواب لتـواري مـا فيهـا ، حسـب امـرئ منكـم أن يسـأل عـما ظهـر لـه ، فأمـا مـا غـاب عنـه فـلا يسـألن عـن ذلـك». [1]

تلـك الأسـئلة التـي لا يُـراد بهـا جـواب كثـيرًا مـا نصادفهـا في حياتنـا، بـل يُـراد بهـا اقتحـام، لا رحمـة فيهـا ولا أدب، تَطـلّ علينـا بألسـنة تتطفـل عـلى الأرواح، وتتسـلل إلى خصوصيـات لم يُـؤذن لهـا أن تُمـسّ ، يسـأل: لمـاذا لم تتـزوج؟ وكأن العمـر بيـده، ويقـول: مـا بالـك لم تُنجِـب بعـد؟ وكأن الأقـدار اسـتأذنته، ويشـير: لمـاذا تسـكن هنـا؟ ولمـاذا تعمـل في هـذا؟ وكأنـما صـار مستشـارًا مأذونـًا في شـؤون النـاس كلهـم. إنـه الفضـول حـين يتجـرّد مـن الـذوق، ويتزيّـن بثـوب النصيحـة وهـو يحمـل خنجـر التجريـح، والأسـوأ حـين يغلـف سـؤاله بابتسـامة زائفـة أو موعظـة مفتعلـة، فـلا هـو ناصـح، ولا هـو حريـص، الفضـول آفـة، تتبـع أحـوال النـاس، التدخـل في شـؤونهم، السـؤال فيـما لا يعنيـك معرفتـه ولا يـضرك جهلـه، النـاس أسرار فـلا تشـبع فضولـك في بيـوت غـيرك، فإنـك بـين حالـين إمـا إجابـة تهينـك أو تجاهـل يريـق مـاء وجهـك.

ومـن العجيـب أن أغلـب الفضوليـين لا يـرون في أنفسـهم خطـأ، بـل يظنـون تطفلهـم اهتمامًـا، ووقاحتهـم حقًـا، وكأنهـم أوصيـاء عـلى حيـاة الآخريـن! يتدخلـون في القـرارات، يبثـون آرائهـم وكأنهـا مسـلمات، وينسـون أن لـكل إنسـان خصوصيتـه ومسـاحته التـي يجـب أن تُحـترم، إنهـم لا يكتفـون بالسـؤال، بـل يطـاردون الإجابـات، وإن لم يجدوهـا اختلقوهـا، يسـلبون الآخريـن حقهـم في الهـدوء، في الحريـة، في الاحتفـاظ بأسرارهـم دون تطفـل أو تجسـس، وهـذا الفضـول غـير المنضبـط ليـس مجـرد عـادة سـيئة، بـل هـو انعـكاس لفـراغ داخـلي يسـعى صاحبـه لملئـه بحيـاة الآخريـن بـدلًا مـن أن يواجـه حياتـه هـو، فمـن يتتبـع أخبـار النـاس ويتدخـل في شـؤونهم يهـرب ـ في الحقيقـة ـ مـن مواجهـة نقصـه، مـن اعترافـه بأنـه لا يملـك مـا يشـغله عنهـم.

١ حليـة الأوليـاء وطبقـات الأصفيـاء (١٨٦/١) - السـتور (جمـع سِـتر وهـو مـا يُسـدل عـلى النوافـذ والأبـواب لحجـب الرؤيـة) الخـدور (جمـع خِـدر وهـو سـتريُمَدُّ في ناحيـة البيـت تُقيـم فيـه المـرأة)

ليس كل سؤال يُطرح يُرجى منه جواب، ولا كل صمتٍ علامةُ رضا، فبعض الأسئلة ليست سوى اقتحامٍ غير محمود لخصوصيات الآخر، وأخرى تُلقي بثقلها على صدر مَن لا طاقة له بالإجابة، فقد يمرُّ أحدهم بجراح لا تُرى، يحمل همًّا لا يُفصح عنه، أو يواجه ضيقًا لا يُحب أن يُشفق عليه فيه، ويغلبك الفضول للتساؤل، تظنها مواساة، وهي عنده كأنها نكءٌ لجُرح يحاول أن يندمل.

ليس الصمت دومًا جفاءً، وليس التجاهل قسوةً، بل أحيانًا هو أدبٌ مع مشاعر الآخر، وفهمٌ بأن الكتمان عنده خيار، لا عجز عن الكلام، فكثيرون يُخفون ما لو أفصحوا عنه لانكسروا، أو لانكسرت أنت معهم، فدع الناس وما اختارته قلوبهم، ولا تستكثر فضولك على ضعفهم، فإن في القلوب ما يكفيها مِن وجع، ومَن يحترم المسافات بينه وبين الآخرين، لا يحترمهم هم فقط، بل يحترم نفسه، يحترم إنسانيته؛ لأن الانشغال بالنفس خير من الضياع في زوايا حياة الآخرين التي لم يُدعَ إليها.

لا تسأل عن رزقٍ تأخّر، أو زواج لم يتم، أو طفل لم يُرزقوا به، فربما كانت الكلمات عندهم تقف على حافة البكاء، وإن وجدت صديقًا قد تغيّر، أو أخًا قد انعزل، فتذكر أن بعض الأبواب لا تُطرق، بل يُنتظر أن تُفتح حين يأذن صاحبها، ولو أن المرء عرف قدره، لعلم أن التغاضي عن ما لا يعنيه رِفعة، وأن الكف عن الأسئلة الموجعة أدب لا يُعلّم في كتب، بل يُولد مع حسّ مرهف ونفس تعرف كيف تصون كرامة الآخرين كما تصون كرامتها.

يا صديقي :

كن خفيفًا على الأرواح، فثقل السؤال قد يُحرج، وإن نُطِق بنيّة حسنة، واللطف في الصمت، أحيانًا، أبلغ من ألف عبارة رقيقة، فليس من الحكمة أن نسأل عن كل ما يُثير فضولنا، بل أن نُصغي لما بين السطور، ونحترم المساحات الصامتة، ففيها ما لا يقال، لكنه يُفهم.

قرارات وُلدت قبل أوانها

الإنسـان لا يُحاسَـب عـلى مـا شـعر، بـل عـلى مـا فعل، ومـا قـال، ومـا قـرّر، وتلـك اللحظة الفاصلـة بـين الشـعور والفعـل هـي النضـج، فـإن كنـت تطمـح أن تكـون ناضجًـا في مواقفـك، كريـمًا في ردّك، رحيـمًا في فهمـك، فابـدأ بدقيقـة واحـدة، دقيقـة صمت قبـل القرار وقبـل الـكلام، تُنقـذ بهـا علاقـة، أو تحفـظ بهـا كرامـة، أو تمنع بهـا سـقوطًا أنت في غنـى عنه، فـما أكثـر المواقـف التـي تمنّينـا بعدهـا أن لـو فكرنـا قليـلاً، فقـط قليـلاً، قبـل أن نقـول أو نفعـل.

إننـا كثـيرًا مـا ننـدم لا لأننـا أخطأنـا في نوايانـا، بـل لأننـا تسرعنـا في أقوالنـا، أو اندفعنـا في أفعالنـا، كلمـة خرجـت في لحظـة انفعـال، أو قـرار اتُّخـذ تحـت وطـأة التـسرع، كفيـلان بخلـق جـرح لا يلتئـم باعتـذارات، أو ضيـاع لا ترمّمـه محـاولات الرجـوع، فالمندفـع المتهـور مشـحون بشـحنة غضـب زائـدة قـد لا تظهـر عـلى ملامحـه لكنهـا واضحـة جليـة في أقوالـه وأفعالـه، فالاندفـاع تـصرف غـير مـدروس، لا يفكـر المـرء في عواقبـه، تصرفـات ارتجاليـه لا يسـبقها تفكـير ولا تقديـر للعواقـب، والآفـة أن يعتـاد المـرء عليهـا، أن يتهـاون في ضبـط النفـس فتغلبـه لتصـير سـمة بـارزة في تصرفاتـه، والـذي نعينـه هنـا ذاك الاندفـاع المتهـور الـذي تجـور بـه عـلى حـق غـيرك في الـكلام ، في الـرأي، في إبـداء اعتراضـه عـلى تـصرف مـا، تسـبق المدافـع عـن رأيـه لتسـفهه أمـام الآخريـن، تصـادر حـق غـيرك في شرح موقفـه أو تبريـر تـصرف قـام بـه فيظهـر في أعـين النـاس المخطـئ المنبـوذ.

فهـذا الاندفـاع حـين يتحـول إلى طبـع يجـرّ صاحبـه إلى أخطـاء لا تحـصى، فهـو لا يمنحـه الفرصـة ليفكـر، بـل يجعلـه يتـصرف أولًا ثـم ينـدم لاحقًـا، وربـما لا يـدرك حتـى حجـم الـضرر الـذي سـبَّبه، فكثـير مـن العلاقـات تآكلـت لأن أحدهـم لم يمنـح نفسـه لحظـة تفكـير قبـل أن يطلـق كلماتـه، وكثـير مـن الفـرص ضاعـت لأن صاحبهـا تـصرف بـردة فعـل سريعـة دون أن يسـتوعب الموقـف كامـلًا، في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال : « إذا غضـبَ أحدُكـم وهـو قائـمٌ فلْيجلـسْ، فـإن ذهـبَ عنـه الغضـبُ وإلاَّ فلْيَضْطَجِـعْ» [1] عـلاج بسـيط لمشـكلة عصيبـة، غـيّر مـن حالتـك وقـت الغضـب، امنـح نفسـك دقيقـة

١ أخرجه أبو داود (٤٧٨٢) وصححه الألباني

إضافيـة للتفكـير ، دقيقـة واحـدة فقـط تمنحـك فرصـة أن تنظـر مـن زاويـة أخـرى، أن تتأمـل في النتيجـة قبـل أن تقـع، أن تختـبر صـدى كلماتـك في قلـب غـيرك قبـل أن تلفظهـا، أن تتسـاءل: هـل يسـتحق الموقـف كل هـذا الانفعـال؟ هـل يجـدر بي أن أُهـين مَـن أُحـبّ، لأجـل لحظـة غضـب؟ هـل هـذا الـرد سـيحلّ المشـكلة، أم سيُشـعلها؟

حـين تسـتعر مشـاعرك كالنـار في الهشـيم، لا تـترك نفسـك رهينـةً لاندفاعهـا، بـدلًا مـن أن تسـير وراء الغضـب كالأعمـى، تراجـع خطـوة، ليـس ضعفًـا، بـل حكمـة، ارفـع بـصرك عـن الحـدث، وانظـر بعيـدًا، لا إلى الأفـق فحسـب، بـل إلى مـا وراء هـذه اللحظـة، إلى مـا سـتؤول إليـه الأمـور إن أنـت أجّجتهـا بكلمـة أو ردة فعـل طائشـة، جـرّب أن تسـكت وأنـت قـادر عـلى الـكلام، أن تعـدّ أنفاسـك لا أصابعـك، أن تتحسّـس نَبضـك لا رغبتـك في الـرد، اجلـس إن كنـت واقفًـا، فالحكمـة كثـيرًا مـا تهبـط حـين يهـدأ الجسـد، اسـتعذ بـالله مـن الشـيطان الـذي لا يُفـرّط في لحظـات الغضـب، وردد ذكـرًا تطمئـن إليـه روحـك، أو آيـة تتعلّـق بهـا نفسـك، إنـك بذلـك لا تتهـرّب مـن المواجهـة، بـل تؤجلهـا حتـى تملـك أدواتهـا، وتختـار أن تنتـصر عـلى نفسـك قبـل أن تحـاول الانتصـار في الموقـف.

إن أكثـر الكلـمات ألمًـا ليسـت تلـك التـي تُقـال في صـدق، بل التـي تُقـال في غضـب، فتنطلق دون عقـل أو رحمـة، ثـم تـترك في الأرواح جراحًـا لا يبرئهـا اعتـذار، فـرب كلمـة قيلـت في لحظـة اندفـاع دمّـرت مـا كان يمكـن إصلاحـه، ورب تـصرف متـسرع قطـع طريقًـا كان يمكـن أن يقـود إلى خـير كثـير، قليـل مـن التـأني تعـرف بـه متـى تتكلـم ومتـى تصمـت، متـى تتقـدم ومتـى تتريـث، متـى تتحمـس ومتـى تـتروى، فليسـت كل خطـوة تحتـاج إلى تـسرع، وليـس كل نقـاش يحتـاج إلى رد فـوري، فكـم مـن شـخص تهـور في لحظـة غضـب فقـط ليكتشـف لاحقًـا أنـه كان مخطئًـا؟ وكـم مـن إنسـان جرفتـه الحماسـة المفرطـة، فصنـع وعـودًا لم يسـتطع الوفـاء بهـا، أو قطـع صـلات لم يكـن مـن الحكمـة قطعهـا؟

حكمة بلا تجربة.. صوت بلا صدى

الذيـن لم يسـقطوا يومًـا لا يعرفـون فضيلـة التعلّـم مـن الألم، و التشـكل عـبر الانكسـار، وقيمـة الوقـوف، ولـذة العـودة بعـد الانكسـار، هـم يـروون الحكايـات بنـبرة الحكمـة، لكـن كلماتهـم لم تُنحـت بجـراح التجربـة ولا حرّكهـا النـدم، أمـا الذيـن عَرِفـوا مـرارة الخيبـة، الذيـن تكسّرت فيهـم الأحـلام ثـم أعـادوا بناءهـا لبنـة لبنـة، هـم فقـط مَـن تصغـى إليهـم القلـوب، لا لأنهـم يعلمـون أكثـر، بـل لأنهـم تألمـوا ثـم تعلمـوا.

فالذيـن قطعـوا طريقهـم دون عراقيـل، قـد لا يدركـون كـم يحتـاج الإنسـان مـن عزيمـة ليقـف بعـد الانكسـار، ولا يعرفـون لـذة الانتصـار الـذي جـاء بعـد ألـف هزيمـة، لأنهـم لم يختـبروا عمـق الـصراع بـين الانهيـار والاسـتمرار، وربـما، حـين يواجهـون أول سـقوط حقيقـي، لـن ينجحـوا في النهـوض، لأنهـم لم يتعلمـوا كيـف ينهـض الإنسـان حـين تسـقط كل رهاناتـه عـلى ذاتـه، وكيـف يُبنـى المجـد مـن رمـاد الخسـائر والانكسـارات، أولئـك الذيـن لم يعرفـوا السـقوط يظلـون محصوريـن في صـورة مثاليـة عـن أنفسـهم، لم تُختـبر قوتهـم بعـد، ولم تصقلهـم التجـارب بـما يكفـي ليدركـوا عمـق الحيـاة بعيـدًا عـن وهـج النجـاح الخـادع .

فـما دمـت عـلى قيـد الحيـاة سـتُختبر في أكثـر الأماكـن التـي شـعرت فيهـا بالأمـان، تلـك التـي ظننـت أنهـا ثابتـة لا تمـس، سـتتغير لديـك معـاني الـدفء والطمأنينـة، وسـتجد أن أسرارك لم تعـد في المواضـع التـي اعتـدت أن تودعهـا فيهـا، وأن لحظـات السـكون لم تعـد كـما كانـت، سـيبتعد عنـك مَـن كنـت تظنـه قريبًـا، وسـتجد النسـيان حقيقـة بعدمـا كنـت تـراه سرابًـا، وفي كل مرحلـة مـن مراحـل الألم ستكتشـف أنـك تتعلـم بقـدر مـا تتـألم، وأن الحيـاة تشـكلك بقـدر مـا تجرحـك ، وأن الإخفـاق ليـس عيبًـا، بـل هـو مُعلِّـم قـاسٍ يمنـح دروسًـا لا تُنسـى، يُلقننـا الصـبر، يُعلمنـا كيـف نُعيـد بنـاء أنفسـنا مـن جديـد، ويمنحنـا بصـيرة لا تُكتسـب إلا عـبر التجربـة.

مـن لم يسـقط يومًـا، قـد لا يـدرك قيمـة الثبـات، ومـن لم يـذق مـرارة الخيبـة، قـد لا يعـرف كيـف يحتفـل بفرحـة الإنجـاز بوعـي العـارف بقيمـة الأشـياء

بعض المواقف لا تحتاج ردة فعل

بعـض المواقـف لا تحتـاج ردة فعـل، قد يكـون الأفضـل أن تتخطاهـا، فالتعمـق في التفاصيل لا يصنـع منـك شـخصًا أكثـر فهـمًا، بـل قـد يجعلـك أكثـر إرهاقًـا، أحيانًـا، تكـون البسـاطة في التعامـل مـع المواقـف هـي أفضـل اسـتجابة، وأحيانًـا يكـون الصمـت هـو الـرد الأبلـغ، أن تمـر دون أن تعطـي الأمـور أكـبر مـن حجمهـا، أن تـترك بعـض المعـارك دون خوضهـا، أن تختـار راحـة بالـك عـلى محاولـة إقنـاع الآخريـن أو الـرد عـلى كل كلمـة، هـذا هـو الانتصـار، فهنـاك تصرفـات تصـدر عـن جهـل أو سـوء فهـم، ولـو توقـف الإنسـان عنـد كل صغـيرة وكبـيرة، سـيجد نفسـه غارقًـا في معـارك لا تنتهـي، تسـتنزفه دون أن تعـود عليـه بفائـدة حقيقيـة.

وحـين تُـدرك أن بعـض المواقـف لا تحتـاج منـك سـوى أن تديـر ظهـرك وتمـضي، تكـون قـد قطعـت شـوطًا طويـلًا في النضـج والاتـزان، فليـس كل خطـأ يسـتحق التصحيـح، وليـس كل اسـتفزاز يسـتحق الـرد، بعـض الأمـور إن وقفـت عندهـا أضعفتـك، وإن تجاوزتهـا زادتـك قـوة، فالتعمـق في كل موقـف، وتحليـل كل كلمـة، والبحـث عـن نوايـا الآخريـن خلـف كل تـصرف، قـد يجعلـك تعيـش في حالـة مـن التوتـر الدائـم، تفقـد معهـا راحـة بالـك.

هنـاك كلـمات تُقـال لا لتُعـبِّر عـن حقيقـة، بـل فقـط لتثـير غضبـك، وهنـاك تصرفـات لا تـدل عـلى شيء سـوى جهـل أصحابهـا، فهـل يسـتحق الأمـر أن تهـدر طاقتـك عليهـا؟ ليسـت كل المواقـف تسـتحق أن تسـتنزف طاقتـك في التفكـير أو أن تسـتهلك وقتـك في البحـث عـن رد فعـل مناسـب، الترفـع عـن الصغائـر ليـس ضعفًـا، بـل نضـج مَـن يختـار المعـارك بعـين البصـيرة لا بهيـاج القلـب. فبعـض المواقـف حـين تـردّ عليهـا، تُضفـي عليهـا شرعيـة لا تسـتحقها وحـين تصمـت، تُطفئهـا في مهدهـا.

دع الحيـاة تمـضي واتـرك بعـض الكلـمات في الفـراغ تمـوت مـن العطـش، لأنهـا لا تجـد فيـك وقـود الغضـب الـذي تنتظـره.

بينك وبين رزقك مسافة وعي لا زمن

في هـذه الحيـاة، لا يُـوزَّع النجـاح بالقرعـة، ولا تُهـدى الإنجـازات لمـن جلـس ينتظرهـا، بـل تُمنـح عـلى قـدر السـعي، وعـلى قـدر مـا بُـذل مـن جهـد وصـبر واسـتمرارية، فليـس كل مَـن تمنـى أصـاب، بـل مَـن جـدّ في طريقـه تعبًـا وعرقًـا، وواصـل ولـو زحفًـا حـين توقـف غـيره عـن المسـير، واسـتحقاقك لا يُقـاس بمـدى رغبتـك فيـما تطلـب، بـل بـما قدمتـه لأجلـه، بـما ضحيـت بـه لأجـل بلوغـه، فـإن أردت مقامًـا، فاسـعَ إليـه، وإن رغبـت في مكانـة، فابـذل لهـا جهدهـا، فالقـدر يُنصـف السـاعين، ولـو طـال الطريـق، ولـو تعثـرت بهـم الخطـى مـرارًا، لأن مَـن صـدق السـعي، اسـتحق الوصـول.

قـال عـليٌّ بـن أبي طالـب، «الـرزق رزقـان، رزقٌ تطلبـه، ورزقٌ يطلبـك، فـإن لم تأتـه أتـاك» تأمـل هـذا القـول، تجـده مفتاحًـا لفهـم سُـنّة الله في الأرزاق: رزقٌ لا يُنـال إلا بالسـعي، فذلـك عـدلُ الله بـين عبـاده، لئـلا يركنـوا إلى الكسـل ويُعطّلـوا سـنن الكـون، ورزقٌ يُسـاق إليـك رغـم عجـزك، فيأتيـك في ضعفـك، ويطـرق بابـك في وهنـك، وهـو فضـلٌ خالـص مـن الله، كـي لا يقنـط القلـب في زمـن الضيـق، ولا تيـأس الـروح إن تقطّعـت بهـا السـبل.

والـرزق في جوهـره هـو كل مـا تقـوّم بـه الحيـاة، مـن نعـم ظاهـرة أو خفيـة، ماديـة كانـت أم معنويـة، ومـن ضيـق النظـر أن يُختـزل الـرزق في مبلـغ مـن المـال أو تـرفٍ مـن العيـش، فبهـذا الظـن المحـدود تضيـق الدنيـا في عـين أهلهـا، ويُفتـح بـاب مـن أبـواب البـلاء اسـمه «الاسـتحقاق» ذلـك الشـعور الـذي يُزَيّـن للمـرء أنـه أولى مـن غـيره بالنعيـم، فـإذا لم يُعـطَ مـا تمنّـى، سـخط، واعـترض، وتَمَـرَّد عـلى قسـمة الله، وكأن الأقـدار خذلتـه، أو أن في توزيـع الأرزاق ظلـمًا، وحـين يهيمـن هـذا الشـعور، تفسـد القلـوب، ويضيـع الرضـا، فـلا يـرى المـرء نعمـة في يـده، بـل يحـدّق دومًـا فيـما بأيـدي النـاس، فيقـارن، ويتـألّم، ويغفـل عـما يملـك، بـل وربـما ينكـر فضـل الله عليـه لأنـه لا يشـبه مـا أنعـم بـه عـلى غـيره.

ومـا أكثـرَ الأرزاق التـي لا تُقـاس بثمـن: عقـلٌ راجـح، وصحـةٌ تُعـين عـلى الكـدّ، وصـبرٌ يُثبتـك في مهـبّ البـلاء، شـخص يحمـل عنـك أعبـاءك، فكـرة تلهمـك في لحظـة عجـز، أو سـكينة تهبـط عـلى قلبـك في وقـتٍ تضطـرب فيـه الدنيـا، كلهـا أرزاقٌ عظيمـة، وإن لم تُدخِـل في جيبـك مـالًا.

والإنسـان لا يُختـبر فقـط بالقلـة، بـل حتـى الكثـرة قـد تكـون امتحانًـا أشـد وطـأة، فكـم مـن غنـي أهلكـه مالـه، وكـم مـن صاحـب منصـب أفقـده سـلطانه راحتـه، فالـرزق لا يُقـاس بكمّيتـه بـل ببركتـه، وقـدرة صاحبـه عـلى شـكر الله عليـه، فمَـن فهـم هـذا المعنـى، تبدّلـت مقاييسـه، ولم يعـد يـرى الحيـاة بمنظـار الحسـرة والحرمـان، بـل بمنظـار الامتنـان واليقـين أن كل مـا عنـد الله هـو الخـير، سـواء جـاء في صـورة عطـاء أو منـع.

فليـس الـرزق مرهونًـا بعقـارب السـاعة، ولا موكـولًا بتـوالي الأيـام، بـل هـو امتـداد لنيّتك التـي خفيـت عـن النـاس واطّلـع عليهـا الله، فالـذي يتوهّـم أن بينـه وبـين رزقه مجـرّد وقت، قـد يغفـل عـن أن مـا يحجبه عنه هـو غشـاوة الطمـع، أو ارتبـاك الاختيـار، أو تعجّـل الخطى نحـو مـا لم يُكتـب له بعـد، فالرزق لا يتأخـر نحن الذيـن نصـل متأخرين إليه حـين نغفل عن حكمتـه، أو نرفـض هيئتـه التـي جـاء بها، لأنـه لم يأتِ كـما حلمنـا، أو لم يُشـبه ما عنـد غيرنا، وقــد يُخبّــأ لــك الــرزق في موقــفٍ ظننتــه عثــرة، أو في شــخصٍ حســبته عابــرًا، أو في عمــلٍ صغــير لا تلتفــت إليــه الأعــين، لكنــه يفتــح لــك أبوابًــا مــا كانــت لتُفتــح لــو لم تبلــغ في وعيــك تلــك النقطــة التــي يلتقــي فيهــا الرضــا بــالإدراك، فكلّـما اتّسـعت بصيرتـك، ضـاق الحجـاب بينـك وبـين مـا كُتـب لك،إنهـا مسـافة مـن فهـم، مـن نضـج، مـن تصالـح مـع النفـس والقـدر، لا علاقـة لهـا بتقويـمٍ عـلى الحائـط، ولا بعـدّاد الأيـام.

لكـن في زمـن باتـت فيـه المقارنـات مقياسًـا للسـعادة، أصبـح الرضـا عملـة نـادرة، فتجـد مَـن يملـك الكثـير يشـكو كمـن لا يملـك شـيئًا، وكأن العيـون لا تـرى إلا مـا ينقصهـا، ولا تلتفـت إلى مـا تملكـه بالفعـل، غـير أن مَـن أيقـن أن رزقـه مـوزع بحكمـة إلهيـة لا تقبـل الخطـأ، أدرك أن لـكل رزق توقيتـه، ولـكل إنسـان نصيبـه، فـلا حسـرة تدفعـه لليـأس، ولا غبطـة تُنسـيه شـكر مـا في يديـه، وحـين ننظـر إلى الـرزق بعـين القلـب، نـرى أن كل لحظـة طمأنينـة، وكل علاقـة صادقـة، وكل فرحـة صافيـة، هـي أرزاق تتجـاوز حـدود المـال، لكنهـا تعطـي الحيـاة معناهـا الحقيقـي.

حين يحرس القلب كرامته

النهوض بعد السقوط ملحمة، درب من دروب البطولة ، لكن أن تصمد حين تتداعى حولك الأسباب، أن تتشبث بمبادئك وسط الإغراء والانهيار، أن تبتلع الغُصة وتصنع منها يقظة، ذلك هو النصر الأعظم الذي لا يراه كثيرون، فالرسوخ أفضل من التعافي، ومقاومة السقوط خير من خِطط التجاوز المرهقة .

السقوط ليس قدرًا دائمًا، بل غالبًا نتيجة غفلة، أو تراخٍ، أو ثقة زائدة، والنهوض بعده ـ وإن بدا بطولة في نظر الناس ـ هو في حقيقته إنقاذ لما يمكن إنقاذه، أما البطولة الحقيقية، فهي أن تدرك مواضع الزلل قبل أن تزلّ، أن تبصر حواف الهاوية فتتجنّبها، أن تتهيّأ للعواصف قبل أن تهب، فكل سقوط ـ مهما نهضت بعده ـ يُخلّف انحناءة داخلية لا يراها أحد، ويمحو شيئًا من براءة القلب وثقته.

ولعل أكثر خيباتنا تأتي من العلاقات، ففخ العلاقات ليس دائمًا مرئيًا، بل يتشكل بصمت، خطوة بعد خطوة، حتى يجد الإنسان نفسه محاصرًا دون أن يدري متى وقع فيه، وقد يكون الفخ في علاقة تستنزف أكثر مما تعطي، حيث يكون طرفٌ معطاءً حتى الفناء، بينما الآخر يأخذ دون حد، أو قد يكون الفخ في التعلق الزائد، حين يصبح وجود شخص ما ضرورة لا يُتصور العيش دونها، رغم أن الحياة لا تتوقف على أحد، هناك علاقات تُبنى على الاعتماد لا المشاركة، على الحاجة لا المودة، فتتحول مع الوقت إلى قيد يخنق صاحبه بدلًا من أن تكون سندًا له.

والخلاص من شِراك العلاقات المؤذية لا يكون بالقفز خارجه فجأة بشكل عشوائي يخلف وراءه ألمًا ، بل رحلة وعي متدرّجة، تبدأ حين يستفيق القلب من غفوته، ويكفّ عن تبرير الجَرح بحجةِ الحب، ويدرك أن العلاقات السويّة لا تقوم على طمس الذات، ولا على التعلّق بمَن يجعل حضورك عبئًا لا نعمة، فالنجاة لا تكون بالفرار المرتبك، بل بالفهم أن التمسّك لا ينبغي أن يُمنَح إلا لمن يراك امتدادًا لروحه، لا مَن يرى وجودك مجرد تفصيل في مشهد حياته، فالعلاقة التي تُسلَب فيها كرامتك لتبقى، هي خيانة صامتة لذاتك.

الوفـاء الحقيقـي لا يعنـي أن تُذيـب نفسـك في الآخـر، بـل أن تبقـى صادقًـا مـع قلبـك، حارسًـا لقيمـك، حُـرًّا في قـرارك، أحيانًـا يكـون الخـلاص في الرحيـل بـلا ضجيـج، لأن بعـض الأبـواب لا تُغلـق إلا مـن الداخـل، فـلا تهمـل إشـارات الضعـف الأولى ظنًـا منـك أنـك أقـوى ممـا تظـن، ولا تسـتهن بالإشـارات التـي تحـذرك، فالتراجـع وقـت الخطـر شـجاعة، والحـذر ذكاء، والاسـتمرار رغـم الضعـف بطولـة، لكـن البطولـة الأكـبر أن تحصّـن نفسـك قبـل أن تضعـف، أن تتعلـم كيـف تتفـادى السـقوط بـدلًا مـن أن تنشـغل بالنهـوض بعـده، فمَـن يظـن أن الوقـوع جـزء لا مفـر منـه، يضعـف أمامـه قبـل أن يحـدث، أمـا مَـن يؤمـن أن الثبـات خيـار، فهـو الـذي يبحـث دومًـا عـن نقـاط الاتـكاء قبـل أن يحتاجهـا.

الذيـن صانـوا أنفسـهم مـن الانهيـار، لم يكونـوا أقـوى مـن غيرهـم، بـل كانـوا أحـرص، لم يختـبروا السـقوط، لا لأنهـم معصومـون، بـل لأنهـم اختـاروا أن يحرسـوا أنفسـهم، أن يراقبـوا مواطـن الضعـف فيهـم، ويضعـوا ألـف حسـاب قبـل أن تـزلَّ أقدامهـم، فمقاومـة السـقوط تعنـي الحـذر قبـل أن تتـورط، الصـبر قبـل أن تنهـار، التراجـع في الوقـت المناسـب قبـل أن تصـل إلى نقطـة اللاعـودة، فليـس كل سـقوط يسـهل النهـوض منـه، بعـض السـقوط يـترك في النفـس أثـرًا، يسـتهلك مـن طاقتـك شـيئًا، لهـذا لا تجعـل مقاومـة السـقوط أمـرًا مؤجـلًا لمـا بعـد الوقـوع، بـل اجعلهـا حـاضرة في كل خطـوة تخطوهـا.

وحـين ينضـج الوعـي، تـدرك أن الانفصـال لا يعنـي الفشـل، بـل هـو أحيانًـا انتصـار خفـيّ، وأن الحـب الـذي يُجـبرك عـلى تصغـير نفسـك لتناسـبه، ليـس حبًـا بـل قيـدًا مزخرفًـا، فالقلـوب الناضجـة لا تهـرب، بـل تختـار الرحيـل عـن كل مـا يهدرهـا، ترحـل برفـق، بثبـات، وبـلا ضجيـج.

عندما تدافع عن أغلى ما تملك لا يهم مَن الخصم

حـين يكـون مـا تدافـع عنـه هـو جوهـر كيانـك، هـو حلمـك الـذي سـكنت فيـه روحـك، أو مبـدؤك الـذي يُعرّفـك، أو شـخصًا تحبـه أكثـر مـن نفسـك، حينهـا لا تـرى مَـن يقـف في الجهـة المقابلـة كخصـم، لأن تركيـزك لا ينصـبّ عليـه، بـل عـلى مـا تحميـه، لأنـك ببسـاطة لا تخـوض المعركـة مـن أجـل الـصراع ذاتـه، بـل مـن أجـل مـا لا تسـتطيع أن تتخـلى عنـه.

في تلــك اللحظــات، تــذوب حســابات الخــوف والــتردد، ويتلاشــى تأثــير الترهيــب أو الإغـراء، لأنـك تقـف عـلى أرض ثابتـة، مـدركًا أن التراجـع ليـس خيـارًا، فالجنـدي الـذي يحمـي وطنـه رغـم تفـوق العـدو، والأب الـذي يقـف صامـدًا أمـام العـالم ليضمـن حيـاة كريمـة لأبنائـه، والإنسـان الحـر الـذي يرفـض أن تُسـلب كرامتـه حتـى لـو وقـف وحـده في وجـه الظلـم، إنهـم يدافعـون عـن شيء لا يقبـل المسـاومة، لا يحسـبون خسـائرهم كـما يفعـل البقيـة، لأنهـم يعلمـون أن التراجـع يعنـي فقـدان أنفسـهم قبـل فقـدان القضيـة، فلـن يكـون السـؤال الـذي يشـغلهم «مَـن هـو خصمـي؟»، بـل: «كيـف سـأصمد حتـى النهايـة؟» والتاريـخ مـليء بأمثلـة لأشـخاص لم يكـن لديهـم سـلاح سـوى إيمانهـم بعدالـة قضيتهـم، ومـع ذلـك، صنعـوا المسـتحيل لأنهـم لم يسـاوموا ولم ينهزمـوا داخليًـا.

ولكـن مـن أيـن نسـتمد قوتنـا في مواجهـة التحديـات المصيريـة في حياتنـا والتـي ليـس فيهـا رفاهيـــة التفريط؟

حـين يكـون مـا تحميـه مرتبطًـا بروحـك وهويتـك، فإنـك لـن تنظـر إلى المعركـة عـلى أنهـا مجـرد مواجهـة، بـل تراهـا امتـدادًا لـشيء أكـبر مـن اللحظـة الراهنـة، شيء يسـتحق منـك كل تضحيـة، فتسـتمد قوتـك مـن يقينـك، لا مـن الظـروف المحيطـة، مـن تجاربـك السـابقة وكل تحـد تجاوزتـه وكل ألم قاومتـه، وكل سـقوط نهـض بـك فأضـاف لبنـة جديـدة في قوتـك الداخلية ، تسـتمد قوتـك مـن الدعـم الحقيقـي لا الشـكلي، ممـن يؤمنـون بـك ولـو كان شـخصًا واحـدًا يسـاندك ولـو بكلمـة أو نظـرة فإنـه يُحـدث فرقًـا هائـلًا في قدرتـك عـلى الصمـود، فإنـك لـن تكـون وحـدك دائـمًا، لأن القيـم الحقيقيـة تمتلـك قـدرة خفيـة عـلى جمـع القلـوب حولهـا، حتـى لـو لم تـرَ ذلـك في البدايـة .

في النقاش لا تأخذ صف المخالف

جلس عتبة بن ربيعة أمام النبي ﷺ ليعرض عليه الملك والحُكم والمال والسلطة وكل شيء في مقابل أن يُعرض عن أمر الدين والرسالة ، والنبي ﷺ يعلم عرضه وجوهر كلامه لكنه يأبى أن يقاطعه فيقول بأدب لا مثيل له « قل يا أبا الوليد أسمع » ولم يكن النبي ﷺ بحاجة لسماع كلام عتبة، فقد كان يدرك مراده وغايته، لكنه بادره بخلق عظيم، منحه كامل الإنصات والاحترام، وكأنه يقول له: تحدث بكل ما لديك، فأنا أستمع لك بوعي وإنصات، ثم لما أكمل عرضه يسأله بأدب «أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع مني» قال عُتبة :أفعل. (١)

أدب الحوار واحترام الطرف الآخر، حتى لو كان على باطل، فلم يقاطعه النبي ﷺ، لم يستخف بكلامه، لم يرد عليه بانفعال، بل انتظر حتى أتمَّ حديثه، ثم أجابه بآيات الله التي تخاطب العقل والقلب معًا ، فكان ثمرة الحوار أن عاد لقومه يطالبهم بأن يتركوه وشأنه ليبلِّغ دعوته .

وحينما أراد نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يجادل قومه في قضية عقدية قد نظنها الآن لا تقبل النقاش حولها ، لكنه أدار الحوار بهدوء لم يأخذ فيه صف المخالف لهم بل صور نفسه بصورة الموافق لئلا يتخذوا العناد منهجًا ، فلم يواجههم مواجهةً مباشرةً تنفرهم، بل استخدم الحيلة المنطقية والتدرج في الطرح، فتظاهر بدايةً بأنه يشاركهم التفكير ذاته، وأخذ يتساءل معهم بطريقة تثير فضولهم دون أن يستفزهم، فبدأ بالنظر إلى الكواكب والنجوم والقمر والشمس، وقال عن كل منها: «هذا ربي»، ثم لما غاب كل واحد منها، أظهر رفضه للآلهة التي تأفل وتغيب، وكأنه يستنتج أمامهم الحقيقة بدلًا من فرضها عليهم فرضًا، أنار الطريق وترك لهم مجالًا للتفكر، فأصبحوا أمام خيار البحث معه بدلًا من أن يكونوا في موقف الدفاع المتعصب لمعتقداتهم، ولو أنه بدأ بسرد بطلان عقيدتهم مباشرة، لواجه رفضًا قاطعًا منذ البداية.

العقول تأبى الإكراه، والقلوب تنفر من العناد، أما الكلمة التي تخرج في رِقّة وتُزيَّن بالحجّة، فهي التي تشقّ طريقها إلى القبول مهما اشتدّ الخلاف، فالحوار ليس

---

١ سيرة ابن هشام (١ / ٢٩٤)

حلبـةَ صراع تُرفـع فيهـا رايـات الغلبـة، بـل جـسرٌ يُبنـى بـين العقـول والقلـوب، وسـعيٌ مشـترك نحـو الحقيقـة، ومَـن أراد أن يشـارك في هـذا البنـاء، فعليـه أن يخلـع عـن قلبـه ثـوب الانتصـار للنفـس، ويلبـس رداء التواضـع للحـق، إذ لا خـير في مناقشـة يكـون فيهـا الهـمُّ إسـكات الآخـر بـدلًا مـن إفهامـه، ولا في محـاورة هدفهـا كـسر الكبريـاء لا كشـف الحقيقـة.

وربّ إنسـان يـدرك في داخلـه أنـك عـلى حـق، لكنـه يكابـر فقـط لأنـك هاجمتـه لا حاورتـه، فاجعـل كلماتـك جسـورًا لا سـيوفًا، وافتـح حديثـك باللـين لا بالاتهـام، فـإنّ الكلمـة الهادئـة تفعـل مـا لا تفعلـه الصيحـة الغاضبـة، وقـد أدرك هـذا الإمـام الشـافعي حـين قـال: «مـا كلمـت أحـدًا إلا أحببـت أن يُوفّـق ويُسـدّد ويُعـان، ومـا كلمـت أحـدًا قـط إلا ولم أُبـالِ أَبَـيَّن الله الحـقّ عـلى لسـاني أو عـلى لسـانه» هكـذا يكـون طالـب الحـقّ، لا يهمـه مَـن الـذي نطـق بـه، بـل أن يظهـر ويُتّبـع، فـإن أردت أن يُصغـى إليـك، فابـدأ أنـت بالإنصـات، وإن رغبـت أن تُقنـع غـيرك، فـلا تحتقـر رأيـه، بـل قدّمـه عـلى بسـاط المنطـق، وقرّبـه إليـه بلطـف الحجـة، فالعقـول المغلقـة لا تُفتـح بمفاتيـح الصـدام، بـل تُلينها حِكمـة العـرض، ومـا مـن قلـبٍ صلـب إلا وقـد رقّ أمـام صـدقٍ لم يُغلّـف بالإهانـة، أو عقـلٍ متشـبثٍ إلّا وقـد خـفّ قبضـة عنـاده حـين شـعر أنّ خصمـه لا يهاجمـه بـل يصادقـه عـلى درب الحقيقـة.

فأنـت حـين تحـاور، لا تهـزم خصـمًا، بـل تحـاول أن تربـح إنسـانًا، وهـذا الربـح لا يتحقـق بعلـو الصـوت، بـل بعلـو الفهـم ، ثـمّ مـا نفـع الانتصـار إن خلّـف بعـده جرحًـا في كرامـة الآخـر؟ ومـا قيمـة الحُجّـة إن نزفـت منهـا المـودّة؟ إنّ النفـوس تنفـر ممـن يُشـهِر العقـل في وجههـا كأنّـه سـلاح، وتطمئـن لمـن يُهـدي الحجـة كـما تُهـدى زهـرة.

كُـن مَـن يبحـث عـن الحـق، لا عـن الفـوز ومَـن يناقـش ليـضيء، لا ليُطفـئ غـيره، فبعـض الكلـمات لا تُسـمَع لأنّهـا جـاءت في غـير وقتهـا، أو نُطقـت عـلى لسـان لا يريـد الخـير، فاجعـل مـن لسـانك مَرسـى للأمـان، لا طوفانًـا يجـرف الحقيقـة معـه قبـل أن يُقنـع بهـا أحـدًا .

أن ترى الشيء لأول مرة ..كل مرة

صديقك الذي ظلّ إلى جانبك أعوامًا لم يعد في عينيك أكثر من ظلّ مألوف، بينما هو في الحقيقة معجزة وفاء لم تتبدد رغم تغير الفصول. عملك الذي استنزف عُمرك وأعطاك قوت يومك وخبرتك لم يعد يُرى إلا كواجب ثقيل، بينما هو أحد أعمدة قيامك. وجه أمك أو أبيك، الذي رأيته آلاف المرات حتى كدت تنساه في تفاصيله، بينما هو النعمة التي لو فارقتك ليوم واحد لعرفت كم كنت أعمى عن إدراك جمالها. صلاة تتكرر كل يوم في روتينك، حتى قد يظن قلبك أنها مجرد أداء، بينما هي لقاء مع الله لو أقبلت عليها كما لو كانت الأولى والأخيرة، لاهتز قلبك بامتنان لا يوصف. الطريق الذي تسلكه كل يوم إلى عملك، لم يعد يعني لك سوى زحام وإشارات مرور، بينما هو لوحة صامتة تتبدل ألوانها مع الفصول، وشاهد على عبورك المتكرر في مسيرة حياتك. نَفَس الهواء الذي تستنشقه كل لحظة ولا تشعر به، بينما لو غاب عنك للحظة واحدة لأدركت أنه أغلى نعمة على الإطلاق. جسدك الذي تحركه بلا انتباه، وتطلب منه أن ينهض ويعمل ويقاوم، بينما هو أمانة عظيمة، وأداة معجزة لم يزل يمنحك القدرة على الحياة. حتى التفاصيل الصغيرة: فنجان القهوة الذي يرافق صباحك، النافذة التي تطل منها كل يوم على ذات المشهد، لم تعد توقظ داخلك إحساسًا بالجمال لأنها صارت «اعتيادية»، بينما هي في حقيقتها هدايا متجددة. هذه الأمثلة تُوقظ وعيًا غافلًا: إن ما اعتدناه ليس أمرًا عاديًا، بل معجزات متجددة تُلازمنا كل يوم.

التعود على الأشياء يفقدها شيئًا من بريقها، عندما نعتاد شيئًا، نكفّ عن تقديره، فتصبح الأيام متشابهة، والعلاقات باهتة، والإنجازات بلا طعم، إننا بحاجة إلى أن ننظر إلى ما حولنا بعيون جديدة، ونُقدّر الأشياء كما لو أننا نراها للمرة الأولى، حتى لا نفقد إحساسنا بقيمتها، لأننا عندما نعتاد، نفقد الدهشة، وعندما نفقد الدهشة، نفقد جزءًا من إنسانيتنا.

قاوم التعود كمن يقاوم النسيان، وانظر إلى الأشخاص الذين تحبهم وكأنك تراهم للمرة الأولى، احتفِ بلحظاتك الصغيرة قبل أن تتحول إلى ذكريات بعيدة، لا تدع

الحياة تمر دون أن تعيشها، فالموت ليس فقط غيابًا عن الحياة، بل هو أن تعيشها بلا إحساس.

أن ترى الشيء لأول مرة كل مرة هو أن تقاوم الخدر الذي يسكبُه التكرار في وجدانك، أن ترفض أن تنام على مقعد الألفة، وأن تظل حاضرًا كطفل يتعلم الأسماء والألوان للمرة الأولى. أن تمتلك قلبًا لم يهرمه التكرار، وبصيرةً لم يطفئها الاعتياد؛ أن تظل قادرًا على أن تتفاجأ من تفاصيل صغيرة يمرّ بها غيرك مرور العابرين. أن تبقى قادرًا على استعادة معنى اللحظة، كأنك تُولد معها من جديد.

لا تُبحر في سفينة لا تعرف وجهتها.

البحـر لا يرحـم مَـن خاضـه عابـرًا دون بوصلـة، ولا مَـن اسـتقل مركبًـا لمجـرد الهـروب من ضفـة إلى مجهـول، كـم مـن أنـاس أبحـروا مـع المـوج لا لأنهـم يعرفـون الطريـق، بـل لأنهـم خافـوا السـكون، فابتلعهـم التيـه، وفقـدوا البدايـات والنهايـات، العاقـل لا ينجـرف، بـل يتأنّـى، لا يركـب كل سـفينة تُعـرض عليـه، بـل يسـأل: إلى أيـن؟ ومـع مَـن؟ ولمـاذا؟ فـإن الإبحـار قـرار مصـيري، لا يليـق بالعابريـن بـلا نيـة، ولا بالهاربـين مـن مواجهـة أنفسـهم، فليـس كل تحـرّك تقـدّم، ولا كل ركـوب وصـول، بعـض السـفن مصيرهـا الغـرق لا لخلـل فيهـا، بـل لجهـل مَـن ركبهـا بطبيعـة الرحلـة.

ليـس كل بـابٍ يُفتـح يُسـتحبُّ العبـور منـه، ولا كل طريـقٍ يسـتحق أن تُهـدر فيـه خطـاك، ففـي الـترك أحيانًـا خـير، وفي الانـصراف فطنـة، وفي التغافـل نجـاة، فمَـن يشـتغل بـكل شـأن، ويتدخـل في كل حديـث، ويُقحـم نفسـه في كل نقـاش، مـا زادتـه مشـاركته إلا همًّـا لم يكـن لـه، في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال: «مـن حُسْـنِ إسـلام المـرء تركُـهُ مـا لا يعنيـه»[1] مـا لا يعنيـه أمـره ولم يحـط بـه علمـه، مـا لا يخصـه مـن قريـب أو بعيـد ولا يـضره الجهـل بـه، مـا ليـس في الحديـث عنـه فائـدة تُرجـى ولا ضرر يُـصرف عنـه، يحجـب لسـانه عـن الآخريـن، عـن تتبـع عوراتهـم، أحاديثهـم، أفعالهـم، إحراجهـم عـن عمـد للتقليـل مـن شـأنهم، محاربـة نجاحهـم، فتصيّـد الـزلات يصـدر عـن قلـب امتـلأ بالريبـة، يفتـش في النوايـا، ويجعـل مـن العلاقـات ميـدان خصومـة مسـتترة، ومـن شُـغل برصـد العثـرات، قـلّ أن يـرى موطـنَ فضـل، ولا يعـرف للصفـح سـبيلاً، وقـد فهـم هـذا المعنـى سـلف الأمـة، ففـي مرضـه الأخـير، دخـل قـوم عـلى الصحـابي الجليـل أبي دجانـة فـرأوا وجهـه مشرقًـا بالنـور، مشـوبًا بالسـرور، فعجبـوا لذلـك وسـألوه، فقـال: «مـا من عمـل شيء أوثق عنـدي مـن اثنـين: كنـت لا أتكلـم فيـما لا يعنينـي، والأخـرى كان قلبـي سـليمًا للمسـلمين» فكـما لا ينبغـي أن تُبحـر في سـفينةٍ لا تعـرف وجهتهـا، لا يصـحّ أن تمـلأ روحـك بهـمٍّ لا يعـود عليـك إلا بالشـتات، ولـو بـدا قريبًـا منـك، فالعاقـل مَـن يُحسـن الانتقـاء؛ يعـرف متـى يتكلّـم ومتـى يصمـت، متـى يعـبُر ومتـى ينتظـر، متـى يتقـدّم ومتـى يُعـرض.

---

١ رَوَاهُ الترمذي ١٤٨٩ وصححه

ما أكثر مَن ساروا بعيدًا.. لكنهم لم يصلوا

يقـول «الشـافعي»: «مَـن تفقّـه قليـلًا قليـلًا نـال العلـم، ومـن رام العلـم جملـةً ذهـب عنـه جملـة»

ويقـول «نيتشـه»: «ليـس بطـول الخطـوة يُقـاس السـائر، بـل بثبـات القـدم ووضـوح الطريـق»

كثـيرون هـم أولئـك الذيـن ارتحلـوا طويـلًا، قطعـوا المسـافات، وأحصَـوا الأيـام، وملـؤوا دفاتـر أعمارهـم بالخُطـى لكنهـم حـين توقّفـوا لم يجـدوا أنفسـهم إلا في المكان الخطـأ، أو في اللحظـة الخطـأ، أو مـع الشـخص الخطـأ بعدمـا أصبحـوا غربـاء عـن البـذرة الأولى التـي دفعتهـم للسـير، فالمسـافة ليسـت دليـل إنجـاز، ولا التعـبُ حُجّـة عـلى النجـاح، والعـبرة ليسـت بالوصـول، بـل بـما إذا كان ذلـك الوصـول امتـدادًا لصـدق البدايـات، وثبـات النيـة، وصفـاء الوجهـة.

وفي واقعنـا، نـرى مَـن يصعـد الدرجـات عـلى عجـل، ثـم يسـقط لأنـه لم يتأمـل موضـع قـدم، ومَـن يركـض نحـو وهْـمِ التميّـز، فيفقـد ذاتـه في الزحـام، نـرى مَـن ظـنّ أن السرعـة هـي الخـلاص، فـإذا بـه يحـترق بهـا، ومَـن حسـب أن كثـرة المشـاريع دليـل نبـوغ، فـإذا هـي شـتات يـأكل جوهـره، كثـيرون بـدؤوا بقـوة وانطفـؤوا في منتصـف الطريـق، لأنهـم لم يُصاحبـوا الصـبر، أرأيـت كيـف يفتـك التذبـذب بـأي مـشروع عظيـم؟ وكيـف تنهـار الخطـط أمـام اسـتعجال النتائـج؟ وكـم مـن شـخص التحـق بركـب النجـاح متأخـرًا، لكنـه جـاوز مـن سـبقوه لأنـه ثبـت عـلى صراطـه، لا يحيـد كلـما لاح بريـق عابـر أو نـادى نـداء مُضلـل.

فـما أكثـر مَـن سـاروا بعيـدًا لكنهـم لم يصلـوا، مَـن مشـوا بخطـى مثقلـة بالضجيـج، بالغـرور، أو بالرغبـة في الظهـور، فتقدّمـوا في المسـافة، لا في المعنـى، ظنّـوا أن السـير وحـده يكفـي، وأن كثـرة الخطـوات دليـل اقـتراب، فغفلـوا عـن أن الطريـق لا يُقـاس بطولـه، بـل بوجهتـه، فالسـفر الأعظـم ليـس في الأرض، بـل في القلـب، ومَـن لم يصلـح سـيره الداخـلي، طالـت بـه الطـرق، وتـاه في كثـرة الاتجاهـات، وبقـي غريبًـا وإن مشـى بعيـدًا.

بعض الشر أهون من بعض

كثيرًا ما يُدفع المرء إلى مفترق طرق، لا يقف فيه بين خيرٍ وشر، بل بين شرّ وآخر، إنه درس الحياة المتكرر: لسنا دائمًا أحرارًا في تجنّب الألم، لكننا نُمنح أحيانًا فرصة لتقليل حدّته، أن تمضي في طريقٍ مُرِّ، خيرٌ من أن تبقى في مستنقعٍ مسموم، أن تقبل بخسارةٍ صغيرة، أهون من أن تُسلم نفسك لضياعٍ كلّي.

في قصة نبي الله موسى عليه السلام مع الخضر كان أول دروسها أن ركبا سويًا سفينة فانتزع الخضر خشبة منها ليفسدها، فعاتبه نبي الله أنه لا يليق أن يكون جزاء الخير الذي قدَّموه بحملهم معهم أن يكافئهم بإتلاف جزء من سفينتهم، وقبل أن تنتهي المشاهد يأتي المبرر للفعل الذي في ظاهره شر محض ليخبر الخضر نبي الله أن إتلاف جزء من السفينة كان لئلا يستحسنها الملك فيأخذها غصبًا فيخسراها بالكلية، أما ما أتلفه فيها فإصلاحه هين .

بعض الخسائر وإن آلمتنا إلا أنها تبقى أهون من فقدان ما هو أعظم، بعض الشرور تدفعنا لنستفيق، لنراجع أنفسنا، لنغير مسارًا كنا ماضين فيه بغير وعي، وحين يجد المرء نفسه في مأزق، قد يكون الحل في القبول بأخف الضررين بدلًا من المكابرة والسعي وراء المستحيل، أن يختار الأقل وجعًا، فكم من موقفٍ رأيناه في لحظته نهاية العالم، ثم اكتشفنا بعد حين أنه كان أهون مما كنا نخشاه، بل وربما رحمنا من شرٍّ أكبر لم نكن نراه في وقتها، فليست الحكمة في رفض الشر كلية، فهذا محال، ولكن في معرفة أي الأضرار يمكن احتماله وأيها سيترك أثرًا لا يمحى .

وأحيانًا تأتينا الخسارة في هيئة صدمةٍ توقظنا، فتدفعنا لإعادة النظر في أولوياتنا، فبعض الإخفاق يأتي كدروس متنكرة، يأتي في صورة محنة لكنه في حقيقته منحة تعيد ترتيب الأولويات، لذلك، فمقاومة كل خسارة بنفس القوة قد تكون استنزافًا بلا جدوى، فما يبدو لك شرًا اليوم قد يكون نجاةً من شر أعظم، وما تراه سقوطًا قد يكون حماية من طريق لو سلكته لأهلكك. فالحكمة أن نميز بين الشر الذي يجب التصدي له بكل ما أوتينا من عزيمة، والشر الذي علينا قبوله لأنه أهون من غيره، فليس كل شر يستحق المقاومة ذاتها، ولا كل مصيبة تتطلب منا الحزن ذاته.

الأبواب المؤجَّلة لم يُؤذن لها بعد أن تُفتح

في قصـة موسـى عليه السلام، عندمـا فـرّ مـن مـصر متجهًـا إلى مديـن، وصـل إلى بئـر مـاء حيـث وجـد امرأتـين تقفـان عـلى مقربـة، تنتظـران دورهمـا لتسـقيا أغنـام والدهمـا، كانتـا تخرجـان يوميًـا لمزاولـة هـذا العمـل الشـاق، بينـما الرعـاة يسـقون مواشـيهم دون أن يفسـحوا لهـما المجـال، ليبقـى الانتظـار عبئًـا ثقيـلًا عليهـما تحـت حـر الشـمس، ربـما تأففتـا وضاقـت صدورهمـا مـن طـول الانتظـار، وربـما أرهقتهـما مشـقة العمـل المسـتمرة، لكـن هـذا التأخـير لم يكـن عبثًـا، بـل كان جـزءًا مـن تدبـير إلهـي، فبسـبب هـذا التأخـير، لفتتـا انتبـاه نبـي الله موسـى عليه السلام، فتقـصّى حالهـما، وأعانهـما، ليكـون ذلـك مقدمـة لزواجـه بإحداهمـا، وليقـضي عـشر سـنوات مـن عمـره في خدمـة والدهمـا كمهـرٍ لهـا.

فلـم يكـن التأخـير سـوى ترتيـب خفـي لحـدث عظيـم، قـد تتأخـر الأمنيـات لا لعجـزٍ في تحققهـا، بـل لكثـرة المعطيـات التـي يجـري إعدادهـا في الخفـاء، فـالله قـادر عـلى أن يعـوض الإنسـان لدرجـة أن ينسـيه مـا الـذي خـسره في البدايـة ، فليسـت الأمـاني المتأخـرة نِتـاج عجـز، بـل هـي تجـري في نهـرٍ مـن العنايـة، تصطـفّ لهـا الأسـباب وتتزاحـم مـن أجلهـا المقدمـات في غيـبٍ لا نـراه، ومـا بـدا لـك تأخـيرًا، قـد يكـون إعـدادًا متقنًـا لفـرحٍ عظيـم، لـو عُجّـل إليـك قبـل أوانـه لمـا أبـصرت فيـه الخـير.

انظـر حولـك، سـتجد أمـورًا ظننتهـا تأخـرت لكنهـا عندمـا جـاءت أدركـت أن التوقيـت السـابق لم يكـن ليمنحهـا المعنـى ذاتـه، فقـد يطـول انتظـارك لـشيء كنـت تعتقـد أنـه غايتك، لكـن مـع مـرور الوقـت وتعـدد التجـارب واختـلاف المواقـف وعمـق الخـبرات، تكتشـف أنـه لم يكـن ليمنحـك السـعادة التـي تصورتهـا، أو أنـه كان سـينتزع منـك أشـياء أثمـن ممـا كنـت تـدرك، فبعـض الأبـواب لا تُفتـح إلا حـين نكـون مسـتعدين لمـا خلفهـا، وبعـض الأمنيـات تتطلـب أن نمـر بتجـارب تهيئنـا لحدوثهـا قبـل أن تتحقـق، حتـى لا نُفسـدها بجهـل التقديـر أو قلـة الخـبرة، والزمـن ليـس عـدوًا لنـا، بـل هـو جـزء مـن الرحلـة، ومـا ظننتـه تأخـيرًا قـد يكـون حمايـة، ومـا حسـبته تعطيـلًا قـد يكـون إعـدادًا، فثـق أن مـا هـو لـك سـيأتيك حـين تكـون مسـتعدًا لـه، حـين تصبـح يـدك قـادرة عـلى حملـه وقلبـك أهـلًا لاسـتقباله، وحينهـا فقـط لـن يكـون مجـرد أمنيـة، بـل سـيكون نعمـة مسـتحقة .

تلطّف، فالعالم قاسٍ بما يكفي

مـا أكثـر مَـن يمضـون بيننـا مثقلـين بـما لا نـراه، يبتسـمون وهـم ينزفـون في الداخـل، يصافحونـك بأيـدٍ مرتجفـة مـن وجـعٍ لم يصرّحـوا بـه، ويجاملونـك وهـم يقاومـون ألمًـا لا ملامـح لـه، إن خلـف كل وجـه عابـر، روايـة لا تُـروى، وخلـف كل سـكوت احتـمالٌ للانهيـار، فـلا تكـن في حديثـك حَجَـرًا آخـر عـلى صـدورٍ بالـكاد تتنفـس، فنحـن لا نعلـم مـا الـذي يُثقـل قلـوب النـاس، ولا نملـك مفاتيـح دواخلهـم، لكننـا نملـك الرفـق، نملـك الكلمـة الطيبـة، والنـبرة الهادئـة، والسـؤال الصـادق، وهـذه وحدهـا قـد تُطفـئ نـارًا لا نعلـم أنهـا مشـتعلة.

في هـذا العـالم، لا يحتـاج النـاس إلى وعـظٍ بقـدر مـا يحتاجـون إلى احتـواء، لا إلى تصحيـح دائـم بـل إلى تفهّـم، لا إلى مَـن يوبخهـم عـلى خطاياهـم، بـل إلى مَـن يربّـت عـلى أكتافهـم، فكـن ذاك الشـخص الـذي يُشـبه المـأوى، الـذي إذا مـرّ بالقلـوب، سـكن فيهـا خفيفًـا لا يُـؤذي، حانيًـا لا يُثقـل، لطيفًـا لا يُنسـى، وتلطّـف... فـإن العنـف في القـول ولـو كان محقًـا، لا يقيـم بنـاءً بـل يهدمـه، وإن القسـوة لا تُـربي، بـل تَكسـر، وإن الدنيـا ـ بـما فيهـا ـ لا تحتمـل مزيـدًا مـن الخشـونة، فامنحهـا نقيضهـا: الرحمـة، الرفـق، فلعـل كلمـة رقيقـة منـك، تُنقـذ أحدهـم مـن الغـرق وهـو لا يـزال مبتسـمًا.

وفي القـرآن يخاطـب ربنـا نبيـه وهـو أكمـل الخلـق خُلقـا، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [1] وفي السـنة يخاطـب نبينـا أمتـه فيقـول «إنَّ اللهَ إذا أحـبَّ أهـلَ بيـتٍ أدخـلَ عليهِـمُ الرِّفـقَ»[2] فـإذا كان الخطـاب الإلهـي قـد وُجّـه إلى قلـب النبـي ﷺ، وهـو أرحـم الخلـق وأصفاهـم نفسًـا، فكيـف بنـا نحـن وقـد كثـرت فينـا الجفـوة، وغلـب علينـا التصلّـب؟ إنّ الرفـق واللـين ليسـا خُلقًـا زائـدًا يَتحـلى بـه مَـن يشـاء ويُعـرض عنـه مَـن يشـاء،فحين يصـف النبـي ﷺ الرِّفـق بأنـه هديـة مـن الله لمـن أحـبّ، فإنـما يعلّمنـا أن الرحمـة ليسـت خُلقًـا نكتسـبه فحسـب، بـل نعمـة يُلهمهـا الله مـن زكّاه قلبًـا وطهّـره صـدرًا.

---

١ [آل عمران: ١٥٩]
٢ صحيح الجامع؛ ١٧٠٤

ولم أرَ خلقًـا يسـمو بالإنسـان كـما تفعـل الرحمـة، حـين تمنـح الـود في أوانـه لـكل طـارق، فربـما مَـن قصـدك معلـق عـلى كلمـة منـك ترمـم ضعفًـا اجتاحـه، أن تكـون رحيـمًا يعني أن تتجـاوز عـن زلات الآخريـن بوعـي لا بضعـف، أن تـرى الإنسـان خلـف خطئـه، وتـدرك أن العثـرة قـد تكـون لحظـة ضعـف لا جوهـرًا ثابتًـا، لا أحـد يعلـم كـم مـن شـخص يحتـاج إلى كلمـة طيبـة تـضيء عتمتـه، أو إلى موقـف صـادق يعيـد إليـه الثقـة بالحيـاة، امنـح الـدفء لمـن طـرق بابـك، فإنـك لا تـدري مـا حملـه إليـه، قـد يكـون عـلى شـفا جـرح لا يُـرى، أو عـلى حافـة انهيـار لا يُحـس، وكلمـة منـك قـد تكـون طـوق نجـاة، ونظـرة رأفـة قـد تعيـد بنـاء مـا تصـدّع فيـه مـن يقـين، وربـما أنـت اليـوم مَـن يمـدّ يـد العـون، وغـدًا تكـون مَـن يحتـاج إليهـا.

الرحمـة لا تعنـي أن تكـون هشًّـا أمـام مَـن يـسيء إليـك مـرارًا، ولا أن تجعلهـا مدخـلًا لاسـتغلالك، بـل كـن قويًـا بحلمـك، حازمًـا بعدلـك، تعـرف متـى تُسـامح ومتـى تضـع حـدًا، لأن العـدل أيضًـا صـورة مـن صـور الرحمـة، وليكـن لـك مكيـال واحـد تديـر بـه تعاملـك مـع الخلـق، مكيـال الحـق والوضـوح، أمـا التلـون فإنـه ينتقـص منـك لا يكملـك، واعلـم أن العلـم وحـده لا يكفـي بـلا عمـل، فمعرفتـك أن الرفـق مـن الديـن لا يكفـي دون تطبيقـه في سـلوكك فعـلًا لا قـولًا.

ما من مشهد إلا ويتشكل بهيئة النفس التي تراه

العـين لا تنقـل الحقيقـة كاملـة، بـل تمررهـا عـبر ضبـاب الداخـل، وحـرارة الشـعور، وعمـق الذاكـرة، المتفائـل يـرى في الغيـم بشـارةَ مطـر، والمتشـائم يـرى فيـه نذيـرَ عاصفـة، القلـب المحـبّ يـرى في زحـام النـاس دفئًـا، بينـما القلـب المنكسر يـراه وحشـةً لا تُحتمـل ، فرؤيتنـا للعـالم تتشـكل وفقًـا لخبراتنـا، ومعتقداتنـا، وعواطفنـا، لا وفقًـا للحقيقـة المجـردة، وكثـيرًا مـا نظـن أننـا نـرى الأمـور بوضـوح، لكـن الحقيقـة أننـا نراهـا مـن خـلال عدسـة تجاربنـا، ومخاوفنـا، وأمانينـا، فأحيانـاً مـا يجعلنـا نخطـئ أننـا نقـرأ المواقـف بأعـين امتـلأت بظنـون المـاضي، ونفـسر الكلـمات بـما حملنـاه مـن جـروح سـابقة، ونبنـي الأحـكام عـلى قوالـب شـكلتها خبراتنـا، لا عـلى الواقـع كـما هـو، لـذا قـد نُـسيء فهـم مَـن حولنـا، أو نظلـم موقفًـا لم نـره مِـن كل زوايـاه، أو نتـسرع في حكـمٍ عـلى أمـر لم نمنحـه فرصـة كافيـة ليتضـح، فالنـاس لا يشـتركون في رؤيـةٍ واحـدة، حتـى وإن كانـوا أمـام نفـس المنظـر؛ لأن كلًّا منهـم ينظـر بعـينٍ شـكّلتها تجاربـه، وصاغتهـا جراحـه، وملأتهـا أمنياتـه أو خيباتـه.

إننـا حـين نحمـل مشـاعر غـير معالجـة، نميـل إلى إسـقاطها عـلى كل مـا حولنـا، فالمجـروح مـن خـذلانٍ سـابق قـد يـرى في كل اقـترابٍ تهديـدًا، والخائـف مـن الفقـد قـد يفـسر كل بُعـدٍ عـلى أنـه هجـر، ومَـن اعتـاد عـلى الغـدر لـن يصـدق الإخـلاص حتـى لـو كان أمامـه واضحًـا، وهكـذا نصبـح أسرى لرؤيتنـا الذاتيـة، التـي تُضللنـا عـن رؤيـة الأشـياء عـلى حقيقتهـا هـي لا حقيقتنـا .

الحـل ليـس في تجاهـل تجاربنـا، لكـن في إدراك أن رؤيتنـا ليسـت مطلقـة، وأن علينـا التريـث، وتـرك مسـاحة لاحتـمال أننـا قـد نكـون مخطئـين، فحـين نـدرك أننـا نرى الأشـياء مـن خلال مرآتنـا الداخليـة، سـنتعلم أن نُنظـف تلـك المـرآة، لا أن نكسرهـا، وأن نبحـث عـن الحقيقة، لا عـن تأكيـد مخاوفنـا وأوهامنـا، وأن نسـأل أنفسـنا: هل نـرى الأمور كـما هي، أم كـما اعتدنا أن نراهـا؟ هـل نتفاعـل مـع الواقـع أم مـع ظـلال تجاربنا الماضيـة؟ فالوعـي بهـذه الفجوة بين الحقيقـة وبـين تفسـيرنا الشـخصي لهـا يمنحنـا فرصـةً للتحـرر مـن فـرض أحكامنـا المسـبقة النابعـة مـن رصيـد قديـم ربـما يكـون عفـا عليـه الزمـن وغـدا غـير صالـح للاسترشـاد بـه.

طِبْ نفسًا بصوابك، ولا تنتظر تصفيق المارة

في الأثـر أن نبـي الله موسـى عليه السلام قـال: « يـا رب إن النـاس يقولـون في مـا ليـس فيَّ، فأوحـى الله إليـه يـا موسـى لم أجعـل ذلـك لنفسـي فكيـف أجعلـه لـك ؟ » [1]

وأن نبـي الله عيسـى عليه السلام قـال: «لا يحزنـك قـول النـاس فيـك ، فـإن كان كاذبًـا كانـت حسـنة لم تعملهـا، وإن كان صادقًـا كانـت سـيئة عُجِّلَـتْ عقوبتهـا» .[2]

وفي الأدب أن الأصمعـي قـال: كان رجـل مـن أهـل البـصرة بذيًـا شريـرًا، يـؤذي جيرانـه ويشـتم أعراضهـم؛ فأتـاه رجـل فوعظـه فقـال لـه: مـا بـال جيرانـك يشـكونك؟

قـال: إنهـم يحسـدونني! قـال لـه: عـلى أي شيء يحسـدونك؟ قـال: عـلى الصلـب! (يقصـد يحسـدونه حتـى لـو مـات مصلوبًـا)

قـال: وكيـف ذاك؟ قـال أقبـل معـي، فأقبـل معـه إلى جيرانـه، فقعـد متحازنًـا وقـد اعتـزل مجلسـهم ؛ فقالـوا: مالـك!

قـال: طـرق الليلـة كتـاب معاويـة أن أُصلـب أنـا ومالـك بـن المنـذر، وفـلان، وفـلان. فذكـر رجـالًا مـن أشراف أهـل البـصرة؛ فوثبـوا عليـه وقالـوا: يـا عـدو الله! أنـت تصلـب مـع هـؤلاء ولا كرامـة لـك؟ فالتفـت إلى الرجـل وقـال: أمـا تراهـم قـد حسـدوني عـلى الصلـب؟ فكيـف لـو كان خـيرًا؟

حينـما قـال أنـه سـيموت مـع شرفـاء قومـه اسـتكثروا عليـه الميتـة، وهـذا مـا نـراه في حياتنـا الآن، فالقصـة القابعـة في بطـن الزمـان تتجـدد بأشـكال وألفـاظ مختلفـة، ومـن طبيعـة الإنسـان، بصفتـه كائنـاً اجتماعيـاً، أن يتفاعـل مـع مَـن حولـه ويتأثـر بكلامهـم وأفعالهـم، سـواء إيجابًـا كان أو سـلبًا، لكـن هـل يمكـن للإنسـان أن يعيـش بمنـأى تـام عـن تأثـير كلام الآخريـن؟ قـد يتمنـى المـرء أحيانًـا لـو أن قلبـه درعٌ لا يخترقـه سـهم، أو لـو أن سـمعه لا يلتقـط إلا مـا يُفرحـه، لكـن الحقيقـة أن الإنسـان، مهـما بلـغ مـن قـوة وصلابـة، كائـن اجتماعـي بطبعـه، مخلـوقٌ مـن لحـم ومشـاعر، لا مـن صخـرٍ وفـولاذ، فالكلـمات التـي تُقـال

١ الآداب الشرعية والمنح المرعية (ج١/ص٧)

٢ المرجع السابق

لـه ليسـت مجـرد أصـوات تتناثـر في الهـواء، بـل تحمـل معهـا أوزانًـا خفيـة، قـد تهـوي عـلى القلـب فتثقلـه، أو ترفعـه كجنـاح طائـرٍ حـر، قـد نظـن أننـا نتمتـع بحصانـة داخليـة، لكـن الحقيقـة أن في كل منـا منطقـة هشّـة، ينفـذ منهـا قـولٌ عابـر أو نقـدٌ جـارح أو تلميـحٌ غـير مقصـود، فيرتبـك الميـزان داخلنـا دون أن نـدري.

ومـع ذلـك، لا يعنـي هـذا أننـا أسرى لمـا يُقـال، فشـتان بـين أن نتأثـر بالـكلام كبـشر، وبـين أن نستسـلم لـه كضعفـاء، نعـم مـن الصعـب تجنـب التأثـر تمامًـا، لكـن يمكـن للمـرء التحكـم في مـدى هـذا التأثـير، وذلـك يتوقـف عـلى مـدى حساسـيته الشـخصية، فبعـض الأشـخاص يتمتعـون بدرجـة عاليـة مـن الحساسـية تجعلهـم أكثـر عرضـة للتأثـر بـكلام الآخريـن، إنهـم كثـيروا التفكـير فيـما يقـال عنهـم، قـد يشـعر المـرء منهـم بالارتبـاك والانفعـال عنـد مواجهـة المواقـف الاجتماعيـة، وهـذا الارتبـاك قـد يظهـر حتـى عـلى المسـتوى الجسـدي، كارتجـاف العضـلات أو التلعثـم في الـكلام، ممـا يزيـد مـن توتـره.

الألسـن لا تهـدأ، والأحـكام لا تنتهـي، ومـا يُقـال عنـك لا يُكتـب بقلمـك، ولا يُـروى عـلى لسـانك، بـل ينسـجونه كـما يشـاؤون، يُلونونـه بأهوائهـم، ويحكمـون عليـك دون أن ينظـروا إليـك، النـاس يبدّلـون رضاهـم كـما يُبدّلـون ثيابهـم، يرفعونـك اليـوم لأمـر أعجبهـم، ويخذلونـك غـدًا لأمـر لم تفهمـه، لا تنتظـر تصفيقًـا، فكلّـما اتسـق المـرء مـع مـا بينـه وبـين الله، تضـاءل عنـده مـا بينـه وبـين النـاس.

تعلّـم أن بعـض الطـرق لا تُسـلك بالأقـدام، بـل تُخـاض بالقناعـات، وبعـض المعـارك لا تُكسـب بالصـوت، بـل بصمـتٍ يملـؤه اليقـين، واخـتر أن يكـون صوتـك الداخـلي هـو الأصـدق، فمتـى أرضيـت ضمـيرك، لا يهـم بعدهـا مَـن أعجـب أو اعـترض، مَـن هلّـل أو انسـحب، فقـد تمـضي مسـتقيمًا، ويُشـار إليـك وكأنـك غريـب؛ وقـد تنـأى بنفسـك عـن الدنايـا، فيقـال إنـك متعـالٍ أو متصنـع، النـاس لا يملكـون ميـزان ضمـيرك، ولا يعلمـون حجـم المعـارك التـي خضتهـا كـي تختـار الصـواب، في وقـتٍ كان الباطـل أسـهل، والسـكوت أيـسر، والمجـاراة أكثـر أمانًـا.

أمنيات متأخرة... وحياة لم تُعَد من جديد

حـين يتأمـل الإنسـان أمنيـات كبـار السـن في لحظاتهـم الأخـيرة، لا يسـمع مجـرد كلـمات، بـل يسـمع صـدى أعـمار بأكملهـا، وتجـارب ثقيلـة اختُزلـت في حِكـم موجعـة، وحسـرات هادئـة، لا تـصرخ، لكنهـا تقـول كل شيء، فقـد سُـئِلَ عـددٌ مـن كبـار السـن قبـل وفاتهـم عـن أبـرز الأشـياء التـي ندمـوا عـلى فعلهـا أو عـدم فعلهـا في حياتهـم، فـكان هنـاك خمـس رغبـات اشـترك في ذكرهـا معظمهـم وهـي:

- أولا: تمنيـت لـو كانـت لـديّ الشـجاعة لأعيـش لنفسـي ولا أعيـش الحيـاة التـي يتوقعها أو يريدهـا منـي الآخرون.
- ثانيـا: تمنيـت لـو أننـي خصصـت وقتًـا أطـول لعائلتـي وأصدقائـي بـدلًا مـن إضاعـة العمـر كلـه في روتـين العمـل المجهـد .
- ثالثا : تمنيت لو كانت لديّ الشجاعة لأعبّر عن مشاعري بصراحة ووضوح..
- رابعا: تمنيت لو بقيت على اتصال مع أصدقائي القدامى أو تجديد صداقتي معهم.
- خامسـا : تمنيـت لـو أننـي أدركـت مبكـرًا أن السـعادة كانـت اختيـارًا يمكـن نيلـه بجهـد أقـل وتكلفـة أبسـط.

هـذه الأمنيـات ليسـت مجـرد خواطـر عجائـز، بـل هـي إشـارات طريـق، إشـارات تقـول لنـا: لا تنتظـر لحظـة الـوداع لتكتشـف مـا كان ينبغـي أن يُفعـل منـذ زمـن، عـش لنفسـك لا أنانيـة، بـل لأنـك وحـدك مَـن ستُحاسـب عـن عمـرك، امنـح وقتـك لمـن يحبّـك لا لمـن يسـتنزفك، عـبّر عـن مشـاعرك قبـل أن يتعـذر البـوح، جـدّد الصِـلات قبـل أن يقطعهـا الغيـاب، واعلـم أن السـعادة ليسـت مشروعًـا معقـدًا، بـل هـي تفاصيـل يوميـة نغفلهـا ونحـن نبحـث عنهـا في أماكـن خاطئـة.

خمـس أمنيـات تكـرّرت بينهـم لم تكـن عـن المـال، ولا عـن المجـد، ولا عـن مـا فاتهـم مـن مظاهـر الدنيـا، بـل عـن أشـياء رقيقـة، عميقـة، كان يمكـن بلوغهـا، لكـن تأجيلهـا كان قاتـلًا، وعندمـا نعيـد النظـر في الأمنيـات الخمـس نجدهـا تـدور حـول تقديـر الأمـور

المهمـة بعـد فـوات الأوان، فجميـع الأمنيـات تعـبر عـن أن الإنسـان غالبًـا لا يـدرك قيمـة الأشـياء الحقيقيـة إلا عندمـا تصبـح بعيـدة المنـال، سـواء كان ذلـك في شـجاعة اتخـاذ القرار، أو في العلاقـات التــي تــم إهمالهـا، أو في معنـى السـعادة الحقيقـي، ليجـد نفسـه في مرحلـة وعـي متأخـر بقيمـة اللحظـة، تعكـس مقـدار النـدم عـلى الفـرص الضائعـة، وتقـدم لنـا درسًـا عميقًـا عـن أهميـة العيـش بوعـي للحظـة الحـاضرة، والاعتنـاء بالعلاقـات، واتخـاذ القـرارات التـي تعكـس رغباتنـا الحقيقيـة لا رغبـات الآخريـن.

الأيـام أوراق تتسـاقط واحـدة تلـو الأخـرى، لا لنعـود إليهـا، بـل لننظـر إليهـا مـن عـلٍ، متسـائلين: لِمَ أسرعنـا؟ لِمَ صمتنـا حـين وجـب الـكلام؟ لِمَ خفنـا أن نسـلك طرقًـا كانـت لنـا، لكننـا تركناهـا خشـية العتـب أو الرفـض؟

إن أكثـر الأمنيـات مـرارة، تلـك التـي تُولـد بعـد فـوات الحيـاة التـي كانـت تمنحهـا فرصـة التحقـق، حـين يجلـس المـرء عـلى عتبـة النهايـات، لا يتذكّـر إنجازاتـه بقـدر مـا يلاحقـه سـؤال: لمـاذا لم أعـش لنفسـي قليـلًا؟ لمـاذا خفـت؟ لمـاذا أنصـتُّ للنـاس أكثـر ممـا أنصـتُّ لقلبـي؟ كل مَـن سـبقنا قالهـا متأخـرًا، فلنقلهـا نحـن الآن: لـن نؤجـل الحيـاة، ولـن نُراكـم التمنيـات، بـل سنعيشـها مـا دمنـا قادريـن، فبعـض الأمنيـات حـين تتأخـر، لا يُكتـب لهـا التحقّـق، بـل تُدفـن مـع صاحبهـا، نعـم النـدم لا يُصلـح المـاضي، لكنـه يطهّـر الطريـق نحـو مـا بقـي مـن العمـر.

يا صديقي :

الزمـان لا ينتظـر نضجنـا المتأخـر، والمواقـف لا تتكـرّر لتمنحنـا فرصـة التصحيـح، ومـا يتبقـى لنـا هـو حديـثٌ داخـلي، يشـبه المناجـاة، تخـرج فيـه أمانينـا القديمـة بأصـوات خافتـة كأنهـا تعتـذر إلينـا، أو نعتـذر نحـن إليهـا.

الواقفون فوق قمة الجبل لم يهبطوا من السماء

مـا مـن أحـدٍ وُلـد عـلى القمـة، ولا أحـد صعدهـا بأجنحـةٍ خفيـة، هـؤلاء الذيـن تراهـم الآن في مواضـع الضـوء، في مواضـع الإعجـاب، كانـوا يومًـا في العتمـة يحاولـون أن يُقنعـوا أنفسـهم بـأنّ الطريـق لـن يبتلعهـم، كانـوا في البدايـات يطرقـون أبـواب الفـرص ولا تُفتـح، ويبتلعـون مـرارة الرفـض وكأنهـا وجبتهـم اليوميـة، منهـم مَـن عمـل في مهـن لا تُشـبه طموحـه، لكنـه لم يحتقرهـا، بـل جعلهـا فـترة مؤقتـه لعبـوره، ومنهـم مَـن عـاش أعوامًـا كاملـة يُقنـع مَـن حولـه أن مـا يحملـه مِـن فكـرة أو موهبـة أو حلـم ليـس عبثًـا، وأن مـا يبنيـه في الخفـاء يسـتحق أن يُـرى، بعضهـم كان يتعثّـر بـكلام النـاس، وبعضهـم سـقط فعـلاً تحـت وطأتـه، ثـم نهـض بـلا ضجيـج، وأكمـل السـير، عاشـوا الهزائـم الصغـيرة التـي لا تُذكـر، والمواقـف التـي كادت تكسرهـم لـولا قليـلٌ مـن أمـل وكثـير مـن صـبر، ولأنهـم لم ينتظـروا يـدًا ترفعهـم، ولا إعجابًـا يربّـت عـلى كتفهـم، بلغـوا مـا بلغـوه، لا لأن الطريـق كان ممهّـدًا، بـل لأن نفوسـهم كانـت مسـتعدة لأن تتلـوّن بالصـبر لا باليـأس، الآن تراهـم مـن بعيـد عـلى القمـة فتظنهـم مختلفـين، وقـد كانـوا يومًـا مثلـك تمامًـا، لكنهـم لم يتوقفـوا حـين كان كل شيء يدعوهـم للوقـوف.

وفي تاريخنـا نمـوذج عجيـب، فلـم يكـن عمـر بـن عبـد العزيـز حـين جلـس عـلى كـرسي الخلافـة ذلـك الرجـل الـذي اعتـاد الـترف فقـط، بـل كان رجـلاً صقلتـه الأيـام مـن الداخـل، فبلـغ القمـة لا عـلى سـجاد السـلطة، بـل عـلى طريـقٍ مـليء بالمراجعـات والصدق والمجاهـدات الخفية،حينـما ولي الخلافـة خطـب النـاس فـكان ممـا قالـه : «أيهـا النـاس ، إن لي نفسًـا تواقـة لا تُعطـى شـيئًا إلا تاقـت إلى مـا هـو أعـلى منـه ، وإني لـما أُعطيـت الخلافـة تاقـت نفسي إلى مـا هـو أعـلى منهـا وهـي الجنـة، فأعينـوني عليهـا يرحمكـم الله».

نشـأ في بيـوت القصـور، نعـم، لكـنّ النـور الـذي بـزغ في قلبـه لم يهبـط عليـه مـن السـماء فجـأة، بـل انبعـث مـن جـوف ليـالٍ كان يُطيـل فيهـا التفكّـر، ومـن مواقـف أطفـأت فيـه زهـو السـلطة وأشـعلت فيـه ضمـير الخلافـة، كان بإمكانـه أن يعيـش كـما عـاش مَـن قبلـه، وأن يحكـم كـما حكمـوا، وأن يـرضى بالظـلّ كـما أراد النـاس لـه لكنـه اختـار الطريـق الأصعـب، أن يعـدل في زمـن الخـوف، وأن ينـام وجـوع الفقـراء يؤرّقـه.

مَـن يـراه اليـوم في كتـب التاريـخ فـوق قمـة العـدل، لا يـدرك أن تلـك القمـة بُنيـت مـن داخلـه أولًا، حـين كبـح نفسـه، وودّع زخـرف الدنيـا، وجعـل ثيابـه البسـيطة أثقـل مـن تيجـان الملـوك، لقـد سـار إليهـا لا بخطـى الملـوك، بـل بخطـى العارفـين بـأن المجـد لا يُشـترى بـل يُتَحمَّل، هكـذا تكـون القمـم الحقيقيـة، لا تُولـد مـع صاحبهـا، بـل تُبنـى بـه.

يصفـه أبـو حـازم «التابعـي المحـدِّث» قائـلًا : قدمـت عـلى عمـر بـن عبـد العزيـز وقـد ولي الخلافـة فلـما نظـر إلي عرفنـي ولم أعرفـه ، فقـال لي: ادن منـي ، فدنـوت منـه ، فقلـت: أنـت أمـير المؤمنـين؟ قـال: نعـم ، فقلـت لـه: ألم تكـن عندنـا بالمدينـة أمـيرًا، فـكان مركبـك وطيًـا، وثوبـك نقيًـا ووجهـك بهيًـا، وطعامـك شـهيًا، وخدمـك كثـير، فـما الـذي غـيرك وأنـت أمـير المؤمنـين؟

فبكـى عمـر بـن عبـد العزيـز وقـال: يـا أبـا حـازم ، كيـف لـو رأيتنـي بعـد ثـلاث في قـبري وقـد سـالت حدقتـاي عـلى وجنتـي ، ثـم جـفَّ لسـاني ، وانشـقت بطنـي وجـرت الديـدان في بـدني لكنـت لي أشـد إنـكارًا.

غيرتـه النفـس التواقـة. فلـما أدرك الخلافـة هيـأ نفسـه لإدراك الآخـرة ، ولمـا حضرتـه الوفـاة كان آخـر مـا نطـق بـه ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (١)

النفـس التواقـة هـي روحٌ لا تشـبع مـن الطمـوح، ولا تسـتكين للمألـوف، ولا تـرضى بـأن تكـون عـلى الهامـش، بـل تطمـح إلى تحقيـق غايتهـا مسـتمدة طاقتهـا مـن شـغفها بالسـعي، فالإنسـان بطبيعتـه كائـن طمـوح، لا يقـف عنـد حـد معـين، كلـما حقـق هدفًـا، بـدأ يفكـر في الـذي يليـه، وهـذه الطبيعـة التصاعديـة للأهـداف ليسـت مجـرد نزعـة طمـوح، بـل هـي جـزء مـن فطـرة الإنسـان التـي تدفعـه دائـمًا للتطـور، فالشـخص الـذي كان يحلـم بوظيفـة جيـدة، بمجـرد حصولـه عليهـا، يبـدأ في التفكـير بالترقيـة، ثـم في بنـاء مشروعـه الخـاص، وهكـذا تتـوالى الأهـداف بـلا نهايـة، ليـس لأن الإنسـان لا يـرضى، بـل لأن الرضـا الحقيقـي يـأتي مـن السـعي المسـتمر، لا مـن الوقـوف عنـد محطـة معينـة.

١ القصص [٨٣]

إن متعـة الوصـول إلى هـدف تنشـده تعـوض مشـقة الطريـق، فالمشـقة ليسـت إلا اختبـارًا لمـدى إصرارك، ولولاهـا لما عرفـت قيمـة الوصـول، فـكل شـخص ناجـح يحمـل في داخله قصـة تعـب، ومواقـف كان فيهـا عـلى وشـك الاستسـلام لكنـه أكمـل، ليـس لأنـه لم يشـعر بالإرهـاق، بـل لأنـه كان يـرى مـا بعـده، يـرى لحظـة الانتصـار، يشـعر بلـذة تحقيـق مـا كان يبـدو مسـتحيلًا .

المهـم أن تكـون هـذه الأهـداف واعيـة ومتزنـة، فـلا يتحـول السـعي وراءهـا إلى عـبء، ولا يجـرّد الرحلـة مـن معناهـا، فالحلـم مطلـوب لكـن دون أن يصبـح هوسًـا يطغـى عـلى الاسـتمتاع بالمحطـات التـي نصـل إليهـا، فمتعـة الوصـول ليسـت في اللحظـة التـي تصـل فيهـا فقـط، بـل في الرحلـة التـي صنعـت منـك شـخصًا أقـوى، وفي الطريـق الـذي كشـف لـك قدرتـك الحقيقيـة، وأنـت تحمـل قصـة خاصـة بـك، قصـة المحـاولات، والتحديـات، واللحظـات التـي كنـت فيهـا عـلى وشـك الاستسـلام، ثـم اسـتجمعت قـواك وأكملـت.

لا أحـد يولـد عـلى القمـة، ولا أحـد يصـل إليهـا صدفـة، ولا يقـف فوقهـا إلا بعـد أن يُثخنـه التعـب وتُثقلـه الخطـى، أولئـك الذيـن تراهـم اليـوم عـلى ارتفاعـات شـاهقة، ناجحـين، ملهمـين، ولامعـين، لم تُبسـط لهـم الأرض ولا نزلـت لهـم السـماء بسـلالم مـن نـور، بـل كانـوا يومًـا في قـاع سـحيق، يصارعـون الخـذلان، ويتلقّـون الهزائـم، ويجاهـدون الشـكوك والخـذلان والرفـض، لكنهـم لم يتوقفـوا، فالقمـم لا تفتـح أبوابهـا إلا لمـن أرهقتـه السـفوح، ومَـن يحسـد الناجحـين عـلى مـا هـم فيـه، دون أن يـرى طرقهـم الوعـرة، كمَـن يُبـصر الثمـرة وينسـى الجـذور، فالنجـاح ليـس برقًـا مفاجئًـا، بـل تراكـم طويـل مـن الألم، والانضبـاط، والمحـاولات الخفيـة التـي لم تُـرَ، والتضحيـات التـي لم تُذكَـر.

.

السكوت الذي تمنيته بعد فوات الأوان

لعلها أكثر مشاكلنا الحياتية، البوح في غير موضعه للشخص الذي لم نختبره، كثيرون ظنوا أن الفضفضة راحة، لكنها في بعض الأحيان تكون وبالًا، خاصة إذا كانت لمن لم تختبره الأيام، ولم تَزِن صدقه المواقف، فليس كل مبتسم ناصحًا، وليس كل مستمعٍ أمينًا، فبعض القلوب خزائن وأخرى ثقوب، تبتلع السر لحظة وتفشيه في أول فرصة، وبعض الأسرار لا تُقال حتى لأقرب الناس، لأنها إن خرجت من صدرك فقدت قدسيتها، وأصبحت قابلة للتأويل والتلاعب.

كثيرًا ما تخدعنا حاجتنا إلى التخفف فنلقي بأسرارنا عند مَن يلبس قناع الصديق، ثم نكتشف أنه لم يكن سوى متطفل جمع عثراتنا ليوم خلاف، فاختر مَن تبوح له كما تختر مَن تأمنه على دارك، ولا تأمن لوجه لم تختبره الأيام، فكم من صديق كشفه أول اختبار، وكم من رداء الفضيلة ستر ذئبًا متربصًا.

ما أقسى أن تبوح بكلمة ظننتها خلاصًا، فإذا بها تصير قيدًا يلتف على عنقك كلما مرّ بك طيف الذكرى، كم من مرة اعتقدنا أن الصراحة راحة، فتكلمنا بشغف المتعطّش للفضفضة، لكننا لم نكن نعلم أن بعض القلوب لا تحتمل الحقيقة، وأن بعض الآذان تصغى لتدوين لا لفهم، وأن البوح في غير موضعه سذاجة لا شجاعة، ثم نعود لأنفسنا مثقلين، نحدّثها بمرارة: «ليتني لم أقل . ليتني صمتّ، ليتني كتمت الألم كما كنت أفعل دومًا» الكلمة إذا خرجت لا تعود، وإذا نثرتها في وجه مَن لا يقدّرها، تحوّلت إلى سهام طائشة لا تجرح سواك، فكم من سرّ بُحنا به على عجل فصار عبئًا لا يُحتمل، وكم من وجع شرحناه علّنا نجد صدراً يحتويه، فكان الصدر ضيقًا والروح أبعد ما تكون عن الفهم والاحتواء.

إن الصمت أحيانًا أعقل من ألف بيان، وأبلغ من ألف شكوى، ففيه نجاة من سوء التأويل، ووقاية من خيانة السامعين، وحفظٌ لهيبة الشعور حين لا يُفهَم.

نعم، السكوت الذي تمنّيناه بعد فوات الأوان، ليس ضعفًا ولا جبنًا، بل هي البصيرة التي لم تأتنا إلا متأخرة، بعد أن سال الكلام وخلّف وراءه جُرحًا لا يندمل.

فليكــن لنــا مــن التجربــة درس، أن نــزن كلماتنــا بميــزان الحكمــة، وأن نؤمــن أن بعــض مــا نحملــه في قلوبنــا لا يصلــح أن يُقــال، لا لأنــه خاطــئ، بــل لأنــه مقــدّس، يحتــاج قلبًــا يعــرف كيــف يصغــي دون أن يحكــم، ويحتــوي دون أن يبــوح بــه لغــير الله.

المظاهــر خادعــة والمعامــلات هــي التــي تكشــف جوهــر النــاس، فــإذا مــا طــوى صــدرك سرًا فاكتمــه ولا تخدعــك نفســك بمــرارة الكتــمان وفضيلــة البــوح، فلــن يجتهــد في معرفــة سرك إلا مَــن يريــد أن يأخــذه عليــك، افســح لــسرك في صــدرك متســعًا لا يضيــق عليــه، فالبــوح في غــير موضعــه ســهم قــد يرتــد عليــك في لحظــة لا تتوقعهــا.

قال رجل لعمر بن الخطّاب : إنّ فلانًا رجل صِدق.

قال له عمر : هل أنت جاره الأدنى تعرف مساءه وصباحه؟ قال لا.

قال: هل عاملته في الدرهم والدينار الذين تُمتحن بهما أمانات الناس ؟ قال لا .

قال : هل رافقته في السفر الذي ينكشف فيه أخلاق الناس؟ قال لا .

قال : فأنت الذي لا علم لك به، أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد.

ليــس كل مــن خفَــض رأســه في المســجد، رفَــع قلبــه عنــد الله،ولا كل مَــن تجمّــل في العلــن، صَــدق في الخفــاء، وقــد عَلِــم عمــرُ، ببصيرتــه التــي لا تخطــئ، أن الأخــلاق لا تُقــاس عنــد أبــواب المســاجد، بــل عــلى مفترقــات الحيــاة، فالرجــل لا يُعــرف بصــوت دعائــه، بــل بأمانته حــين يُعطــى، وبصــبره حــين يُظلــم، وبثباتــه حــين يُختــبر، ولذلك ســأل ذلك الســائل أســئلة لا تخطــر إلا في عقــولٍ تَــزِن الرجــال لا بمظهرهــم، بــل بمقامهــم ســاعة الخفــاء والتعامــل والشــدة، أكنــتَ جــاره تعــرف كيف يتــصرّف إذا ســكن النــاس وغفلــت العيــون؟ أأجريت معــه معامــلاتٍ فيهــا مِكيــال الحــقّ لا المجاملــة؟ أســافرت معــه لــترى وجهــه حــين يتســاقط عنــه زيــف التحفّــظ؟ إن كثــيرًا مــن النــاس يُبهرنــا حضورهــم، وتفتننــا لغتهــم، ويســحرنا خشــوعهم الظاهــري، لكــن الجوهــر لا يُكشــف إلا حــين تُكشَــف المواقــف، ومــا أكثــر مــن رفعــوا رؤوســهم في المحاريــب وخانــوا الأمانــة في الــدروب.

قابيل: التفسير الذي قاد إلى الدم

في قصـة قابيـل وهابيـل، لسـنا أمـام حادثـة عابـرة بـين أخويـن قدّمـا قربانـين كصدقـة يتقربـان بهـا إلى الله، فاختـار الله قربـان أحدهمـا، نحـن في حـضرة أوّل امتحـان داخـلي يظهـر صراع النفـس مـع ذاتهـا، بـين الإيـمان بالعـدل الإلهـي والانقيـاد لنزغـات الغـيرة، قـدّم كلٌّ منهـما قربانـا إلى الله، فتُقبّـل مـن أحدهمـا دون الآخـر، وكان يمكـن للقصـة أن تنتهـي عنـد هـذا الحـدّ: درس في القبـول الإلهـي، وتذكـير بـأن النيـة هـي مـا يـزِن القربـان لا شـكله، لكـنّ قابيـل لم يتوقّـف عنـد الحـدّ الظاهـر، لم يتـأدب مـع إرادة الله، ولم يتفكّـر في نفسـه ليهذّبهـا، بـل استسـلم لصـوت الحسـد، فحـوّل خيبتـه إلى غضـب، وغضبـه إلى جريمـة.

لم يسـأل: «لِمَ لم يُقبـل عمـلي؟ ومـا الـذي فاتنـي مـن الصـدق أو الإخـلاص؟»، بـل اختـار الطريـق الأسـهل والأشـد قسـوة: الغـيرة، الحسـد، ثـم الحقـد، ولأن الغـيرة حـين لا تُروَّض تتحـول إلى وقـودٍ للعـدوان، بـدأ نزيـف الكراهيـة في قلبـه، وتحـوّل الشـعور بالنقـص مـن طاقـةٍ للتزكيـة إلى مـشروعٍ للهـدم، ولم يكـن قتلـه لأخيـه سـوى قتلـه لمـا بقـي في داخلـه مـن ضـوء، فمـن لم يُفلـح في التقـرّب إلى الله، توهّـم أن الطريـق إلى الارتقـاء يكـون بإقصـاء مَـن تفـوّق عليـه، لم يحتمـل قابيـل فكـرة أن يُفضَّـل غـيره عليـه، فصـار أول مَـن اسـتبدل التزكيـة بالإقصـاء، وأول مَـن سـنّ سـنة إزاحـة الآخـر بـدلًا مـن مجاهـدة النفـس، وحـين يعجـز الإنسـان عـن إصـلاح ذاتـه، يبحـث عمّـن يُسـقط عليـه مـرارة فشـله، وهكـذا فعـل قابيـل، فبـدلًا مـن أن يواجـه نفسـه، واجـه أخـاه، لا بالحجـة ولا بالعمـل الصالـح، بـل بالسـلاح، فلـم تكـن الضربـة التـي وجّههـا إلى هابيـل مجـرد جريمـة قتـل، بـل كانـت إعلانًـا عـن انهيـارٍ داخـلي، عـن فشـلٍ في فهـم حكمـة السـماء، عـن عجـزٍ عـن مجاهـدة النفـس قبـل مواجهـة الآخـر.

لقـد تحوّلـت القصـة مـن لحظـة اختبـار إلى بدايـة لمسـار إنسـانيٍ طويـل مـن الـصراع، حـين لم يكتـفِ الإنسـان بالتفسـير، بـل قرنـه بفعـلٍ لا يصـدر إلا عـن قلـبٍ مسـكونٍ بالظلمـة، وكان مـن الممكـن أن تكـون القصـة درسًـا في كيـف يُصلـح المـرء مـا بينـه وبـين الله، فـإذا بهـا تصـير أول درسٍ مأسـاويّ في كيـف أن الحسـد إذا لم يُكبـح، يُفـرِز القتـل، ويُفـرّق الـدم بـين الأخ وأخيـه، فالقصـة لا تُحكـى بوصفهـا مـاضٍ بعيـد، بـل لأنهـا مـرآة لمـا يتكـرّر في

النفـوس، كلـما غلـب الحسـد عـلى الفهـم، وكلـما قـدّم الإنسـان تفسـيرًا خاطئًـا لمـا جـرى، وأتبـع ظنّـه بالفعـل، فـكان مـا كان مـن خـراب، هـي قصـة ترسـم ملامـح حيـاة رجـل تحـول مـن طالـب قُـربٍ بصَدَقـة إلى صانـع جريمـة قتـل، وإن أسـوأ مـا قـد يصنعـه العجـز حـين لا يُواجـه بالتواضـع أن يتحـوّل إلى عـدوان .

يحـق للمـرء أن يفـسر أمـرًا مـا وفقـا لقناعاتـه ووجهـة نظـره، يحـق لـه أن يحتفـظ برأيـه أو يعرضـه إذا طُلـب منـه إبـداء الـرأي، لكـن ليـس مـن حقـه أن يفـرض هـذا الـرأي عـلى غـيره أو أن يُصـدِّره عـلى أنـه الـرأي الوحيـد فيحجـر عـلى الآخريـن آراءهـم، أو أن يقـدم نفسـه عـلى أنـه المصحـح لسـلوك البـشر المقـوم لاعوجاجهـم، إن تفسـير موقـف بعينـه هـو أمـر في متنـاول أغلـب النـاس ولا تقـوم عليـه مسـئولية، فهـو قـادر عـلى الاحتفـاظ برأيـه لنفسـه، لكـن توابـع التفسـير هـي التـي تصنـع الفـارق، أن يعقـب تفسـيرك سـلوكًا معاديًـا تكـون عليـك تبعاتـه، التفسـير يظـل تفسـيرًا مـا لم يعقبـه فعـل بعينـه.

ليـس كل تفسـير يُعـدّ تهديـدًا، ولا كل فهـم يلـزم منـه حركـة أو ضرر، فالعقـول تفكّـر، والقلـوب تتأمـل، والنـاس يفـسرون الأقـوال والمواقـف عـلى اختـلاف طبائعهـم ومداركهـم، لكـن مـا لم يتحـوّل هـذا التفسـير إلى فعـل مـؤذٍ أو قـرار جائـر، فهـو لا يعـدو أن يكـون رأيًـا عابـرًا، لا يُبنـى عليـه حكـم ولا يُخشـى أثـره، فالإنسـان قـد يظـن فيـك ظنًّـا، أو يحمّـل كلامـك مـا لا يحتمـل، أو ينسـج حولـك قصـة مـن وحـي خيالـه، لكنـه إن لم يُترجـم ذلـك إلى إسـاءة أو أذى أو حكـم ظـالم، فدعـه وشـأنه، فإننـا لا نُحاسـب عـلى مـا يـدور في رؤوس النـاس، ولا نُجـازى عـلى مـا فـسروا بـه تصرفاتنـا، بـل عـلى مـا نصنعـه بأيدينـا وننطقـه بألسـنتنا، كـما قـال ابـن القيـم : «ليـس عليـك تَطهـير أفـكار النـاس عنـك، ولكـن عليـك أن تُصلـح مـا بينـك وبـين الله» فالتفسـير بحـد ذاتـه ليـس مشـكلة، لكـن المشـكلة تبـدأ عندمـا يتحـوّل هـذا التفسـير إلى ذريعـة لإدانـة الآخريـن أو محاكمتهـم بنـاءً عـلى افتراضـات شـخصية، فحـين يتحـول الـرأي إلى أداة للهجـوم أو وسـيلة لممارسـة الوصايـة الفكريـة، يصبـح الأمـر تعديًـا لا مجـرد تفسـير، فـكل فـرد يـرى الأمـور مـن زاويتـه الخاصـة، ولكـن الوعـي يظهـر عنـد إدراك أن زاويتـك ليسـت الوحيـدة، وأن هنـاك زوايـا أخـرى قـد تكشـف أبعـادًا لم تدركهـا مـن قبـل، لذلـك، إن نضـج الإنسـان الفكـري يظهـر في قدرتـه عـلى الاحتفـاظ برأيـه دون أن يحـاول فرضـه.

بعض العطاء لا يُقدَّر بثمن

كان هَـرِم بـن سِـنَان ، سـيدًا مـن سـادات العـرب قبـل الإسـلام، رمـزًا للشـجاعة والحكمة، إذ أوقـف حـرب «داحـس والغـبراء» التـي اسـتمرت أربعـين عامًـا بـين قبيلتـي عبـس وذبيـان، فـكان هـو مَـن دفـع الديـات وعقـد الصلـح، وقـد سـجّل الشـاعر زهـير بـن أبي سـلمى مآثـره في أبيـات خلّـدت مجـده، حيـث أجـزل هَـرِم لـه العطـاء بـكل سـخاء، إلا أن الزمـن لا يحفـظ للمـرء المـال الـذي أنفقـه، ولكنـه يخلِّـد الفعـل الطيـب والـشرف الـذي خَلَفـه، مثلـما خلّـد زهـير بـن أبي سـلمى ذكـراه في أشـعارٍ بقيـت تذكـر حتى يومنـا هـذا، فعـلى الرغـم مـن وفـاة هَـرِم قبـل بـزوغ فجـر الإسـلام، بقيـت مناقبـه حيّـة في قصائـد زهـير، وكأن الزمـن قـد نـسي مـا أنفقـه هَـرِم مـن مـال، لكنـه لم ينـسَ مـا منحـه زهـير مـن كلـمات وأبيـات سـارت بهـا الركبـان وتناقلتهـا الألسـن عـبر الأجيـال.

وفي زمـن الخليفـة عمـر بـن الخطـاب، جـاءت ابنـة هَـرِم إلى عمـر فسـألها بدهشـة: «مـا الـذي أعطـى أبـوكِ لزهـير حتـى قيـل فيـه مديـح مـا زالـت تحفظـه العـرب؟»

فردّت ببراءة: «نسينا ما أعطينا لزهير!»

فقال عمر بن الخطاب بحكمة: «ولكن ما أعطاكم زهير لا يُنسى !

لقـد بقيـت مناقـب هَـرِم حيّـة في شـعر زهـير، فـترى كيـف أن المـال يُنسـى والزمـن يمحـو الآثـار الماديـة، بينـما تبقـى الكلمـة الطيبـة، الفعـل النبيـل، والعطـاء، أحيـاء في ذاكـرة الشـعوب، فالعطـاء الحقيقـي الـذي يتجـاوز المـال والممتلـكات هـو الـذي يحفـر اسـمه في التاريـخ ويخلـد صاحبـه في ذاكـرة الأجيـال .

إن العطـاء المـادي، مهـما بلـغ سـخاؤه، يظـل محـدودًا بزمنـه، يُسـتهلك وينسـى، بينـما العطـاء المعنـوي، الـذي يتجسـد في كلمـة حـق، أو موقـف عـادل، أو أثـر أدبي وفكـري، يبقـى خالـدًا تتناقلـه الأجيـال، ومـا قـول عمـر بـن الخطـاب إلا تأكيـد عـلى هـذه الحقيقـة؛ فالدنيـا تُنـسي مـا يُبـذل فيهـا مـن مـال، لكـن الأثـر الطيـب يظـل حيًـا لا يمـوت، ليـس كل مـا نقدمـه يُمكـن أن يُثمـن بقيمـة ماديـة، هنـاك عطـاء ينبـع مـن جـوف القلـب، يعطـي دون انتظـار مقابـل، ويُـضيء دروب الآخريـن بلمسـة مـن الإخـلاص، هـذا العطـاء، رغـم أنـه

قـد يبـدو بسـيطًا في نظـر العـالم، يحمـل في طياتـه أثـرًا دائـمًا يتجـاوز حـدود الزمـن والمكان، فليسـت كل الهدايـا ملفوفـة في أوراق أنيقـة، هنـاك هدايـا تُمنـح عـلى هيئـة وقـتٍ يُبـذل، أو دعـمٍ في لحظـة ضعـف، أو ابتسـامة تُرمـم قلبًـا منهـكًا، أو كلمـة صادقـة قـد تنتشـل إنسـانًا مـن هـوة اليـأس، أو وقفـة وفـاء قـد تُعيـد لأحدهـم ثقتـه في الحيـاة، ونصيحـة حكيمـة قـد تغـيّر مسـار حيـاة كاملـة، فالتاريـخ لا يُسـجل أرصـدة الجـود العابـر، لكنـه يسـجل العظمـة التـي تتجـلى في المواقـف التـي تركـت بصمـة لا تـزول.

والعطـاء الـذي لا يُقـدّر بثمـن هـو الـذي يُمنـح بصـدق، بـلا انتظـار لـردّ الجميـل أو مقابـل يُعـاد، هـو ذلـك الـذي يكـون امتـدادًا لطبيعـة الإنسـان وسـجيته، الـذي لا يرهقـه ولا يحسـبه كديـنٍ مسـتحق، بـل يمنحـه بسـخاء، وهـو يعلـم أن أثـره سـيظل ينمـو وإن غابـت عنـه العيـون، فبعـض العطـاء لا يحتـاج إلى اعـتراف الآخريـن، يكفـي أنـه يـترك بصمـة حـين يحتـاج النـاس إلى ذكـر اسـم صاحبـه، لا يجـدون سـوى الاحـترام والتقديـر لـه، لأنـه قـدّم شـيئًا باقيًـا عجـز الزمـان عـن محـو أثـره.

في حضرة الصدق، لا حاجة للمظهر أن يبرّر

قـال أبـو طلحـة (الأنصـاري) لأم سـليم: « لقـد سـمعت صـوت رسـول الله ﷺ ضعيفًـا، أعـرف فيـه الجـوع، فهـل عنـدك مـن شيء؟ فقالـت: « نعـم »[1]

عـرف الجـوع مـن نـبرات صوتـه، فالـذي يحبـك لـن يحتـاج لكثـير شرح ولا تقديـم مـبررات، الـذي يحبـك سـيرى حاجتـك قبـل أن تطلبهـا، سـيلمح تعبـك في نـبرة صوتـك، وسيشـعر بفرحـك قبـل أن تخـبره، تجـده مـلاذًا صادقًـا لا يحتـاج إلى تبريـر أو توضيـح في كل موقـف أو حديـث، يُنصـت لهمسـك قبـل أن ترفـع صوتـك، يخفـف عنـك الحمـل قبـل أن تشـكو ثقلـه، هـذه المشـاعر لا تـأتي صدفـة، بـل هـي نتـاج حـب تجـرد مـن التكلـف، وتُرجـم إلى أفعـال صغـيرة لكنهـا تحمـل في طياتهـا معـان عظيمـة.

أبـو طلحـة عـرف الجـوع في صـوت النبـي ﷺ، فلـم ينتظـر أن يبـوح بـه، بـل سـارع يسـأل زوجـه إن كان في البيـت مـا يسـدُّ رَمقـه، اسـتباقٌ للحاجـة، واهتـمامٌ لا يُطلـب، وحـرصٌ يتجـاوز المجامـلات، وحـين يـدرك المـرء أن مَـن حولـه يشـعرون بـه دون أن يتكلـم، فإنـه يبلـغ منزلـةً مـن الطمأنينـة لا تُضاهـى، حيـث لا حاجـة للـشرح، ولا للخـوف مـن سـوء الفهـم، تمامًـا كـما كان شـعور رسـول الله ﷺ حـين لمـس مـن أصحابـه مثـل هـذا الفهـم والاهتـمام، وتمامًـا كـما كان إحسـاس أم سـليم التـي لم تحتـج وقتًـا للتفكـير، بـل سـارعت بـما لديهـا، لأن المحبـة الصادقـة لا تعـرف الـتردد، بـل تسـبق الخطـى إلى أبـواب مَـن نحـب، تحمـل معهـم أثقـال الحيـاة قبـل أن تئـن بهـا أكتافهـم، ولا أدل عـلى ذلـك مـن تكملـة القصـة نفسـها، فأرسـل أبـو طلحـة أنـس بـن مالـك[2] يدعـوه للطعـام، قـال أنـس: وجـدت النبـي ﷺ في المسـجد معـه نـاس، فقمـت فقـال لي: آرسـلك أبـو طلحـة؟، قلـت: نعـم، فقـال: لطعـام، قلـت: نعـم، فقـال: لمـن معـه قومـوا، فانطلـق وانطلقـت بـين أيديهـم.[3]

لم يكـن النبـي ﷺ بحاجـة إلى تفاصيـل، فمجـرد وجـود أنـس وحـده، ووقوفـه منتظـرًا، كان كافيًـا ليعلـم سـبب مجيئـه دون أن يسـأل وكأنـما كان يـرى مـا وراء الموقـف، يـدرك الحاجـة

١ البخاري (٤٢٢)، ومسلم (٢٠٤٠)
٢ وأبو طلحة: هو زيد بن سهل الأنصاري؛ أحد نقباء العقبة، وهو زوج أم أنس رضي الله عنهم جميعًا
٣ البخاري (٦٦٨٨)، ومسلم (٢٠٤٠)

قبـل أن تُنطـق، ويقـرأ الوجـوه قبـل أن تتحـدث، لم يكـن بينهـم حاجـز مـن الكلـمات الزائـدة، بـل كانـت القلـوب تتحـدث بلغـة تفهمهـا الأرواح قبـل الألسـنة.

وهـذا المشـهد يعلمنـا أن أقـرب العلاقـات وأصدقهـا ليسـت تلـك التـي تحتـاج إلى شرح وتفسـير، بـل التـي يُـدرك فيهـا كل طـرف حاجـات الآخـر بنظـرة أو موقـف، فيسـبق إليـه دون انتظـار طلـب، فتكـون المعـاني أعمـق، والمشـاعر أصـدق، والعطـاء أوسـع، ولعـل هذا مـن أجمـل مـا في العلاقـات الإنسـانية أن نجـد مَـن يشـعر بنـا دون أن نضطـر لشرح مـا يؤلمنا أو مـا نحتاجـه، فبعـض القلـوب لديهـا مـن الفطنـة والـدفء مـا يجعلهـا مـرآة لنـا، تقـرأ مـا وراء صمتنـا، وتفهـم مـا تعجـز الكلـمات عـن وصفـه، فالحـب ليـس كلـمات منمقـة أو وعـودًا معسـولة، بـل هـو عـين تلاحـظ، وقلـب يعـي، ويـد تمتـد قبـل أن تُطلـب.

الاستمرار عندما لا تمتلك القوة

ما أشدّ أن تُؤخذ منك كل الأسباب ثم تُطالَب أن تبقى واقفًا، أن تُسحب من تحتك أرض الطمأنينة، وتُجبر على الوقوف على شوك الانتظار، أن تغدو وحدك في العراء، لا ظلّ يسندك، ولا صوت يردّ عنك الخوف، أن تنظر حولك فتجد الوجوه غابت، والأيدي ارتدت، والحلول ضاقت، ثم يُقال لك: اثبت، لا تجزع، لا تئنّ كأن القلوب لا تُثقَل.

حين فقد نبي الله يعقوب عليه السلام ابنه، لم يجد ما يواسي به نفسه سوى الصبر، فالمفقود ابنه والمعنيون بفقده إخوته، لم يمتلك القوة، لكن امتلك الصبر، ولم يحتفظ بالبصر لكن البصيرة كانت تُمسك بيده من الداخل، تآكل جسده، وانحنى ظهره، وابيضّت عيناه، لكن ما مال قلبه عن الله، ولا خَفَّت لهجتُه في مناجاته، ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [1] هكذا قال، لا ليُسمعهم، بل ليُذكّر نفسه أن الشكوى الحقيقية لا تُوجَّه إلا نحو العلوّ، يعقوبُ عليه السلام لم يُخرِج من محنته نصرًا يُباهي به، بل دربًا للقلوب التي تأتي من بعده، لكي تُدرك أن أعظم ما في الحياة أن تواصل السير حين لا يحملك شيء سوى الأمل.

وما من مرة قرأت فيها سيرة نبي الله أيوب عليه السلام، إلا وشعرت أنني أقف على عتبة سؤال لا يُجاب بسهولة: كيف يحتمل بشرٌ هذا القدر من الابتلاء، دون أن يسقط إيمانه؟ ذاك الجسد الذي تقوّض، وتلك الدار التي خلت من الأبناء، وذلك الرزق الذي تلاشى بين يديه، وتلك السنوات الطويلة التي مرّت عليه، لا يجد فيها سوى الألم جليسًا، أي قلبٍ هذا الذي لم يجزع؟ وأي روح تلك التي ما زالت تقول: «لا غنى بي عن بركتك»؟ حين أتأمل ابتلاءه، لا أعود أتعجّب من وقوع البلاء، بل من الصبر عليه، فالابتلاء ليس استثناءً، إنه سُنّة، لا يفرّق بين عزيز ووضيع، ولا بين غنيّ وفقير، وما أكثر ما نراه حولنا: مُعدمٌ مثقلٌ بالداء لا يملك ثمن دوائه، وغنيٌّ تفيض خزائنه، لكنه غارق في همّ لا تُطفئه الأموال، كأن الألم خيطٌ يُحيك الوجود الإنساني من بدايته إلى منتهاه، قدر محتوم يرافق الإنسان في رحلته، فتكون من سنن

---

١ يوسف: ٨٦

الحياة التي لا مفر منها ، فالفارق ليس في البلاء ذاته، بل في ردّة الفعل تجاهه، مِن الناس مَن يجزع في أول الصدمة، فينهار القلب والعقل معًا، ويغدو البلاء أضعافًا، لا لأنه اشتدّ، بل لأن النفس ضاقت عن احتماله، ومنهم مَن يصبر، لا صبر الخشوع وحده، بل صبر الفهم، صبر مَن يرى في داخل المحنة معنى، ويصغي لأقدار الله كمن يُنصت لحكمة لا يفهمها بعد، لكنه يوقن أنها موجودة.

ولم يكن أيوب عليه السلام نبيًّا يصبر لأنه يعلم الأجر فقط، بل لأنه أدرك أن الإنسان، مهما ضاق به الحال، يظل في غنىً ما دام في معيّة الله، أما نحن، بعقولنا المحدودة، وقلوبنا التي تنهكها العَجَلة، فما إن يقع البلاء حتى يضعف الفكر، ويخور الصبر، وتغدو الأبواب كلها موصدة، لا لشيء سوى أن الوسع النفسي والعقلي لم يعد يُربّى كما كان، وحين قرأت قول الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] أدركت أن الله لا يُحمِّل فوق الطاقة، لكن الإنسان يفقد بوصلته؛ لأن قلبه لم يُدرَّب على الرضا، ولأن الصبر في زمننا بات عملةً نادرة، لا في البلاء فقط، بل في الأحلام، في السعي، في حمل المواقف، فما أكثر مَن تركوا الطريق لا لأن الطريق أُوصِد، بل لأنهم تعِبوا مِن مواصلته.

ما أعظم أن تستمر وأنت فارغ، أن تمشي دون قدمين من اليقين، أن تُمسك الحياة بأطراف الدعاء لا بقبضة السيطرة، ذلك هو البلاء في صورته العارية، أن تُبتلى لا بما يفعل بك الناس، بل بما تفاجئك به الأيام ، وأنت تُجاهد ألّا تفقد إيمانك بالرحمة، والمجاهدون في مثل هذا المقام لا يصرخون، بل يبتلعون الألم في صمتٍ شفيف، يتكلّم في صلاتهم، ويتنهد في سجودهم.

إن أصدق مشاهد الحياة لا تُرسم في لحظات الوصول، بل في لحظات الإصرار المُتعب حين تنكسر داخلك أشياء كثيرة، ويبقى شيء واحد لا ينكسر، شيءٌ لا يُرى، لكنه يهمس داخلك: «أكمل، ولو وحدك» ذلك الشيء هو اليقين، فالمسير لا يشترط أن يكون واثق الخطى دائمًا، يكفي أن تمضي حتى لو بقدم مرتعشة، وصدرٍ يضيق، وقلبٍ يتهالك. الاستمرار لا يعني ألا تسقط، بل أن تؤمن أن لكل شقاء نهاية، ولكل جهد ثمرة، حتى لو تأخر القطاف، أو جاءك خفيفًا لا كما حلمت به طويلًا.

١ البقرة (٢٨٦)

الإقدام علي المخاوف يزيل أثرها

قـال عمـر بـن الخطـاب لابنـه عبـد الله : «لـو لا جعـل الله الخـوف في النـاس لأهلكـوا أنفسـهم، ولكـن الشـجاعة يـا عبـد الله أن تغلـب عـلى خوفـك في مواطـن الحـزم، وأن تبعـث في خصمـك مـن الخـوف أكثـر مـن مـا في نفسـك، فإنـه يحـرص عـلى حياتـه كـما تحـرص عليهـا».

الجـرأة في مواجهـة المجهـول هـي سر إزالـة أثـر الخـوف، أكثـر الأشـياء التـي تخشـاها لم تخط نحوهـا خطـوة واحـدة بأقـدام ثابتـة، إنـما خطـوات عـلى اسـتحياء بأيـدٍ مرتعشـة، لـذا يظل خوفـك قابعًـا بداخلـك، فالإقـدام لا يعنـي غيـاب الخـوف بـل يعنـي مواجهتـه وتجـاوزه بخطـوات واثقـة تُعيـد للنفـس قيمتهـا وتكـسر قيـود الـتردد، وفي اللحظـة التـي تختـار فيهـا مواجهـة مـا يُرهبـك، تبـدأ المخـاوف بالتـلاشي تدريجيًـا.

وكـما أن للاهتمامـات أولويـات فـإن للمخـاوف أيضـا أولويـات، بعـض المخـاوف قـد لا يكـون لهـا وجـود إلا في مخيلاتنـا، بعضهـا مرتبـط بنظـرات النـاس وألسـنتهم في تقييمنـا، بعضهـا مرتبـط بالمجهـول الـذي ينتظرنـا عقـب اتخـاذ قـرار بعينـه، وبعضهـا قـد تسـتحي أن تذكـره خشـية السـخرية مـن بسـاطته في أعـين النـاس.

وأيًّـا كانـت مخاوفـك، فهـي ليسـت عبثًـا ولا تُولـد مـن فـراغ، بـل لهـا جذورهـا في التجربـة أو التخيّـل، في المـاضي أو التوقـع، لكنهـا رغـم ذلـك لا تسـتحق أن تُبقيك رهينـة، والمواجهة لا تكـون عشـوائية، بـل تحتـاج منـك شـيئًا مـن التبـصّر، شـيئًا مـن الترتيـب: مـا الـذي يجب أن تضعـه في صـدر المعركـة أولًا؟ مـا الـذي يمكنـك أن تؤجلـه حتـى تقـوى عليـه؟ إنّ ترتيـب المخـاوف نصـف الطريـق إلى تجاوزهـا، فالفـوضى في مواجهتهـا تزيدهـا اتسـاعًا.

ويكفـي أن نؤمـن أن الإقـدام عـلى المخـاوف هـو أوّل مـا ينـزع عنهـا سـطوتها، فكـما يُعالـج الخـوف مـن الظـلام بالاعتيـاد عـلى العتمـة، لا بإشـعال النـور في كل حـين، وكـما يُـداوى الخـوف مـن المرتفعـات بالاقـتراب الآمـن منهـا لا بالفـرار عنهـا، فـإن كل فوبيـا، مهـما عظمـت، تضعـف إذا مـا قابلناهـا بثبـات ولـو مـرة، لأن الحقيقـة الأعمـق أن أغلـب المخـاوف لا تسـكن الواقـع، بـل خيالنـا عـن الواقـع.

إن الإنسـان لا يكـبر بعمـره، بـل بـما واجهـه مـن تحديـات ومـا تغلّـب عليـه مـن مخـاوف، ولا يُختـبر حـين يكـون كل شيء ميـسرًا أمامـه، بـل حـين تضيـق بـه السـبل ويُطلـب منـه أن يخلـق طريقـه بنفسـه، وحـين يخـيّره القـدر بـين أن يكـون أسـير الظـروف أو صانعًـا لهـا، بـين أن ينكـسر أو يعيـد بنـاء نفسـه مـن جديـد، فـكل خطـوة تقطعهـا نحـو المجهـول، رغـم ارتجـاف قلبـك، هـي شـهادة ميـلاد جديـدة لـك.

إننـا لا نُعـرَف بـما نتجنـب، بـل بـما نجـرؤ عـلى مواجهتـه، ولا يُقـاس صمودنـا بعـدد المرات التـي وقعنـا فيهـا، بـل بعـدد المـرات التـي نهضنـا فيهـا رغـم الألم، فليسـت التجربـة مجـرد مـرور بالأحـداث، بـل وعـي يُكتسـب، وبصـيرة تنضـج مـع كل عثـرة، ولا أن تخـوض كل شيء، بـل أن تفهـم مـا تخوضـه، أن تسـتخلص الـدروس لا أن تكـرر الأخطـاء، أن تخـرج منهـا أقـوى لا أن تخـرج منهـا كـما دخلـت، التجربـة الحقيقيـة هـي كل مـا يضيـف إليـك فهـمًا أعمـق للحيـاة، لا مجـرد تراكـم للسـنوات، فكـم مـن شـخص عـاش عمـرًا مديـدًا بـلا تجربـة، وكـم مـن آخـر صقلتـه المواقـف حتـى بـات سـابقًا لسـنِّه بأعـوام!

كل اتكاء على غير الله انحناء

قـد يكـون تصحيـح مسـارك في الحيـاة بـما ظننـت وقتهـا أنـه خيبـات، يبـدأ طريقـك مـع الخـذلان بشـخص وثقـت فيـه وخذلـك، بقلـب آمنـت بـه وأنكـرك، بصاحـب سـلطة لجـأت إليـه فظلمـك، بصديـق اتـكأت عليـه فـمال عنـك، بعمـل أفرغـت فيـه طاقتـك وأخفـق، بأهـل أعانـوا عليـك الحيـاة ولم يعينـوك، ثـم تتسـاءل :

لِمَ يحدث معي كل هذا؟

سـؤالٌ يخـرج منـك مثقـلاً بالوجـع، لا تبحـث فيـه عـن معلومـة، بـل عـن عـزاءٍ يسـكب في قلبـك سـكونًا يفسّر الفـوضى، ورغـم بسـاطة الجـواب، يغيـب عـن أكثرنـا: يريـد الله لـك الخـير، فتديـر وجهـك، يريـدك أن تلجـأ إليـه لا إلى البـشر، يُنهِـكك التعلّـق بمَـن لا يملكون لـك نفعًـا، ويُريـك هشاشـة مَـن ظننتهـم سـندًا، حتـى إذا سـقط عنـك كل سـتار، وبـان الخـواء مـن حولـك، وجـدت أن أقـرب مـكانٍ هـو موضـع سـجودك، وأن أعـذب الكلمات هـي: «حسـبي الله» تلـك الكلمـة التـي لا يقولهـا القلـب إلا إذا ضاقـت عليـه الأرض بـما رحبـت، وخذلـه القريـب والبعيـد، وأُغلقـت الأبـواب في وجهـه إلا بابًـا واحـدًا لا يُغلـق أبـدًا، الـذي بينـك وبـين الله ، حينهـا تـدرك أن الركـون إلى النـاس وهـم، وأن الثبـات لا يكـون إلا بـالله، وأنـك حـين تفقـد كل شيء لا تكـون قـد خـسرت، بـل تحـررت مـن كل مـا كان يحجبـك عـن الحقيقـة الكـبرى: أنـك لا تملـك مـن أمـرك شـيئًا، وأن أعظـم القـوة أن تتجـرد مـن قوتـك وتلجـأ إلى الله وحـده.

إنـه لا يُسـلِبُك ليُعاقبـك، بـل ليُنقِـذك، ولا يقطعـك عـن الخلـق إلا ليفتـح لـك أبـواب السـماء دون واسـطة، تمـرّضُ الـروح لا يكـون إلا حـين تبتعـد عـن منبعهـا، وحـين تعـود، تنبـع الحيـاة مـن جديـد في أطرافـك، ويعـود الـدفء إلى جماداتـك، فـالله إذا أحـبّ عبـدًا، نـزع مـن قلبـه اتكالـه عـلى غـيره، ليعلّمـه أن الطمأنينـة لا تُسـتمَد مـن عـدد، ولا مـن قـوة، بـل مـن واحـدٍ أحـد، إن قـال للـشيء كـن، كان .

فـلا تُدهشـك التقلبـات التـي تعصـف بـك، فإنـما دهشـتك دليـل غفلتـك عـن سـنن الله في عبـاده، ومـا الألم إلا جـرس تنبيـهٍ يُوقظـك مـن غفلـة الركـون إلى مـا لا يـدوم، فـإن أُغلقـت في وجهـك الأبـواب، وضاقـت عليـك سُـبل الأرض بأسـبابها، فاعلـم أن الله أراد أن يُريـك

كيـف تتسـع السـماء إذا ضاقـت بـك الدنيـا، الاتـكال عـلى الخلـق سراب، يوهمـك بالثبات، يُهيّئـك للسـقوط، هـو عـكاز مـن قـش، يتهشـم تحـت وطـأة الحاجـة، ويـتركك في اللحظـة الحرجـة دون سـند، أمـا الاتـكال عـلى الله، فهـو اسـتناد إلى قـوة لا تنفـد، ويقـين لا يُخـذل.

بلطفـه الخفـي، يرعـى الله عبـاده بفضـل لا يُـرى إلا بعيـون الرضـا، يسـير بهـم في دروب لا يعلمـون نهايتهـا، لكنـه يُمهّدهـا لهـم بالحكمـة والرحمـة، يَسـوق إليهـم الخـير مغلفًـا بالابتـلاء أحيانًـا، ويمنـع عنهـم مـا يحبّـون لأنـه يعلـم مـا لا يعلمـون، وقـد يُظهـر لـك العطايـا في صـورة المنـع، ويؤخـر لـك الأمنيـات حتـى تُثمـر في وقتهـا، لا قبـل ذلـك ولا بعـده، لأن الله لا يختـار لـك إلا مـا هـو خـير، ولا يقـدّر لـك إلا مـا ينقـذك منـك، ويقـودك إليـه.

نعـم يظـن النـاس أن القـوة تـأتي مـن العلاقـات، أو مـن المـال والنفـوذ، لكـن هـذه الأشـياء ـ رغـم قوتهـا ـ كلهـا مؤقتـة وزائلـة، فمَـن اعتمـد عـلى شـخص قـد يغيـب، ومَـن اسـتند إلى منصـب قـد يُسـلب منـه، ومَـن جعـل المـال ركيزتـه قـد يضيـع في لحظـة، أمـا مَـن جعـل اتـكاءه عـلى الله، فإنـه يقـف ثابتًـا مهـما عصفـت بـه الأيـام، لأن قلبـه مطمئـن بـأن هنـاك قـوة عليـا تدبـر أمـره، وترعـاه في ضعفـه وقوتـه.

فـلا تُثقِـل قلبـك بـما لا تقـدر عليـه، ولا تُنهـك روحـك بقلـق لا يُثمـر، فـإذا خُيّـل إليـك أن الطـرق جميعهـا قـد سُـدّت، فاعلـم أن الله يفتـح مـن أبـواب رحمتـه مـا لا يخطـر لـك في ظـنٍّ ولا حلـم، وتلـك الأحـلام التـي تراهـا معلّقـة في الأفـق، بعيـدة المنـال، لا تُحمّلهـا قلبـك وحـده، بـل ابعـث بهـا في سـجدةٍ خاشـعة، وأودِعهـا بـين يـدي مَـن لا يضيـع ودائعـه، فإنـه أعلـم بهـا منـك، وأرأف بـك مـن نفسـك.

فهـل يكـون التـوكل حقًـا إذا لم يكـن يقينًـا بـأن التدبـير البـشري ناقـص، وأن الكـمال في مـا يختـاره الله؟

وهـل يصـح أن نقـول «توكلنـا عـلى الله»، ونحـن مـا زلنـا نرجّـح مـا تهـواه نفوسـنا عـلى مـا قضـاه لنـا؟

عندما يكون الصفح انتصارًا للنفس

ذهـب الصحـابي «عبـد الله بـن مسـعود» إلى السـوق يشـتري طعامًـا فبحـث عـن مالـه الـذي كان في عمامتـه فوجدهـا قـد حُلّـت وسُرق مالـه، فقـال: « لقـد جلسـت وإنهـا لمعـي» فجعـل أصحابـه يدعـون عـلى مَـن أخذهـا ويقولـون: اللهـم اقطـع يـد مَـن سرقهـا ، فقـال عبـد الله: «اللهـم إن كان حملـه عـلى أخذهـا حاجـة فبـارك لـه فيهـا، وإن كان حَمَلَتْهُ جَـرَاءَةٌ عـلى الذنـب فاجعلهـا آخـر ذنوبـه».

موقـف عابـر يظهـر الفـارق بـين عقليـة الانتقـام وعقليـة الإصـلاح، فبينـما كان مَـن حولـه يدعـون عـلى السـارق بالعقوبـة، توقـف ابـن مسـعود عنـد أصـل الفعـل ودوافعـه، فلـم يـرَ في السرقـة مجـرد جـرم يسـتحق العقـاب، بـل حـاول أن يفهـم الدافـع وراءهـا، فكـم مـن مـرة واجهنـا أفعـالًا جارحـة مـن الآخريـن، فسـارعت ألسـنتنا بالدعـاء عليهـم أو التذمـر مـن ظلمهـم؟ لكـن ابـن مسـعود – بعـين الإيـمان والفهـم العميـق – رأى أن الحـل ليـس بالـضرورة في العقوبـة، بـل إن إصـلاح النفـس وردعهـا عـن التكـرار قـد يكـون أعظـم أثـرًا، لذلـك دعـا للسـارق إن كان محتاجًـا بـأن يبـارك الله لـه في مـا أخـذ؛ حتـى لا يضطـر للسرقـة مـرة أخـرى، وإن كان سـارقًا بدافـع الجـراءة والاسـتهتار، سـأل الله أن يجعـل هـذا الذنـب آخـر مـا يقترفـه، وكأنـه يدعـو لـه بالتوبـة بـدلًا مـن الدمـار.

وهـذا الموقـف يعلمنـا كيـف نـوازن بـين الرحمـة والعدالـة، فـلا ننظـر للذنـوب بمعـزل عـن أسـبابها، ولا نقسـو في أحكامنـا دون أن نضـع أنفسـنا – ولـو للحظـة – في موضـع مَـن زلّـت قدمـه، قـد يكـون الخطـأ نفسـه متشـابهًا، لكـن دوافعـه تختلـف، وهنـاك فـرق كبـير بـين مَـن أذنبتـه الحاجـة ومَـن أغـواه التمـرد والطيـش، فقوتـك الحقيقيـة ليسـت في قدرتـك عـلى الـرد أو الانتقـام، بـل فيـما يعجـز عنـه الكثـيرون: أن تعطـي وأنـت محتـاج، أن تعفـو وأنـت قـادر، وأن تصفـح دون أن تنتظـر اعتـذارًا، والصفـح هنـا ليـس إنـكارًا لـلألم أو ادعـاءً بـأن الجـرح لم يـترك أثـرًا، بـل هـو إدراك بأنـك لم تعـد أسـيرًا لمـا أذاك، وأنـك لم تعـد تمنـح المـاضي سـلطة عـلى حـاضرك .

إذا كانـت المعاقبـة تجسـيدًا للعـدل، فـإن العفـو هـو ذروة الفضـل، وهـو اختيـار لا يصـدر إلا عـن نفـس كبـيرة أدركـت أن التسـامح ليـس ضعفًـا، بـل رِفعـة، فنحـن لا نصفـح لأن

مَـن أخطـأ يسـتحق الصفـح، فقـد يكـون أبعـد مـا يكـون عـن ذلـك، وإنـما نصفـح لأننـا نسـتحق حيـاة هادئـة، خاليـة مـن ثقـل الأحقـاد التـي تسـتنزف الـروح وتـأسر الفكـر، فالقلـب السـليم لا يعنـي أنـه لم يُجـرح، بـل يعنـي أنـه اختـار ألا يحمـل النـدوب قيـودًا، وألا يسـمح للغضـب بـأن يفسـد أيامـه، فالحيـاة أقـصر مـن أن نقضيهـا أسرى للضغائـن، وأجمـل مـن أن نسـمح للذكريـات المؤلمـة بـأن تعكـر صباحاتنـا، أو أن تـسرق مـن ليالينـا لحظـات السـلام.

نصفـح لا لأن الخطـأ كان هيِّنًـا، ولا لأن الوجـع الـذي تركـه داخلنـا تافـه يُنسـى، بـل لأننـا أدركنـا أن حمـل الأذى أثقـل مـن احتـمال العفـو، وأن القلـب الممتلـئ بالغـلّ لا يتسـع للسـكينة، نصفـح لأننـا نختـار السـلام عـلى الانتقـام، نختـار أن نُـداوي أنفسـنا بـدل أن نُقـاسي مـرارة الترقّـب لمـن يؤذينـا أن يتـألّم، فالصفـح لا يعنـي النسـيان، لكنـه يعنـي أن نحسـن لأنفسـنا أولاً، أن نتجـاوز مـا لا يمكـن تغيـيره، وأن نـترك خلفنـا مـا لا يليـق أن يُرافـق هـدوءَ أرواحنـا في الطريـق.

إن الصفـح ليـس ضعفًـا ولا تنـازلًا عـمّا نؤمـن بـه، بـل إعـلان عـن رغبتنـا في الحيـاة لا في الانتقـام، في الطمأنينـة لا في الانتصـار الزائـف، في البدايـات الجديـدة لا في اجـترار الجـراح.

اختر أن تكون لا أن تُستنسَخ

ثمة بَونٌ شاسع بين مَن يعيش ليَعجِب، وبين من يعيش ليصدُق، فالأول يُرهق روحه ليرضي الجميع، والثاني يَرضى عن نفسه حتى لو خالفهم جميعًا، فالأصالة لا تُدرّس، ولا تُمنح،بل تُولد حين تقول لنفسك: «لستُ مرآة لأحد، أنا وجه كامل لا انعكاس» فالسهولة أن تُقلّد، أن تُساير، أن تلبس ما لا يشبهك لتنل ما لا تستحق، لكن العُمق كل العُمق أن تنحت طريقك بصوتك، وأسلوبك، وهويّتك، وهواياتك، وأفكارك، أن تَقبل بأن تكون مختلفًا، وحيدًا أحيانًا، ولكن صادقًا في وحدتك.

قال الإمام مالك في القرن الثاني الهجري: «ما في زماننا شيءٌ أقل من الإنصاف» ثم يعقب القرطبي في القرن السادس الهجري على كلام مالك -: «هذا في زمن مالكٍ، فكيف في زمانِنا اليوم الذي عمَّ فيه الفساد، وكثُر فيه الطغاة، وطُلِب فيه العلم للرياسة لا للدراية، بل للظهور في الدنيا، وغلَبةِ الأقران بالمِراء والجدال الذي يقسِّي القلب، ويُورث الضغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وتركِ الخوف من الله تعالى».[1]

تُرى ماذا يمكن أن نقول نحن بعد اثني عشر قرنًا من مقولة مالك، وتسعة قرون من مقولة القرطبي؟!

إذا كان الإمام مالك قبل أكثر من اثني عشر قرنًا قد شكا من قلة الإنصاف، والقرطبي بعده بأربعة قرون قد رأى أن الحال ازداد سوءًا حتى صار العلم يُطلب للرياسة لا للمعرفة، وللجدال لا للتقوى، فماذا عسانا نقول نحن اليوم وقد تداخلت المصالح، واستُبدل الحق بالباطل في كثير من المواقف، وغدا الإنصاف عملة نادرة لا يجدها المرء حتى في أقرب دوائر حياته؟

إننا نعيش زمنًا تسوده العجلة في الأحكام، والتعصب للآراء، والاستهانة بالعدل، فلا يُنصف الخصم، ولا يُعطى المحسن حقه، بل صار كثير من الناس يزن الأمور بميزان الهوى، فإن وافق رأيه رفعه، وإن خالفه تجاهله أو حطّ منه، فغابت الموضوعية، وحلّ مكانها التحيّز، وضاعت الحقوق في زحام التنافس والصراعات.

---

١ الجامع لأحكام القرآن (٢٨٦/١ - ٢٨٧)

الناس في كل زمان تتوارث الطباع، وفي كل العصور يتجلى الصراع الأبدي بين الحق والباطل، بين الصدق والكذب، بين النزاهة والخداع، وبين النقاء والتلون، فليست العلة في الزمن، ولا في الأيام التي تتغير، وإنما في النفوس التي تختار مواقعها، ففي تعاملك مع البشر، ستواجه كثير من السلوكيات المذمومة، سترى الكذب في أبهى حلله، والخيانة مغطاة برداء الأمانة، والنفاق وقد لبس ثوب الصدق، والرياء متنكّرًا في هيئة الإخلاص، ومع تكرار التجارب، قد تسمع في داخلك صوتًا خافتًا يقول لك: «تغيّر، تكيّف، تعلّم التصنُّع لتساير الواقع وتحمي نفسك من أذى الآخرين» في البداية، قد يبدو لك الأمر منطقياً، كأنه درع يحميك من الخذلان، لكن الحقيقة أنه سيف يجرحك أنت أولًا، لأنه يُحوّلك إلى شيء لا يشبهك، يطمس ملامح ذاتك، ويجردك من انسانيتك، فتتحول من شخص يسعى للنجاة بنفسه إلى شخص يُثقلها بما أراد الهروب منه.

فمَن جارى الكاذب أصبح كاذبًا، ومَن نافق المنافق صار مثله، ومَن بالغ في الرياء أصبح أسوأ ممن أراد مجاراتهم، وهكذا يجد الإنسان نفسه قد تخلى عن كل ما كان يميزه، ليصبح صورة مشوهة مما كان يهرب منه، جمع بداخله ما تفرق فيهم، وحينها، لا يعود يعرف مَن هو، ولا إلى أين يسير، يُصبح مرآة للآخرين، لا ذاتًا مستقلة، وما أقسى أن يضيع الإنسان بين الوجوه التي تقمَّصها، فلا يبقى له وجه يُقابل به نفسه.

بين التلون والثبات، مسافة تحددها قيمك، لا ظروفك، فالتلون سهل؛ أن تتبدل حسب المواقف، أن تُجامل على حساب مبادئك، أن تُظهر ما ليس فيك لتُرضي الجميع، لكن الثبات أصعب؛ أن تختار وجهك الحقيقي في كل مرة، أن تكون صادقًا مع نفسك قبل الآخرين، أن تقف حيث يجب، لا حيث يُصفق لك الناس، ففي عالم سريع التغير، قد يُغريك التلون، وقد يوهمك أنه ذكاء اجتماعي، لكن الحقيقة أن الإنسان لا يُبنى من الخارج، بل مما يحمله في داخله من ثبات، من قيم لا تهتز، ومن رؤية يعرف بها مَن هو، وماذا يريد أن يكون.

فوق الانتصار علوٌّ آخر

ليس النصر أن تُسقط خصمك، بل أن تظلّ نبيلاً بعد أن تسقطه، فالضربات لا تصنع مجدًا، ما لم يُمسكها عقل راجح، وقلب يعرف كيف يغلّب الحُلم على الغلبة، إن العلوّ الذي يأتي بعد الانتصار لا يُقاس بكم من خصوم هُزموا، بل كم من نفسٍ تمردت على لذّة الانتقام واختارت الصفح وهي تقدر، ذلك النُبل الذي ارتقاه النبي ﷺ حين دخل مكة منتصرًا، فلم يغرس راية شماتة، بل نشر ظلال الرحمة، وقال لمن آذوه: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» [1]

وهذا «سلمة بن الأكوع»، صحابي عُرف بسرعته الفائقة في الجري، حين أغار بعض اللصوص على أطراف المدينة، لم يتردد في مطاردتهم راكضًا خلفهم وحده، حتى أنهكهم جريًا وأجبرهم على إلقاء ما سلبوه، وعندما لحق به النبي ﷺ ومعه بعض الصحابة، كان حماس سلمة ما زال مشتعلًا، فتقدم إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يبعث معه بعض الرجال ليكمل مطاردته التي بدأها وحده، لكن النبي ﷺ بحكمته المعهودة، أراد أن يرسّخ في نفسه مبدأ العفو، فقال له: «يا ابنَ الأكوعِ ملَكْتَ فأسجِحْ» [2] أي: قد غلبت خصمك واستعدت حقك، فلتكن الآن متسامحًا ولينًا. إذا ملكت زمام الأمر فاجعل العفو نهجك، فإن كان العدل يقتضي المعاقبة، فإن العفو بعد القدرة قمة الفضل.

كم من موقف انتهى بالصلح لأن أحدهم اختار العفو! وكم من صراعات خمدت حين قدَّم أحد الأطراف الحكمة على الانتقام! والتاريخ شاهد على أولئك الذين عفوا فملكوا القلوب قبل أن يملكوا القوة، وسادوا بحلمهم قبل أن يسودوا بسيوفهم ، فإذا ما أدركت مبتغاك فلا تترك نفسك لهواها في رغبة التشفي والانتقام، فقد تأتي عليك أيام ترجو فيها ذاك العفو فلا تدركه، وتأمل ذاك الصفح فتفتقده، فإنما هي أيام يداولها ربنا بين الناس، في لحظة الانتصار، لا تختبر خصمك، بل تختبر نفسك: هل أنت كبير بالسلطة فقط، أم كبير بالنفس أيضًا؟ فإن «ملكت فاسجح» ليست مجرد عبارة، بل مبدأ.

١ سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٢)
٢ صحيح ابن حبان ٤٥٢٩

أحسن فيما لا يعتاده كل البشر

دخـل مَسْـلَمة بـن عبـد الملـك عـلى عمـر بـن عبـد العزيـز مرتديًـا ريطـة [1] مـن ريـاط مـصر، فسـأله عمـر: بكـم اشـتريتها يـا أبـا سـعيد؟ فأجـاب مسـلمة: «بكـذا وكـذا» فسـأله عمـر: «لـو دفعـت فيهـا أقـل، هـل كان ذلـك لينقـص مـن مكانتـك؟ قـال: «لا» قـال عمـر: «ولـو زدت في ثمنهـا، هـل كان ذلـك ليزيـد مـن شرفـك؟» قـال: «لا»

فقـال عمـر: «فاعلـم يـا مسـلمة أن أعظـم الاقتصـاد مـا كان بعـد الغنـى، وأفضـل العفـو مـا كان بعـد القـدرة، وأكمـل اللـين مـا كان بعـد الولايـة». [2]

هنـا يلفـت عمـر بـن عبـد العزيـز النظـر إلى جوهـر السـلوك الـذي يعلـو فـوق نـوازع النفـس البشريـة، يُشـير إلى مـا خالـف المألـوف مـن النـاس، فالاقتصـاد في النفقـة ـ مـع الغنـى ـ بغـير بخـل، والعفـو عـن الانتقـام بغـير عجـز، واللـين في المعاملـة مـع القـدرة عـلى الشـدة، وهـذا مما لا يحسـنه كل النـاس، فليـس الامتنـاع عـن الإسراف فضيلـة إذا كان عـن فقـر، ولا يُحمـد العفـو إذا كان صاحبـه عاجـزًا عـن الانتقـام، كـما لا يُعـد اللـين كـمالًا إذا جـاء مـن ضعـفٍ وانكسـار، بـل إن القيـم الحقيقيـة تظهـر عندمـا يكـون المـرء قـادرًا عـلى الاختيـار، فينتـصر عـلى رغباتـه، ويمسـك بزمـام نفسـه، فيكـون الاقتصـاد عـن غنـى زهـدًا، والعفـو عـن قـدرة سـماحةً، إنهـا معادلـة تضـع الإنسـان أمـام مسـؤوليته الأخلاقيـة، حيـث لا يكفـي أن يُظهـر الفضائـل حـين تفرضهـا عليـه الظـروف، بـل أن يتحـلى بهـا حـين يكـون لـه مطلـق الحريـة في نقيضهـا، فكـم مـن غنـيٍّ أسرف بحجـة السـعة، وكـم مـن قـويٍّ انتقـم بحجـة العـدل، وكـم مـن والٍ تجـبر بحجـة القـوة، أمـا العظمـة الحقيقيـة فهـي أن يمسـك الإنسـان زمـام نفسـه، لا أن تمسـكه أهـواؤه.

أحسـن فيـما لا يعتـاده كل البـشر، فالإحسـان الحقيقـي لا يكـون في المواقـف المتوقعـة فحسـب، بـل في اللحظـات التـي يغفـل فيهـا النـاس عـن الفضيلـة، فليـس مـن الـضروري أن تكـون أفعالـك معقـدة بـل يكفـي أن تكـون غـير معتـادة، كابتسـامة تُـضيء وجـه شـخص غـارق في همومـه، أو كلمـة رقيقـة تغـير مـزاج شـخص عـلى وشـك الانهيـار، أن

١ الريطة هي نوع من الثياب الرقيقة المصنوعة من القماش الفاخر، وغالبًا ما تكون من الكتان أو القطن الناعم، وكان يُستورد من مصر

٢ التذكرة الحمدونية ج٢ ص ٧٢

تكـون كريـمًا مـع مَـن يُحسـن إليـك أمـر مألـوف، لكـن أن تبـذل المعـروف لمـن لم تتوقـع منـه خـيرًا، فذلـك هـو الإحسـان الـذي يسـمو بصاحبـه.

تعتـذر وأنـت المخطـئ أمـر طبيعـي، لكـن أن تُبقـي عـلى ودٍ تريـد ألا تقطعـه فتتسـامح مـع مَـن أخطـأ بحقـك دون انتظـار اعتـذاره، فذلـك هـو العطـاء، أن تكـون لطيفًـا في وقـت الرخـاء سـهل، لكـن أن تحتفـظ بهدوئـك في لحظـات الغضـب، فذلـك سـمو لا يصلـه إلا القليـل، أن تسـاعد مَـن يسـتحق واجـب، لكـن أن تمـد يـدك لمـن ظلمـه النـاس أو تخـلى عنـه الجميـع، فذلـك إحسـان يرتقـي بـك، أن تحسـن إلى فقـير أمـر معتـاد، لكـن أن تحسـن إلى مـن أسـاء إليـك، فذلـك يسـمو بـك فـوق النزعـات البشريـة العاديـة، أن تكـون كريـمًا في السـعة أمـر يسـير، لكـن أن تعطـي وأنـت في أشـد حاجتـك، فذلـك اختبـار لإيمانـك بأن الخـير لا ينقـص بالعطـاء، بـل يزيـد ، وهـذا النـوع مـن الإحسـان هـو الـذي يـترك أثـرًا يـدوم أكثـر مـن أي لفتـة تقليديـة متوقعـة ، فاجعـل إحسـانك تفـرّدًا، لا مجـرد اسـتجابة للعـادات، إن العظمـة في الأفعـال التـي لا يتوقعهـا الآخـرون لكنهـا تبقـى في ذاكرتهـم للأبـد.

خلف ستار الخوف يُولد الضوء

الشـجاعة هـي اسـتمرارك في سـعيك نحـو مـا تقصـد مـن غايـات رغـم ضعفـك قـواك، رغـم حفـرك في الصخـر لتـدرك غايتـك، الشـجاعة أن تكـون الوحيـد الـذي يعلـم أنـك خائـف وأن هـذا آخـر جهـدك ونهايـة صـبرك، ورغـم ذلـك، لا تتراجـع، بـل تمـضي قدمًـا وكأنـك ممتلـئ بالقـوة، وكأن الخـوف لم يلامـس قلبـك، وكأنـك تـرى النـور في آخـر النفـق حتـى لـو لم يكـن مرئيًـا بعـد، الشـجاعة ليسـت في غيـاب الخـوف، بـل في القـدرة عـلى مواجهتـه، في كتـمان ارتجـاف قلبـك حتـى عـن نفسـك، في الوقـوف بثبـات حينـما يتوقـع الجميـع سـقوطك، إنهـا في أن تمـد يـدك إلى الحلـم الـذي يبـدو بعيـدًا، وتخطـو نحـوه ولـو بخطـوات مرتجفـة، لأنـك تؤمـن أن الثبـات، حتـى في اللحظـات التـي تظـن فيهـا أنـك لـن تتحمـل أكثـر، هـو مـا يصنـع الفـرق بـين مَـن يصـل ومَـن يتوقـف عنـد منتصـف الطريـق، أمـا الخـوف فهـو قيـدٌ شـفاف، لا يُـرى لكنـه يُحكـم قبضتـه عـلى القلـب والعقـل، يُضعـف العـزم، ويشـوّش البصـيرة، ويجعلنـا نعيـش بنصـف وجـود، ونحلـم بنصـف جنـاح، إننـا لا نخشـى الفشـل فقـط، بـل نخشـى التجربـة، نخشـى نظـرات الآخريـن، نخشـى أن نُخطـئ، أن نُخـذل، أن تُفضَـح هشاشـتنا، نمـضي في الحيـاة نحـاذر كل شيء، حتـى أنفسـنا، فنخـسر أجمـل مـا فيهـا: الشـجاعة.

لكـن حـين نتوقـف عـن الاسـتجداء العابـر للقبـول، ونتصالـح مـع احتـمالات السـقوط، يبـدأ شيء جديـد بالانبعـاث، حـين لا نعـد نرتجـف مـن فكـرة أن نُرفـض، أن نُخطـئ، أن نُخـذل، تتسـع مسـاحتنا للحيـاة، ونتذوقهـا كـما هـي، لا كـما رسـمها لنـا الخـوف، فمتعـة الحيـاة ليسـت في ضـمان النتائـج، بـل في جـرأة الخطـوة، في خفـة القلـب الـذي لم يعـد يحمـل أثقـال الـتردد، في الرضـا الـذي ينبـت حـين نُجـرّب بـلا وجـل، ونُحـب بـلا قيـد، ونعيـش بـلا أقنعـة، فعندمـا يمـوت الخـوف تبـدأ متعـة الحيـاة، نعـم لـن تصبـح أسـهل، لكنهـا تصبـح أصـدق، وأحـق بـأن تُعـاش، فنحـن لا نُختـبر في لحظـات الاطمئنـان، بـل في تلـك اللحظـات التـي يرتجـف فيهـا القلـب وتـتردد فيهـا الخطـى، حيـث لا شيء مؤكـد سـوى شـعورك بأنـك عـلى شـفا هاويـة، لكـن الحقيقـة أن أكثـر اللحظـات ظلمـةً، قـد تكـون أقربهـا إلى الفجـر، فكـم مـن بـابٍ ظننّـاه مغلقًـا للأبـد، فـإذا بـه يُفتـح عنـد أول لمسـة ثقـة! وكـم مـن حلـم خنقـه الـتردد، فلـما انطلـق صاحبـه رغـم خوفـه، نبتـت لـه أجنحـة .

قلوبٌ مشغولة بالغياب

عـبّر عـالم النفس وليـم جيمس عـن حقيقـة النفس البشريـة بقولـه: «نحـن نُكثـر التفكـير فيـما نفتقـده، ونتجاهـل الشـكر عـلى مـا نملـك، نركـز عـلى الجوانـب السـوداء المظلمـة في حياتنـا، ونغفـل عـن النـور المتألـق، نتـألم عـلى نقصاننـا، ونتغافـل عـن فرحـة مـا نمتلـك».

ولعـل كلماتـه تُـضيء جانبًـا دقيقًـا مـن طبيعتنـا الإنسـانية، تلـك التـي تندفـع بفطرتهـا نحـو التذمـر، وتُغفـل النِعَـم المألوفـة التـي مـا عـادت تُدهشـنا، فنحـن ربـما دون أن نشـعر نُرهـق أرواحنـا بالتفكـير في مـا لم نحصـل عليـه، ونتعامـى عـن النِعـم التـي نغـرق فيهـا كل يـوم، حتـى صرنـا لا نـرى النـور إلا حـين ينطفـئ، ولا نـدرك السـعادة إلا حـين تفلـت مـن بـين أيدينـا، وهـذه الحـال مـن الغفلـة ليسـت وليـدة العـصر، بـل هـي امتـداد لما عرفـه الإنسـان في تقلبـه بـين الطمـع والرضـا، بـين الحنـين إلى مـا ليـس في يديـه وبـين الجحـود لما يمتلكـه، والنتيجـة أن القلـوب تصـاب بالتشـويش، والعـين لا تعـود تبـصر إلا مواضـع النقـص، والعقـل ينشـغل برسـم مشـاهد مفقـودة، بينـما تتـسرب النِعَـم مـن حولـه في صمـت، فالـذي يعلّـق سـعادته عـلى مـا ينتظـر، لـن يسـعد أبـدًا، لأنـه كلـما نـال شـيئًا تطلّـع إلى غـيره، كمَـن يـشرب مـن مـاء البحـر فـلا يـروى، فيبقـى أبـدًا ظامئًـا، يتتبـع السـراب ظنًـا أنـه حيـاة.

ورد في الأثـر عـن آدم حـين تأمـل في ذريتـه مـن الغنـي والفقـير، وحَسَـن الهيئـة ودون ذلـك، قـال: «ربّ لـولا سـويت بينهـم؟» فـكان جـواب الله تعـالى: «إني أُحـب أن أُشـكَر» [1]

فالتفـاوت في الأرزاق، وتبايـن الخلـق في الصـور والهيئـات والظـروف، لم يكـن عبثًـا، بـل لحكمـة أرادهـا الله، وسُـنّة ماضيـة في تدبـيره، عنوانهـا الابتـلاء بالشـكر والصـبر، والتمييـز بـين مَـن يـرضى بحكمـه، ومَـن يعـترض عليـه بجهلـه، وكأن المعنـى أن اختـلاف أحـوال العبـاد يُثمـر تنوعًـا في مواطـن الشـكر، فالغنـي يُبتـلى بالشـكر عـلى النعمـة، والفقـير يُبتـلى بالصـبر عليـه، والمبتـلى في جسـده يُمتحـن في رضـاه، وصاحـب النعمـة يُراقَـب في كرمـه وتواضعـه، ولـو تسـاوى الخلـق في كل شيء، لانعدمـت تلـك اللحظـات التـي يُرفـع فيهـا الشـاكرون إلى أعـلى الدرجـات.

---

١ تفسير البغوي لسورة الاعراف آية ١٧٢

لكننا نغفل أو نتغافل عن هذه السنن فلا ندرك قيمة الأشياء إلا حين نفقدها، فالصحة لا تُثمّن حق ثمنها إلا بعد المرض، والعافية يُفهم معناها بعد البلاء، ولو جعل الله الناس متساوين في النعم، لما عرفوا قيمتها، ولهذا فرَّق الله بين الناس بتفاوتٍ في الأرزاق والأحوال، ليتذكّر كل مَن أنعم الله عليه، فيكون شاكراً لا جاحداً.

والذي يحدث أننا في دوامة الحياة السريعة نُضيّع أنفسنا في غدٍ لم يأت بعد، وننسج في خيالنا ألف حكاية عن يومٍ لم يولد، فننسى أو نتناسى اليوم الذي نعيشه ، نغرق في سعي لا ينقطع وراء فراغ ندعوه نقصًا، نحاول تزيينه بأوهام وأحلام زائلة، ونتوه في مطاردة الوصول والتملك، حتى نغفل عن اللحظات التي تحتضننا الآن.

نركض، كأنما النقص ظلّنا، لا تفارقنا رغبة في ما لم نحصل عليه، نُطيل التحديق في ما ينقص، ونُغمض أعيننا عن ما بين أيدينا من نِعَم، نُحصي ما فات وننسى ما ثبت، كأن الوفرة لا تُرى إلا حين تُفقد، وكأن الاكتمال لا يُعترف به إلا إذا اختل، نعيش على حافة التمنّي، ونغفل عن امتلاء اللحظة بما يكفينا ويزيد، لو أننا فقط تأملناه بعين الرضا لا بعين النقص.

فكم من نعمةٍ بين أيدينا لم نرها لأن القلب معلَّق بما ليس له! وكم من راحةٍ أُهملت لأن العقل مشغول بما قد يأتي أو لا يأتي! نحن لا نفتقر إلى الخير، بل إلى عين تبصره، وقلب يعيه، ونفس تقنع به دون أن تُطفئ سعيها، دون أن تُسلمه للنقصان المستمر، ففي كثير من الأحيان، يكون السعي وراء المزيد هو ما يحرمنا طمأنينة الكفاية، وما أكثر مَن عاشوا ممتلئين بالخير لكنهم استنزفوا أرواحهم في مقارنات عابرة ونظرات ممدودة إلى ما في أيدي الآخرين.

السعادة لا تُولد من وفرة الخارج، بل من اكتشاف الداخل، من سلامٍ مع ما قُسم لك، لا انكسارٍ أمام ما لم يُكتب لك، فانظر إلى ما بين يديك، ففيه ما يُغنيك إن عرفت كيف تراه، وفيه ما يزرع داخلك الشكر إن ارتضيت أن تعيش اللحظة لا الخيال، وتنتبه للنِعَم لا للفجوات.

الزهد عن التعلّق، لا عن التملّك

في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال: «لا بـأس بالغنـى لمـن اتقـى الله عـز وجـل، والصحـة لمـن اتقـى خـير مـن الغنـى، وطيـب النفـس مـن النعيـم»[1] وقـال لسـعد بـن أبي وقـاص « أن تـدع ورثتـك أغنيـاء خـير مـن أن تذرهـم عالـة يتكففـون النـاس» [2]

ليـس الزهـد أن ترفـض المـال أو تُعـادي النعمـة، ولا أن تُظهـر الفقـر جلبًـا للثنـاء أو تظاهرًا بالـورع، بـل أن تملـك الـشيء بيـدك، ويبقـى قلبـك خاليًـا مـن عبوديتـه، أن يكـون الـرزق بـين يديـك، دون أن يطغـى عـلى بصيرتـك، أو يزاحـم فيـك مقـام الله، الزاهـد ليـس الـذي يفـرّ مـن الدنيـا فـرار الضعيـف، بـل الـذي يطأهـا بثبـات، ويعـرف أنهـا وسـيلة لا غايـة، جـسر لا مسـتقر.

إنّ سـليمان عليه السلام كان ملـكًا، آتـاه الله مـن المـال والملـك مـا لم يؤتـه أحـدًا مـن بعـده، ومـع ذلـك كان زاهـدًا، كانـت الدنيـا أداةً في يـده يطوعهـا لخدمـة دينـه أمـا قلبـه فلـم يتعلـق بـشيء منهـا، كان يعلـم أن المنعـم هـو الله، وأن المـال لا يرفعـه ولا يخفضـه، وإنـما يختـبره، فالغنـى في ذاتـه ليـس مذمومًـا، فقـد كان بـين الصحابـة والتابعـين مَـن جمعـوا بـين الغنـى والزهـد، فأموالهـم كانـت كثـيرة، لكـن قلوبهـم لم تُعلَّـق بهـا، بـل كانـوا يرونهـا وسـيلة لاختبـار العطـاء، وأداة لصنـع المعـروف، لا سـببًا للغـرور والـترف المُفـرط، فالذيـن قـام الديـن عـلى أيديهـم كان أغلبهـم أغنيـاء وكان مالهـم وسـيلة لخدمـة الديـن، لنجـد عثـمان بـن عفـان يُجهـز جيـش العُـسرة فيقـول لـه النبـي ﷺ بعدهـا «مـا ضرَّ عثـمان مـا عمـل بعـد اليـوم»[3] قالهـا لـه بعـد إنفاقـه مـن مالـه يومهـا.

وهـذا الفهـم لحقيقـة الزهـد عـبر عنـه سـفيان الثـوري فقـال: «لأن أخلُـف عـشرة آلاف درهـم أحاسـب عليهـا، أحـب إلي مـن أن أحتـاج إلى النـاس» أي أن أمتلك المـال ويتوارثونه بعـدي خـير مـن أن أزهـد فيـه فـلا أملكـه وتـدور دائـرة الزمـان وأحتـاج إليـه فـلا أجـده.

---

١ رواه أحمد ٥٢٩٠

٢ البخاري ٥٦٦٨ ومسلم ١٦٢٨

٣ أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، وأحمد (٢٠٦٣٠)، والحاكم (٤٥٥٣)

قلب لا يعرف الضغينة

سُئل النبي ﷺ عـن أي النـاس أفضـل ؟ فقـال: «كلُّ مخمـوم القلـبِ ، صـدوق اللِّسـانِ ، قالـوا ، صـدوقُ اللِّسـانِ نعرِفُـه فـما مخمـومُ القلـبِ ؟ قـال: « التَّقـيُّ النَّقـيُّ ، لا إثـمَ فيـه، ولا بغْـيَ، ولا غِـلَّ ، ولا حسَـدَ. [1]

مخمـوم القلـب، أي: سـليم القلـب الـذي خَلُـص مـن كل مـا يُعكـر صفـوه مـن أحقـاد دفينـة أو نوايـا خبيثـة أو شـهوة انتقـام، وأصـل الكلمـة مأخـوذ مـن «تخميـم البيـت» أي كنسـه، وكأنـما يُـراد مـن المـرء أن يكنـس قلبـه مـن الأذى كـما يكنـس بيتـه مـن الغبـار، لأن القلـوب أوطـان الأرواح، ومتـى طـال مكـث الحقـد فيهـا، صـارت كالغـرف المظلمـة التـي لا تدخلهـا شـمس، وكـما أن تطهـير البيـوت مـن الأوسـاخ ممكـن فتطهـير القلـوب مـن الدنـس ممكـن كذلـك.

وتنقيـة القلـوب مـن شـوائبها ممكنـة، لكنهـا ليسـت طريقًـا معبّـدًا بالـورود، ولا تُنجـز بضغطـة زر؛ إنهـا رحلـة شـاقة تشـبه فـرز غرفـة امتـلأت بتفاصيـل الأمـس، حيـث تختلـط الذكريـات الجميلـة بمواقـف موجعـة، وكل زاويـة فيهـا تحتـاج إلى تأمـل وصـبر، فالقلـب ليـس صندوقًـا نُغلقـه عـلى مـا يؤلمنـا، بـل هـو وعـاء تتشـكل فيـه ملامحنـا النفسـية والروحيـة، وإن ثقـل بحمـلٍ قديـم فـلا بـد مـن تفريغـه.

والقلـب المخمـوم لا يعنـي أنـه لم يُـؤذَ، بـل ربـما كان أكثـر القلـوب تعرضًـا للجـراح، لكنـه آمـن بـأن الكراهيـة لا تُشـفى بالكراهيـة، وأن ردّ الإسـاءة بالإسـاءة لا يرفـع مـن شـأن أحـد، فصـار لا يبـادل السـوء بالسـوء، ولا يحمـل في جنباتـه إلا سـلامًا يليـق بمَـن أدرك أن الطمأنينـة لا تثمـر في أرض خبيثـة، ولأنّـه أدرك ذلـك، لم يعـد يُراكـم الغضـب في زوايـا صـدره، بـل صـار يُنقيـه كـما يُنقَّـى المـاء مـن شـوائبه، لا لأنـه ضعيـف أو لا يعـرف الـرد، بـل لأنـه اختـار ألا يُدنّـس قلبـه بمعـارك لا تزيـده إلا إرهاقًـا، إنـه قلـب لا يعيـش بـلا ألم، لكنـه لا يجعـل مـن الألم مـأوى دائـمًا، ولا مـن الجـراح أعلامًـا يرفعهـا كلـما التقـى النـاس، بـل يمـضي في طريقـه خفيفًـا، لأنـه غفـر، لا لأن الآخريـن يسـتحقون الغفـران، بـل لأن سـلامه الداخـلي أثمـن مـن أن يُعلّقـه عـلى تقلباتهـم.

١ السلسلة الصحيحة للألباني (٩٤٨) صحيح ابن ماجة (٣٤١٦)

تصرّف بعفوية العقل، لا بتصنّع الرضا

ليـس علينـا أن نكـون مثاليـين حتـى نسـتحق الفـرح، ولا أن نخفـي نقائصنـا لنحظـى بالقبـول، فالحيـاة أثمـن مـن أن نهدرهـا في ارتـداء أقنعـة الكـمال، مُدّعـين السـيطرة المطلقـة عـلى رغباتنـا واختياراتنـا، يمكننـا أن نضحـك بصـدق، ونعيـش لحظاتنـا بعفويـة، دون أن نكبـت في داخلنـا مـا يجعلنـا بـشرًا بـكل تناقضاتنـا، فلـكل إنسـان طبيعـة خاصـة وعقليـة مختلفـة عـن باقـي البـشر، ولـكل إنسـان ميـزة تميـزه لكـن قليل مَـن يعلـم مـا يميـزه وأغلبنا يجهـل نقـاط قوتـه فيظـن نفسـه شـخصًا عاديًـا فـلا يجـد حرجًـا في تقديـم تنـازلات مـرة تلـو الأخـرى لاعتقـاده أنـه ليـس أهـلًا لمواجهـة المواقـف والإعـلان عـن نفسـه .

والإنسـان الـذي يتعامـل مـع المواقـف وفـق طبيعتـه الخاصـة يضفـي بصمـة خاصـة عـلى الأشـياء، لـذا تجـد أكثـر ردود أفعالـه تنطـوي عـلى حكمـة يمكـن لغـيره أن يتعلمهـا منـه، فنجـد أكثـر المبدعـين في أغلـب المجـالات يحملـون نكهـة خاصـة تجـذب النـاس إليهـم غالبًـا مـا نفسرهـا بالبسـاطة أو التلقائيـة في التعامـل، وكل مـا في الأمـر أن ردود أفعالهـم تحمـل طبيعتهـم بـلا تصنُّـعٍ أو تلـونٍ أو مداهنـةٍ، إنهـم لا يسـعون إلى ارتـداء أقنعـة تـرضي الآخريـن، ولا يتكلفـون في إظهـار مـا ليـس فيهـم، بـل يعـبّرون عـن أنفسـهم كـما هـم، بصـدق يجعـل حضورهـم مريحًـا وتأثيرهـم عميقًـا، إنهـم لا يحاولـون أن يكونـوا نسـخة من أحـد، ولا يشـغلهم إرضـاء الجميـع بقـدر مـا يشـغلهم أن يكونـوا صادقـين مـع ذواتهـم.

وهـذا الصـدق الفطـري يجعـل حضورهـم محببًـا وتأثيرهـم ممتـدًا، لأن النـاس تميـل إلى مَـن يعكـس إنسـانيته دون رتـوش، وتأنـس بمَـن يتعامل معهـم بعفويـة دون تصنـع ، فجاذبيتهم لا تـأتي مـن سـعيهم إلى لفـت الانتبـاه، بل مـن ارتياحهم لأنفسـهم، وهـذا ما يجعـل الآخرين ينجذبـون إليهـم دون أن يشـعروا، وكأن حضورهـم يضفـي عـلى المـكان حيـاة أكثـر طبيعيـة ودفئًـا ، تجـد كلماتهـم تصـل القلـوب قبـل العقـول، وأفعالهـم تـترك أثـرًا لا يحتـاج إلى تبريـر أو تفسـير، لأنهـم ببسـاطة، يعـبرون عـن أنفسـهم كـما هـم، في عـالم يميـل فيـه كثـيرون إلى التلـون والمبالغـة، فالقبـول الحقيقـي لا يُبنـى عـلى التظاهـر، بـل عـلى الصـدق في التعبـير.

كل ارتجافٍ له سكون يستدعيه

في الحديث أن النبي ﷺ قال : «إِنَّ لِكُلِّ عملٍ شِرَّةً ، ولِكُلِّ شِرَّةٍ فترة» [١]

الـشِرَّة: تعنـي الحـماس الشـديد والاجتهـاد والطاقـة العاليـة التـي تدفـع الإنسـان للقيـام بعمـل معـين بقـوة وحيويـة.

والفَـتْرَة: تعنـي الهـدوء والخمـول الـذي يـلي تلـك الـشِرَّة، وهـو التراجـع الطبيعـي في النشـاط الـذي يحـدث بعـد مرحلـة الاندفـاع.

فـكل عمـل يقـوم بـه الإنسـان – سـواء كان عبـادةً أو علـماً أو سـعيًا دنيويًـا – يمـرّ بمرحلتـين:

مرحلـة الحـماس والاندفـاع (الـشِرَّة) : أي نشـاطٌ وشـدةٌ وحـرصٌ في أولـه وهـي البدايـة القويـة التـي يشـعر فيهـا الإنسـان بالحيويـة والنشـاط الكبـير لإنجـاز العمـل.

مرحلـة الفتـور والركـود (الفَـتْرَة): أي: ضعـف وسـكون في آخـره وهـي فـترة التراجـع أو انخفـاض الحـماس التـي تـأتي بعـد فـترة الاجتهـاد القـوي .

وكل الأمـور خاضعـة لتقلبـات النفـس بـين نشـاط وفتـور، فالعمـل والعبـادة والاجتهـاد والعلاقـات والمشـاعر بـل وحتـى العبـادات كلهـا خاضعـة للنشـاط والخمـول ، تأخذنـا الحماسـة ويقودنـا النشـاط ثـم تأتينـا تقلبـات النفـس فتضعـف العزيمـة ويقـل الحـرص.

ففـي العلاقـات الإنسـانية، المـودة الصادقـة لا تمحوهـا عاصفـةٌ مؤقتـة، والخلافـات مهـما بلغـت حدّتهـا، فإنهـا تهـدأ مـع الوقـت، لتعـود النفـوس إلى طبيعتهـا، وفي حيـاة الإنسـان، بعـد مشـقة السـعي يـأتي وقـت الراحـة، وبعـد الضغـط والتوتـر يحـلّ السـكون، فحتـى أكثـر القلـوب قلقًـا وانشـغالًا، تجـد في النهايـة لحظـة اسـتقرار تهـدأ فيهـا وتطمئـن، وفي المشـاعر والعواطـف نجدهـا حـاضرة قويـة ، فالأحـزان العميقـة مهـما طـال أمدهـا، تصـل النفـس في النهايـة إلى لحظـة تقبّـلٍ تهـدأ عندهـا الآلام، والحـب الجـارف يبـدأ عاصفًـا متدفقًـا، لكنـه مـع الوقـت يسـتقرّ ويتحـول إلى مشـاعر أعمـق وأهـدأ.

١ سنن الترمذي (٢٤٥٣) وصححه ، شِرَّةً: أي ضعف وخمول.

بـل إن الطبيعـة نفسـها تترجـم هـذه الحقيقـة بوضـوح، فالعواصـف العنيفـة لا تـدوم، وبعد أن تـضرب الريـاح بقـوةٍ وتهتـز الأشـجار، يعـود كل شيءٍ إلى هدوئـه، والبحـر الـذي هـاج وارتفـع موجـه، لا بـد أن يسـتكين في النهايـة، وكأن الطبيعـة نفسـها تلقّننـا درسًـا لا يتغـير أن السـكون مصـير كل خافقـة أيـا كانـت .

فليـس في الحيـاة ثبـات دائـم، ولا في الإنسـان طاقـة لا تنضـب، تـأتي أيـام تشـعر فيهـا بالحـماس يملـؤك، فتنجـز وتبـدع كأنـك تسـابق الزمـن، ثـم تـأتي أيـام أخـرى يخبـو فيهـا ذلـك الوهـج، فتشـعر بثقـل الأشـياء التـي كنـت تؤديهـا بسـهولة، بـل تتعجـب مـن نفسـك كيـف كانـت تقـوم بـه والآن ثقيـل عليهـا حـد العجـز ، لـذا حـين تجـد في نفسـك عزيمـة لأمـر فيـه خـير فبـادر وخـذ منـه حظـك الأوفـر قبـل أن تميـل النفـس عنـه وتركـن لغـيره، حتـى في العمـل إن سـلكت واديًـا وجنيـت ثـماره لا تكابـر بتغيـيره بـل امـض فيـه حتـى يسـكن فـإن سـكن حولـت عنـه.

وهـذه التقلبـات طبيعيـة، فالنجـاح الحقيقـي ليـس في البقـاء في حالـة نشـاط دائـم، بـل في معرفـة كيـف تديـر حـالات الفتـور دون أن تفقـد مسـارك، لا تحكـم عـلى نفسـك في لحظـة فتـور، ولا تغـتر بحماسـك العابـر، خـذ اسـتراحة عندمـا تحتـاج، لكـن لا تستسـلم، خفـف الوطـأة عـلى نفسـك حـين تبطـئ خطواتـك، لكـن لا تتوقـف، المهـم ألا تجعـل لحظـات الفتـور تُثنيـك عـن أهدافـك، ولا تجعـل فـترات النشـاط تُنسـيك أن النفـس تحتـاج إلى الرحمـة كـما تحتـاج إلى الطمـوح ، وكل بـاب أقبلـت إليـه نفسـك وفيـه خـير فيـه أدرك مبتغـاك منـه، فتقلبـات النفـس آتيـة لامحالـة تنشـط وتخـور، والقلـوب بـين إقبـال وإدبـار .

لـكل خافقـةٍ سـكون، ولـكل روحٍ مهـما اضطربـت مرفـأٌ تلجـأ إليـه حـين تُنهكهـا الريـاح، فليسـت الحيـاة كلهـا ضجيجًـا ولا القلـب كلـه صخبًـا، إنـما تمـضي بنـا اللحظـات بـين نبـضٍ وهـدوء، بـين شـغفٍ وجمـوحٍ، وقـد لا نعـي قيمـة السـكون إلا حـين نُفـرط في الركـض، فنعـود منهكـين إلى أنفسـنا، فنكتشـف أن الطمأنينـة ليسـت في كثـرة السـعي بـل في وضـوح الوجهـة، وأن السـلام لا يُهـدى مـن الخـارج بـل يُولـد حـين نُصغـي للداخـل، فامنـح قلبـك فـتراتٍ يصغـي فيهـا لصمتـه، واتـرك لـه أن يتنفـس بـين الفـوضى، ففـي السـكون حيـاة لا يراهـا المسـتعجلون.

قِسمةٌ في القلوب لا في الجيوب

مـا كلّ الـرزق مـالٌ يُعـدّ، ولا كلّ النعـم تُحمـل في اليـد، هنـاك مَـن قُسـمت لـه سـعة الصـدر، ومَـن رُزق بـرودة الأعصـاب، وآخـر أوتي قلبًـا يحتمـل مـا تنـوء بـه الجبـال، إن تفـاوت البـشر لا يظهـر فقـط في أرزاقهـم الظاهـرة، بـل فيـما خفـي منهـا؛ في قـدرة أحدهـم عـلى التماسـك وقـت العاصفـة، وفي احتمالـه مـا لا يحتملـه غـيره دون أن يئـنّ أو يشـتكي، قـد تنظـر لأحدهـم فـلا تـرى إلا وجهًـا صامتًـا، وتغيـب عنـك الحـروب التـي يخوضهـا في داخلـه، وكيـف نجـا منهـا دون أن يفقـد اتزانـه.

في الصـالات الرياضيـة، لطالمـا لفـت انتباهـي أولئـك الذيـن يبـدون مُجهديـن وهـم يرفعـون أوزانًـا خفيفـة، في مقابـل مَـن يتعاملـون بسـهولة مـع أثقـال كبـيرة؛ لا لأن الأول أضعـف، بـل لأن قـدرات النـاس متفاوتـة، ومـا يبـدو يسـيرًا لأحدهـم قـد يكـون بالـغ الصعوبـة لغـيره، هـذا المشـهد يُشـبه تمامًـا واقـع الحيـاة: لـكل إنسـان قـدرة مختلفـة في التحمـل، في الصـبر، في مجابهـة التحديـات.

النـاس تتفـاوت في الأرزاق التـي منهـا قـوة التحمـل، تتفـاوت في إيمانهـا بالسـعي، تتفـاوت في درجـة ثباتهـا عـلى موقفهـا عنـد النـوازل، ولأن الأرزاق موزعـة بحكمـة إلهيـة، فمـن الخطـأ أن يقـارن الإنسـان نفسـه بغـيره دون أن يـدرك أن كل شـخص يحمـل في داخلـه نوعًـا مختلفًـا مـن القـوة، وربـما يكـون مـا يـراه في غـيره مـن قـدرة عـلى التحمـل هـو نعمـة تعـادل مـا لديـه مـن نعـم أخـرى.

فلـم يكـن الـرزق يومًـا محصـورًا في المـال وحـده، بـل يمتـد ليشـمل الصحـة، الـذكاء، العلاقـات، الفـرص، وحتـى قـوة التحمـل، فقـدرة الإنسـان عـلى تحمّـل الشـدائد رزق لا يقـل أهميـة عـن المـال، بـل قـد يكـون أعظـم منـه، لأن بعـض النـاس يملكـون المـال لكنهـم ينهـارون أمـام أقـل محنـة، بينـما آخـرون لا يملكـون الكثـير ماديًـا، لكـن لديهـم قلبًـا يتحمـل الأوجـاع ويتجاوزهـا دون أن تفـتر قـواه، فـلا تسـخر ممـن يُرهقـه مـا تـراه أمـرا بسـيطًا، ولا تسـتخف بطمـوح لا يشـبه طموحـك، فالبعـض يُجاهـد ليخطـو خطـوة يراهـا غـيره عاديـة، لكنهـا بالنسـبة لـه إنجـاز بحجـم جبـل، وإن أردت أن تكـون منصفًـا، فـوازن بـين الجهـد المبـذول لا النتيجـة الظاهـرة، وبـين الـصراع الداخـلي لا فقـط مـا يبـدو للعيـان.

قلبٌ لا يستجدي، وإن احتاج

حريـة الاكتفـاء أن تقـول «لا أحتـاج» وأنـت قـادر، لا لأنـك لا تملـك، بـل لأنـك لا ترغب في أن تُستعبد تحـت مسـمى الطمـوح أو الاسـتهلاك أو القبـول الاجتماعـي، هـو أن تتوقـف عـن اللهـاث خلـف مـا يُشـعرك بالنقص، وتبـدأ في الإنصـات لمـا يُشـعرك بالكفايـة، فالغنى في النفس لا يُقـاس بعـدد مـا نملـك، بـل بقلـة مـا نُـذلّ أنفسـنا مـن أجلـه، في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال « قـد أفلـح مَـن أسـلم، ورُزِقَ كِفافًـا، وَقَنَّعَـهُ الله بـما آتـاه» . [1]

قـد يتسـاوى النـاس في الـرزق الظاهـر، لكنهـم يتفاوتـون في مقـدار الطمأنينـة والشـعور بالكفايـة، فمنهـم مَـن يملـك القليـل وقلبـه ممتلـئ بالسـكينة، ومنهـم مَـن يملـك الكثـير ولا يـزال جائعًـا قلقًـا يتلفـت، فالسـؤال ليـس: مـاذا أملـك؟ بـل: هـل قنّعنـي الله بـما أملـك؟ فالقلـب الـذي قنّعـه الله، هـو قلـب سـكن مـن الداخـل، لا يضطربـه فقـر، ولا تُغريـه وفـرة، ولا يضـع سـعادته في يـد أحـد، تلـك القناعـة ليسـت شـيئًا يُكتسـب بالتدريـب أو بالموعظـة فقـط، بـل هـي أشـبه بالفيـض الإلهـي يقذفـه الله في قلـب مَـن أحـب، فـيرضى، ويطمئـن، ويسـتغني.

بعث الرشيد (الخليفة) إلى مالك بن أنس (إمام الحديث) ليأتيه فيحدثه.

فقال مالك: إن العلم يُؤتىَ، وأبى أن يذهب.

فذهب إليه الرشيد واستند معه إلى الجدار.

فقال مالك: يا أمير المؤمنين من إجلال الله إجلال العلم.

فقام الرشيد وجلس بين يديه.

وبعـث الرشـيد إلى سـفيان بـن عيينـة فأتـاه سـفيان وقعـد بـين يديـه وحدَّثـه، فقـال الرشـيد بعـد ذاك: يـا مالـك تواضعنـا لعلمـك فانتفعنـا بـه، وتواضـع لنـا علـم سـفيان فلـم ننتفـع به[2]

١ مسلم (١٠٥٤) - كفافًا: ما يكفي للحاجة دون زيادة أو نقصان
٢ التذكرة الحمدونية - ج ٢ ص ٩٤

في الحديـث أن النبـي ﷺ قـال: « ومَـن يَسْـتَغْنِ يُغْنِـهِ اللهُ» [1] الاسـتغناء أن يسـتغني الإنسـان عـما في أيـدي النـاس، يسـتغني بـما عنـده ولـو كان قليـلًا، فـلا يسـأل إلا لحاجـة مُلحـة أو أمـر طـارئ، وحـين يطلـب فلتكـن بعـزة نفـس، كـما قـال عـلي بـن أبي طالـب «اطلبـوا الحاجـات بعـزة الأنفـس، فـإن قضاءهـا بيـد الله» ولا يـزال المـرء عزيـزًا محفـوظ القـدر والمكانـة إذا كان في غنـى عـن النـاس، فالمسـألة مذلَّـة، ولا يُعـرف امـرؤ كثـير المسـألة إلا وتجـده هينًـا عـلى النـاس قليـلَ القـدر عندهـم.

والاسـتغناء هنـا ليـس استسـلامًا، ولا يعنـي الانعـزال أو الجفـاء، بـل هـو تـوازن بـين أن تكـون حـاضرًا مـع النـاس، لكـن غـير مرهـون بهـم، أن تحـب، لكـن دون تملّـك، أن تعطي، لكـن دون أن ترهـن نفسـك لـرد الجميـل، وحـين تسـتغني، سـتدرك أن القـوة ليسـت في كثـرة مـا تملـك، بـل في قلـة مـا تحتـاج، فمَـن ذاق طعـم الاسـتغناء عـن التعلـق الزائـد، عـاش غنيًـا حتـى لـو قلّـت مـوارده، ومَـن تعلّـق بـكل شيء حولـه، عـاش فقـيرًا وإن ملـك الدنيـا، فليسـت الحريـة أن تمتلـك كل مـا تشـتهي، بـل ألا تكـون عبـدًا لمـا تشـتهي، فحـين تكتفـي، لا يعنـي ذلـك أنـك ترفـض الخـير أو تتعـالَ عليـه، بـل أنـك أدركـت أن مـا تملكـه بـين يديـك أغـلى مـن سـباق المقارنـات.

والنـاس بطبيعتهـم لا يحترمـون مَـن يُكثـر الطلـب، لأن كثـرة السـؤال تُسـقط الهيبـة، وتُفقـد الإنسـان قيمتـه في عـين غـيره، بينـما مَـن يعتـز بنفسـه، ويحـاول أن يدبـر أمـوره بوسـائله المتاحـة، يظـل مرفـوع الـرأس، حتـى لـو كان في ضيـق مـن الـرزق، فالـرزق أبوابـه كثـيرة، لكنـه لا يُفتـح لمـن يمـد يـده بـلا عمـل، بـل لمـن يسـعى ويجتهـد، ويصـدق في توكلـه عـلى الله، فقـد يكـون المخـرج في فكـرة لم تخطـر ببالـك قبـل، أو في فرصـة تحتـاج منـك إلى صـبر، أو في مهـارة لم تسـتثمرها بعـد، فحـين تضيـق الدنيـا، لا تضيّقهـا عـلى نفسـك بالسـؤال، بـل وسّـع أفقـك، وابحـث عـن البدائـل، فـالله الـذي خلقـك لم يـتركك بـلا أسـباب، لكنـه يريـد منـك أن تأخـذ بهـا.

[1] البخاري (1427)

مَن بَسطَ يده في العطاء، بُسِط له في الرزق

بعـض العبـاد يُختـارون ليكونـوا أوديـة للفيـض، يُفيـض الله عليهـم لا لأنهـم وحدهـم مسـتحقو العطـاء، بـل لأن أرزاقًـا أخـرى قـد كُتبـت عـلى أيديهـم، نصيـب محتـاجٍ، أو فرحـةَ مكـروب، أو سـترَ عائلـةٍ، قـد كُتـب أن يمـر عبرهـم، فالمـال لا يُبـارَك فيـه بكثرتـه، بـل بـما يُبـذل منـه، وإن اليـد التـي تفيـض بغـير تـردد هـي يـد فهمـت قانـون السـخاء: أن مـا وهبتَـه لله، لا يضيـع، بـل يعـود إليـك أضعافًـا، في رزق، وسَـعة، وطمأنينـة لا تُشـترى.

سـألت أسـماء بنـت أبي بكـر رسـول الله ﷺ فقالـت: ليـس لي مـالٌ إلا مـا يُدخـل عـليّ زوجـي الزبـير بـن العـوّام، ويجعلـه في يـدي للنفقـة، أفأتصـدّق منـه؟ فأجابهـا النبـي ﷺ: «أَنفقِـي، ولا تُحْـصِي، فيُحْـصِيَ اللهُ عليـكِ» [1]

أنفقـي كـما لـو أنـك تؤمنـين أنّ مـا يُبـذل في سـبيل الله هـو الباقـي وحـده، ولا تُمسـكي يـدك خشـية الفقـر، فـإن اليـد إذا اعتـادت الإمسـاك تيبّسـت، وإذا جـفّ نبعهـا جفّـت معهـا البركـة. ومـا يـراه النـاس كثـيرًا قـد يكـون عنـد الله هبـاءً إن دخلـه الريـاء أو شـابَه المـنّ، ومـا يـراه النـاس يسـيرًا قـد يرفعـه الله بصـدق النيـة حتـى يصـير أثقـل مـن الجبـال. فإيـاكِ أن تُقايـضي العطـاء بالمنزلـة أو الشـكر، فـإن مـا تعطينـه إنـما يكتبـه الله لـك لا للنـاس، ومـا تمنعينـه إنـما تحجبينـه عـن نفسـك قبـل غـيرك. فالمحـروم حقًـا ليـس مَـن قـلّ مالـه، بـل مَـن ضاقـت نفسـه عـن أن تجـود، والبخيـل ليـس مَـن خـشي الفقـر، بـل مَـن أعـرض عـن غنـى الـروح حـين جعـل المعـروف حسـابًا يُقـاس لا رسـالة تُـؤدى.

الأرزاق ليسـت أرقامًـا تُـدوَّن في دفاتـر الدنيـا، بـل أنفـاس مـن البركـة تتخلـل حيـاة المعطـي، فتغمـره بفيـض مـن نعـم لا تُقـاس ولا تُـرى، لكـن تُحَـسّ وتُعـاش، قـد يُضيِّـق الله عليـك في المـال، لكنـه يـشرح صـدرك بسـكينة تُغنيـك، أو يُيسِّر لـك مـا اسـتعصى عـلى غـيرك دون جهـد، أو يـزرع لـك في القلـوب وِدًّا يغنيـك عـن اللهـاث وراء النـاس، فالـرزق الحقيقـي لا يختـزل في أمـوال تُحـصى أو ممتلـكات تُحتسـب، بـل هـو أعمـق وأشـمل مـن ذلـك بكثـير، قـد تجـده في كلمـة تُقـال فتـزرع الأمـل وتخفـف الهـم، في ابتسـامةٍ صادقـة تـضيء دروب مَـن حولـك، في الوقـت الـذي تمنحـه لمـن يحتـاج لسـماعك، واليـد التـي تمتـد

١ البخاري (٢٥٩١)، ومسلم (١٠٢٩)

للمسـاعدة دون تـردد، والعطـف الـذي تنشره عـلى قلـب متعـب دون مقابـل، والطمأنينـة التـي تسـتقر في صـدرك حـين تغفـر لمـن أسـاء إليـك، والسـكينة التـي تمـلأ روحـك عندمـا تسـامح نفسـك عـن أخطـاء المـاضي، والشـعور بالرضـا حـين تقـدم معروفًـا بـلا انتظـار جـزاء، والفـرح حـين تـرى مَـن حولـك ينعمـون بسـعادة غمرتهـا بـذور عطائـك.

ولا تعـارض بـين هـذا العطـاء وبـين التـوازن الواجـب في معيشـة الإنسـان، فـلا يُـذم ادخارٌ يقيـك الحاجـة، ولا يُنكـر حُسـن التدبـير، إنـما يُـذمُّ أن تطـول يـدك إلى المـال وتضيـق عـن العطـاء، فإيـاك أن تُحـصي جميلـك، أو تنتظـر عليـه جـزاءً مـن أحـد، واجعـل كل مـا تقدّمـه مـن خـير سريـرةً خالصـة بينـك وبـين ربّـك، فهـو أكـرم مـن أن يُضيـع معروفًـا، وأعـدل مـن أن يُفلـت إحسـانًا بـلا جـزاء.

بين الضياع والنجاة شعرة اسمها «الإرادة»

مـن أقـوال عـلي بـن أبي طالـب : «الفرصـة تمـر مـرَّ السـحاب، فانتهزوهـا إذا أمكنـت» ويقـول الكاتـب الفرنـسي ألفـرد دو موسـيه: «في الحيـاة فـرصٌ لا تُعـوّض، فإمـا أن نغتنمهـا أو ننـدم عليهـا طيلـة العمـر».

مـن المؤلم أن الفـرص لا تُعلـن عـن نفسـها، ولا تـأتي بموعـد، وإنـما تُعـرف بعـد أن تـولّي، حـين نسـترجع مـا كان، ونهمـس في القلـب: «ليتنـي...» ليتنـي بـادرت. ليتنـي اعتـذرت. ليتنـي اجتهـدت. لكنهـا أمنيـات لا تُعيـد الزمـن، ولا تبعـث اللحظـة التـي رحلـت، وإن أعظـم مـا يقتـل الفرصـة ليـس الجهـل بهـا، بـل الـتردد عندهـا، وانتظـار الكـمال قبـل الفعـل، والخـوف مـن الفشـل أكثـر مـن الرغبـة في المحاولـة، فلْنُصـغِ جيـدًا لهمسـات الحيـاة، فقـد تكـون في إحداهـا فرصـة لـن تتكـرر، ولنعلـم أن بعـض النَوافـذ تُفتـح مـرةً واحـدة، ومَـن لم يطُـل منهـا ضاعـت عليـه الشـمس كلهـا. ليـس كل مـا يضيـع يعـود، ولا كل مـا يُهمَـل يُعـوَّض، فالفـرص حـين تمـرُّ لا تُحـدِث ضجّـة، تمـرُّ بصمـتٍ كأنهـا لا تعنيـك، لكنهـا حـين تمـضي، تـترك في القلـب فراغًـا لا يملـؤه نـدم، وفي الـروح غصّـةً لا تنسـاها السـنون.

وضيـاع الفرصـة لا يكـون دائـمًا لأن الأبـواب كانـت مغلقـة، بـل كثـيرًا مـا يكـون لأننـا تلكأنـا عـن طرقهـا، أو أننـا لم نملـك الجـرأة للعبـور حـين فُتِحـت، فالفـرص لا تـدوم طويـلًا، إنهـا لحظـات تمـرُّ في توقيتهـا الدقيـق، فـإن لم نُحسـن التقاطهـا، رحلـت كـما يرحـل القطـار عـن مَـن تأخـر دقيقـة واحـدة عـن الوصـول إلى رصيفـه، وفي الحيـاة اليومية، نسـمع عـن الكثـير ممـن تركـوا الدراسـة أو تخلفـوا عـن مـشروع بسـبب الخـوف مـن الفشـل أو الـتردد، ثـم شـاهدوا مَـن حولهـم يحققـون النجـاح، فيتذكـرون ندمهـم كـدرس لا يُنسـى.

كـم مـن إنسـانٍ أضـاع فرصـة علـمٍ لأنـه اسـتصعب البدايـة، أو أخطـأ في ترتيـب أولوياتـه، وكـم مـن روحٍ ضيّعـت محبـةً صادقـة لأنهـا ظنـت أن الزمـن سـيمنحها وقتًـا أطـول، أو أن القلـب الـذي ينتظـر سـيظل ينتظـر، وكـم مـن عقـلٍ تجاهـل فكـرةً ثمينـة لأنهـا بـدت صغـيرة، فـإذا بهـا تُزهـر في يـد غـيره وتُصبـح مجـدًا، بينـما هـو يحـدّق في أطـلال الحكايـة.

أقمار في ليل الخراب

في العتمـة التـي تخنـق الأنفـاس، تولـد الأقـمار، ليسـت تلـك الأقـمار التـي يعرفهـا النـاس، إنـما أقـمار مـن البـشر، مـن الكلـمات، مـن المواقـف التـي تشـعّ وسـط الفقـد، وتهمـس أن الحيـاة مـا زالـت قـادرة عـلى الإنبـات، هـم الذيـن يقفـون في الرمـاد كأشـجار عنيـدة، يرفعـون ضوءهـم في وجـه الظـلام، ويمـدّون أيديهـم لمـن تـاه، لا يسـألون عـن الطريـق بـل يصنعونـه.

تمـر بنـا أوقـات تُغلـق فيهـا الأبـواب التـي اعتدنـا طرقهـا، وتغيـب فيهـا الملامـح التـي كانـت تؤنسـنا، وتغـدو النفـس غريبـة حتـى عـلى ذاتهـا، لكـنّ البعـض، في قلـب الزلزلة، لا ينهـار، بـل يـزداد جـذرًا وعمقًـا، كأنّ المحنـة عندهـم ليسـت سـقوطًا، بـل نـداءٌ للاسـتواء الداخـلي.

انظـر حولـك، تأمـل جيـدًا: في أبٍ عـاد مـن جنـازة ولـده ليكمـل واجبـات الحيـاة، في أرملةٍ ضحكـت ذات صبـاح لتُطَمئِـن أبناءهـا أن الحيـاة لم تمـت بمـوت أبيهـم، في شـابٍ خـرج مـن غرفـة المستشـفى بعينـين أرهقهـما البـكاء، ثـم مـضى يبحـث عـن عمـل ليبـدأ مـن جديـد، في أمٍّ خبـأت دموعهـا تحـت وشـاحها وهـي تـودّع ابنهـا عـلى بـاب السـفر ثـم عـادت لتطهـو مـا يحـبّ إخوتـه، في عجـوزٍ يجلـس عـلى مقعـد الحديقـة نفسـه الـذي كان يجلـس عليـه مـع رفيـق عمـره يبتسـم للسـماء وكأنهـا تحمـل لـه رسـالة، في صديـقٍ يبتلـع أوجـاع حياتـه ويصفّـق بحـرارة لنجـاح صاحبـه، في مريـضٍ يـزرع شـتلة صغـيرة في فنـاء بيتـه وهـو لا يعلـم إن كان سـيعيش ليراهـا تكـبر، في تلميـذٍ يعيـد المحاولـة بعـد عـشرات الإخفاقـات لأن قلبـه لم يتعلـم الاستسـلام.

تأمـل جيـدًا في أسـيرٍ خـرج مـن زنزانتـه بعـد سـنواتٍ مـن الظـلام، فرفـع رأسـه للشـمس وكأنهـا تحتضنـه لأول مـرة، في نـاجٍ مـن حـربٍ فقـد كل شيء إلا قدرتـه عـلى الابتسـام لطفـلٍ يمـرّ بجـواره، في قلـب أمٍّ غسَّـلت بيديهـا جثـمان صغيرهـا، ثـم رفعـت كفّيهـا تدعـو للنـاس جميعًـا بالرحمـة، في شـيخٍ فقـد بـصره لكنـه ظـلّ يعلّـم الحـروف وكأنـه يـرى النـور في عيـون تلاميـذه، في مبتـور السـاق راح يركـض في سـباق الحيـاة أسرع مـن الأصحـاء، في امـرأةٍ خرجـت مـن بيـتٍ تهشّـم جـداراه بالعنـف لكنهـا حملـت أطفالهـا ومضـت لتبنـي

جـدارًا مـن الأمـان حولهـم، في غريـقٍ نجـا بأعجوبـة مـن المـوج فعـاد ليلقـي حبـال النجـاة لمـن يصرخـون، في مَـن خانتـه الدنيـا كلهـا ومـع ذلـك وقـف يومًـا ليـواسي قلبًـا منكـسرًا.

تأمـل: في نـاجٍ مـن محرقـةٍ التهمـت مدينتـه غَـرَسَ شَـتْلَةً في ذات الرمـاد وكأنّـه يـصرّ أن لـلأرض ذاكـرة خـضراء، في عجـوزٍ فقـد أبنـاءه جميعًـا في حـربٍ لا يفهـم لغتهـا جلـس عـلى أطـلال بيتـه يـوزّع الخبـز عـلى أبنـاء الجـيران، في جريـحٍ بـلا ذراعـين يفتـح ذراعيـه للعـالم بكلماتـه، في امـرأةٍ عـلى كـرسيّ متحـرك تُسـابق الزمـن لتَعلّـم الآخريـن كيـف يكـون الوقـوف، في طبيـبٍ تركـه الوبـاء وحيـدًا فبقـي يسـهر عـلى مـرضى غربـاء كأنهـم أهلـه، في رجـلٍ خـرج مـن السـجن بعـد نصـف عمـرٍ ضـاع ظلـمًا فاختـار أن يـزرع شـجرة في فنـاء الحريـة بـدلًا مـن أن يـزرع الحقـد في قلبـه، في أمٍّ غسـلت دمـاء ابنهـا الشـهيد ثـم رفعـت يديهـا لتربّـت عـلى كتـف جنـدي غريـب.

هـؤلاء ليسـوا عابريـن في زمـنٍ منكـسر، بـل هـم أبطـال الصمـت، جنـود الثبـات، قـلاع في وجـه الأعاصـير، فالثبـات لا يعنـي ألّا تهتـز، بـل أن تظـلّ واقفًـا وإن تهدّمـت الدنيـا مـن حولـك، هكـذا تُحدّثنـا التجـارب حـين تغيـب الشـعارات وتبقـى الحقائـق، وكـم مـن قلـبٍ عَـبَرَ عصـورًا مـن الخـذلان ولم تتيبّـس فيـه الرحمـة! وكـم مـن روحٍ عـبرت المِحـن دون أن تفقـد عزيمتهـا، لأن في داخلهـا نـورًا لم تطفئـه العواصـف!

هـؤلاء هـم الذيـن نعـرف أنهـم قـد نجـوا، لأنهـم لم يسـمحوا لخـراب الخـارج أن يخـرّب دواخلهـم، ولأنهـم أدركـوا أن النجـاة ليسـت أن تخـرج مـن الجحيـم، بـل أن تحمـل معـك شـعلةً تـضيء بهـا دروب مَـن تأخـروا عنـك في الخـروج، فاسـتقامة القلـب لا تنبـع مـن خلـو الحيـاة مـن الألم، بـل مـن عُمـق التجـاوز، لا بـأس إن اهتـزّت الأرض، المهـم أن يبقـى داخلـك راسـخًا، فالحيـاة لا تكشـف أعماقنـا حـين نربـح، بـل حـين نخـسر دون أن نفقـد كرامتنـا، فليـس الثبـات ألا تبكـي، بـل أن تبكـي وأنـت تعـرف أنـك لـن تغـرق.

فكيف نعرف أن الإنسان قد نجا؟

نعرفـه حـين لا يشـتكي رغـم نزفـه، حـين يمـدّ يـده للآخريـن وهـو جريـح، حـين يخـسر دون أن يفقـد كرامتـه، ويُخـذَل دون أن يفقـد إيمانـه بالخـير، نعرفـه حـين يمـشي عـلى شـظايا الأيـام ولا يـزال في عينيـه رجـاء، وفي قلبـه نـور لم تطفئـه العواصـف، نعرفـه مـن طريقـة

نهوضـه لا مـن عـدد مـرّات سـقوطه، مـن سـلامه الداخـلي لا مـن عـدد معاركـه الظاهـرة، نعـرف أنـه قـد نجـا حـين يمـرّ مـن الألم فـلا يتحـوّل إلى مـرارة، حـين يجـرّ خيبتـه خلفـه ولا يسـمح لهـا أن تجرّ قلبـه، حـين تنكسر أحلامـه في يـده، لكنـه لا يطعـن بهـا أحـدًا، بـل يطويهـا برفـق، ويواصـل السـير، نعرفـه مـن عينيـه حـين لا تلمعـان بالزهـو، بل بالسـكينة، مـن صوتـه لا يـصرخ كـي يُسـمَع بـل يصمـت لأنـه فَهِـم، لأنـه رأى، لأنـه صـار يعـرف.

نعـرف أنـه قـد نجـا حـين يتحـدث عـن ماضيـه بـلا ارتجـافٍ في صوتـه، وحـين يتذكـر الخسـارة كـدرس لا كهاويـة، نعـرف أنـه قـد نجـا حـين لا يعـود ينتظـر مـن العـالم أن يكون رحيـمًا، بـل صـار هـو مَـن يمنـح الرحمـة للآخريـن، حـين يختـار أن يسـامح لا ضعفًـا، بـل لأنـه صـار أكـبر مـن الكراهيـة، وحـين يمـد يـده لغـيره وهـو مـا زال يجمـع شـتاته، نعـرف أنـه قـد نجـا حـين ينـام ليـلًا مطمئنًـا أنـه ـ رغـم كل مـا فقـد ـ مـا زال يملـك قلبًـا قـادرًا عـلى الحـب، وعينـين تسـتطيعان أن تريـا جمـالًا صغـيرًا يتفتـح في أقسـى الأيـام.

الناجـي ليـس الـذي لم تؤلمـه الحيـاة، بـل الـذي لم يسـمح لـلألم أن يُفسِـد قلبـه، ليـس الـذي لم يُخـذَل، بـل الـذي لم يُصبِـح خذلانًـا، ليـس الـذي لم يُجـرَح، بـل الـذي لم يتحـوّل إلى جـرحٍ يمـشي عـلى قدمـين.

نعـرف أن الإنسـان قـد نجـا حـين يظـلّ إنسـانًا رغـم كل مـا في الحيـاة مـن دعـوات للوحشـية، حـين حافـظ عـلى دفء روحـه وسـط جليـد التجربـة، حـين يواصـل الإحسـان في عـالمٍ يسـتهزئ بـه، حـين يمـدُّ يـده بسـلام وهـو يعـرف أن الأيـادي قـد لا تمسـكها.

النجـاة ليسـت في الهـرب مـن الألم، بـل في تجـاوزه دون أن تنكـسر النفـس، في أن تظـلّ صادقًـا، نقيًّـا، مُحبًّـا، في عـالم لا يمنـح الـبراءة إلا بثمـن، النجـاة أن تعـود مـن المحنـة بوجـهٍ يشـبهك، لا بوجـهٍ شـوّهته الحـرب.

ينجـو الإنسـان حـين يبكـي بـلا خجـل، ويصمـت بـلا ضعـف، ويقـف وحيـدًا دون أن يشـعر بالوحـدة.

ربما بعد بُعدٍ نلتقي

قـد تسـير الأرواح في دروب متوازيـة لا يلتقـي طرفاهـا، تفصـل بينهـا صحـارى المسـافات، وجبـال التجـارب، وأوديـة الصمـت الطويـل، حتـى يظـن كلٌّ منهـا أن الآخـر صـار نجـمًا بعيـدًا في سـماء لا تُطـال. لكـن القـدر، في لحظـة نـادرة، يطـوي خرائـط الغيـاب، ويجمـع بـين طريقـين كانـا يبـدوان غريبـين عـن بعضهـما، فـإذا بالنظـرة الأولى بعـد العمـر ليسـت نظـرة غريبـين، بـل اعـتراف صامـت: «لقـد كنـتَ هنـا بقلبـي طـوال الوقـت». عندهـا يتكلـم الصمـت بلسـان الذكـرى، وتتنفـس الـروح هواءهـا الأول، وتـدرك أن الزمـن، عـلى قسـوته، لا يملـك أن يمحـو أثـرًا كُتـب في عمـق الوجـدان. وربـما كان اللقـاء بعـد العمـر أجمـل مـن اللقـاء في بدايتـه، لأنـه يـأتي محمَّـلًا بـما يكفـي مـن النضـج ليقـدّر النعمـة، وبـما يكفـي مـن الجـراح ليعـرف أن الفـرص لا تُهـدَر مرتـين.

قـد تلتقـي الـروح بالـروح بعـد عمـر، كأنّ بينهـما موعـدًا كُتـب قبـل أن يُكتـب الزمـن، فـلا المسـافات قـادرة عـلى أن تمنـع، ولا السـنوات قـادرة عـلى أن تُنسـي، وكأنّ الأرواح تعـرف طريقهـا كـما تعـرف الأنهـار مجاريهـا، تعـود إلى مَـن يشـبهها وإن تاهـت، وتنجـذب إلى مـن يحمـل ذات البصمـة الخفيـة وإن غـاب عـن العيـون، قـد تمـرّ بـك وجـوه كثـيرة، لكـنّ روحـك لا ترتجـف إلا أمـام مَـن خُلقَـت لـتراه، أمـام مَـن يحـرك داخلـك ذلـك الصـدى العميـق الـذي لا يُشـبه شـيئًا آخـر، وحـين يحـدث اللقـاء، تشـعر وكأنّ الكـون بـأسره قـد توقّـف لحظـة كـي يسـمح لخطّـين أن يتقاطعـا، ولرحلتـين أن تتعانقـا، ولحلـمٍ قديـم أن ينهـض مـن رمـاده، ليـس شرطًـا أن يكـون اللقـاء حبًّـا أو قرابـة، بـل قـد يكـون معرفـة، أو فهـمًا صامتًـا، أو دفئًـا لا تفسـير لـه، لكنـه يـتركك مختلفًـا إلى الأبـد، فبعـض الأرواح حـين تلتقـي، لا تكتفـي بالسـلام، بـل تفتـح أبوابًـا كنـت تظنهـا مغلقـة، وتذكّـرك أنّـك، مهـما طـال التيـه، سـتجد دائـمًا مَـن يفهمـك بـلا شرح، ومَـن يـراك بـلا قنـاع، ومَـن يعرفـك دون أن تقـول شـيئًا.

قـد تلتقـي الـروح بالـروح بعـد عمـر، فتشـعر وكأنـك قـد عثـرت عـلى نفسـك في هيئـة أخـرى، وكأنّـك تقـف أمـام مـرآة لا تعكـس الملامـح، بـل تعكـس الجوهـر، فـترى في الآخـر صـبرك وأوجاعـك، أفراحـك المنسـية وحنينـك البعيـد، تـرى تلـك النـدوب

التـي لا يراهـا أحـد سـواه، لا يهـم إن كان اللقـاء قصـيرًا أو امتـدّ سـنوات، فالأثـر الـذي يتركـه فيـك يبقـى خالـدًا، كأنـه نَقْـشٌ عـلى قلبـك لا يمحـوه الزمـن. قـد تتحدثـان كثـيرًا أو تصمتـان طويـلًا، لكـن الصمـت بينكـما ليـس فراغًـا، بـل امتـلاءٌ بالفهـم والطمأنينـة، وحـين تفترقـان، لا تشـعر أنّ شـيئًا انكـسر، بـل ستشـعر أنّـك أصبحـت أعمـق، لأنـك عرفـت أنّ الـروح لا تضيـع سُـدى، وأنّ الأقـدار وإن فرّقـت الأجسـاد، فإنهـا تمنـح الأرواح فرصـة للعثـور عـلى مرافئهـا، تلـك اللقـاءات، النـادرة كالمطـر في أرض عطشـى، لا تتكـرر كثـيرًا، لكنهـا حـين تحـدث، تُغـيّر خارطـة القلـب إلى الأبـد، وتـتركك ممتنًّـا أن الحيـاة ـ رغـم قسـوتها ـ منحتـك لحظـة صفـاء كهـذه، لحظـة تُـدرك فيهـا أنّـك لسـت وحـدك في هـذا الكـون.

حـين تلتقـي الـروح بالـروح بعـد عمـر، لا يكـون الأمـر اسـتعادة لمـا مـضى، بـل بـدءًا جديـدًا أكثـر صفـاء، كأن العمـر كلّـه كان طريقًـا طويـلاً كـي تصـل اللحظـة إلى نضجهـا.

الحياة التي نريد

الحيـاة التـي نريـد ليسـت وعـدًا يأتينـا مـن الخـارج، ولا هديـة تنتظرنـا عنـد منعطـف الطريـق، بـل بـذرة صغـيرة نزرعهـا في تربـة أيامنـا، ونسـقيها بدمعنـا وفرحنـا، حتـى تنبـت عـلى ملامحنـا نحـن، لا ملامـح غيرنـا. الحيـاة التـي نريـد هـي الطريـق الـذي قـد لا يكـون أقـصر ولا أسـهل، لكنـه الوحيـد الـذي تشـعر فيـه أن خطـاك لـك، وأن أنفاسـك لا تُسـتَعمَل لتشـييد حلـم أحـد سـواك. الحيـاة التـي نريـد هـي التـي نسـمح فيهـا لأرواحنـا أن تُحلّـق، حتـى وإن كانـت أجسـادنا مقيـدة، ونسـمح فيهـا لقلوبنـا أن تختـار وجهتهـا، حتـى لـو سـار الجميـع في الاتجـاه الآخـر. الحيـاة التـي نريـد هـي رحلـة نختـار فيهـا مَـنْ نكـون، وكيـف نكـون، وسـط زحـام الأصـوات التـي تُحـاول أن تُمـلي علينـا دورًا لا يشـبهنا. الحيـاة التـي نريـد هـي الحيـاة التـي نحمـل فيهـا قلوبنـا حـرةً مـن القيـد، وعقولنـا يقظـةً مـن الغفلـة، وأرواحنـا ماضيـةً نحـو مـا يليـق بهـا . الحيـاة التـي نريـد ليسـت حلـمًا مؤجَّـلًا إلى غـدٍ مجهـول، ولا خيـالًا معلقًـا عـلى جـدران الأمـاني، بـل فعـلٌ يومـيّ، ننسـج فيـه مـن قراراتنـا الصغـيرة مسـتقبلًا يشـبهنا. الحيـاة التـي نريـد لا تُقـاس بطـول الأعـوام، بـل بعمـق اللحظـات التـي عشـناها، تلـك التـي شـعرنا فيهـا أننـا أحيـاء، لأننـا اخترنـا ـ رغـم كل شيء ـ أن نكـون نحـن. الحيـاة التـي نريـد هـي الحيـاة التـي نُـدرك فيهـا، مـع كل جـرح وابتسـامة، أننـا لم نـأتِ إلى الدنيـا لنكـون نسـخة باهتـة مـن حلـم أحـد، بـل لنكتـب قصتنـا الخاصـة عـلى ورق الزمـن، مهـما اهـترأ الـورق، ومهـما لطختـه العواصـف.

ولكن يبقى السؤال: ماذا ينقصنا لنعيش الحياة التي نريد؟

ربـما ينقصنـا أن نـدرك أن الحيـاة التـي نريدهـا لا تُمنـح، بـل تُنتـزع، ولا تُنتظـر، بـل تُصنـع، وأنهـا تبـدأ مـن قـرار داخـلي لا مـن ظـرف خارجـي، وأن نعـي أن الحريـة في الاختيـار لا تعنـي التمـرد الأعمـى، بـل التوافـق بـين مـا نؤمـن بـه ومـا نحيـاه، وكـما قيـل: «إذا لم تكـن حياتـك مـن صنـع يديـك، فسـتعيش دومًـا في قالـبٍ صبَّـه غـيرك لـك»

ينقصنـا الجـرأة عـلى الفعـل قبـل التفكـير المفـرط، والقناعـة بـأن الكـمال ليـس شرطًـا للتحـرك، بـل إن خطـوة واحـدة واثقـة قـد تقلـب مسـار العمـر، أن نكـون صادقـين مـع أنفسـنا بـما نحتاجـه فعـلًا لا ترفًـا، فنواجـه الحقيقـة بـلا رتـوش، نعـترف بـما نريـد، ونفصل

بـين رغباتنـا الشـخصية وأحـلام الآخريـن التـي ورثناهـا أو تبنيناهـا بـلا تمحيـص، فكثـيرًا مــا نركــض وراء أوهــام المجتمــع وتوقعاتــه، وننســى أن الحيــاة التــي نســتحقها ليســت تلـك التـي تُفـرض علينـا أو تُسـوّق لنـا عـلى أنهـا الأفضـل.

ينقصنـا اليقـين بـأن لـكلّ روح بصمتهـا، ولـكلّ قلـب نبضًـا خاصًـا بـه لا يشـبه سـواه. فليسـت فرادتنـا في مـا نُجيـده فحسـب، بـل في تلـك الطاقـة الكامنـة التـي تنهـض بنـا حـين يخذلنـا العـالم، وفي ذلـك البريـق الخفـيّ الـذي لا يـراه أحـد، لكنـه يـضيء لنـا الطريـق.

ينقصنـا أن نؤمـن بـأن مـا نملكـه كافٍ لنبـدأ، وأن نقصنـا ليـس عجـزًا، بـل لبنـة أولى في بناء الـذات، يُخفـي في داخلـه القـدرة عـلى البلـوغ، ويمنحنـا فرصـةً لنـرى أنفسـنا كـما ينبغـي أن نكــون، لا كــما وُلدنــا، وأننــا لا نحتــاج أن نكــون نســخة مثاليــة، بــل نســخة واعيــة، تحـترم ضعفهـا كـما تحتفـي بقوتهـا، تمـشي ببـطء، لكـن بخطـى ثابتـة تعـرف وجهتهـا، ولـو لم يعرفهـا مَـن حولهـا، وحـين نفتقـد هـذا الإيـمان، لا نصبـح عاجزيـن فحسـب، بـل غربـاء عــن أنفســنا، نلهــث خلــف نجاحــات الآخريــن ونقيــس ذواتنــا بمقاييــس لا تُشــبهنا، فتمـضي أعمارنـا في تقليـدٍ لا يثمـر، وفي سـباقٍ لا نُـدرك نهايتـه.

ينقصنـا شيء مـن الصـبر أمـام عواصـف الحيـاة، فالحيـاة لا تُبنـى في يـومٍ واحـد، ولا تُصنـع الفـرص بلمـح البـصر، بـل هـي رحلـة طويلـة تتطلـب ثباتًـا للنفـس، وجلـدًا في وجـه المصاعـب، وثقـة تامـة بـأن كل مـا نمـر بـه جـزء مـن مخطـط أسـمى لا نـرى كامـل معالمـه.

ينقصنــا الجــرأة عــلى التحــرر مــن قيــود المــاضي، وقطــع الروابــط التــي تثقلنــا دون فائــدة، ســواء كانــت علاقــات ســامة أو ذكريــات مؤلمــة أو أفــكارًا عفــى عليهــا الزمــن، هــذه الجـرأة التـي تمنحنـا فسـحة للتجـدد، وراحـة القلـب مـن أنـين الذكريـات، وحريـة القـرار، لنبــدأ صفحــة جديــدة نكتبهــا نحــن بأيدينــا، لا وفقًــا لمــا قيــل لنــا أو توقعــه الآخــرون.

ينقصنـا صـدق الرغبـة، فحـين نركـض خلـف أحـلامٍ مسـتعارة لا تُشـبهنا، ونقيس سـعادتنا بمقاييـس غيرنـا، نغـترب عـن أنفسـنا شـيئًا فشـيئًا، حتـى نصبـح غربـاء في حياتنـا، نعيـش عــلى هامــش مــا نريــده حقًــا، فالحيــاة التــي تُبنــى عــلى صــدق التوجّــه لا تشــبه صخــب المقارنــات، بــل تنبــت في الأرض التــي حرثناهــا بإرادتنــا، وســقيناها مــن عمــق شــغفنا، فتنبـت عـلى مهـل، لكنهـا حـين تزهـر، تشـبهنا بـكل تفاصيلهـا.

ينقصنـا أن نؤمـن بـأن الرضـا لا يعني القبـول بالقليـل، بـل هـو تـوازن بـين الطمـوح والقناعـة، بـين السـعي والتسـليم، أن نسـعى دون أن نُسـتنزف، وأن نحلـم دون أن نُـسرف، فالرضـا لا يخمـد نـار الطمـوح، لكنـه يهـدئ اضطـراب القلـب دون أن يُطفـئ شـغف الـروح، ونحـن نُجاهـد لنبلـغ مـا نحـب، أو نتعلـم كيـف نحـب مـا بلغنـاه.

ينقصنـا أن نُعيـد تعريـف النجـاح وفـق معاييرنـا لا وفـق مقاييـس الآخريـن، أن نـدرك أن بعـض الأهـداف التـي لم نبلغهـا ربـما لم تكـن تناسـب أرواحنـا، وأن الطـرق التـي ضلّتنـا مـا كانـت إلا دلائـل خفيـة لتصحيـح المسـار، فكـم مـن ضيـاع ظاهـري كان في حقيقتـه نجـاة، وكـم مـن تأخـر أنقذنـا مـن تـسرّع لا نعـرف كـم كان سـيكلفنا لـو وقـع.

ينقصنـا أن نصغـي إلى أرواحنـا في لحظـة الصمـت، أن نلتفـت لمـا يهـمّ حقًـا، لا لمـا يلمـع فقـط، أن نعيـد الترتيـب، ونُسـكت الضجيـج الـذي تُحدثـه المقارنـات، فالحيـاة ليسـت سـباقًا مـع الزمـن، ولا منافسـة مـع الآخرين،بـل هـي سـيرٌ متـأنٍ عـلى خيـط رفيـع بـين مـا نحـن عليـه ومـا تنشـده أرواحنـا في الغـد.

ينقصنـا اليقـين بـأن الحيـاة ليسـت ميـدان سـباق، بـل رحلـة تسـتحق أن نعيشـها بوعـي وطمأنينـة، ليسـت صراعًـا مـع الزمـن، بـل مرافقـة لـه بخطـى تُـدرك أن لـكل مرحلـة نضجهـا، ولـكل حلـم أوانـه، والتسـليم بـأن لبعـض الأحـلام توقيتًـا لا يـأتي عـلى عجـل.

ينقصنـا العيـش في اللحظـة، لا عـلى هامشـها، أن نكـون حاضريـن بكامـل قلوبنـا لا مُعلّقين عـلى موعـدٍ غامـض للسـعادة، أن نحـبّ دون أن نقيـس العطـاء بالضمانات ودون أن نخشـى الفقـد، وأن ننجـز لا لمديـحٍ عابـر، بـل إكرامًـا لمـا نحملـه في داخلنـا مـن شـغف وقـدرة.

ينقصنـا اللـين مـع أنفسـنا، أن نمنـح قلوبنـا فسـحةً مـن الرحمـة، أن نُربّـت عـلى قلوبنـا بـدلًا مـن أن نجلدهـا كلـما عثـرت، وأن نـدرك أن الكـمال ليـس شرطًـا للحـب ولا للرضـا، بـل يكفـي أن نحـاول، وأن نواصـل، وأن نجتهـد لنظـل عـلى قيـد الأمـل لا الحيـاة .

ينقصنـا يقـينٌ بـأن الفـرح لا يـدوم بـلا توقـف، ولا الحـزن يُحكـم قبضتـه إلى الأبـد، بـل هي موجـات تتعاقـب، تأخـذ وتعطـي، ترهـق وتريـح، وإن كنـا نبحـث عـن السـكينة وسـط الحيـاة المتسـارعة، فعلينـا أن نـدرك أن السـكون لا يعنـي الجمـود، واطمئـن، فـما يخفـق الآن

بعنـف، سـيهدأ قريبًـا، ومـا يضطـرب في داخلـك اليـوم، سـيجد طريقـه إلى الطمأنينـة غـدًا، فمهـما اشـتدت العواصـف في صـدرك واضطربـت أفـكارك، سـيأتي وقـت تهـدأ فيـه روحـك ويسـتكين وجدانـك.

ونقصنـا الأكـبر قـد يكـون في تحريـر النفـس مـن قيـود الخـوف والشـك، وتخليـص القلـب مـن أسر المـاضي، حتـى نمنـح أنفسـنا فرصـةً حقيقيـة للحيـاة بـلا تـردد، أن نتقبـل أنفسـنا بـما يكفـي لنختـار لهـا حيـاة تليـق بهـا، لا أن نرمـي بهـا في زحـام اللاجـدوى، أن نمنحهـا وقتًـا، وعـذرًا، ورِفقًـا، فـلا نجلدهـا إن تعثّـرت، ولا نهجرهـا إن خابـت، بـل نُمسـك بيدهـا ونقـول: «سـنصل، فقـط دعينـا نلتمـس الطريـق»، حينهـا فقـط، نصنـع لأنفسـنا حيـاة لا ننـدم عليهـا، بـل نفتخـر بهـا في كل لحظـة نعيشـها.

إن مـا ينقصنـا ليـس المـال وحـده، ولا الفـرص، ولا كثـرة العلاقـات؛ بـل ينقصنـا التصالـح مـع ذواتنـا، والقـدرة عـلى رؤيـة مـا نملـك بعـين الشـاكر لا بعـين الناقـم، فالحيـاة التـي نريدهـا ليسـت مسـتحيلة، لكنهـا تحتـاج نفوسًـا تعـرف متـى تـرضى، ومتـى تسـعى، ومتـى تتـوكل، ومتـى تُسـلِّم.

خاتمة

قبـل أن نطـوي صفحـات هـذا الكتـاب، علينـا أن نتذكّـر أنّـه لم يكـن مجـرّد مـرآة نطـلّ منهـا عـلى تفاصيـل الحيـاة وحدهـا، بـل كان في جوهـره نافذة عدنـا عبرهـا إلى أنفسـنا أولًا. تأملنـا ملامـح أرواحنـا قبـل أن نتأمـل وجـوه الآخريـن، وقرأنـا أسـطر ضعفنـا وقوتنـا قبل أن نقـرأ تقلبـات الزمـن، وعرفنـا أن الطريـق إلى فهـم العـالم يبـدأ مـن الداخـل، لا مـن الخـارج. فـما الحيـاة إلا امتـداد لأعيننـا، إن أظلمـت مـن الداخـل رأينـا كل شيء معتـمًا، وإن أشرقـت فيهـا بارقـة صـدق، انعكـس عـلى الوجـود نـورًا لا يخبـو.

إن صفحـات العمـر لا تُطـوى بالسـنوات وحدهـا، بـل بـما تعلّمنـاه مـن إصغـاء خفـيّ لأنفاسـنا، ومـا إن نغلـق هـذا الكتـاب، حتـى نـدرك أنّ أجمـل مـا حملـه لم يكـن الحكايـات التـي رواهـا، بـل المـرآة التـي وضعهـا في أيدينـا، لنـرى أنفسـنا أولًا بصـدق، فنسـتطيع بعدهـا أن نـرى الحيـاة كـما هـي، لا كـما توهّمناهـا. هـذا الكتـاب لم يكـن عـن الحيـاة كـما ينبغـي أن تكـون، بـل كـما هـي، بأثقالهـا وخيباتهـا، بأحلامهـا التـي لم تكتمـل، وانتصاراتهـا الصغـيرة التـي نغفـل عنهـا كثـيرًا، فالحيـاة لا تُفهـم دفعـة واحـدة، بـل تُفـك شـفراتها بالمـضي فيهـا، خطـوةً تلـو الأخـرى، وجـرأةً بعـد أخـرى، حتـى نلتقـي بذواتنـا كـما يليـق بهـا أن تكـون: صادقـة، واعيـة، مسـتمرة... رغـم كل شيء.

ربـما كان هـذا الكتـاب صـوت الذيـن لم تمنحهـم الحيـاة مـا أرادوا، لكنهـم مـع ذلـك لم يكفّـوا عـن المحاولـة، وقـد لا نجـد دائـمًا إجابـاتٍ لـكل مـا يـدور داخلنـا مـن تسـاؤلات، لكننـا نسـتطيع أن نحيـا بأسـئلة واعيـة، تسـألنا قبـل أن نسـأل الحيـاة، وتوقظنـا قبـل أن تخذلنـا الوقـت، ومـا السـعي لفهـم الحيـاة إلا سـعي لفهـم أنفسـنا، ومـا محاولـة الإمسـاك بالخيـط الرفيـع بـين مـا نريـده ومـا نسـتطيع، إلا تمريـن عـلى العيـش بصـدق.

ليسـت الغايـة أن نبلـغ الكـمال، بـل أن نحيـا بوعـي، وأن نُحـب برفـق، وأن نخسر بكرامة، وأن نسـتمر مهـما خذلتنـا الأيـام بإيـمانٍ أن لـكل شيء ميقاتـه، ولـكل نفـسٍ مرهقـة نُـورًا يسـطع مـن حيـث لا تحتسـب.

الفهرس